

الفساد الأخلاقي والاجتماعي
وأثره في إضعاف الدول
وسقوطها

(دولة المماليك الجراكسة أنموذجاً)

الطبعة الأولى

1446 هـ

2025 م

اسم الكتاب: الفساد الأخلاقي والاجتماعي وأثره في إضعاف الدول وسقوطها
التأليف: د. أبوبكر جلال الدين
موضوع الكتاب: حضاري
عدد الصفحات: 320 صفحة
عدد الملازم: 20 ملزمة
مقاس الكتاب: 17x24
عدد الطباعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2024 / 30400
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 8796 - 17 - 9



يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

دار البشير للثقافة والعلوم



elbasheer.marketing@gmail.com

elbasheernashr@gmail.com



01012355714 - 01152806533

الفساد الأخلاقي والاجتماعي وأثره في إضعاف الدول وسقوطها

(دولة المماليك الجراكسة أنموذجاً)

تأليف

د. أبوبكر جلال الدين

دار النشر للثقافة والعلوم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

يعتبر عنصر الأخلاق من أهم العناصر الرئيسة في بقاء المجتمعات وضمان استمراريتها ونجاحها وتميزها بين الأمم والمجتمعات الأخرى، وإنما الأمم الأخلاق مابقيت، والمجتمع هو أساس الدولة وعقل الأمة وقلبها النابض، والأخلاق هي المضغة التي تتوسط قلب الأمة والدولة فإن صلحت صلح حال الأمة والدولة والمجتمع، وإن فسدت فسد حالهم وابتلاهم الله بالسنين والأوبئة وشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وهنا يكون الامتحان الحق لحسن الأخلاق والأيمان، فالإسلام دين الأخلاق الرفيعة والعدالة الاجتماعية والحفاظ على حقوق الناس في العيش الكريم والمواطنة تحت ظل الدولة الإسلامية، بغض النظر عن اختلاف أعراقهم وأشكالهم وأجناسهم وأديانهم ومستوياتهم المادية، فلا صلاح ولا تقدم ولا رفعة لأي أمة أو دولة أو مجتمع فاسد الأخلاق ظالم متعدي على حقوق الناس بغير وجه حق، ومن واجب العلماء والفقهاء التصدي لبوادر الفساد في المجتمع لاسيما فساد الحكام، ولكن إذا فسدت أخلاق الحكام والعلماء معاً فسدت أخلاق الرعية وكافة فئات المجتمع والناس على دين ملوكهم إلا من رحم ربي، وذلك نذيرٌ بزوال تلك الأمة أو الدولة ولو بعد حين، والله لا يطيل أمد الدولة الظالمة حتى ولو كانت مسلمة. وقد شهدت الأمة الإسلامية حالات من الفتور والضعف ومرت بهنات شديدة خلال العصور الوسطى، ومن أشد تلك الهنات التي مرت بها آنئذ، وكان جُلها مرتبط بحالات الوهن والضعف والجهل والفساد الأخلاقي التي تعترى مجتمعات الأمة بين الفينة والأخرى، فكان سقوط الخلافة العباسية على يد المغول وقبله الحملات الصليبية على الشام ومصر، ثم الغزو التيموري لبلاد العراق والشام والأناضول، بالإضافة إلى سقوط الأندلس وهو من أعظم النكبات التي تعرضت لها الأمة الإسلامية، حيث تبع ذلك تسلط متطرفي نصارى الأسبان والبرتغال على البلدان والبحر الإسلامية والعالمية وتعذيب وقتل الناس وإقامة مجازر إبادة جماعية تحت غطاء ومسمى حركة الكشوف الجغرافية، ثم أخيراً ظهور

الدعوة الشيعية الصفوية بزعامة إسماعيل الصفوي الذي سعى لاجتياح البلاد الإسلامية السنية وفرض المذهب الشيعي عليهم قهراً بحد السيف، أما دولة المماليك آنئذ فقد كانت الممثل الرسمي للخلافة العباسية وحامي حمى الأمة الإسلامية والأراضي المقدسة، ذلك مما أكسبها مكانة عليّة في نفوس المسلمين، إلا أنّ دوام الحال من المحال فقد تغير حال المماليك وانصرفوا عن نهج أسلافهم الأوائل في الجهاد وحماية الأمة، وأصبحوا من طلاب المال والثروات والسلطة ففسدت أخلاقهم وفشت الرذائل والفواحش في مجتمعاتهم، ومن أهم مظاهر الفساد الأخلاقي التي فشت في مجتمع المماليك ولم يكونوا يتورعون عن المجاهرة بها، ظواهر الرشوة والبدل والبرطلة والاحتكار والسُّخرة، بالإضافة إلى بعض الظواهر التي يرتبط شيوعها بشكل زائد في المجتمعات بالحالة المادية سواء كان غناء وترفاً باذخاً أو عوز وغلاء وفقير مدقع أمثال ظواهر السرقة واللصوصية وقطع الطرق والزنا واللواط والسحاق وتعاطي وتداول الخمر والحشيش وكل ذلك أحياناً يتم بعلم السلطات بل وبشيء من التقنين من قبل الدولة، وذلك مما جعلها تترنح في دركات الفساد الأخلاقي حتى استشرى الضعف والفساد في جميع أطرافها، فمقتها الرعية وبدأوا يثورون على المماليك، كما حدثت انشقاقات وتحزبات في طبقة المماليك الحاكمة وكذلك في بقية طبقات المجتمع، وقد ازداد مقت الناس للمماليك لكثرة ماتعرضوا له من ظلم واضطهاد وسوء معاملة من المماليك وأكلهم لحقوق الناس بالباطل، كما تبين لهم ضعف الدولة عن الذب والدفاع عن المسلمين من خطر غزو البرتغال والأسبان الذي بدأ يتربص بالبلاد الإسلامية، ذلك مما جعل أنظار الأمة تتحول عنهم وتتعلق من بعد الله سبحانه وتعالى بالعثمانيين تلك الدولة الفتية القوية المجاهدة في بلاد الروم وحامية الثغور الإسلامية آنئذ، لاسيما بعد هزيمتهم للشيعية الصفويين ودحض فكرهم الفاسد ومذهبهم الشيعي الضال الذين كانوا يتطلعون لنشره في كافة البلدان الإسلامية، وقد ثبت للعثمانيين تواطؤ المماليك مع الصفويين ضدهم، فما كان منهم إلا الدخول إلى الشام ومصر وانتزاعها منهم بينما دخلت الحجاز طوعاً تحت سلطانهم، وبذلك تصدر العثمانيون ريادة العالم الإسلامي لاسيما بعد انتقال مقاليد الخلافة إليهم وكان ذلك في عام 1517م.

الفصل الأول

مفهوم الأخلاق وحقوق

الإنسان في الإسلام

1.1 الأخلاق في الإسلام:

1.1.1 تعريف الأخلاق:

الأخلاق في اللغة، هي جمع خُلِقَ وتعنى الطبع والسجية والمروءة،⁽¹⁾ والخُلُق والخُلُق أصلها واحد، بيد أن الخُلُق قد خُصَّ بالأشكال والصور والهيئات المرئية والمدركة بالأبصار، أما الخُلُق فقد خُصَّ بالخصال والسجايا المدركة بالبصيرة،⁽²⁾ والأخلاق مجموعة من الطباع الموهوبة أو المكتسوبة التي تتأصل في النفس البشرية فتصير جزءاً منها، وقد تأتي الأخلاق بمعنى الدين كما ورد في تفسير ابن عباس لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾،⁽³⁾ أي على دين سامي عظيم،⁽⁴⁾ أما الأخلاق في الاصطلاح فهي عبارة عن هيئة أو حالة في النفس راسخة وثابته تنبع عنها الأفعال خيراً وشرها بلا حاجة إلى تفكير أو روية، فإن كانت تلك الأفعال الصادرة محمودة بين الناس وجائزة شرعاً وعقلاً سُميت خُلُقاً حسناً، وإذا كانت الأفعال الصادرة عنها سيئة وقبيحة شرعاً وعقلاً سُميت خُلُقاً سيئاً،⁽⁵⁾ وكذلك عرفها ابن

(1) ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي الأنصاري، لسان العرب، ط3، ج10، دار صادر، بيروت، 1414هـ، ص86.

(2) الراغب الاصفهاني: أبو القاسم الحسين محمد بن الفضل، الذريعة إلى مكارم الشريعة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1980م، ص39.

(3) سورة القلم: الآية 4.

(4) ابن كثير: أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم «تفسير ابن كثير»، ط2، ج8، دار طيبة، الرياض، 1999م، ص206.

(5) ابن مسكويه: أبو علي أحمد بن محمد، تهذيب الأخلاق في التربية، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985م، ص41.

القيم بأنها عبارة عن هيئة مكونة من بعض العلوم الصادقة والإرادات الزكية والأعمال الظاهرة والباطنة، تتوافق مع المصلحة والعدل والحكمة، بالإضافة إلى أقوال وأفعال تتطابق مع الحق، فتكتسب بها النفس من الأخلاق أزكاها وأشرفها وأفضلها مرتبه،⁽¹⁾ أما علم الأخلاق فهو عبارة عن مجموعة من القواعد والمبادئ السلوكية التي تنظم السلوك الإنساني وفق آداب وقيم دينية واجتماعية معينة تحدد نسق علاقة الفرد بالآخرين على النحو الذي يحقق من خلاله الغاية المنشودة من وجوده في المجتمع على أحسن وأتم وأكمل وجه.⁽²⁾

1.1.2 مفهوم الأخلاق في الإسلام:

لقد حث الإسلام على مكارم الأخلاق ووضح أهميتها في حياة الإنسان ومكانتها في رسالته بصفة خاصة وفي الأديان السماوية بصفة عامة، وذلك من خلال الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة وأقوال الصحابة والسلف الصالح رضي الله عنهم أجمعين التي تحض على نشر الفضيلة والخير وحسن الخلق وتنهى عن ارتكاب الفواحش والردائل والموبقات، ومكارم الأخلاق ضرورة من ضرورات الحياة ولايستغني عنها أي مجتمع من المجتمعات لاسيما المجتمع الإسلامي، الذي يقوم على الإخاء والتراحم والإيثار والتعاون وحب الخير للناس، وكل ذلك من سمات مكارم الأخلاق فهي تمثل الأساس في تقويم كل العلاقات الإنسانية سواء كانت إجتماعية أو سياسية أو تجارية أو علمية أو غير ذلك، فإذا فُقدت الأخلاق فسدت العلاقات وتفككت المجتمعات وانهارت أركانها، حيث يتعدى الناس على حقوق بعضهم البعض، ولتجنب ذلك أكد الإسلام على مكارم الأخلاق والفضيلة وعمل الخير والإبتعاد عن الشر وأذى الناس، وجعل كل ذلك منوطاً بالثواب والعقاب في الدنيا والآخرة،⁽³⁾ قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾⁽⁴⁾ وذلك ليكون الأجر والثواب حافزاً لفعل الخير ودافعاً

(1) ابن القيم: شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن قيم الجوزية الدمشقي، بدائع التفسير الجامع لما فسره الإمام ابن قيم الجوزية، ج4، دار ابن الجوزي، الدمام، 1427هـ، ص509.

(2) يالجن: مقداد، التربية الأخلاقية الإسلامية، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، 1996م، ص75.

(3) كايد قرعوش وآخرون: الأخلاق في الإسلام، دار المناهج، عمان، 2001م، ص58.

(4) سورة هود: الآية 117.

للتنافس فيه، وكذلك في قوله تعالى: ﴿خَتَمُهُمْ مَسْكًَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَفَّسْ الْمُتَنَفِّسُونَ﴾ (1) أي يتسابقوا على فعل الخيرات والطاعات لكي يفوزوا بنعيم الآخرة الدائم الذي لا ينقطع، (2) وقد تتبع القرآن الكريم جميع وسائل الإلزام الأخلاقي التي تتمثل في دعم الوازع الديني والعقل والترغيب والترهيب ثم الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة، وذلك من أجل الوصول إلى عقل وضمير المؤمن ومساعدته على ضبط نفسه وإشباع غرائزه بطرق سليمة تتوافق مع ضوابط أخلاقيات الشريعة الإسلامية من دون إفراط ولا تفريط، فالإسلام دين الوسطية والإعتدال ولا تخرج أخلاقياته عن اطار المثالية الواقعية التي تتناسب مع إمكانيات الإنسان الجسدية والروحية، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (3) كما تحفظ له حق الإستمتاع بنصيبه من الحياة الدنيا والتلذذ بعمل الخير والطاعات حتى يسلم من عذاب الآخرة، قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (4) أي الاستغناء عن الحرام في الحياة الدنيا بما أحل الله تعالى من الطعام والشراب والأزواج وغيره من متاع الحياة والإكتفاء به، وتسخير كل ذلك لنيل الثواب في الآخرة، (5) وقد تربى الرعيل الأول من جيل الصحابة وكبار التابعين وفقاً لهذه المعايير والمبادئ الأخلاقية السامية التي تشبعوا بها من مشكاة النبوة الشريفة مباشرة، ففتحت عليهم البلاد وخضعت لهم العباد واتتهم الدنيا سعياً فزهدوا فيها طمعاً في مرضاة الله وما وعدهم به من نعيم في الدار الآخرة. (6)

(1) سورة المطففين: الآية 26.

(2) ابن كثير: مصدر سابق، ج 8، ص 352.

(3) سورة البقرة: الآية 143.

(4) سورة القصص: الآية 77.

(5) ابن أبي حاتم: الإمام الحافظ عبدالرحمن بن محمد بن إدريس الرازي، تفسير القرآن العظيم، ج 9، مكتبة مصطفى نزار الباز، الرياض، 1997م، ص 310.

(6) الخراز: خالد بن جمعة بن عثمان، موسوعة الأخلاق، مكتبة أهل الأثر للنشر والتوزيع، الكويت، 2009، ص 27.

وتتكون الأخلاق في مفهومها الإسلامي من جزئين الفطرة والاكْتِسَاب، فمنها ما يُجِبَل عليه الناس بالفطرة، كما ورد في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّيْلَ لِحَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾⁽¹⁾، أي أن الله جل وعلا ساوى بين الناس كافة في سلامة الفطرة واستقامتها مؤمنين بوحداية الخالق ﷻ، فلا يُخْلَقُ أحد إلا وهو مجبولاً عليها، أما الدين القيم فهو الإسلام، ويُستدل على ذلك من السنة النبوية بحديث أبي هريرة ؓ، أن النبي ﷺ قال: «ما من مولود يولد إلا على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء» أخرجه مسلم،⁽²⁾ وكذلك كما روى عبد الله بن مسعود ؓ أن النبي ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يُعرب عنه لسانه، فإذا عبر عنه لسانه إما شاكراً وإما كفوراً» أخرجه الإمام أحمد،⁽³⁾ وكذلك من الأخلاق ما هو مكتسب حيث يمكن للإنسان أن يتكلف الخلق ويتخلق به حتى يؤتاه، فيصبح سجيةً وطبعاً فيه،⁽⁴⁾ ولو كان الخلق كله فطري لما اختلفت طبائع الناس وأخلاقهم، لذلك نجد أن الشريعة الإسلامية قد حثت على مجاهدة النفس بالموعظة الحسنة وتتبع الفطرة السليمة طلباً للفلاح في الدارين، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾⁽⁵⁾، فقد ورد أن النفس الإنسانية ناقصة بالفعل، بيد أنها منطوية على إمكانية الترقى والكمال، قابلة للتربية وتهذيب الأخلاق بالتطبيع والتزود بالعلم والمعرفة، وبذلك تكون تسوية النفس من فعل الخالق، أما تزكيتها وتهذيبها فهي من فعل المخلوق،⁽⁶⁾ ومما ورد في السنة النبوية عن ابن عباس ؓ قال: أن رسول الله ﷺ قال لأشج

(1) سورة الروم: الآية 30.

(2) ابن كثير: مصدر سابق، ج 6، ص 282_283.

(3) الإمام أحمد: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، المسند، ج 3، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2001م، ص 353.

(4) ابن قيم الجوزية: شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن قيم الجوزية الدمشقي، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ج 3، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1996م، ص 315.

(5) سورة الشمس: الآية 7-10.

(6) الغزالي: أبو حامد محمد بن محمد الطوسي، إحياء علوم الدين، ج 3، دار المعرفة، بيروت، 1963م، ص 88.

عبد القيس: «إن فيك خلّتين يجبهما الله، الحلم والأناة، فقال: يارسول الله، أنا أتخلق بهما أم الله جبلني عليهما؟ فقال ﷺ: بل الله جبلك عليهما، فقال: الحمد لله الذي جبلني على خلّتين يجبهما الله ورسوله» أخرجه الطبراني،⁽¹⁾ ويستدل بهذا الحديث على أن الأخلاق يمكن أن تكون طبعاً بالفطرة أو تكون مكتسبةً بالتطبع، إلا أن الطبع أفضل من التطبع لأن الخلق الحسن إذا كان سجيةً في الإنسان فهذا يغنيه عن التكلف والعناء في طلبه لأنه مجبول عليه بالفطرة، بيد أن هذا فضل من الله جل وعلا يخص به من يشاء من عباده.⁽²⁾

1.2 مصادر الأخلاق فيه الاسلام:

وهي تتمثل في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وأقوال الصحابة والسلف الصالح من علماء وأدباء المسلمين.

1.2.1 مصادر الأخلاق من القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾،⁽³⁾ أي أن هذا القرآن يهدي للتي هي أعدل وأعلى من العقائد والأخلاق والأعمال الصالحة، فمن تبع ذلك الهدي القرآني يكن أكمل الناس وأقومهم وأفضلهم في جميع شؤون دينه ودنياه،⁽⁴⁾ وأيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾،⁽⁵⁾ ومما ذكر في تفسير هذه الآية أنه ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يستحسنونه ويعملون به إلا أمر الله به، ولا من خلق سيئ كانوا يتعايرونه بينهم إلا ونهى عنه وقدم فيه، فكان النهي عن سفاسف الأمور وقبيح الأخلاق ومذمومها، وذكر أن عبدالله بن

(1) الطبراني: مصدر سابق، ج 5، ص 275.

(2) العثيمين: محمد بن صالح، مكارم الأخلاق، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1428هـ، ص 272.

(3) سورة الإسراء: الآية 9.

(4) السعدي: عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان «تفسير

السعدي»، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2000م، ص 454

(5) سورة النحل: الآية 91.

مسعود رضي الله عنه أنه قال: إن هذه الآية هي أجمع آية في القرآن الكريم،⁽¹⁾ وأيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾،⁽²⁾ وقد نزلت هذه الآية في عبد الله بن مسعود ومعه رهط من الصحابة، وذلك أن رجلاً من اليهود قال لهم: «نحن أفضل منكم وديننا خير مما تدعوننا إليه»، فأنزل الله تعالى هذه الآية مُثْنِيًا ومادحاً لهذه الأمة ومخبراً بأنها خير أمة أخرجت للناس، وذلك بكمال إيمانها وكريم أخلاقها وبتكميلها غيرها من الأمم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومما يؤكد على ذلك من السنة النبوية قوله صلى الله عليه وسلم: «إنكم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله صلى الله عليه وسلم»،⁽³⁾ وكذلك ورد في القرآن الكريم على لسان لقمان الحكيم موصياً ابنه بالتمسك بالدين وإظهار التذلل والتواضع لله تعالى في العمل، والتحلي بالأخلاق الحسنة بالإحسان إلى الناس في معاملتهم، قال تعالى: ﴿يَبْنِيْ أَقْرِبَ الصَّالُوَّةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ١٧﴾ وَلَا تَصْغِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمَسَّ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ١٨ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ١٩﴾،⁽⁴⁾ وقد جاء في تفسير هذه الآيات الأمر والحض على تعظيم العبادات والطاعات والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويتمثل ذلك في زجر النفس عن المناكر والصبر على المكاره، وحضها على الطاعات والفضائل ومكارم الأخلاق، وعدم تصغير الخد للناس وذلك بالتواضع والبعد عن الكبر، أما الخيلاء فهي ضرب من المشي فيه شيءٌ من الزهو وعجب النفس، وقد نهى عنها في السنة النبوية فعن أبوهريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من جر ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة»، أخرجه البخاري،⁽⁵⁾ أما

(1) الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، جامع البيان في تأويل القرآن «تفسير الطبري»، ج 17، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2000م، ص 279.

(2) سورة آل عمران: الآية 110.

(3) البغوي: محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد الفراء الشافعي، معالم التنزيل في تفسير القرآن «تفسير البغوي»، ج 1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1420هـ، ص 491.

(4) سورة لقمان: الآيات 18 - 17.

(5) ابن حجر: أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ج 10، دار المعرفة، بيروت، 1379هـ، ص 269.

الفخور فهو الذي يُعَدُّ ما أعطاه الله من نعمة ولا يشكر الله عليها، كما أمره بالقصد في المشي أي التوسط وهو ما بين الإسراع والبطء، وكذلك الغض من الصوت دون إنخفاض مغل ولا تكلف زائد عن الجهر فإن أنكر الأصوات صوت الحمير نسبةً لقبحه وإرتفاعه المفرط، وذلك كله يحض على التحلي بمحاسن الأخلاق واجتناب الرذائل وصغائر الأمور التي تفسد علاقة الإنسان بربه أولاً ثم بمن حوله من الناس في المجتمع ثانياً،⁽¹⁾ وكذلك قوله تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾⁽²⁾، وهنا يخاطب الله تعالى رسوله الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم قائلاً: فيها رحمة من الله لنت لهم يا محمد، أي سهلت وطابت أخلاقك إذ خالفوك ولو كنت فظاً قاسي القلب سيئ الخلق لانفضوا وتفرقوا عنك، كما أمره بالعفو والصفح والتجاوز عنهم ما أتوه وأن استغفر لهم ذنوبهم حتى يغفر الله لهم وأن شاورهم في أمور الحرب والسلم وما يتعلق بشؤون الحياة الدنيا فإذا عزمت على أمر بعد ذلك فتوكل على الله فإن الله يحب المتوكلين،⁽³⁾ وأيضاً قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾⁽⁴⁾، والأسوة ما يتأسى ويحتذى به والمراد بها القدوة الحسنة، أي أنه يجب على المسلمين أن يقتدوا بنهج النبوة والتخلق بخُلُقهِ الشريف ﷺ في جميع أفعاله وأقواله وأحواله ما استطاعوا إليه سبيلاً.⁽⁵⁾

1.2.2 مصادر الأخلاق من السنة النبوية الشريفة:

وهي تتمثل في حياته ﷺ من خلال أقواله وأفعاله أو ما أقر به ورضيه من أفعال الصحابة

(1) القرطبي: أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن «تفسير القرطبي»، ط2، ج14، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1964م، ص716.

(2) سورة آل عمران: الآية 159.

(3) الجلالين: جلال الدين محمد بن أحمد المحلي و جلال الدين بن أبي بكر السيوطي، تفسير الجلالين، دار المعرفة، القاهرة، 1420هـ، ص71.

(4) سورة الأحزاب، آية 21.

(5) الألويسي: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج11، دار الكتب العلمية، بيروت، 1415هـ، ص164.

رضوان الله عليهم أجمعين، وقد تجلى ذلك بصريح العبارة في قوله ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ» أخرجه البخاري،⁽¹⁾ حيث كانت العرب تتخلق بالوفير من مكارم الأخلاق بما عندهم من الحنيفية وشريعة سيدنا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام من الكرم والوفاء والمروءة الشجاعة وغيرها، بيد أنهم بدلوا وضلوا وأشركوا بعبادتهم الأصنام مع الواحد القهار، فبعث ﷺ ليتمم تلك المكارم والأخلاق الحميدة، لاسيما وقد عُرف من قبل بعثته بحُسن الخلق فكان يُلقب بالصادق والأمين، فعن أبي عبد الله الجدي رضي الله عنه قال: قُلْتُ لِأَمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كَيْفَ كَانَ خُلُقَ رَسُولِ اللَّهِ فِي أَهْلِهِ؟ قَالَتْ: «كَانَ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا، لَمْ يَكُنْ فَاحِشًا وَلَا مَتَفَحِّشًا، وَلَا سَخَابًا فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ مِثْلَهَا، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ» أخرجه الإمام أحمد،⁽²⁾ وكذلك قالت رضي الله عنها عندما سأها سعد بن هشام بن عامر رضي الله عنه: «أُنْبِئْنِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟»، فقالت: «أَلَسْتُ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَتْ: فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ»⁽³⁾، يتأدب بآدابه ويتخلق بمحاسنه ويأتمر بفرائضه وينتهي بنواهيه ويلتزم بمواعظه، فما من فضيلة أو مكرمة إلا وجمعها القرآن ووضحها وحض عليها وحسن فعلها، ولا رذيلة أو منقصة إلا ذمها وحذر ونهى عنها وأمر بإجتنابها، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾⁽⁴⁾، فالقرآن هو مصدر الهداية لكل ما هو أقوم من العبادات والطاعات والمعاملات والأخلاق والسلوك البشري، وإن أكمل من تتخلق بالقرآن الكريم هو النبي ﷺ حتى صار خلقه القرآن أقوم خلق تعرفه البشرية إلى يوم الدين،⁽⁵⁾ وكان ﷺ يوصي أصحابه بحُسن الخلق وفعل الخير واجتناب الفحش والتفحش في الكلام، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَانِ وَلَا بِاللَّعَانِ وَلَا

(1) الإمام البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن المغيرة، صحيح الأدب المفرد، ط4، دار البشائر الإسلامية، بيروت، 1989م، ص 273.

(2) الإمام أحمد: مصدر سابق، ج6، ص 236.

(3) أبي داود: سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني، سنن أبي داود، ج2، دار الرسالة العالمية، بيروت، 2009م، ص 41.

(4) سورة الإسراء: الآية 9.

(5) الشمراني: صالح بن علي، أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية، مكتبة المعارف، الرياض، 2010م،

الفاحش ولا البذئ» أخرجه الإمام أحمد،⁽¹⁾ كما ورد عنه عليه السلام أنه قال موصياً لأبي ذر الغفاري: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخُلُقٍ حسن» أخرجه الترمذي،⁽²⁾ وهنالك ارتباط وثيق بين حُسن الخلق وكامل الإيثار، فالتحلي بمحاسن الأخلاق دليل على كامل الإيثار في النفس، كما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلُقاً، وخيارهم خيرهم لنسائهم وألطفهم بأهلهم» أخرجه الإمام أحمد،⁽³⁾ وأيضاً عن النّوّاس بن سمعان الأنصاري رضي الله عنه، قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن البر والإثم، فقال: «البرُّ حسن الخُلُق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس» أخرجه مسلم،⁽⁴⁾ وقد رُود في السنة النبوية الكثير من الأحاديث التي تحث على اتيان مكارم الأخلاق وتبيين أهميتها وعلو كعب من تحلو بها في الدنيا والآخرة، فعن أبي ثعلبة الحُشني رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبُكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ مِنْ أَبْغَضِكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدِكُمْ مِنِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرَاوُونَ وَالتَّمْتِيقُونَ وَالتَّمْتِيقُونَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ عَلِمْنَا الثَّرَاوِينَ وَالتَّمْتِيقِينَ فَمَا التَّمْتِيقُونَ؟ قَالَ: التَّمْتِيقُونَ» أخرجه الترمذي،⁽⁵⁾ وعن أبي أمامة الباهلي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أَنَا زَعِيمٌ بَيْتٍ فِي رِبْضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبَيْتٍ فِي وَسْطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَارِحًا، وَبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ» أخرجه أبو داود،⁽⁶⁾ وكذلك مما ورد في الحث على مكارم الأخلاق، حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إِنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكِرَامَ، وَيُحِبُّ مَعَالِيَ الْأَخْلَاقِ، وَيَكْرَهُ سُفْسَافَهَا» رواه الحاكم،⁽⁷⁾ وعن أبي الدرداء رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مَا مِنْ شَيْءٍ

(1) الإمام أحمد: مصدر سابق، ج1، ص405.

(2) الترمذي: أبو عيسى محمد بن سورة بن موسى بن الضحاك، سنن الترمذي، ط2، ج4، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1395هـ، ص313.

(3) الإمام أحمد: مصدر سابق، ج2، ص527.

(4) الإمام مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، ج4، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1980م، حديث رقم 2553.

(5) الترمذي: مصدر سابق، ج4، ص325.

(6) أبو داود: سنن أبي داود، مصدر سابق، ج4، ص253.

(7) الحاكم: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن حمدويه بن نعيم الضبي الطهاني النيسابوري، المستدرک علی الصحیحین، ج1، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002م، ص48.

أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حُسن الخلق وإن الله يبغض الفاحش البذئ» رواه الترمذي⁽¹⁾، ومما ذكر في فضل حُسن الخلق عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن المؤمن ليدرك بحُسن خلقه درجة الصائم القائم»⁽²⁾، وكذلك فيما روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أربعٌ إذا كُنَّ فيك فلا عليك مافاتك من الدنيا، حفظُ أمانةٍ وصدقُ حديثٍ وحُسنُ خُلُقٍ وعِفَّةٌ في طُعْمَةٍ» أخرجه الإمام أحمد.⁽³⁾

1.2.3 مصادر الأخلاق من أقوال علماء وأدباء المسلمين:

يقول العلامة مصطفى صبري التوقادي آخر شيوخ الإسلام في الدولة العثمانية مبيناً أهم مصادر الأخلاق في الإسلام: (وكون نبينا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين المرسل للبشرية أجمعين، فذلك يقتضي أن يكون جامعاً للفضائل ومتماً للأخلاق، ويجب أن تكون تلك المكارم الشاملة والفضائل الجامعة مأثورة عنه ومحفوظة إلى قيام الساعة، فلا نبي بعده يأتي لإصلاحها وإتمامها).⁽⁴⁾ وأيضاً من مصادر الأخلاق في الإسلام بعد الكتاب والسنة، يأتي الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، فهم الذين تربوا ونهلوا العلم من مشكاة النبوة مباشرة، وبهم أوصل الله دينه إلى مشارق الأرض ومغاربها، وقد روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (أولئك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، كانوا أفضل الأمة وأبرها قلباً وأعمقها إيماناً وعلماً وأقلها تكلفاً، اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه وإقامة دينه، فأعرفوا لهم فضلهم، وكونوا على أثرهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم).⁽⁵⁾ وقد ورد على لسان سلطان العلماء العز بن عبد السلام في ذكره لفضل مكارم الأخلاق قائلاً: (من عرف مصالح الدارين وشرفها

(1) المنذري: أبو محمد زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله، الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، ج3، دار الكتب العلمية، بيروت، 1417هـ، ص351.

(2) الألباني: أبو عبد الله محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي الأشقودي، صحيح الجامع الصغير وزيادته «الفتح الكبير»، ج1، المكتب الإسلامي، بيروت، 1988م، ص2201.

(3) المنذري: مصدر سابق، ج3، ص16.

(4) مصطفى صبري: موقف العلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، ط2، ج4، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1981م، ص76.

(5) الخطيب البغدادي: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ط3، ج1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1996م، ص142.

حثه طبعه على طلب أحسنها فأحسنها، وأفضلها فأفضلها كما يحثه على دفع أقبحها فأقبحها، وأرذلها فأرذلها، فإن الخالق جل وعلا فطر في نفوس الخلق ما يحثهم على كل حسن ويزجرهم عن كل سوء، ليعرفوا الحكمة فيما جاءت به الرسل ويتبعوها، ثم يشكروا الله عليها).⁽¹⁾ ويقول الزاهد الحارث المحاسبي البصري: (حُسن الخلق في أربعة أمور؛ احتفال الأذى وقلة الغضب وبسط الوجه وطيب المقال).⁽²⁾ ومن المصادر التي يمكن أن تُكسب حُسن الخلق في الإسلام، سلامة العقيدة وصدق الإيثار، فإذا صحت العقيدة حسنت الأخلاق، فأكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً، يُعد حُسن الخلق من أعلى مراتب الإيثار في الإسلام كما رود في الكتاب والسنة، فهو أساس الدين والدنيا، وما تأخرت أمة من الأمم عن ركب التقدم، إلا ضعفت صلتهما بالخلق والخالق، ويُرد ذلك إلى نقصان وتدني في أخلاقها وفضائلها، فقد كان السلف الصالح يتألفون على الفضائل ويتعارفون بها، فإذا ضل أحدهم وحاد عن جادة الحق أو حاول أن ينفرد بمسلك مخالف منافٍ للصحة، صار بعمله هذا كالأجرب بين الأصحاء، فلا يطيب له مقام بينهم حتى يبرأ ويتبرأ من علته،⁽³⁾ وفي ذلك قال فقيه الأدياء الشيخ علي الطنطاوي رحمته الله: (إذا لم تُبنى الأخلاق على أساس من الإيثار، كان بناؤها على كئيب من الرمال، فالإنسان محبوبٌ على حب نفسه وتقديمها في المنفعة على غيره ودرء الأذى والضرر عنها، فلا يعمل عملاً لا يكون له فيه متعة أو كسب، إلا إذا تحلى بصدق الإيثار وحُسن الخلق).⁽⁴⁾ وكذلك في الأدب العربي الإسلامي الحديث تطرق أمير الشعراء أحمد شوقي في أشعاره للثناء والحث على مكارم الأخلاق، حيث ربط بقاء الأمم بالحفاظ على محاسن الأخلاق قائلاً:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبوا أخلاقهم ذهبوا

- (1) العز بن عبدالسلام: أبو محمد عز الدين عبدالعزيز بن عبدالسلام بن أبي القاسم بن الحسن الدمشقي، قواعد الأحكام في مصالح الأناس، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1991م، ص165-164
- (2) المحاسبي: أبي عبدالله الحارث بن أسد البصري، رسالة المسترشدين، دار السلام للطباعة والنشر، حلب، 1964م، ص63.
- (3) الغزالي: محمد، حُلق المسلم، دار الريان للتراث، القاهرة، 1987م، ص35-33.
- (4) الطنطاوي: علي، تعريف عام بدين الإسلام، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، 1989م، ص145-146.

كما قال:

إذا أصيب القوم في أخلاقهم فأقم عليهم مأتماً وعويلاً

وأيضاً قوله:

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه فقوم النفس بالأخلاق تستقم⁽¹⁾

يُعد العلم التّوحيدي مصدرًا من مصادر الأخلاق في الإسلام، فإذا كان المجتمع الإنساني في حاجة إلى المعرفة والعلوم بصورة دائمة فهو إلى الأخلاق أحوج، حيث يرجع فساد المجتمعات وانحطاطها إلى نقص في القيم والأخلاق أكثر من رجوعها إلى نقص في العلم والمعرفة، فالعلم يخدم الخير والشر على حد السواء، أما الأخلاق فتخدم الخير والفضيلة وتحارب الرذيلة والسوء، وبها يُقوم العلم ويُهذب وتضبط طرق البحث فيه وسبل الإنتفاع به،⁽²⁾ وفي ذلك ما روّد عن الإمام العلامة ابن حزم الأندلسي قوله: إن منفعة العلم في استعمال الفضائل عظيمة، وبه تستنير الأبواب والقلوب فتتعلق بفعل الخير والفضيلة وإتيانها ولو في الندرة، والبعد عن القبح والرذيلة واجتنابها، وبذلك يكون للعلم نصيبٌ من كل فضيلة، كما للجهل كِفْلٌ من كل رذيلة، ولا تأتي الفضائل ومحاسن الأخلاق بغير طلب العلم، إلا لصافي الطبع وفاضل التركيب وهذه منزلة لم يخص بها الله تعالى إلا رُسُلَه الكرام عليهم صلوات الله وسلامه، ومن أراد خيرَي الدنيا والآخرة، والحكمة وعدل السيرة و الاحتواء على مكارم الأخلاق ومحاسنها واستحقاق الفضائل كلها، فليقتد بخاتم النبيين وسيد الأولين والأخريين نبي الرحمة المهادي الأمين صلوات ربي عليه وأتم التسليم، وليأت من أخلاقه وأفعاله وأقواله وسيره ما استطاع إليه سبيلاً.⁽³⁾ وقد ذكر الأديب حافظ إبراهيم في شعره

(1) شوقي: أحمد بن علي بن أحمد شوقي بك، الشوقيات، ج1، دار العودة، بيروت، 1988م.

(2) جاد المولى: محمد أحمد، الخلق الكامل، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004م، ص403.

(3) ابن حزم: أبي محمد علي بن أحمد الأندلسي، الأخلاق والسيرة في مداواة النفوس، دار ابن الجوزي، الرياض، 1434هـ، ص92-93.

فضل العلم ومكارم الأخلاق مؤكداً على أهميتها في جميع ضروب الحياة قائلاً:

فَإِذَا رُزِقَتْ خَلِيقَةً مَحْمُودَةً	فَقَدْ اصْطَفَاكَ مُقَسَّمِ الْأَرْزَاقِ
فَالنَّاسُ هَذَا حَظُّهُ مَالٌ وَذَا	عِلْمٌ وَذَاكَ مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ
وَالْمَالُ إِنْ لَمْ تَدَّخِرْهُ مَحْصَنًا	بِالْعِلْمِ كَانَ نَهَايَةَ الْإِمْلَاقِ
وَالْعِلْمُ إِنْ لَمْ تَكْتَنِفْهُ شَمَائِلٌ	تُعْلِيهِ كَانَ مَطِيَّةَ الْإِخْفَاقِ
لَا تَحْسَبَنَّ الْعِلْمَ يَنْفَعُ وَحْدَهُ	مَا لَمْ يَتَوَجَّحْ رَبُّهُ بِخَلَاقٍ ⁽¹⁾

ومن مصادر الأخلاق والأدب في الإسلام أيضاً مصاحبة أهل العلم والحكماء وفضلاء الناس، حتى قيل أن الطلاب كانوا لا يأخذون العلم عن شيخ حتى يتبينون من حسن أخلاقه وأدبه وسمته وكمال مروءته،⁽²⁾ كما روى القاضي أبو يعلى أن الحسين بن إسماعيل قال: سمعت أبي يقول: (كنا نجتمع في مجلس الإمام أحمد زهاء خمسة آلاف أو يزيدون، أقل من خمسمائة يكتبون والباقي يتعلمون منه حسن الأدب وحسن السمات)⁽³⁾، وكذلك روى عن العالم المجاهد عبد الله بن المبارك رحمه الله عندما سُئل عن سبب ذهابه إلى البصرة، فقال: (أقصد ابن عون أخذ من أخلاقه وأدبه، فإننا إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم، وكاد الأدب أن يكون ثلثي الدين).⁽⁴⁾ وكذلك قال الفضيل بن عياض: (إذا خالطت فخالط حسن الخلق، فإنه لا يدعوا إلا إلى الخير، وصاحبه في راحة منه، ولا تخالط سيئ الخلق فإنه لا يدعوا إلا إلى شر، وصاحبه في عناء منه).⁽⁵⁾ أما الجنيد البغدادي فقد قال

(1) حافظ إبراهيم: محمد، المؤلفات كاملة «الديوان»، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012م، ص 149.

(2) Mahmud Mısıri: Ahlakî Kriterler ve Rabbanî Âlim Hassasiyeti Açısından İlmî Emanet, FSM İlmî Araştırmalar İnsan Ve Toplum Bilimleri Dergisi, Sayı/Number 4 Yıl/Year 2014 Güz/Autumn.P67.

(3) البهوتي: منصور بن يونس بن صلاح الدين بن حسن الحنبلي، شرح منتهى الإرادات، ج 1، عالم الكتب، بيروت، 1993م، ص 79.

(4) ابن الجوزي: أبو الفرج جمال الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي، صفوة الصفوة، ج 2، تحقيق أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، 2000م، ص 330.

(5) الطبراني: مصدر سابق، ج 6، ص 181.

في ذلك: (لأن يصحبني رجل فاسق حسن الخلق، أحب إلي من أن يصحبني رجل عابد أو قارئ سيء الخلق، فإن الفاسق إذا حُسن خُلقه خف على الناس وأحبوه، أما القارئ أو العابد إذا ساء خُلقه ثقل عليهم فمقتوه).⁽¹⁾

1.3.1 الأخلاق ومفهوم حقوق الإنسان في الإسلام إبان السلم والحرب:

والحق في اللغة نقيض الباطل، ويأتي بمعنى اليقين والصدق والعدل أو الدين،⁽²⁾ والحق في الاصطلاح هو كل شيء ثابت صحة وجوده ولا يسوغ إنكاره بأي وجه من الوجوه، والحق اسم من أسماء الله الحسنى أو صفة من صفاته العُلا،⁽³⁾ قال تعالى: ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضُّلُّلُ فَأَنْتُمْ تُصِرُّونَ﴾،⁽⁴⁾ صدق الله العظيم.

1.3.1 مفهوم حقوق الإنسان في المجتمع الإسلامي:

وحقوق الإنسان هي الحقوق والالتزامات والواجبات الشرعية التي أقرتها الشرعية الإسلامية للحفاظ على كرامة الإنسان وسلامته، وتنقسم إلى قسمين حقوق ربانية خاصة بالخالق جل وعلا على عباده، وحقوق مدنية تختص بتنظيم جميع شؤون الإنسان الاجتماعية والحياتية بصفة عامة،⁽⁵⁾ وتُعرف الحقوق بأنها عبارة عن مجموعة من القواعد الإلزامية التي شرعها الدين الإسلامي لتنظيم علاقة الناس بخالقهم جل وعلا، وعلاقتهم ببعضهم البعض في جميع شؤونهم الحياتية والحفاظ على حقوقهم وتوفير احتياجاتهم ومعاملتهم بالعدل من دون تمييز، وقد ورد أن أمير المؤمنين أبا حفص الفاروق رضوان الله عليه عندما ولي القضاء

(1) ابن حبان: أبي حاتم محمد البستي، روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص 49.

(2) ابن منظور: مصدر سابق، ج 1، ص 98.

(3) الرازي: أبو عبد الله زين الدين محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي، مختار الصحاح، ط 5، ج 1، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت، 1999م، ص 62.

(4) سورة يونس: الآية 32.

(5) قنسنك هوتسا وآخرون: موجز دائرة المعارف الإسلامية، ج 13، نقلها إلى العربية محمد ثابت الفندي وآخرون، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الشارقة، 1998م، ص 4095.

إبان خلافة الصديق وهو أول قاض في الإسلام، حيث كان جُل الرعية من كبار الصحابة وهم أهل علم وأصحاب ورع عفيفي النفوس دمئتي الخلق عارفين ومعترفين بالحقوق والواجبات وقَّافين عند ضوابط الشرع في الحلال والحرام، فكان يندر وقوع التخاصم والتنازع بينهم لدرجة التقاضي حتى قال الفاروق رضي الله عنه: (إذا كان الناس يُعرفون حقوقهم ويخشون الله سبحانه وتعالى فلماذا أفضي بينهم).⁽¹⁾ وتميزت حقوق الإنسان في الإسلام بشموليتها وتكريمها لجميع الأمم والأديان السماوية والشعوب والأعراق والأجناس، للضعيف قبل القوي، الفقير قبل الغني، الصغير قبل الكبير، المرأة قبل الرجل، والناس جميعاً على حد سواء وفق قواعد فطرية أخلاقية تنسجم مع الفطرة السليمة، وهي ثابتة لا تتغير صالحة لكل مكان وزمان إلى يوم الدين، مصدرها الكتاب والسنة، تحفظ للناس عزتهم وكرامتهم وحقوقهم المادية والمعنوية الفردية والجماعية تشريفاً وتكريماً لإنسانيتهم، وقد بلغ ذلك التكريم من الله تعالى للإنسان أن أسجد له الملائكة في السماء ثم استخلفه على الأرض،⁽²⁾ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾⁽³⁾ وقد ورد أن النبي صلى الله عليه وآله قال في خطبة حجة الوداع: «إن الله أعطى كل ذي حق حقه،...» أخرجه الترمذي،⁽⁴⁾ وقد تميزت حقوق الإنسان في الإسلام بأنها منحة ربانية لتشريف وتكريم الإنسان على سائر المخلوقات، فلا يجوز لأي أحد التعدي على حقوق الآخرين ولا حرمانهم إلا بوجه حقٍ تفره الشريعة،⁽⁵⁾ وقد شدد في التنبيه إلى ضرورة احترام هذه الحقوق والحدود الربانية التي لا يمكن تجاوزها بنص الكتاب قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ

(1) شبارو: عصام محمد، الدولة العربية الإسلامية الأولى (41-1هـ / 661-623م)، دار النهضة العربية، القاهرة، 1995م، ص 279.

(2) القيسي: مروان إبراهيم، موسوعة حقوق الإنسان في الإسلام، وفتية الأمير غازي للفكر القرآني، أربد، 2005م، ص 41-40.

(3) سورة البقرة: الآية 30.

(4) الترمذي: مصدر سابق، ج 3، ص 621.

(5) خضير: عبد الكريم علوان، الوسيط في القانون الدولي العام، الدار العلمية الدولية ودار الثقافة للنشر، الأردن/ عمان، 2002م، ص 10.

فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١﴾ صدق الله العظيم،^(١) وقد أسندت الشريعة الإسلامية مهمة الحفاظ على حقوق الإنسان إلى الحكام والولاة فهم المسؤولون عن شؤون الرعية وحفظ أمن المجتمع في السلم والحرب،^(٢) قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ﴿٣﴾ صدق الله العظيم،^(٣) فإذا تعدى الحكام والولاة على حقوق الرعية وظلموا، فأثم بذلك يخرجون عن تعاليم الدين الحنيف، وهنا يأتي دور العلماء بالموعظة الحسنة والتذكير بكلام الله وسنة نبيه وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده،^(٤) وفي تجنب الظلم قال ابن قتيبة: (وكل من وضع شيئاً في غير موضعه فقد ظلم، والظالم هو كل من يُزيل الحق عن جهته ويأخذ ما ليس له)،^(٥) وقد أخبر نبي الرحمة صلوات ربي عليه وأتم التسليم موصياً أصحابه أنه سوف سيظهر حكام يفضلون بين الناس ويأتون ما هو مخالف للشريعة من الأمور، فعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إنها ستكون بعدي أثره وأمور تنكرونها، قالوا: يارسول الله، كيف تأمر من أدرك منا ذلك؟ قال: تؤدون الحق الذي عليكم وتسألون الله الذي لكم»،^(٦) متفق عليه، وأيضاً كما ورد في خطبة الصديق التي استهل بها خلافته رضي الله عنه قائلاً: (يا أيها الناس، قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتُموني على حق فأعينوني، وإن رأيتُموني على باطل فسدّدوني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم، ...)،^(٧) فإذا طغى الحكام وتجبروا ولم يسمعوا للنصح والموعظة الحسنة، فسدت أخلاق الرعية وفتت الفوضى في المجتمع وذلك مما يؤدي إلى

(1) سورة البقرة: الآية 229.

(2) الحويقل: معجب بن معدي، حقوق الإنسان والإجراءات الأمنية، مكتبة جامعة نايف الأمنية، الرياض، 2006م، ص3.

(3) سورة النساء: الآية 58.

(4) الكاندهلوي: محمد يوسف بن إلياس بن محمد إسماعيل، حياة الصحابة، ج2، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1999م، ص59.

(5) ابن قتيبة الدينوري: أبو محمد عبد الله بن مسلم، غريب الحديث، ج1، مطبعة العاني، بغداد، 1397هـ، ص248.

(6) ابن حجر: فتح الباري، مصدر سابق، ج13 ص8.

(7) مؤلف مجهول: ديوان أبي بكر الصديق وجمهرة خطبة ووصاياه ورسائله، تحقيق وشرح محمد شفيق البيطار، مطبوعات مجمع العربية السعيدة، صنعاء، 2020م، ص252.

ذَلِكَ وَصَدَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» (1) وحرمة النفس هنا تشمل النفس المؤمنة والمعاهدة (2) من غير المسلمين فلا يجوز إزهاقها إلا بالحق حتى ولو لم تكن مؤمنة، (3) وكذلك ورد في السنة النبوية تأكيداً على قداسة النفس البشرية وحقها في الحياة، فعن عبدالله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «لزوال الدين أهون على الله من قتل مسلم» أخرجه البيهقي، (4) وحفاظاً على حياة الإنسان وحماتها من الهلاك فقد أحل الله تعالى لنا بعض المحظورات عند الإضرار، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ صدق الله العظيم، (5) كما حرم الانتحار والإضرار بالنفس لأن الروح ليست ملكاً للإنسان وإنما هي هبة وأمانة مستردة منحها له الخالق جل وعلا، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيها خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن تحسَّى سماً فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً» أخرجه البخاري، (6) كما حرم جل وعلا قتل الأبناء خشية الفقر والعيلة، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِلَيْكُمُ الْإِنْفَالُ لَقَدْ كَانَ خَطِئًا كَبِيرًا ﴾ صدق الله العظيم، (7) ولتكريم الخالق جل وعلا للنفس وضمان حق الحياة لها لم يجعل حرمتها فقط محصورة على النفس البشرية بل حتى الحيوانات حفظ لها حقها فنبى الله سليمان عليه السلام أوقف جيشاً بأكمله حتى يؤمن النمل فلا يدوسه الجيش فيزهقه وهم لا يشعرون، وكما ورد في السنة النبوية عن عبدالله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «عذبت

(1) سورة الأنعام: الآية 151.

(2) فعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «من قتل مُعاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن رجعها ليجود من مسيرة أربعين عاماً» أخرجه البخاري: الإمام البخاري: أبو عبدالله محمد بن إسحاق بن المغيرة، صحيح البخاري، دار ابن كثير، دمشق، 2002م، حديث رقم 6914.

(3) القرطبي: مصدر سابق، ج 7، ص 133.

(4) البيهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي، السنن الكبرى، ج 8، ط 3، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م، ص 23.

(5) سورة البقرة: الآية 173.

(6) الإمام البخاري: الصحيح، مصدر سابق، ج 5، ص 2179.

(7) سورة الإسراء: الآية 32.

امرأة في هرة سجنحتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها ولا سقتها، إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض» أخرجه البخاري.⁽¹⁾

أما حق الكرامة: فهي صفة تفضيل خص بها الله تعالى الإنسان دون غيره من المخلوقات، حيث كرمه بالعقل والإدراك والخلق والخلق القويم وسلامة الفطرة وجعل كل مكونات الطبيعة مسخرة لخدمته،⁽²⁾ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ صدق الله العظيم،⁽³⁾ وكذلك في السنة النبوية مارواه ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع قال: «... فإن الله تبارك وتعالى قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم إلا بحقها، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، ألا هل بلغت؟ ثلاثاً، كل ذلك يجيبونه: ألا نعم، قال: ويحكم أو يلکم، لا ترجعن بعدي كفار يضرب بعضكم رقاب بعض» أخرجه البخاري،⁽⁴⁾ وقد ذكر أن ابن عباس رضي الله عنهما قال في هذا الحديث: فو الذي نفسي بيده إنها لوصيته إلى أمته فليلغ الشاهد الغائب، كما روي عنه أيضاً في قضية تكريم الإنسان أنه قال أي ابن عباس: «إن الإنسان مفضل على الخلائق كلها ماعدا بعض الملائكة، كجبريل وميكائيل وإسرافيل وأشابههم»،⁽⁵⁾ وبذلك يتبين أن حق الحياة والكرامة ضرورة من ضرورات الحياة التي يجب حفظها وتأمينها لكل إنسان دون أن يطالب بها، وتسند مهمة الحفاظ على هذه الحقوق إلى الإمام أولاً ثم المجتمع والأفراد ثانياً، وهم مسؤولون عنها أمام الله تعالى يوم القيامة.⁽⁶⁾

- (1) الإمام البخاري: الصحيح، مصدر سابق، حديث رقم 3482.
- (2) الشاطبي: إبراهيم بن موسى اللخمي، الموافقات في أصول الشريعة، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004م، ج3، ص266.
- (3) سورة الإسراء: الآية 70.
- (4) الإمام البخاري: الصحيح، مصدر سابق، حديث رقم 6785.
- (5) السمرقندي: أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم، بحر العلوم «تفسير السمرقندي»، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993م، ص321.
- (6) عمارة: محمد، الإسلام وحقوق الإنسان ضرورات لاحقوق، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1985م ص51.

1.3.2.2 حق الحرية:

والأصل في طبيعة الإنسان أنه يُولد حراً، والحرية نوعان: مادية وهي ضد العبودية، ومعنوية وهي تتمثل في الحرية الدينية والاجتماعية والسياسية والفكرية، وقد كفلت الشريعة الإسلامية للإنسان حق الممارسة لحياته بنوعها المادي والمعنوي شريطة ألا يخرج عن إطار الضوابط والقوانين التي وضعتها الشريعة لحرية الأفراد والجماعات داخل المجتمع الإسلامي، وجعلت منتهى حرية الفرد حيث تبدأ حريات الآخرين، وذلك من باب الإنصاف والاحترام لحقوق الآخرين في المجتمع الإسلامي،⁽¹⁾ وقد عملت الشريعة الإسلامية على محاربة الاسترقاق والاستعباد بشقيه المادي والمعنوي بشتى السبل، فمنعت استرقاق الأحرار فيما دون الحرب، وقد ورد ذلك في السنة النبوية برواية أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حُرّاً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره» أخرجه البخاري،⁽²⁾ وكذلك عملت الشريعة على تحرير المتسرقين والمستعبدين بطرائق عديدة منها، المكاتبه وهي وثيقة اتفاق تُبرم بين السيد والمسترق، تنص على أن يدفع المسترق مبلغاً معيناً من المال أو أن يقوم بعمل محدد خلال فترة زمنية معلومة بين الطرفين، مقابل أن ينال حريته، وقد حث الإسلام الأرقاء على المكاتبه وأمر أولياءهم بمعاونتهم على ذلك، قال تعالى: ﴿... وَالَّذِينَ يَبِغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْتُمْ حَسْبًا لِنَفْسِكُمْ إِنَّكُمْ أَنْتُمْ عَلَىٰ آلْسَابِغِينَ لَشَرِّ بَشَرٍ خَالِقًا وَالَّذِينَ يَبِغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْتُمْ حَسْبًا لِنَفْسِكُمْ إِنَّكُمْ أَنْتُمْ عَلَىٰ آلْسَابِغِينَ لَشَرِّ بَشَرٍ خَالِقًا﴾⁽³⁾ وللتيسير على المسترقين وترغيب الناس في عمل الخير وعتق الرقاب وتحريرها جعل الله تعالى العتق مصرفاً من مصارف الزكاة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَاةِ فَلُوهُنَّ فِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ

(1) صليبا: جميل، المعجم الفلسفي، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982م، ص461.

(2) ابن حجر: مصدر سابق، ج4، ص488.

(3) سورة النور: الآية 33.

عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ﴿ صدق الله العظيم،⁽¹⁾ وأيضاً في كفارة القتل الخطأ، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿ صدق الله العظيم،⁽²⁾ أي أنه من أدخل نفساً مؤمنة في زمرة الأحرار عوضاً عن تلك النفس المؤمنة التي أزهقها خطأ، جعل الله تعالى ذلك كفارةً لذنبه، لأن تحرير النفس المؤمنة من قيد الرق يكون بمثابة إحيائها بعد موتها،⁽³⁾ وبذلك يكون الإسلام قد أغلق جميع أبواب الاسترقاق ولم يجعل لذلك سبيلاً إلا عن طريق الأسر في الحرب، وجعل ذلك منوطاً بحكم الإمام أو القائد، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمُوهُمُ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَأْبُودٌ وَإِمَّا فِدَاءٌ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأُنصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِنَبِّئُوا بَعْضَكُم بَبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿ صدق الله العظيم،⁽⁴⁾ فجعل في الأمر سعة وتخيير بين إطلاق سراحهم وتحريرهم بغير عوض ولا فدية، أو بالمبادلة أو المفاداة مقابل حريتهم وتخليه سبيلهم.⁽⁵⁾

أما الحرية المعنوية في الإسلام فلها ضروبٌ عدة تأتي في مقدمتها، الحرية الدينية، قال تعالى: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفصامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿ صدق الله العظيم،⁽⁶⁾ أي أنه لا يجوز إكراه الناس على دين بعينه، بل يجب منحهم الحرية الكاملة في اختيار المعتقد

(1) سورة النور: الآية 60.

(2) سورة النساء: الآية 92.

(3) النسفي: أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود، مدارك التنزيل وحقائق التأويل «تفسير النسفي»، ج1، دار النفائس، بيروت، د.ت، ص189.

(4) سورة محمد: الآية 4.

(5) الطبري: جامع البيان، مصدر سابق، ج22، ص153.

(6) سورة البقرة: الآية 256.

والدين وممارسة العبادات، وذلك لأن الخالق جل وعلا قد جعل السبيل إلى إدراك الذات الإلهية أمراً منوطاً بالعقل، والنفس البشرية وهي محررة في ذلك الأمر بلا قيود ولا ضغوط مادية أو معنوية تُسلط عليها من قبل السلاطين وأولياء الأمور ولا حتى من طرف الرسل والأنبياء ورجال الدين،⁽¹⁾ وأيضاً من الحريات المعنوية التي أوجبت الشريعة الإسلامية الحفاظ عليها الحرية الاجتماعية النفسية وهي التي تحمي الفرد من التنمر واضطهاد الآخرين له في المجتمع، وذلك لمنع وقوع أي ضرر أو أذى نفسي قد يصيب الفرد ويشعره بالدونية في حياته اليومية بين الناس، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقول أحدكم: عبدي وأمتي، كلكم عبيد الله وكل نساءكم إماء الله ولكن ليقبل غلامي وجاريتي وفتاتي وفتاتي» أخرجه مسلم،⁽²⁾ وكذلك ورد في سير أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عندما جاءه أحد أبناء القبط شاكياً من اضطهاد ابن الوالي له وتنمره واستعلاءه عليه، فما كان من الفاروق إلا أن أحضر الوالي وابنه فقال لهما موبخاً: (متى استعبدتم الناس؟ وقد ولدتم أمهاتهم أحراراً!)، ثم اقتصر له منها،⁽³⁾ ومن هذا يُستنبط حرص الرعيل الأول من أولياء أمور المسلمين وحكامهم على حماية الرعية وحفظ حرياتهم المعنوية الدينية والاجتماعية والنفسية حتى وإن كانوا غير مسلمين من أهل الذمة، ومن الحريات المعنوية التي كلفها الإسلام للإنسان، حرية الرأي والتعبير وجعلها منوطاً بالمبادئ والأخلاق والآداب الاجتماعية العامة التي نصت عليها الشرعية الإسلامية،⁽⁴⁾ قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ صدق الله العظيم،⁽⁵⁾ والقول السديد هو الصواب الذي

(1) عمارة، مرجع سابق، ص 20.

(2) النووي: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ج 15، ط 2، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1392هـ، ص 408.

(3) ابن عبد الحكم: أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2004م، ص 290.

(4) مومني: ماجد أحمد، الإسلام وحرية الرأي، مجلة الوعي الإسلامي، العدد 278، صفر 1408هـ، ص 96.

(5) سورة الأحزاب: الآيات 71-70.

يتوافق ظاهره مع باطنه، ويراد به بيان الحق ابتغاء مرضاة الله جل وعلا، والبعد عن أذى الناس بقبيح القول واغتيالهم وانتهاك حرمتهم من دون علم ولا دراية ولا حق، فالكل مسؤول عن قوله وفعله يوم القيامة وهو مجزي به وعليه.⁽¹⁾

1.3.2.3 حق العدل والمساواة:

والعدل في الشريعة الإسلامية ليس من الحقوق التي تطلب أو يتنازل عنها، بل هو فريضة واجبة من الله تعالى على الناس كافة بلا استثناء بما فيهم الأنبياء والرسل وأولياء الأمور، وللعدل أبواب كثيرة منها عدل الولاية مع الرعية وعدل القضاة في الفصل بين المتخاصمين، والعدل الأسري والاجتماعي بصورة عامة،⁽²⁾ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ صدق الله العظيم،⁽³⁾ وقيل أن هذه الآية من الجوامع الآيات التي تضمنت جوامع الدين والشرع والأحكام، والمخاطب بها جميع ولاية أمور المسلمين بصفة عامة، والنبى ﷺ بصفة خاصة حيث كان سبب نزولها في قضية مفتاح الكعبة ورده إلى أهله بعد أن أخذه النبي ﷺ يوم فتح مكة، فنزلت عليه هذه الآية آتت فدعا أصحابه ليرده إليهم وقال: «خذوها يا بني طلحة خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم»،⁽⁴⁾ وفي السنة النبوية كذلك وردت الكثير من الأحاديث الدالة على حض أولياء الأمور والناس عموم على العدل وتأدية الأمانات والنهي عن انتهاك حقوق الناس والتعدي عليهم بالباطل، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا» أخرجه الإمام مسلم،⁽⁵⁾ ومفهوم العدل واسع في الإسلام فهو حق مفروض تكفله الشريعة للبشرية جمعاء دون تمييز في الدين ولا تفرقة في العرق واللون والنسب والقوة والضعف والغنى والفقر، فتعطي كل ذي حق حقه

(1) القرطبي: مصدر سابق، ج 14، ص 253.

(2) عمارة: مرجع سابق، ص 51.

(3) سورة النساء: الآية 58.

(4) القرطبي: مصدر سابق، ج 5، ص 254-255.

(5) الإمام مسلم: مصدر سابق، ج 3، باب فضيلة الإمام العادل، ص 1458.

دون ميل أو اجحاف أو اتباع لهوى في النفوس، ويكون ذلك في جميع جوانب الحياة الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والأسرية، والعدل واجب بين الناس ولو كان الخصم كافراً فالكل عند الحق سواء، فالإسلام دين السماحة والعدالة والشمولية للناس جميعاً، قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللّٰهُ أَوْلَىٰٓ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوُّا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا نَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ صدق الله العظيم،⁽¹⁾ وهنا يأمر الحق جل ثناؤه عباده بأن يتبعوا الشرع الرباني في جميع شؤونهم قائمين بالعدل مؤدين لشهادة الحق ولو كان على أنفسهم أو الوالدين أو الأقربين، من دون ميل ولا تحيز لغني أو فقير، فالعدل بينهم حق مفروض والله عليهم بها في الصدور وهو القوي الخبير،⁽²⁾ وقد حوت السنة النبوية الكثير من الاحاديث المتعلقة بقضية التحذير والترهيب عن الظلم وتحريم التعدي على حقوق الآخرين، فعن عبدالله بن عباس رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من أعان ظالماً ليدحض بباطله حقاً، فقد برئت منه ذمة الله ورسوله» أخرجه ابن حبان،⁽³⁾ وأيضاً عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن أحب الناس إلى الله تعالى يوم القيامة وأقربهم مني إمام عادل، وإن أبغض الناس من الله تعالى وأشدّهم عذاباً يوم القيامة إمام جائر» أخرجه الترمذي،⁽⁴⁾ وبذلك يتجلى تمسك الشريعة الإسلامية بالعدل ورفضها التام للظلم والجور حتى وإن كان مع الكافرين، فكما ذكر ابن القيم في وصفه وتعريفه للشريعة الإسلامية بأنها: (كلها عدلٌ ورحمة ومصالح وحكمة، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة في شيء، وإن أدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه، وظله في أرضه، وحكمته الدالة عليه، وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم أصدق دلالة وأتمها).⁽⁵⁾ أما حق المساواة فهو عنصر أساسي تميزت به الشريعة

(1) سورة النساء: الآية 135.

(2) ابن كثير: مصدر سابق، ج 1، ص 566.

(3) أبو نعيم: أحمد بن عبدالله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني، حلية الأولياء، ج 5، دار الكتاب العربي، بيروت، 1974م، ص 248.

(4) الترمذي: مصدر سابق، ج 4، ص 24.

(5) ابن قيم الجوزية: شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي، إعلام الموقعين عن رب العالمين، ج 3، دار الكتب العلمية، بيروت، 1991م، ص 30.

الإسلامية دون غيرها من الأديان والأمم السابقة، في تكوين المجتمعات والنظم القضائية والإدارية في الدول الإسلامية، حيث ساوت بين الناس لإنسانيتهم فقط دون النظر إلى أعراقهم وأجناسهم وألوانهم ولغاتهم ومستوياتهم المادية ومقاماتهم الاجتماعية، وأثبتت أن الناس جميعهم سواء في الأصل والفطرة ويرجعون إلى أب واحد، وجعلت ميزان المفاضلة بينهم قائماً على التقوى فهي المعيار الأوحده والأمثل في المفاضلة بين الناس حيث تكون المفاضلة وسيلة للنمو والرقى الأخلاقي والاجتماعي، وليس ذريعة للمنافسة الدنيوية التي تؤدي إلى الحقد والحسد والظلم والتفرقة العنصرية والطبقية الاجتماعية وغير ذلك من مفاسد الأخلاق،⁽¹⁾ قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ صدق الله العظيم،⁽²⁾ فالناس كلهم خرجوا من صلب رجل واحد هو أبونا آدم ورحم إمرأة واحده وهي أمنا حواء، فلا يحق لأحد التفاخر على الخلق بنسبه طالما أن نسبهم ينتهي إلى أصل واحد وإنما المفاضلة بالتقوى، وقيل أن هذه الآية نزلت في كفار قريش وساداتهم خاصة لجرهم عن الطبقية والتفاخر بالأنساب وكثرة العدد والمال والولد، وعدم الأزدراء بالفقراء والضعفاء والأرقاء بالتعنصر عليهم واضطهادهم والتقليل من شأنهم في المجتمع،⁽³⁾ ومن السنة النبوية ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقي وفاجر شقي، وأنتم بنو آدم، وآدم من تراب، ليدعن رجال فخرهم بأقوام، وإنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها التنن» أخرجه الإمام أحمد،⁽⁴⁾ وأيضاً مما ورد في خطبة حجة الوداع في أواسط أيام التشريق، حيث يُخبر عبد الله بن جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يا أيها الناس، إن ربكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم» أخرجه البيهقي،⁽⁵⁾ وكذلك أكدت السنة النبوية على حق المساواة حتى في إقامة

(1) سعيد: صبحي عبده، الإسلام وحقوق الإنسان، دار النهضة العربية، القاهرة، 1415هـ، ص 56|55.

(2) سورة الحجرات: الآية 13.

(3) القرطبي: مصدر سابق، ج 16، ص 341.

(4) الإمام أحمد: مصدر سابق، ج 2، ص 361.

(5) البيهقي: مصدر سابق، ج 3، ص 5137.

الحدود، وذلك عندما تشفع رهط من وجهاء قريش في إعفاء امرأة من عليّة القوم وجب عليها حد السرقة، فقدموا أسامة بن زيد رضي الله عنه ليكلم النبي صلى الله عليه وآله في أمرها، فأبى النبي صلى الله عليه وآله ذلك ولم يقبل تلك الشفاعة، ورد على أسامة مستنكراً وزاجراً: «أتشفع في حد من حدود الله؟ ثم قام فخطب، ثم قال: إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» أخرجه البخاري،⁽¹⁾ وذلك مما يبين أن الشفاعة في الحدود غير مقبولة في الإسلام، تطبيقاً للشرع الله تعالى وحفظاً لحقوق الناس في العدل والمساواة دون تمييز بينهم في الثواب والعقاب، ولضمان صلاح المجتمعات وبقاء الدول يجب على الحكام وولاة الأمور التقرب من الرعية ومرعاة حقوقهم والحكم بينهم بالعدل والمساواة في أمور الدين والدنيا، وذلك كله منوط بالتحلي بالإنصاف والفضيلة وحسن الخلق عند الحكام والرعية.⁽²⁾

1.3.2.4 حق الأمن:

والأمن ضرورة من ضرورات الحياة التي يجب توفيرها لكل فرد في المجتمع، وحاجة الإنسان إلى الأمن تأتي بعد حاجته إلى الطعام والشراب مباشرة، قال تعالى: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ صدق الله العظيم،⁽³⁾ وفي السنة النبوية عن عبيد الله بن محصن الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من أصبح منكم آمناً في سربه معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها» أخرجه البخاري،⁽⁴⁾ وقد كفلت الشريعة الإسلامية حق الأمن للناس كافة حتى لغير المسلمين من أهل الذمة الذين يعيشون في كنف الدولة الإسلامية، وذلك عن طريق تطهير النفوس وتهذيبها وحض الناس على التحلي بمكارم الأخلاق وطلب الفضيلة وعمل الخير ونشر السلام، كما أوجبت على الحكام وأولياء الأمور توفير حق الأمن للرعية وذلك بفرض هيبة الدولة وإقامة الحدود

(1) الإمام البخاري: مصدر سابق، ج4، ص175.

(2) المهدي: حسين بن محمد، الشورى في الشريعة الإسلامية، مكتبة المحامي، صنعاء، 2006م، ص119.

(3) سورة قريش: الآية 4.

(4) الألباني: محمد ناصر الدين، مختصر صحيح الإمام البخاري، ج1، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، 2002م، ص21.

والحكم بين الناس بالعدل وفق مانص عليه الشرع، كذلك يجب على الرعية إعانة ولاة الأمور في تحقيق الأمن والاستقرار ما أسطاعوا إليه سبيلا، قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْا أَلْأَمْرَ مِنْكُمْ فَإِن نُّنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ ﴿صدق الله العظيم،⁽¹⁾ وكذلك حصت السنة النبوية على حفظ حق الأمن وحذرت من إفزاع الناس وترويعهم حتى ولو عن طريق المزاح، فعن عبدالرحمن بن أبي ليلى رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يجلب مسلم أن يروع مسلماً» أخرجه أبو داود،⁽²⁾ وفي حفظ حق الأمن قال الإمام الشاطبي: إن الأمة الإسلامية وما سبقها من الملل أجمعت على أن الهدف الأساسي من إيجاد الشرع هو المحافظة على الدين والنفس والنسل والعقل والمال، وذلك لا يتحقق إلا بالأمن.⁽³⁾

1.3.2.5 حق التنقل:

والمراد به أن يكون الإنسان حراً في تحركاته في حله وترحاله أثناء طلبه للرزق أو العلم أو التحول من أرض الظلم والحرب إلى أرض السلام والأمان، ولقد أقرت الشريعة الإسلامية هذا الحق للناس كافة، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ ﴿صدق الله العظيم،⁽⁴⁾ ولم تقيد حق التنقل إلا على سبيل الاستثناء مراعاةً للمصلحة العامة، كحظر التنقل والسفر من وإلى الأرض التي ينتشر فيه الطاعون، فعن أسامة بن زيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها» أخرجه البيهقي،⁽⁵⁾ ولصيانه حق التنقل والسفر سنت الشريعة قوانين صارمة لتأمين المسافرين من مخاطر السلب والنهب وقطاع الطرق، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ

(1) سورة النساء: الآية 59.

(2) المنذري: أبو محمد عبدالعظيم بن عبدالقوي، مختصر سنن أبي داود، ج3، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، 2010م، ص371.

(3) الشاطبي: مصدر سابق، ج2، ص20.

(4) سورة الملك: الآية 15.

(5) البيهقي: مصدر سابق، ج3، ص376.

يُصَلِّبُوا أَوْ تَقَطَّعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ صدق الله العظيم، (١) كما فرضت الآداب العامة التي يجب الإلتزام بها في الطرق وهي تُعرف بحق الطريق، فعن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الطُّرُقَاتِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا لَنَا مِنْ مَّجَالِسِنَا بُدُّ، نَتَحَدَّثُ فِيهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجْلِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ، قَالُوا: وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الْأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ» متفقٌ عليه (٢).

1.3.2.6 حق الكفالة والرعاية الإجتماعية والصحية:

والأصل أن يكفي الإنسان نفسه ويسد حاجته بالعمل وطلب الرزق الحلال، فذلك خير له من سؤال الناس واليد العليا خير من اليد السفلى، فعن المقداد بن معد يكرب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده» أخرجه البخاري، (٣) أما الذين يعجزون عن سد حاجاتهم من الفقراء والمساكين والأيتام والعجزة وذوي الإحتياجات الخاصة فقد فرضت لهم الشريعة حق الكفالة والرعاية الإجتماعية تكريماً لإنسانيتهم وحفظاً لحقهم في الحياة، والتكافل الإجتماعي نوعان: مادي وهو الذي يتضمن الدعم العيني للملوس في النفقات والمغارم ونحوها، ومعنوي وهو الذي يقوم على الرحمة والمودة والمحبة والإخاء والصدقة وصللة الرحم والمواساة ومشاطرة الأفراح والأتراح، (٤) والتكافل والتراحم بين الأهل والأقارب والمسلمين عموماً هو فريضة واجبه تلزم به الشريعة المسلمين عموماً، وقد جعلت من ذلك عبادة يتقرب بها إلى الله جل وعلا، (٥) قال تعالى: ﴿وَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ﴾

(١) سورة المائدة: الآية 33.

(٢) الإمام البخاري: مصدر سابق، ج 5، ص 2300.

(٣) ابن حجر: مصدر سابق، ج 4، ص 354.

(٤) الشطي: بسام خضر، أثر التكافل والضمان الإجتماعي الخيري في الإستقرار الأمني، بحث منشور، جامعة الكويت/ كلية الشريعة، د.ت، ص 2-1.

(٥) صباريني: غازي حسن، الوجيز في حقوق الإنسان وحياته الأساسية، مكتبة دار الثقافة، عمان، 1997م، ص 128.

وَأَبْنُ السَّيْلِ وَلَا تُبَدِّرْ تَبْدِيرًا ﴿١﴾ صدق الله العظيم،^(١) وفي السنة النبوية ما روي عن النعمان بن بشر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» أخرجه مسلم،^(٢) وإن لم يسد الأغنياء حاجات المعسرين من ذوي القربى ترفع الحاجات إلى الدولة وأولياء الأمور وهم مُلزمون بسداد تلك الحاجات وإعالة المحتاجين وتأمين نفقاتهم من بيت مال المسلمين، فإذا تلكأ ولاة الأمور في سداد الحاجات دون عجز في بيت مال المسلمين، فيحق لصاحب الحاجة شكواهم عند القاضي، ويجب على القاضي أن يلزم أولياء الأمور بقضاء تلك الحاجة والإنفاق على المعسرين،^(٣) فإذا فرغ بيت مال المسلمين وعجزت موارد الدولة وأولياء الأمور عن سداد تلك الحاجات، وجب على الأغنياء والقادرين في المجتمع سداد تلك الحاجات، وإذا امتنعوا تتدخل الدولة ويُحق لها أن تجبرهم على سداد تلك الحاجات، وفي ذلك قال ابن حزم: (وفرض على الأغنياء والقادرين في كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ويسدوا حاجتهم من المأكَل والمشرب والمسكن بقدر حد الكفاف، ويحق للسلطان أن يجبرهم على ذلك إذا عجزت الدولة وخطى بيت المال ولم يجد في الزكاة ولا سائر أموال المسلمين)^(٤)، ويستدل على ذلك بحديث أبوسعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له، قال: فذكر من أصناف المال ما ذكر، حتى رأينا أنه لاحق لأحد منا في فضل» أخرجه مسلم.^(٥) وحق الكفالة والرعاية الاجتماعية في الدولة الإسلامية ليس حكراً على المسلمين فقط، بل يجب ضمان هذا الحق حتى لغير المسلمين من أهل الذمة الذين يعيشون في كنف الدولة الإسلامية، فسد الحاجة وكفالة المعسرين في المجتمع حقٌّ مفروض لكل رعايا الدولة الإسلامية،^(٦) ويستدل على

(١) سورة الإسراء: الآية 26.

(٢) الإمام مسلم: مصدر سابق، ج 4، ص 1999.

(٣) ابن عابدين: محمد أمين بن عمر، رد المحتار على الدر المختار، ج 2، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص 256.

(٤) ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي، المحلى بالآثار، ط 3، ج 4، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م ص 281.

(٥) الإمام مسلم: مصدر سابق، ج 3، ص 1345.

(٦) زيدان: عبدالكريم، الفرد والدولة، مطبعة سلمان الأعظمي، بغداد، 1965م، ص 53.

ذلك بأن أمير المؤمنين أبا حفص الفاروق رضوان الله عليه أسقط الجزية عن شيخ ذمي، وفرض له من بيت المال ما يسد حاجته وأمر بذلك خازنه قائلاً: (أنظر هذا وضربائه، فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شيبته، ثم نخذله عند الهرم)،⁽¹⁾ وقد حُضَّتْ الشريعة على الإحسان إليهم وإكرامهم ومجادلتهم بالحسنى، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَوَجَدُ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ صدق الله العظيم،⁽²⁾ وكذلك أباحت مؤاكلتهم أي مشاركتهم الطعام ومصاهرتهم والزواج من نسائهم وذلك كله لتأليف قلوبهم وبيان ساحة الدين الإسلامي وحفظه لحقوق الآخرين في المجتمع، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الْطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ وَلَا مَتَّجِدِي أَحْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ صدق الله العظيم،⁽³⁾ كما أباحت عيادة مرضاهم ومهاداتهم وحسن معاملتهم ومراعاة حق الجوار معهم، فقد ورد في السنة الشريفة أنه صلوات ربي عليه وأتم السليم قد عاد أحد جيرانه اليهود عندما مرض وقعد عند رأسه،⁽⁴⁾ كما قبل هدية المقوقس ملك القبط.⁽⁵⁾ أما حق الرعاية الصحية فنجد الشريعة الإسلامية قد حرصت غاية الحرص على النظافة والعناية بصحة الناس وسلامة البيئة بشكل عام من مسببات الأمراض والحد منها ومكافحتها لاسيما الأمراض الوبائية، حيث لا يتسنى لمجتمع أو أمة متهالكة وهزيلة التفكير بشكل سليم، وذلك مما يعيق حركة الصحوة والنهوض والتقدم ويطفئ جذوة الأمل التفاؤل في نفوس الناس، فتتراخي عزائمهم

(1) أبي يوسف: يعقوب إبراهيم بن حبيب بن سعد الأنصاري، الخراج، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، د.ت، ص 126.

(2) سورة العنكبوت: الآية 46.

(3) سورة المائدة: الآية 5.

(4) أبوداود: مصدر سابق، ج 3، ص 185.

(5) ابن الجوزي: أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد، المنتظم في تاريخ ملوك الأمم، ج 3، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992 م، ص 299.

وتستنزف قواهم المادية والمعنوية وذلك مما يؤدي إلى ضعف الأمة،⁽¹⁾ ولدرء ذلك والوقاية منه شرع الإسلام قواعد أساسية وثابته للحفاظ على نظافة البدن وصحته، فأوجب غسل الجمعة على كل شخص بلغ سن التكليف من المسلمين، كما أن في الوضوء طهارة وتنظيف أطراف البدن خمس مراتٍ على الأقل في اليوم والليل،⁽²⁾ أما في الإهتمام بصحة ونظافة الأطعمة فقد شدد نظام الحسبة في الإسلام على رقابة الأسواق والمطاعم والمخابز، حيث كان المحتسبون يتحققون بأنفسهم من نظافتها ونظافة الأدوات التي تستخدم في صنع الخبز والأطعمة ونظافة العمال والخبازين في أبدانهم وملابسهم وطريقة عملهم، حتى لا يحدث غش وتلاعب في ذلك،⁽³⁾ ويتسبب في حدوث أزمات صحية بانتشار الأوبئة والأمراض، وأخلاقية من حيث ممارسة الغش والتلاعب بأقوات الناس وصحتهم، لذلك يجب على الدولة التشديد في أمر الحسبة والحرص على نظافة البيئة وصحة الرعية، كما يجب عليها توفير العلاج للمحتاجين من رعاياها إذا ما نزل بهم داء، سواء كانوا مسلمين أو ذميين، وإقامة المشافي والصيدليات وغيرها من المرافق الصحية،⁽⁴⁾ وكذلك الحُجُور الصحية إذا ما وقعت الأوبئة بأحد أقاليم البلاد ومنع الناس من الخروج منه والدخول إليه، فعن أسامة بن زيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها» أخرجه البيهقي،⁽⁵⁾ إلا أن الإسلام يترك ذلك على إطلاقه من دون مواساة للمبتلين من المسلمين بالأوبئة والطواعين، فحجب إليه البقاء في بلادهم وجعلهم في مرتبة الشهداء إذا ما صبروا وأحتسبوا ولم يخرجوا من ديارهم حذر الموت حتى لا يتسع نطاق الوباء ويتفشى بين الناس، فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال عن الطاعون: «أَنَّهُ كَانَ عَذَابًا يَبْعَثُهُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، فَجَعَلَهُ اللَّهُ رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، فَلَيْسَ مِنْ عَبْدٍ يَقَعُ الطَّاعُونُ،

(1) الغزالي: خلق المسلم، مرجع سابق، ص 154-149.

(2) الشيشاني: عبدالوهاب عبدالعزيز، حقوق الإنسان وحرياته الأساسية في النظام الإسلامي والنظم المعاصرة، مطابع الجمعية العلمية الملكية، عان، 1980م، ص 437.

(3) ابن الأخوة: محمد بن محمد بن أحمد، معالم القرية في معالم الحسبة، دار الفنون، كمبردج، د.ت، ص 92.

(4) الهامي: محمد سعيد محمد، تطبيقات حقوق الإنسان في عهد الخلافة الراشدة، رسالة دكتوراة غير منشورة، الجامعة الأردنية، 2006م، ص 265-264.

(5) البيهقي: مصدر سابق، ج 3، ص 376.

فَيَمُكْتُ فِي بَلَدِهِ صَابِرًا، يَعْلَمُ أَنَّهُ لَنْ يُصِيبَهُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ، إِلَّا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ الشَّهِيدِ» أخرجه البخاري. (1)

1.3.2.7 حق التعليم:

والتعليم عنصر أساسي في تقدم وبناء الحضارات، وبه ترتقى المجتمعات وبالعلم تُهذب النفوس وترسخ فيها القيم والمبادئ التي تكسب الفضيلة ومكارم الأخلاق، كما يساهم العلم في القضاء على الفتن والفساد والتفرقات والنعرات القبيلة والعنصرية والطبقية في المجتمع، وبذلك يصبح التعليم حقًا إلزامي يجب على الدولة توفيره لجميع أفراد المجتمع، وقد اهتمت الشريعة الإسلامية بالعلم غاية الأهمية، وحثت على طلبه، بل أنها ارتقت بمستوى التعليم من كونه حق إلى مستوى الفرض والوجوب، فكانت أول آية أنزلت من القرآن الكريم تأمر بالقراءة وطلب العلم وكل ذلك يدل على تكريم الخالق جل وعلا للإنسان، قال تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾، صدق الله العظيم،⁽²⁾ وطلب العلم لا ينبغي أن يكون إلا لطلب المنفعة للناس ابتغاء مرضاة الله، ولا خير في علم مجرد صاحبه من إنسانيته ويجب الضرر والدمار والخراب على الخلق، وكذلك في السنة النبوية كما ورد عن مالك بن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «طلب العلم فريضة على كل مسلم، وإن طالب العلم يستغفر له كل شيء، حتى الحيتان في البحر» أخرجه ابن ماجه،⁽³⁾ وقد رفع الإسلام من قدر أصحاب العلم وطلابه وكرمهم وجعل منهم هداة للأمة ومرجعاً للحكام والرعية في أمور الدين والدينا، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرَفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٤﴾﴾ صدق الله العظيم،⁽⁴⁾ وليبيان عظمة العلم جعلت مرتبة طلب العلم مساوية

(1) الإمام البخاري: الصحيح، مصدر سابق، حديث رقم 3287.

(2) سورة العلق: الآية 5-1.

(3) ابن ماجه: أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه، ج 1، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ص 81.

(4) سورة المجادلة: الآية 11.

لمرتبة الجهاد في سبيل الله، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من جاء مسجدي هذا لم يأته إلا خير يتعلمه أو يعلمه فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله، ومن جاء لغير ذلك فهو بمنزلة الرجل ينظر في متاع غيره» أخرجه الإمام أحمد،⁽¹⁾ والتعليم في الإسلام ليس حكراً على الرجال فقط، بل هو حقٌّ مكفول للجميع رجالاً ونساءً وشباباً وشيباً وأطفالاً من المسلمين والمعاهدين والذميين الذين يعيشون في كنف وظل دولة الإسلام، فعن أبي سعيد الخدري أن امرأة جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا رسول الله ذهب الرجال بحديثك، فاجعل لنا من نفسك يوماً نأتيك فيه، تعلمنا مما علمك الله، فقال صلى الله عليه وسلم: «اجتمعن في يوم كذا وكذا وفي مكان كذا وكذا، فاجتمعن فأتاهن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلمهن مما علمه الله...» أخرجه البيهقي،⁽²⁾ وقد حرص النبي الرحمة صلوات ربي عليه وأتم التسليم على نحو الأمية في المجتمع الإسلامي بالسعى على تعليم الناس الكتابة والقراءة، فجعل فداء أسرى المشركين يوم بدر، بأن يُعلم كل واحد منهم عشرة من أبناء الأنصار القراءة والكتابة، فمن نجح منهم في ذلك يُطلق سراحه ويُخلى سبيله،⁽³⁾ أما حق أهل الذمة وحظهم في التعليم لم يكن أقل قدرًا من حيث الرعاية والاهتمام مما كان للمسلمين من قبل الدولة، ما لم يستخدموا العلم كأداة للقدح في الإسلام أو لفتنة المسلمين، فعندما فتح المسلمون خيبر وكان من ضمن الغنائم نسخ من التوراة، أمر نبي الرحمة صلوات ربي عليه وأتم التسليم بردها إلى أهلها أي يهود خيبر، تكريماً لهم ولدينهم وحفظاً لحرمتهم وحقوقهم في المواطنة كعنصر ومكون أساسي في المجتمع بالدولة الإسلامية آنئذ.⁽⁴⁾

1.3.3 أساسيات حقوق الإنسان في الإسلام إبان الحرب:

والحرب نقيض السلم وهي ظاهرة استخدام العنف والقوة والسلاح بين جمعين من

(1) الإمام أحمد: مصدر سابق، ج 2، ص 418.

(2) البيهقي: مصدر سابق، ج 7، ص 131.

(3) الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري، الحاوي الكبير، ج 14، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999م، ص 28.

(4) المسعودي: فهد، حقوق غير المسلمين في الدولة الإسلامية وحماتها الجزائية وتطبيقاتها، رسالة ماجستير (غير منشورة)، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، 2003م، ص 95.

البشر بغرض الدفاع أو التوسع أو الفصل في النزاعات حول المصالح أو الخلافات الدينية والسياسية والاقتصادية،⁽¹⁾ ولم تزل الحروب واقعة بين الأمم والدول منذ بدء الخليقة وهي أمر طبيعي بين البشر على مر العصور والأزمنة، وللحروب ضروب وأنواع عديدة تختلف باختلاف مسبباتها ودوافعها، ويمكن حصرها في صنفين رئيسيين الأول: حروب الفتن والبغي، ومنها التي تقوم بهدف الانتقام وهي التي تقع أكثرها بين القبائل والعشائر المتجاورة والمتناظرة، ومنها التي تقوم بسبب المنافسة والغيرة ويكثر وقوعها بين الأمم الوحشية، الثاني: حروب العدل والجهاد، ومنها التي تقوم حماية للأديان أي الجهاد عند المسلمين، ومنها التي تقع لتمهيد ملك جديد أو لتوطيد وتثبيت أركان ملك قديم قائم،⁽²⁾ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الصَّوَامِعُ وَبِيعَ وَصَلَوْتُ وَمَسْجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ صدق الله العظيم،⁽³⁾ تقع الحروب أحياناً بدافع حماية العقيدة وضمان حرية الأديان وأداء الشعائر والعبادات، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض وهلك الناس وتجبر القوي منهم على الضعيف، ولم يستقم للناس دين ولا شرع وذلك بتعدي المفسدين والطغاة وتعرضهم لدور العبادة من مساجد وصوامع وبيع وأديره بالخراب والدمار أو بمنع الناس عنها، وهنا يحق لكل أهل ديانة سماوية الدفاع عن عقيدتهم وأماكن عبادتهم سواء كانوا يهوداً أو نصارى أو مسلمين،⁽⁴⁾ أما أصحاب الشوكة والقوة من أهل الإسلام فقد حَضَّهم الله تعالى بشكل خاص على جهاد في سبيله ونصرة المستضعفين من أخوانهم المسلمين الذين يسكنون بدار ظلم، فيستغيثون بالله ثم بهم لتخليصهم من ظلم وتجبر أهل الكفر والإفساد عليهم وتعرضهم لهم بالإذلال والأذى ليفتنونهم ويصدونهم عن دين الحق، لاسيما الفئات المستضعفة في

(1) البستاني: المعلم بطرس، محيط المحيط، مطابع تيبو برس، بيروت، 1987م، ص 158.

(2) ابن خلدون: أبو زيد ولي الدين عبدالرحمن بن محمد بن محمد الحضرمي الإشبيلي، مقدمة ابن خلدون، ج 2، دار بن يعرب، دمشق، 2004م، ص 823.

(3) سورة الحج الآية 40.

(4) ابن عاشور: محمد الطاهر بن محمد الطاهر التونسي، التحرير والتنوير، ج 18، الدرا التونسية للنشر، تونس، 1984م، ص 333.

المجتمع من النساء والصبيا وضعاف الرجال،⁽¹⁾ قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ ﴿صدق الله العظيم،⁽²⁾ أما القتال بين المسلمين فهو مذموم على إطلاقه لاسيما عندما يكون من أجل التنافس على السلطة والطمع في أمور الدنيا، وكذلك القتال من أجل الخلافات المذهبية والتي يمكن حلها بالحجة والرجوع إلى الكتاب والسنة، وأيضاً تقاتل من أجل العصبية القبلية أو الطائفية، وفي كل هذه الأحوال يُذم البادئ بالقتال ومشعل نار الفتنة بين المسلمين،⁽³⁾ ولا يصح قتال المسلمين إلا لدرء الفتنة ورفع الظلم وردع الطوائف التي تظهر البغي والعدوان وتخرج عن الجماعة وتنكث بالعهود والمواثيق وتعمل على شق وحدة الأمة وتشيت شملها أو ترتد عن الإسلام،⁽⁴⁾ قال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاتَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ ﴿صدق الله العظيم،⁽⁵⁾ أي إذا وقع صراع وقاتل بين طائفتين من المؤمنين، فيجب دعوتهم إلى كتاب الله وسنة رسوله للإصلاح بينهم بالعدل وانصاف الحق، فإن أبت إحداهما وبغت وتجبرت فيجب مقاتلتها حتى تفيء وترضخ لحكم الله جل وعلا، ثم يصلح بينهما بعد الانصاف وإقامة العدل،⁽⁶⁾ وكذلك في قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُمُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿صدق الله العظيم،⁽⁷⁾ وقد استدلت البعض بهذه الآية في كيفية التعامل مع العصاة والفسادين، فيجب في البدء أن يدعوا إلى الحق بالحكمة وأن يبين لهم ذلك بالعلم

(1) الطبري: جامع البيان، مصدر سابق، ج 7، ص 25.

(2) سورة النساء، الآية 75.

(3) ابن حميد وآخرون: صالح بن عبدالله، موسوعة نظرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، ج 10، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، ص 447.

(4) الطبار: علي بن عبدالرحمن، آداب الحرب في الفقه الإسلامي والقانون الدولي، مكتبة التوبة، الرياض، 1424هـ، ص 174-186.

(5) سورة الحجرات، الآية 9.

(6) الطبري: التفسير، مصدر سابق، ج 22، ص 440.

(7) سورة النحل، آية 125.

والعمل والاعتقاد فإن لم يقبلوا، يُأتون في المرتبة الثانية بالموعظة الحسنة وذلك بتنبههم عند الغفلة وصددهم عن الشهوات بالترغيب في الحق والترهيب من الباطل، وفي المرحلة الثالثة يكون ذلك بالجدال بالتي هي أحسن في غير عنف، وأخير يأتي دور استخدام القوة مع الذين يستكبرون ويتمادون في الظلم والعدوان ولا يتردعون بالحسنى.⁽¹⁾

وقد حفظت الشريعة الإسلامية للناس حقوقهم في حالات الحرب ووضعت لذلك ضوابط أخلاقية تتناسب مع كل ظرف وزمان ومكان، حيث نهت عن التخريب والإفساد في الأرض وإهلاك الزرع والحراث والنسل والإحراق والمثلة بالقتلى حتى وإن كانوا مشركين، وقد ورد ذلك مفصلاً في حديث بريدة بن الحصيب الأسلمي الذي روى عن النبي ﷺ أنه كان إذا أمر أميراً على جيش أو سرية كان يوصيه بتقوى الله ومن معه من المجاهدين، ويأمرهم بأن لا يغلو ولا يغدروا ولا يمثلوا ولا يقتلوا وليداً ولا امرأة ولا كبيراً فانياً ولا عابداً منعزلاً بصومعة، وأن يحرصوا على دعوة خصمه من المشركين إلى الإسلام أو الجزية فإن قبلوا فقد عصموا أرواحهم وأموالهم فلا ياقاتلوا ولا يقتلوا،⁽²⁾ وفي ذلك بيان واضح على حرص الشريعة الإسلامية على حفظ حقوق الإنسان وتكريمة حتى وإن لم يكن مسلماً بل حتى وإن كان في موضع العدو فلا بد أن يكون أسلوب القتال وفقاً لضوابط الشريعة والأخلاق الإسلامية، وقد أجمع جُل علماء المسلمين على عدم جواز قتل النساء والأطفال في الحرب لو تترس بهم العدو حتى لو احتسى بهم، وقد جوز البعض منهم قتال النساء والأطفال إذا كانوا مشاركين في القتال ومباشرين له في ساحة المعركة،⁽³⁾ وقد نهى الإسلام عن الإفساد في الأرض إبان وقوع الحروب فمنع المجاهدين من قطع الأشجار والنخيل وحرق الزروع وهدم البيوت والعمران، لم يخصص للمسلمين في ذلك إلا في غزوة بني النضير حيث تحصن اليهود بصياصيهم

(1) القحطاني: سعيد بن علي بن وهف، الأخلاق في الإسلام في ضوء الكتاب والسنة، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2015م، ص456-455.

(2) لاطلاع على نص الحديث كاملاً راجع صحيح الإمام مسلم، مصدر سابق، ج3، حديث رقم 4538، ص666.

(3) ابن حجر: فتح الباري، مصدر سابق، ج6، ص171.

وظلوا يفتكون بالمسلمين ويرمونهم من وراء الأشجار والحصون لتأكدهم من عدم تعرض المسلمين للزروع والأشجار بالإتلاف، فرخص النبي عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم للمسلمين أنئذ قطع الأشجار وحرقتها حتى يتمكونوا من عدوهم،⁽¹⁾ قال تعالى: ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِىَ الْفَاسِقِينَ ﴾ صدق الله العظيم،⁽²⁾ وكذلك نهت الشريعة الإسلامية عن قتل الحيوانات بغرض الضرر والإفساد إبان الحروب ولا تذبح أو تعقر البهائم إلا للأكل وأن لا يتعدى ذلك قدر الحاجة،⁽³⁾ ومن كريم وساحة الأخلاق في الإسلام وبيان المرحمة حتى في الحروب، نجد أن النبي عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم يوم فتح مكة قد نهى أصحابه من الإجهاز على الجرحى من المشركين وأن لا يتبع مدبرهم ولا يقتلن أسيرهم، ومن دخل داره وأغلق بابه عليه فهو آمن،⁽⁴⁾ ومن الأشياء التي تعد من أجل مكارم الأخلاق وسمات الإيمان في الإسلام الوفاء بالعهود والإلتزام بالمواثيق وعدم الغدر والخيانة في السلم والحرب، قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ صدق الله العظيم،⁽⁵⁾ وأيضا في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجِدْ لِعَنِ الَّذِينَ يَحْتَابُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ صدق الله العظيم،⁽⁶⁾ أما في السنة النبوية فقد ورد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لِكُلِّ غَادِرٍ لِّوَاءٍ عِنْدَ اسْتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُرْفَعُ لَهُ بِقَدْرِ غَدْرِهِ، أَلَا وَلَا غَادِرٌ أَعْظَمُ غَدْرًا مِنْ أَمِيرِ عَامَّةٍ» أخرجه مسلم،⁽⁷⁾ ومن الأفعال المذمومة والمخالفة للأخلاق والقيم الإسلامية السمحة، عملية النهب وهي أخذ أموال الناس بغير وجه حق واغتصابها منهم عنوة بالقوة، وقد

(1) ابن هشام: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري، السيرة النبوية، ج3، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، 1990م، ص113.

(2) سورة الحشر، الآية 5.

(3) ابن عساکر: أبو القاسم ثقة الدين علي بن الحسن بن هبة الله، تاريخ مدينة دمشق، ج2، دار الفكر، دمشق، 1995م، ص75.

(4) السيوطي: جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر، الجامع الكبير، ج2، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف، القاهرة، 2005م، ص658.

(5) سورة الإسراء، الآية 34.

(6) سورة النساء، الآية 107.

(7) الإمام مسلم: الصحيح، مصدر سابق، ج3، حديث رقم 1586.

نهى الإسلام عن ذلك وشدد غاية التشديد والوعيد على من فعل ذلك، فعن عمران بن الحصين رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا جلب ولا جنب ولا شغار في الإسلام ومن انتهب نُهبةً فليس منّا» أخرجه الترمذي،⁽¹⁾ وفي تأكيد على حرمة النهب ما رواه أحد رجال الأنصار حيث ذكر أنهم خرجوا في سفر مع النبي ﷺ، فأصابته حاجة شديدة فوجدوا غنماً فانتهبوا منها وذبحوا، وكان عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم في مؤخرة القوم، فلما جاء كانت القدور تغلي، فأكفأ القدور بقوسه وهو يمشي ثم رملها أي ملاًها بالتراب وقال: «إن النهبة ليست بأحل من الميتة، إن الميتة ليست بأحل من النهبة» أخرجه أبو داود.⁽²⁾

ومن جليل مظاهر الرقى الأخلاقي في المعاملات السياسية والدبلوماسية في الإسلام، والتي تتجلى في احترام المسلمين لحقوق الجوار مع المجتمعات والدول المجاورة لهم، والوفاء بالعهود والالتزام بالمواثيق التي تبرم بينهم، علاوة على إجلال وتقدير السفارات والوفود الدبلوماسية والرسل، ومما يؤثر عنه صلوات ربي عليه وأتم التسليم أنه كان يكرم الرسل ويعرف لهم حقهم وحرمتهم، ويجسن ضيافتهم والاستماع إليهم ويناديهم بأحسن الأسماء والألقاب والكنى، يتلطف في الجواب عليهم ولا يغلظ في القول حتى وإن أساءوا إليه في بعض الأحيان، هكذا كانت أخلاقه ﷺ حتى في معاملته لموفدي مشركي قريش الذين أذوه في نفسه وأهله وأصحابه إبان حياته بمكة وبعد الهجرة، أمثال أبي الوليد عتبة بن ربيعة وسهيل بن عمر وغيرهم، فما كان بهم إلا رؤوف رحيم لين القول،⁽³⁾ قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ لَوْلَا كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ صدق الله العظيم،⁽⁴⁾ ومن السنة النبوية ما رواه نعيم بن مسعود الأشجعي أن النبي ﷺ عندما قدم عليه رسولان من قبل مسيلمة الكذاب، فعرضوا عليه كتاب صاحبهما، فقال لهما ﷺ ما تقولان أنتم؟ فقالا:

(1) الترمذي: السنن، مصدر سابق، ج2، ص296.

(2) أبو داود: السنن مصدر سابق، حديث رقم 2705.

(3) خليفة: صلاح أحمد عيد، أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية، دار التيسير للطباعة والنشر، القاهرة، ص153-152.

(4) سورة آل عمران، الآية 159.

نقول كما قال، فقال ﷺ: «أما والله لولا أن الرُّسُلَ لا تُقْتَلُ لضربتُ أعناقكم» أخرجه أبو داود،⁽¹⁾ وكان من سنته وخلقه الكريم ﷺ أن لا يجبس الرُّسُلَ، حتى إن وقع الإسلام في قلوبهم ومالوا إليه لا يمنعهم من العودة واللحاق بقومهم، فعن أبي رافع قال: بعثني قريش إلى رسول الله ﷺ، فلما رأته ألقى في قلبي الإسلام، فقلت: يا رسول الله، إني والله لا أرجع إليهم أبدا، فقال رسول الله ﷺ: «إني لا أخيس بالعهد ولا أحبس البرد، ولكن أرجع، فإن كان في نفسك الذي في نفسك الآن، فارجع» قال: فذهبت، ثم أتيت الرسول الله ﷺ، فأسلمت، أخرجه أبو داود،⁽²⁾ وكذلك فعل عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم مع رسولي باذان نائب كسرى على اليمن، بعدما مزق كسرى رسالته عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم ولم يكرم رسوله، إلا أنه عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم لم يعاملهم بالمثل بيد أنه كان بإمكانه إهانتهم أو قتلهم، لكن خلقه الرفيع منعه من ذلك فأحسن إليهم وردهم مُكرمين إلى صاحبهم، فكان ذلك سبباً في اسلام باذان الذي أسلمت بإسلامه بلاد اليمن.⁽³⁾

* * *

(1) أبو داود: السنن، مصدر سابق، حديث رقم 2761.

(2) نفسه: حديث رقم 2758.

(3) ابن كثير: أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، البداية والنهاية، ج4، مكتبة المعارف، بيروت، 1990م، ص 226-227.

الفصل الثاني

الأوضاع الأخلاقية والاجتماعية في أواخر عهد المماليك الجراكسة

2.1 الطبقة وأثرها في التكوين الأخلاقي لطبقات المجتمع إبان العصر المملوكي:

عاشت الأمة الإسلامية رداً من الزمان تحت حكم طائفة المماليك⁽¹⁾ الذين أسسوا دولتهم على أنقاض الدولة الأيوبية، حيث اشتملت رقعة دولتهم على كل أراضي مصر والشام والحجاز وأجزاء أخرى من شبه جزيرة العرب وبلاد الأناضول واتخذوا من مدينة القاهرة عاصمةً ومقرّاً لحكمهم، وقد انقسمت فترة حكم المماليك إلى قسمين فكانت الأولى بزعامة المماليك البحرية⁽²⁾

(1) وهم طائفة من الرقيق الأبيض وترجع أغلب أصولهم إلى العناصر التركية والمغولية والجرمسية والقفقاسية وغيرها من قبائل أواسط آسيا والأناضول وأطراف أوروبا، الذين يتم جلبهم إلى الديار الإسلامية عن طريق الأسر أو الشراء عبر تجار الرقيق حيث كان بعض الناس يبيعون أبناءهم خشية العيلة والإملاق، أو من أجل الحصول على مستقبل أفضل لأبنائهم من بعدما سمعوا عن أخبار المماليك وما وصلوا إليه من عز وسلطان في الديار الإسلامية، وأحياناً يتم تقديمهم بدلاً من الجزية والضرائب أو كهدايا إلى الخليفة أو السلطان من قبل ولائهم وقوادهم وعماهم على تلك الأقاليم، وقد كثر جلبهم واستخدامهم في الديار الإسلامية منذ عهد الخليفة المعتصم بن هارون الرشيد العباسي حيث كانوا يعملون في الخدمة العسكرية وبعض الأعمال الإدارية. العريني: السيد الباز، المماليك، دار النهضة العربية، بيروت، 1967م، ص55.

(2) وهم طائفة المماليك الذين أكثر من شرائهم الملك الصالح نجم الدين أيوب (1249-1239م) آخر سلاطين الدولة الأيوبية بمصر، بغرض الاستعانة بهم في حروبه الداخلية والخارجية التي كثرت في أواخر عهد الدولة الأيوبية بسبب الفتن والنزاعات التي كانت تقع بين أمراء البيت الأيوبي، وقد عرفت هذه الفئة من المماليك بالصالحية نسبةً إلى سيدهم وأستاذهم الملك الصالح نجم الدين أيوب، كما عرفوا بالبحرية نسبةً إلى جزيرة الروضة التي أسكنهم إياها وابتنى لهم بها قلعةً وثكناتٍ مخصصة لعملية تربيتهم وتعليمهم القراءة والكتابة وعلوم الدين وتدريبهم على الفروسية وفنون القتال العسكرية، وكان جلهم من أصول تركية ومغولية، وقد امتدت فترة سلطنتهم لأكثر من قرن وربع من الزمان ما بين 1250م - 1382م، =

والثانية بزعامة المماليك الجراكسة أو البرجية،⁽¹⁾ وقد اتسم عصر المماليك بصفة عامة بالطبقية والعصبية العرقية والعنصرية وذلك نسبةً للنظام الذي انتهجه سلاطينهم في إدارة وحكم البلاد ومعاملتهم للرعية، فنتج عن ذلك اختلافاً وتبايناً طبقي كبير في تركيبة المجتمع وأخلاقياته حينئذ، وذلك مما أدى إلى ظهور عادات وظواهر أخلاقية واجتماعية سالبة ومخالفة لمبادئ وقيم الشريعة الإسلامية السمحة التي يجب أن يلتزم ويتحلى بها كل مجتمع إسلامي، وقد تألف المجتمع إبان العصر المملوكي من عدة طبقات وفئات مختلفة في أجناسها وأعراقها وثقافتها وأخلاقياتها وكل صفاتها، تميزت عن بعضها البعض في الحقوق والواجبات والحريات والصلاحيات السياسية والاجتماعية والاقتصادية بصورة غير متكافئة، وقد اختلفت المعايير والمقاييس التي صُنف على أساسها المجتمع وقتئذ إلى طبقات وفئات متباينة، وفقاً لتباينها الإقتصادي والسياسي والاجتماعي والأخلاقي والعلمي، ومن أهم هذه التصنيفات التي قام بها بعض العلماء المؤرخين الذين عاصروا فترة حكم المماليك، ويأتي في مقدمتها تصنيف المقريري الذي قسم المجتمع المصري آنذاك إلى سبع طبقات وكان تصنيفه مبنياً على حسب الحالة الاقتصادية والمعيشية، حيث تأتي طبقة أهل الدولة والمراد بهم المماليك في المقدمة، ثم تليها طبقة أهل اليسر أو ولي النعمة والرفاهية من التجار، وتليها طبقة أصحاب البز⁽²⁾ أو الباعة وهم الطبقة الوسطى من التجار وتلحق بهم السوقة⁽³⁾ من عوام الناس ويقال لهم أصحاب المعاش وهم الذين يعملون على كسب

= تعاقب على السلطنة خلالها واحد وثلاثون سلطاناً. عاشور: عبدالفتاح سعيد، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، القاهرة، 1994م، ص 74-73.

(1) وهم سلاطين الحقبة الثانية من دولة المماليك وقد بلغ عددهم خمس وعشرين سلطاناً، عُرفوا بالبرجية نسبةً إلى أبراج القلعة التي أسكنهم بها سيدهم وأستاذهم السلطان المنصور سيف الدين قلاوون (-1279م) الذي أكثر من شراء المماليك الجراكسة، وقد عُرفت تلك الحقبة من فترة عصر المماليك بإسمهم، وذلك لأن السواد الأعظم من سلاطين تلك الحقبة كانوا من أصل جركسي، وقد امتدت فترة حكمهم ما بين (1517-1382م) حيث انتهت دولتهم وسقطت على يد العثمانيين. طرخان: إبراهيم علي، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، لجنة التأليف، القاهرة، 1949م، ص 11-10.

(2) البز: هي الثياب أو ضرب منها، وقيل هي متاع البيت من الثياب خاصة، والبزاز هو من حرفته البزازة أي بيع البز. ابن منظور: مصدر سابق، ج 2، ص 79.

(3) السوقة: وهي صفة تُطلق على طائفة من أصحاب المهن البسيطة في العصر المملوكي، الذين ينظر إليهم علياً القوم بعين الإزدراء والاستقلال بحيث يرونهم طائفة من الفقراء البؤساء الذين لا يمكنون =

قوت يومهم ويعشون على حد الكفاف، ثم تليها طبقة أهل الفلاحة والحراث وهم سكان الأرياف والقرى، ثم تليها طبقة الفقراء وجُلهم من الفقهاء وطلاب العلم والشهود⁽¹⁾ والكثير من أجناد الحلقة⁽²⁾ ونحوهم، ثم تليها طبقة أرباب الصنائع وأصحاب المهن والأجراء والحمالين والحاكة ونحوهم، وفي الأخر تأتي طبقة أهل الخصاصة والمسكنة وهم ذوو الحاجة الذين يسألون الناس ويتكفونهم قوت عيشهم⁽³⁾، وأيضاً من العلماء الذين عاصروا حكم المماليك وصنفوا المجتمع وقتئذ، ابن خلدون وقد صنف المجتمع إلى طبقتين، طبقة أهل الدولة والسلطان وهي الطبقة الحاكمة التي تسيطر على مقاليد الحكم والسلطة وكان ذلك حصراً على المماليك، أما الطبقة الثانية فهي طبقة العامة وهي تشمل جميع فئات الرعية وهم المحكومون المغلوب على أمرهم⁽⁴⁾ كذلك من مؤرخي ذلك العصر بيلوتي الكريتي الذي عاش في مصر أواخر القرن الرابع عشر الميلادي، وقد صنف المجتمع إلى ثلاث طبقات كبرى، أكبرها من حيث العدد طبقة الشعب أو العامة وهم الذين يخضعون فعلياً وسياسياً لحكم المماليك وبشكل اسمي وتشريفي للخليفة العباسي وذلك من حيث الشرعية الدينية فقط لاغير، وتليها طبقة البدو أو العُروبان وهم الذين

= خُلق ولا سكوكتاً متحضراً، أما السوقة فيما بينهم فإنهم لا يرون سلوكهم غريب وإنما هو نمط حياتهم والعرف السائد في التعامل بينهم. جابر: هدى، البشر والحجر القاهرة في القرن السادس عشر، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2010م، ص 172.

(1) الشهود: مفرداً شاهد وهو مصطلح شائع في المجتمع المملوكي ويُراد به الموظف الذي يشهد ببعض الشؤون المتعلقة بالدايون المستخدم فيه نفيّاً أو إثباتاً، أما في العصر العثماني فأستخدم المصطلح للدلالة على وظيفة دينية حيث يجلس أصحابها حول القاضي بحسب مراتبهم في العدالة. القلقشندي: أبو العباس شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد، صبح الأعشى في كتابة الإنشاء، ج 5، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1922م، ص 466.

(2) أجناد الحلقة: وهم طائفة من العسكر، سُموا بهذا الاسم لأنهم كانوا يتحلقون حول السلطان لحمايته، وقيل لتحلقهم حول العدو للقضاء عليه أثناء الحرب. حلاق وصباغ: حسان وعباس، المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية، دار العلم للملايين، بيروت، 1999م، ص 15.

(3) المقرزي: أبو العباس تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر العبيدي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2007م، ص 150-147.

(4) ابن خلدون: بو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد الحضرمي الإشبيلي، مقدمة ابن خلدون، ج 2، دار ابن يعربي، دمشق، 2004، ص 667.

يسكنون في البوادي وأطراف المدن، وعُرفوا بأنهم قومٌ كثيري التمرد والعصيان وكانوا على حالة من التوتر والشد والجذب شبه الدائم في علاقتهم مع المماليك، ثم تليها طبقة المماليك وهم يمثلون السلطة العسكرية والسياسية الحاكمة التي تتسم بصفة الطمع وممارسة الدسائس والانقلابات العسكرية،⁽¹⁾ ومن تصانيف علماء ومؤرخي العصر الحديث للمجتمع المملوكي، تصنيف المستشرق لين بول الذي وافق تصنيفه تصنيف ابن خلدون، حيث صنف المجتمع إلى طبقتين، طبقة المماليك وهم أقلية عسكرية حاكمة تنفرد بالسلطة والسيادة، وطبقة الشعب أو العامة وهي الطبقة الخاضعة لحكم المماليك، وليس لها من النفوذ والسلطة شيء سوى بعض الوظائف ذات الصبغة الدينية، وهم يعملون بالتجارة وفلاحة الأرض ويدفعون الضرائب للمماليك،⁽²⁾ أما التصنيف الأعم والأشمل للطبقات والفئات المكونة للمجتمع إبان العصر المملوكي كما ورد في جُل المصادر والمراجع المختصة بدراسة تاريخ حقبة المماليك، فقد قسم المجتمع إلى ثلاث طبقات رئيسية كبرى، وهي طبقة المماليك، وتليها طبقة المعتمدين وكبار التجار، ثم طبقة الشعب أو العوام، وتشعب هذه الطبقات إلى فئات وطوائف داخلية متعددة ومتباينة وفق المعايير الاجتماعية في ذلك العصر.

2.2 الطبقات المكونة للمجتمع إبان العصر المملوكي أقسامها وسماتها الأخلاقية:

تأصلت ظاهرة الطبقة في المجتمع إبان العصر المملوكي، حتى أصبح من السهل على أي شخص حتى لو كان غريباً عن البلاد أن يحكم على كل من يراهم في الطرقات والأسواق ويحدد طبقاتهم التي ينتمون إليها والمهن والحرف التي يعملون بها والديانات التي ينسبون إليها وكل ذلك من خلال المظهر الخارجي والهئية العامة التي تتميز بها كل طبقة عن الأخريات وقتئذ، وذكر في ذلك أن مبعوث تيمورلنك⁽³⁾ عندما وصل القاهرة

(1) عاشور: سعيد عبدالفتاح، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة، 1992م، ص 15.

(2) Stanley Lane- Poole; A History of Egypt in the Middle Ages, p.p 252-253.

(3) وهو تيمور بن ترغاي بن أبغاي، ويدعى أنه من نسل جنكيز خان، ولد بمدينة كاش في قزوين سنة 1336م، وقد كان يمتن اللصوصية في بداية حياته فأصيب في إحدى قدميه أثناء مطارته في إحدى =

قاصداً السلطان برقوق، كان ينظر إلى الناس بتعجب واستغراب شديد لما رآه من تباين واختلاف في هيئاتهم وأشكال وطراز ملابسهم، فلما علم أنهم يفعلون ذلك من أجل التمييز الطبقي، تعجب وقال نحن في بلادنا لا تختلف ملابس السلطان ورجال الدولة عن ملابس العوام بعضها عن بعض في شيء يُذكر،⁽¹⁾ وفي ذلك دليل واضح على التمسك بالطبقية الاجتماعية القائمة على الحالة الاقتصادية والانتهاآت العرقية والدينية في المجتمع بمصر والشام وغيرها من أقاليم السلطنة المملوكية وقتئذ، وبناءً عليه يمكن تقسيم المجتمع إبان العصر المملوكي إلى ثلاث طبقات كبرى تتفرع منها طوائف وفئات داخلية صغرى، على النحو التالي:

2.2.1 طبقة المماليك:

وتنقسم إلى طائفتين كبيرتين، طائفة الأمراء وأرباب السيوف، وطائفة المماليك السلطانية والأجناد، وتتفرع كل طائفة منها إلى فئات صغيرة وفقاً لنظام الرتب العسكرية الذي يترقى فيه المماليك إبان فترة عملهم بالخدمة السلطانية، ويأتي على قمة الهرم الإداري والعسكري والاجتماعي في طبقة المماليك السلاطين وهم أصحاب السلطة العليا والكلمة المطلقة في الدولة، ويتمتع السلاطين بأكبر الإقطاعات وأجودها تربةً وأغزرها إنتاجاً وتُعرف إقطاعاتهم بالخاص السلطاني أو الخاص الشريف، علاوةً على ما يشترونه من أملاك وأراضي وعقارات بما تدره عليهم إقطاعاتهم من إيراداتٍ ومكاسب، وتُعرف هذه بالأُملاك السلطانية الشريفة،⁽²⁾ وقد عاش سلاطين المماليك حياةً مترفة مليئةً بالمفاخرة

= سرقاته فأصبح أعرجاً من جراء تلك الإصابة، فلقب بلنك أي الأعرج، وقد أسس دولته على أنقاض دولة الجغتائيين ببلاد ماوراء النهر سنة 1370م، وشرع في التوسع واجتياح البلدان والممالك المجاورة له، ثم توسع حتى بلغ بلاد الشام والناضول والهند، وكانت فترة وجوده وحكمه وبالأعلى الأمة الإسلامية وجميع الخلق إذ أهلك العباد ودمر البلاد وعاث في الأرض الفساد، وظل على تلك الحالة من الظلم والفساد والطغيان حتى قبضت روحه 1404م. ابن عربشاه: أبو محمد أحمد بنين محمد، عجائب المقدور في أخبار تيمور، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2011م، ص 6-8.

(1) ابن شاهين: غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، مكتبة المثني، بغداد، 1963م، ص 88.

(2) وبذلك تمكنوا من تكوين الثروات الضخمة والأموال الطائلة حتى قيل أنه عندما يتوفى أحد السلاطين يخلف تركة تُعد ولا تحصى من القناطير المنتظرة من الذهب والفضة والخيول المسومة والماشية =

والمباهاة والتمسك بالمظاهر المادية،⁽¹⁾ ويتجلى ذلك في قصورهم ودُروهم السلطانية التي تُعرف بالبيوت الشريفة التي تحوى الأثاث الفاخر والنوافير الضخمة وصنابير المياه الباردة والساخنة، والشراب خاناه⁽²⁾ والركاب خاناه⁽³⁾ والطبل خاناه⁽⁴⁾ والحوائج خاناه⁽⁵⁾ وحظائر وأقفاص للحيوانات والطيور الغريبة والنادرة وغير ذلك،⁽⁶⁾ وقد انغمس السلاطين في تلك الملذات فأصبحوا يتفاخرون ببناء البيوت الفارهة والمدارس والجوامع والأضرحة والأوقاف وإقامة الولائم، وانشغلوا بمتاع الدنيا والسلطة والتنافس عليها حتى فسدت أخلاقهم فظلموا وتجبروا، ولم يتورعوا عن المال العام والتعدي على أموال الناس وأكل حقوقهم بالباطل، حيث لم يكن السواد الأعظم من السلاطين على درجة عالية من التدين والعلم والإمام بشؤون الدين والدنيا،⁽⁷⁾ وقد منح السلاطين أبناءهم الإقطاعات الكبرى

= والفراء الثمينة وآلاف من المماليك الذين اشتراهم في حياته. ابن تغري بردي: أبوالمحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي بن عبدالله الظاهري الحنفي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج5، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، القاهرة، 1963م، ص597.

(1) الحجبي: حياة ناصر، الأمير قوصون صورة حية لنظام الحكم في سلطنة المماليك، مجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، مج8، العدد 1988، 32م، ص8.

(2) الشراب خاناه أي بيت الشراب، وهو المكان الذي تُحفظ به المشروبات الخاصة بالسلاطين أو الأمراء ومستلزماتها وملحقاتها، بالإضافة إلى المعاجين والترياقات والأقراص التي تستخدم كعقاقير طبية. القلقشندي: مصدر سابق، ج4، ص9.

(3) الركاب خاناه: وهو الموضع الذي تحفظ فيه جميع مستلزمات الخيول من سروج وجرم وكنابيش وغيرها، وتكون الأدوات الخاصة بالخيول السلطانية منها موشاة بالذهب والفضة وعليها رسم السلطان. نفسه: ج4، ص12.

(4) الطبلخاناه وهو مصطلح مملوكي، والمراد به بيت الطبل أي المكان الذي توضع فيه الطبول والأبواق وملحقاتها من الآلات، ويشرف على ضربها في كل ليلة ويتولى أمرها في الحبل والأسفار شخص يُعرف بأمر علم وهو أحد أمراء العشرات. نفسه: ص13.

(5) الحوائج خاناه: وهو الموضع الذي تحفظ به مستلزمات المطبخ السلطاني وما يخص لبيوت الأمراء والمعميين من لحوم وتوابل وخضر وحلويات وبخور. النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج1، تحقيق مفيد قميحة وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004م، ص222-223.

(6) ولكمال الرفاهية والأبهة كان بعض السلاطين في الصيف يأمرهم بجلب الثلج لتبريد المشروبات من مرتفعات وجبال الشام، وخصصوا لذلك هجناً سريعة لنقله في البر وسفناتاً تحمله عن طريق البحر فيصل إلى القلعة في أسرع وقت ويتم حفظه في الشرب خاناه. المقرئزي: أبو العباس تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر العبيدي، الخطط المقرئزية، ج3، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م، ص342.

(7) وقد ورد في ذكر ندره حج السلاطين الجراكسة لبيت الله الحرام على لسان القرماني قائلاً: «وقيل أنه =

والرتب العسكرية العليا على الرغم من صغر سنهم وعدم كفايتهم ولا تدرجهم في سلك الخدمة العسكرية بصورة تراتبية وطبيعية، كما فعل السلطان شيخ المحمودي⁽¹⁾ عندما منح ابنه إبراهيم إمرة مائة وتقدمة ألف، ويُعرف أبناء السلاطين بين الناس بالآسياد، كما أنهم يشتركون مع أبناء الأمراء في لقب أولاد الناس،⁽²⁾ ولعل هذه التعديلات وصفات الظلم والفساد الأخلاقي لم تكن حصراً على طبقة المماليك فقط، وإنما هي سمة ذلك العصر التي لم تخل منها جميع طبقات المجتمع،⁽³⁾ ولكن على الرغم من ذلك لا بد من إنصاف البعض من السلاطين الذين عُرفوا بحُسن الخلق والتواضع والتمسك بالدين وحب عمل الخير والقرب من الرعية، حيث يشاركونهم في الاحتفالات الرسمية والشعائر الدينية ويتصدرون قوافل الحجيج، ويوقرون أهل العلم وطلابه ويجرون الأرزاق عليهم،⁽⁴⁾ ويهتمون بعمارة المساجد والتكايا والأوقاف العامة، ويحرصون على إقامة العدل وإزالة المنكر والباطل بأيديهم ما

= لم يحج أحد من السلاطين الجراكسة غير السلطان الأشرف قايتباي المحمودي، وكان ذلك حدث غريب حيث لم يُعهد لسلطان حج إلى بيت الله الحرام منذ أكثر من مائة عام من قبل». أحمد بن يوسف، أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، ج2، تحقيق أحمد خطيط وفهومي سعد، عالم الكتب، بيروت، 1992م، ص319.

(1) وهو السلطان الملك المؤيد شيخ بن عبدالله المحمودي الظاهري، الثامن والعشرون من سلاطين المماليك، ورابع ملوك الجراكسة، وأصله من مماليك السلطان الظاهر بقوق وكان يُلقب بالخاصكي المجنون، اعتلى سدة الحكم في مطلع شهر شعبان من سنة 815هـ، ومن غريب ما فعل أنه قام بقتل ابنه الأمير إبراهيم بالسّم خوفاً من انقلابه عليه وانتزاع السلطة منه، وذلك عندما علم بأن بعض الأمراء قد أوعزوا إليه بأن يسלטونه مكان والده، وقد كثر كلام الناس في حق السلطان وغلظته بعدما علموا بما فعله بابنه، وصاروا يدعون عليه في وجهه، ولم يُعمر بعد تلك الحادثة كثيراً فما كان بين موته وموت ابنه إلا سبعة أشهر وبضع أيام من سنة 824هـ. ابن إياس: محمد بن أحمد الحنفي، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج2، تحقيق محمد مصطفى، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، 1975م، ص52-61.

(2) نفسه: ص 10-5.

(3) الشرفاوي: الشيخ عبدالله بن حجازي بن إبراهيم الشافعي الأزهري، تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الملوك والسلاطين، تحقيق وتعليق رحاب عبدالحميد القاري، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1996م، ص107.

(4) وكانت هنالك صفة من السلاطين محيين للعلم مجلين لأهله، وكان منهم من له معرفة ودراية بالمسائل الفقهية ومجالسة الفقهاء ومناقشتهم، ومنهم من أجاد العامية المصرية ومنهم أتقن العربية وفتح لسانه فأصبحوا يقرضون الأشعار وينظمونها. ابن إياس: مصدر سابق، ج2، ص34.

استطاعوا إليه سبيلاً.⁽¹⁾ أما طائفة الأمراء فهي تنقسم إلى أربع فئات، وتأتي في مقدمتها فئة أمراء المئات وهم أعظم الأمراء شأنًا وأعلاهم مرتبةً وأرفعهم قدرًا، وهم الذين تجمع لهم الإمرة على مائة فارس وربما زادت عشرة أو عشرين في بعض الأحيان، ولهم الصلاحية في قيادة ألف جندي وهذا ما لا يكون لغيرهم، ومنهم يكون كُبراء النواب⁽²⁾ وأرباب الوظائف السلطانية،⁽³⁾ ويليهم أمراء الطبلخانة وهم أصحاب الفئة الثانية من أرباب السيوف، وهم الأمراء الذين تُدق الطبول والأبواق عند أبوابهم، وتبلغ عُدة أحدهم أربعين فارساً وقد تصل إلى سبعين أو ثمانين فارساً في بعض الأحيان، ولا تكون الطبلخانة لأقل من أربعين، ويمثل أمراء هذه الفئة أصحاب المرتبة الثانية من أرباب الوظائف وأكابر الولاية والكُشاف بالأعمال،⁽⁴⁾ ويليهم في المرتبة الثالثة أمراء العشرات، وتبلغ عُدة كل أميرٍ منهم عشرة فوارس وقد تزيد في بعض الأحيان فتصل حتى عشرين فارساً، ومنهم يكون صغار الولاية وأرباب الوظائف في الخدمة السلطانية،⁽⁵⁾ ويليهم في المرتبة الرابعة أمراء الخمسات، وتبلغ عُدة كل أمير خمسة فوارس، وهم قلة خصوصاً بالديار المصرية، ويمثلون آخر فئات الأمراء ويكون جُلهم من أبناء الأمراء الذين لقوا حتفهم أثناء الخدمة العسكرية، فتمنح لهم هذه الرتبة وفاءً وتقديراً لأبائهم، ويُلحق بهذه الفئة أيضاً أكابر الأجناد.⁽⁶⁾

وقد حظيت طائفة الأمراء المهاليك بمكانة عالية في المجتمع ودرجة رفيعة عند

(1) العليبي: مرجع سابق، ص 90.

(2) النواب أو أصحاب النيابة: وهم الأمراء الذين ينوبون عن السلطان في إدارة النيابة والأقاليم من أراضي الشام التابعة للسلطنة، وللنواب صلاحيات واسعة وهم كامل التفويض من السلطان في كيفية إدارة نياباتهم بصورة لامركزية، ويعتبر النائب سلطان مصغر بالنيابة، ولا يتلقى النواب الأوامر من أي أحد غير السلطان ويكون ارتباطهم به مباشرة دون وسطاء. القلقشندي: مصدر سابق، ج 4، ص 17.

(3) السيوطي: الحافظ جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد الخضير، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج 2، تحقيق محمد الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1986م، ص 129.

(4) نفسه: ص 14.

(5) العمري: شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي، التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988م، ص 74.

(6) طرخان: إبراهيم علي، النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، مطبعة وزارة الثقافة والإرشاد، القاهرة، 1968م، ص 162.

السلطين،⁽¹⁾ فهم رجال الدولة الأوائل وإليهم تُحول المهام السلطانية والسلطات التنفيذية والصلاحيات الواسعة التي كانت تغطي على نفوذ بعض السلطين أحياناً،⁽²⁾ علاوةً على الثراء الفاحش⁽³⁾ والعيش الرغد والحياة المترفة الباذخة التي تمتعوا بها فكانوا أشباهاً بالسلطين حيث لم يرد في المصادر التاريخية قط أن أحداً من أمراء المهاليك قد افتقر أو عاش حياة فيها شيءٌ من الضيق والبؤس،⁽⁴⁾ فشيّدوا القصور وزخرفوا جدرانها وسقوفها بالذهب⁽⁵⁾، وتُعرف قصورهم بالبيوت الكريمة وهي على غرار البيوت الشريفة أي القصور السلطانية، وقد أوجدوا بها أقساماً خاصة مثل الطشت خاناه⁽⁶⁾ والشراب

(1) كما ورد في خبر السلطان المنصور قلاوون عندما أوصى ابنه الأشرف خليل برعاية الأمراء قائلاً: «... فهم السوار الواقى وهم ذخائر الملوك وجواهر السلوك، فكن لجندهم متحجباً ومصالحهم وآرائهم مستصوباً وفي شكرهم مسهباً...». القلقشندي: مصدر سابق، ج 1، ص 166.

(2) وقد شاع ذلك عند إجلاس الأطفال والصغار على كرسي السلطنة، مثلما حدث مع السلطان محمد بن قلاوون حيث تسلط عليه الأميران سلار وبيبرس الجاشنكير، وقد بلغ تسلطها درجة أن يتحكماً في مطعمه ومشربه وملبسه وكل تصرفاته ولا يمكنه فعل أي شيء إلا عن طريقها، وقيل أنه مرةً أشتهى أوزاً فحُمِلَ الطلب إلى الأمير سلار فأجاب قائلاً: «وايش يعمل السلطان بالأوز؟ هو الأكل عشرين مرةً بالنهار؟». المقرزي: أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر الحسيني العبيدي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 2، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، 1997م، ص 449.

(3) ومن مظاهر هذا الثراء الفاحش أنه بلغت ثروة بعض الأمراء ما يعادل ثروات أهل مدينة بأكملها، مثل الأمير سلار الذي بلغت ثروته 1,394,000 ديناراً ومن الذهب الخالص، و800,000,000 دينار أخرى، بالإضافة إلى 2,571,000 درهم، وقيل أن ما يتقاضاه يومياً من أجرة أملاكه يبلغ ألف دينار أو يزيد، علاوةً على الجواهر والألبسة وغيرها من المقتنيات الثمينة. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، مصدر سابق، ج 9، ص 21-20. وكذلك ورد أن أحد نواب مدينة دمشق قد قام بشراء مدينة عمان بأكملها وضمها لقطاعه. ابن قاضي شهبة: أبو الفضل تقي الدين أبوبكر بن أحمد بن محمد الأسدي، تاريخ ابن قاضي شهبة، ج 4، تحقيق عدنان درويش، المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق والحفان والجابي للطباعة والنشر، دمشق، 1997م، ص 550.

(4) ضومط: أنطوان خليل، الدولة المملوكية، دار الحداثة، بيروت، 1985م، ص 8.

(5) وقد ورد في وصف البيوت الكريمة وما حوته من ذهب وتحف وثورات، أنه عندما تعرض قصر الأمير قوصون للنهب حدث هبوط حاد في أسعار الذهب لكثرة ما وصل لأيدي الناس والتجار من الذهب الذي نُهب من القصر. المقرزي: الخطط، مصدر سابق، ج 3، ص 117.

(6) الطشت خاناه هو لفظ فارسي مركب ويعني بيت الطشت، فكلمة خاناه تعني بيت أو موضع، أما الطشت فهو إناء مثل الصحن الكبير يستخدم لحمل الطعام والماء، والطشت خاناه فهو الموضع المخصص لحفظ الطشت المستعملة في غسل الأيدي وملابس السلطان وما هو مستخدم من الأقمشة والسجاجيد والمقاعد في المجلس السلطاني. دهمان: محمد أحمد، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر، دمشق، 1990م، ص 108.

خاناها والسلاح خاناه⁽¹⁾ وغيرها من الأشياء التي لم تكن توجد إلا بالقصور السلطانية،⁽²⁾ ومن مظاهر المبالغة في الترف والزهو والاستعلاء والكبر عند أمراء المماليك أنهم كانوا يتخذون خُداماً يُعرفون بالبشمقدار⁽³⁾ وظيفتهم حمل نعل الأمير، كما أتخذوا لهم مراكب من الخيول المطهمة الفارهة ومواكب مهيبة تتقدمهم في كل تحركاتهم، ويتخذ كل أمير لوناً وشعاراً خاصاً به وبمما ليكه يميز به نفسه عن بقية الأمراء ومماليكهم، ويُعزى هذا الثراء الفاحش الذي أنعمت به هذه الطائفة من الأمراء إلى تعدد مصادر دخلهم واتساع إقطاعاتهم⁽⁴⁾ وأملاكهم، علاوةً على الهبات والإنعامات السلطانية التي يحصلون عليها عند زيارتهم السنوية للسلطان من مال وكسوة وخيول وغيرها من الهدايا السلطانية الفاخرة،⁽⁵⁾ إضافةً على ما يأخذونه من المحتسين بدلاً عن إشرافهم على المؤسسات الدينية والمرافق الصحية،⁽⁶⁾ كما أن لهم غارات سنوية على بلاد الريف يجمعون خلالها الثروات الضخمة والمال الوفير،⁽⁷⁾ أو عن طريق المصادرات وأخذ أموال الناس بالباطل وقد انتشرت هذه

(1) السلاح خاناه أو الزردخاناه أي بيت السلاح، وهو الموضع الذي تحفظ فيه الأسلحة من سيوف ورمح ودروع وزرد وقيسي وغيرها من أنواع الأسلحة. القلقشندي: مصدر سابق، ج4، ص11-10.

(2) السبكي: تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، معيد النعم ومبيد النقم، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1986م، ص50.

(3) وهي من أرذل وأحقر الأعمال وأقبحها، ومن أسوء البدع التي ابتدعتها أمراء المماليك في المجتمع، إذ جعلوا من الناس من يحمل نعلهم ويجرسها، وهذا من أعظم الحمق والرعاية والكبر وسوء الخلق وقلة الأدب. نفسه: ص52.

(4) الإقطاعات ويُقال لها أيضاً الخبز والمثال وهي الأراضي التي تمنحها الدولة للأمراء والأجناد مقابل ما يقدمونه لها من خدمات إدارية وعسكرية، ويكون الإقطاع تحت تصرف الأمير أو الجندي طوال مدة اشتغاله بالخدمة السلطانية، ويمكن تبديل الإقطاع إذا انتقل الأمير للعمل بمكان آخر، وأحياناً يمنح الإقطاع مدى الحياة، بيد أن الإقطاع لا يورث، فبمجرد خروج الأمير أو الجندي من الخدمة أو وفاته يرد الإقطاع إلى الأملاك السلطانية حيث تتم إعادة توزيعها من جديد. المقريري: السلوك، مصدر سابق، ج4، ص107.

(5) علاوة على الرواتب الجارية والأرزاق والأطعمة من اللحوم والزيوت والخبز والتوابل وعليقة الخيول التي تتفاوت مقاديرها حسب راتب الأمراء، وكلما رزق أحدهم بولد يخصص له زيادة في هذه المقادير حتى يكبر ابنه ويدخل في جنود الحلقة فيعطى إقطاعاً خاصاً مستقلاً عن والده. القلقشندي: مصدر سابق، ج4، ص51.

(6) المقريري: السلوك، مصدر سابق، ج4، ص484.

(7) ابن صرصري: محمد بن محمد بن أحمد، الدرّة المضية في أخبار الدولة الظاهرية، تحقيق عارف أحمد عبدالغني، دار كنان، دمشق، 2014م، ص75.

الظاهرة بين طائفة كبيرة من الأمراء والنواب لجمع الأموال وتكوين الثروات الضخمة،⁽¹⁾ ولإدارة هذه الثروات استخدم الأمراء مماليتهم وبعض العوام كمحاسبين وكتبه وجباة للضرائب وفي بعض الأعمال التجارية الأخرى، وبذلك أصبحت هذه الطوائف الأميرية الإقطاعية تمثل النظام الإداري والراعي الرسمي لشؤون الدولة بالأقاليم والنيابات،⁽²⁾ حيث يخولهم السلاطين صلاحيات واسعة ويسمح لهم بالتصرف شبه المستقل في الأقاليم، إلا أن معظم الأمراء كانوا في الغالب يسخرون تلك الصلاحيات في تحقيق طموحاتهم ومنافعهم الشخصية من دون مراعاة للمنفعة العامة وحقوق الرعية،⁽³⁾ وللحفاظ على هذه الثروات الطائلة والمراكز الاجتماعية والوظائف المرموقة يقوم الأمراء بتقديم الهدايا الفخمة من الغلمان والخيول والأقمشة وغيرها من النفائس حتى ينالوا الحظوة والرضى عند السلطان ويضمنون البقاء في مناصبهم الإدارية والعسكرية العليا،⁽⁴⁾ كما أنهم لا يتورعون في سبيل ذلك عن تقديم الرشاوى وتدبير المؤامرات والدسائس فيما بينهم أو ضد السلطان نفسه إذا حدث تعارض بين مصالحهم، وقد يصل الأمر إلى إعلان الحرب بشكل رسمي كما وقع بين الأميرين جان بلاط نائب القدس وقاني بك نائب غزة في سنة 1494م،⁽⁵⁾ وغالباً ما تكون نهاية هذه الصراعات بقتل أو عزل أحد الأميرين، وكان السلاطين على

(1) ومما فعله فساق أمراء المماليك ونوابهم لجمع الثروات وأخذ أموال الناس بالباطل على سبيل المثال لا الحصر، ما فعله الأمير آقباي نائب غزة وعصبته في سنة 1497م، حيث كانوا يقطعون الطريق على الناس ويأخذون أموالهم غصباً في وضح النهار من دون حياة ولا خوف. ابن طولون: شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الصالحى، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م، ص200.

(2) النيابات: وهي نظام إداري لا مركزي وضعته الدولة الأيوبية لتقسيم بلاد الشام إلى وحدات وأقاليم إدارية محددة عُرفت بالنيابات ومفردتها نيابة، بحيث تكون كل نيابة مستقلة بدواوينها ومرافقها الخاصة والعامة عن النيابات الأخرى، ويكون ارتباطها بالسلطان مباشرة عن طريق نائبه عليها، وقد اتبع المماليك هذا النظام في إدارتهم لبلاد الشام حتى زوال دولتهم عام 1517م. الدجاني: برهان وهادية، الصراع الاسلامي الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1994م، ص398.

(3) لا بيدوس: ايرا، مدن الشام في العصر المملوكي، دار حسان، دمشق، 1985م، ص86.

(4) ابن الفرات: ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم بن الحسن، تاريخ ابن الفرات، مج9، ج2، تحقيق قسطنطين زريق، المطبعة الأميركانية، بيروت، 1909م، ص454.

(5) العليمي: أبو اليمين القاضي مجير الدين بن عبدالرحمن بن محمد الحنبلي، الأئس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج2، المطبعة الحيدرية، النجف، 1968م، ص374-376.

دراية بخطورة أمثال هؤلاء الأمراء وما وصلوا إليه من نفوذ وقوة قد تتجاوز أحياناً قوة السلاطين أنفسهم، وللحد من هذا النفوذ يلجأ السلاطين إلى قتل بعض الأمراء أو التفريق بينهم وتشتيت شملهم قبل أن يستعصى أمرهم وتقوى شوكتهم.⁽¹⁾

أما طائفة المماليك السلطانية والأجناد فيأتون في المرتبة الثانية من طبقة المماليك، وهم من أفراد الفرق المتخرجه حديثاً من الطباق، ويتم توزيعهم على نيابات ودواوين السلطنة حسب الأهمية والحاجة، وقد حظيت فئة المماليك السلطانية بقدر عالٍ من العناية فهم أعظم الأجناد شأنًا وأكثرهم عطاءً وأوفرهم إقطاعاً وأشدهم قرباً من السلطان، ومنهم يكون الخاصكي السلطاني⁽²⁾ ومنهم يؤمر الأمراء بعد تدرجهم في الرتب العسكرية،⁽³⁾ أما أجناد الحلقة فهم أقل درجة من المماليك السلطانية، وهم جمعٌ غفيرٌ ممن احترف الجنديّة من مماليك السلاطين السابقين وأولاد الناس، وقد يلحق بهم من هم ليسوا بجند من المعممين وغيرهم من الذين يُدعون إلى حمل السلاح في أوقات الحروب فقط لاغير، ويكون على كل أربعين شخص منهم مقدم يقودهم في الحروب والأسفار، وعلى كل مائة نقيب أو باش، وهو المسؤول عن ثكنتهم وجمعهم عند الحاجة،⁽⁴⁾ ويشرف على كل ألفٍ منهم أمير من أمراء المائة، وتصرف لهم رواتب شهرية من ديوان الجيش، على شكل حقوق أو منح إقطاعية.⁽⁵⁾

(1) وذلك مثلما فعل السلطان الناصر محمد بن قلاوون في عام 1321-1309م عندما استعاد عرشه من أمراء المماليك البرجية الذين استغلوا ضعفه وصغر سنه، فنكل بهم أشد نكال وقتل زعيمهم الأمير بيبرس الجاشنكير، واتبع سياسة صارمة في الحد من نفوذ بقية الأمراء بتقليل ثرواتهم وإضعاف صلاحيتهم، وقتل بعضهم باغراقهم في النيل حتى يكونوا عبرةً وعظةً لغيرهم من الأمراء. عاشور: سعيد عبدالفتاح، العصر المماليكي في مصر والشام، ط2، دار النهضة العربية، القاهرة، 1976م، ص150-149.

(2) الخاصكي أو الخاصكية وهم فرقة من المماليك السلطانية، ينتقدهم السلطان بنفسه من بين ثقات مماليكه الذين تربوا على يديه منذ نعومة أظافرهم، ليتخذ منهم حرساً خاصاً له يلازمونه في جميع أوقاته جلواته وخلواته، ويتم استعالمهم أيضاً في المهات والمراسلات الخاصة الداخلية والخارجية، وهم من ذوي الخطوة والدرجة الرفيعة عند السلطان وينالون من المال والعطايا النفيسة بالقدر الذي يناله المقدمين من كبار الأمراء. ابن شاهين: مصدر سابق، ص107.

(3) القلقشندي: مصدر سابق، ج4، ص16-15.

(4) العمري: شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج2، تحقيق كامل الجبوري ومهدي النجم، دار الكتب العلمية، بيروت، 2010م، ص383.

(5) نوري: مروان سالم، نظم الحكم والإدارة في مصر في العصر المملوكي، رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة تكريت/ كلية التربية للعلوم الإنسانية، 2014م، ص330.

2.2.1.1 طبقة المماليك مساهمتها وخصائصها الاجتماعية والأخلاقية:

تميزت طبقة المماليك بالانعزال الاجتماعي عن بقية طبقات المجتمع، وخلقوا لأنفسهم مجتمعاً خاصاً بهم يتسم بالعنصرية والترفع والنظرة الإستعلائية تجاه طوائف المجتمع الأخرى، وقد اختلفوا عن أهل البلاد الأصليين في أصلهم ولغتهم وثقافتهم وطريقة تكوينهم وتربيتهم وأسلوب حياتهم، حيث كانوا يعتزون بأنهم مماليك⁽¹⁾ ولا يتنكرون لأصلهم أبداً بل يتفاخرون بذلك⁽²⁾ على الرغم من بلوغهم أعلى مراتب القوة والسلطان،⁽³⁾ أما فيما بينهم فقد شاعت العصبية العرقية حيث اختلفت أعراقهم باختلاف مورادهم التي كانوا يجلبون منها، فمنهم من ينتمون إلى العرق التركي والمغولي أو السلافي والروسي، ومنهم من ينتمون إلى الجركس أو الروم أو الأسيان وغيرها من الأعراق والأجناس التي يفد بها تجار الرقيق إلى الديار الإسلامية، وتُعزى تلك السمات الإنعزالية والصفات العنصرية والاستعلائية التي اتسمت بها طبقة المماليك إلى طبيعة شخصية المماليك وتكوينهم، وذلك نسبةً للمناهج التي اتبعتها السلاطين والأمراء في عملية التربية والتكوين الأخلاقي للمماليكهم الجدد.⁽⁴⁾

2.2.1.2 النظام التربوي وأثره في التكوين الأخلاقي لشخصية المماليك:

في أواخر العصور الوسطى اشتد شغف ملوك وسلاطين الديار الإسلامية بشراء المماليك

(1) وذلك بأنهم يقولون نحن ممالك أي رقيق مملكة لا عبيد قن، وهم السبي الذين يولدون لأبوين حُرّين، ثم يتم شرائهم وتربيتهم للإستعانة بهم في الجندية وما إليها من أعمال، أما عبيد القن فهم الخدم الذين ولدوا لأبوين أرقاء ويقال القن للمشتري لا للسبي. الرازي: مصدر سابق، ج 1، ص 298.

(2) حيث توسع مفهوم مصطلح مملوك إبان العصر المملوكي، فكان لا يراد به إلا إظهار الولاء والطاعة للدولة، وأصبح الكثير من الناس يتطلع إلى ذلك فيخلق صفة مملوك باسمه حتى وإن لم يكون مملوكاً ينتمي إلى طبقة المماليك، وبلغ من ذلك أن ينعت بعض السلاطين أنفسهم بلقب مملوك مثلما فعل السلطان الناصر محمد بن قلاوون، بيد أنه ابن سلطان ولم يمسه الرق بل أنه يُعد من أولاد الناس، وكذلك فعل الشيخ نور الدين علي وهو من كبار علماء طبقة المعممين، أما العوام فقد حرص أكثرهم على نعت أنفسهم بصفة المملوك لاسيما في الوثائق والأوراق الرسمية، طمعاً في الحصول على التسهيلات والامتيازات التي يحصل عليها المماليك في قضاء حوائجهم الخاصة والعامة. عاشور: المجتمع المصري، مرجع سابق، ص 34.

(3) أبو الفرج: هيام صالح يحيى، مجتمع دمشق ودوره السياسي في عصر الدولة المملوكية الثانية (- 784 923هـ/ 1382م - 1517م)، رسالة ماجستير غير منشوره، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، 2000م، ص 33.

(4) عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، مرجع سابق، ص 321-320.

والاستكثار منهم، فكان كلما كثر ممالك السلطان أو الأمير دل ذلك على قوته وشدة بأسه وعظيم نفوذه ومكين سلطانه، بحيث يتمكن من فرض هيئته وإنفاذ كلمته وتأمين نفسه وأولاده وطائفته من كيد ودسائس ومؤامرات الأمراء المنافسين له والفرق المنسوبة إليهم من الممالك، فيضمن بذلك بقاءه في السلطة إن كان سلطاناً أو الترشح لها إن كان أميراً ذا طموح ورغبة في السلطنة.⁽¹⁾ وقد بذلوا الأموال الوفيرة من أجل ذلك، حيث يفد عليهم كبار تجار الرقيق بمجرد وصولهم إلى الديار الإسلامية ليعرضوا عليهم بضاعتهم من الرقيق الأبيض،⁽²⁾ ويشترط عليهم أن لا يعرضوا إلا الأحداث من الصبيان وذلك لضمان صفاء أذهانهم ونقاء صدورهم وسلامة أخلاقهم التي لم يدنسها لؤم الطباع ولا خالطتها شوائب اللذات، فتسهل عملية تربيتهم وتعليمهم وتكوينهم كيفما شاء أساتذتهم⁽³⁾ أي أصحابهم من السلاطين والأمراء، فيتخرون منهم الأصحاء وحسني المظهر الذين تبدو عليهم علامات الذكاء والنجابة والقوة، ثم يرسلونهم إلى الأطباء لفحصهم والتحقق من سلامة أبدانهم قبل شرائهم ودمجهم مع أقرانهم،⁽⁴⁾ وفور إتمام عملية شرائهم يلحقونهم بطبقة بني جنسهم من الممالك في الطباق⁽⁵⁾ السلطاني بالقلعة، حيث يسلمونهم للطواشي⁽⁶⁾ المقدم

(1) وقد ورد أن السلطان المنصور قلاوون الألفي كان يقول: «إن كل السلاطين قد قاموا بعمل أشياء يُذكرون بها من مالٍ وعقار، وأما أنا فقد شيدت أسوراً وبنيت حصوناً منيعة تحمي أبنائي وجميع المسلمين»، ويريد بذلك طائفة الممالك الجديدة التي كونها من العنصر الجركسي وأسكنهم بأبراج القلعة. المقرزي: الخطط، مصدر سابق، ج 1، ص 372.

(2) عاشور: العصر المملوكي في مصر والشام، مرجع سابق، ص 141-140.

(3) الأستاذ: وهي كلمة ذات أصل فارسي وتعني المعلم أو المربي، وكانت تستخدم في العصر المملوكي للدلالة على السيد الذي يشتري المالك وهم غلمان صغار فيقوم بتربيتهم وتعليمهم، ثم يعتقهم بعد أن يشبوا ويكملوا تعليمهم الديني والعسكري، إلا أنهم يستمرون في خدمته وطاعته والولاء له، فهو منهم بمثابة الأب يرتبطون به مادياً ومعنوياً حتى وفاته، وبذلك تعتبر رابطة الأستاذية من أقوى الروابط العسكرية والاجتماعية التي عرفتها طبقة المالك. حلاق و صباغ: مرجع سابق، ص 17.

(4) ابن خلدون: أبو زيد ولي الدين عبدالرحمن بن محمد بن محمد الحضرمي الإشبيلي، تاريخ ابن خلدون العبر وديوان المتبدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج 5، دار الفكر، بيروت، 2000م، ص 427.

(5) الطبايق: جمع طبقة وهي ثكنات الممالك السلطانية التي بُنيت وخصصت لهم بأبراج القلعة وهي أشبه بالمدارس العسكرية، ولكل جنس وطائفة عرقية منهم طبقة خاصة بهم ولايسمح لغيرهم بمساكنتهم أو مخالطتهم فيها، وتسع كل طبقة قرابة ألف مملوك تقريباً. دهمان: معجم الألفاظ، مرجع سابق، ص 105.

(6) الطواشي: ويعرفون أيضاً بالخصيان وهم طائفة من الخدم الذين يعملون في الطبايق وجناح الحريم =

على الطبقة، وهو الشخص المشرف على عملية تربيتهم وتعليمهم وتلبية جميع احتياجاتهم طوال مدة إقامتهم بالطباق،⁽¹⁾ كما يقوم بمراقبة سلوكهم وأخلاقهم وجميع تحركاتهم فإذا أخل أحدهم برسم أو ساء الأدب أو بدر منه خلق سيئ، يقابله الطواشي بالعقوبة الصارمة والرادعة حتى لا يتأتى ذلك الفعل مرة أخرى ويكون عظةً وعبرة لأقرانه في الخشداشية⁽²⁾، ومن بعد ذلك يقوم الطواشي بتقسيم المماليك إلى طوائف ومجموعات صغيرة، ويجعل على رأس كل مجموعة شيخ فقيه يقوم بتعليمهم وتربيتهم وتنشأتهم تنشئة إسلامية خالصة ويغرس حب الإسلام وأهله في نفوسهم، فكان أول ما يتلقاه صبيان المماليك في مراحل تعليمهم، مرحلة رسم الكتابة هي التي يتم فيها تعليمهم القراءة والكتابة ومنها أخذ ممالك الطباق لقب الكتّابية،⁽³⁾ ثم يحفظونهم شيئاً من القرآن الكريم ويعلمونهم أسس ومبادئ الشريعة الإسلامية وشيئاً من علوم الفقه والأخلاق والآداب العامة وفنون الخط، كما يتم تعليمهم كيفية أداء الصلاة وبقية العبادات وحثهم على المواظبة عليها، ثم ينتقلون إلى المرحلة الثانية وهي مرحلة التعليم والتدريب العسكري، وتبدأ عندما يبلغ الصبيان مبلغ الرجال فتشدد أعوادهم وتقوى سواعدهم على حمل السلاح، حيث يتم تدريبهم على استعمال السيوف والرماح وفنون الرماية والقتال والفروسية وركوب الخيل،⁽⁴⁾ وقد اهتم السلاطين والأمراء بمماليكهم وشؤون تربيتهم غاية الاهتمام، فكانوا منهم بمنزلة الآباء في الحرص والإنفاق عليهم والترفق والعناية بهم، ولم يضمنوا عليهم بالأموال والأرزاق

= بالقصر السلطاني، يرأسهم شخص يُعرف بشيخ الطواشي وهو صاحب كلمة مسموعة وأمر نافذ ومكانة عالية وسامته في المجتمع، ويعتبر من أعيان الناس وكبارائهم المهابين. حلاق و صباغ: مرجع سابق، ص 147.

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، مصدر سابق، ج 7، ص 58.

(2) الخشداشية أو الخوجداشية: وهو مصطلح فارسي يعني الزميل في الخدمة والعمل، والمراد بها رابطة الأخوة أو الزمالة التي تجتمع بين المماليك الذين ينسبون إلى أستاذ واحد، ونشأوا في طباق واحد ونالوا حظهم من التربية والتعليم معاً، ثم ترافقوا وتزاملوا في الخدمة السلطانية. عاشور: العصر المماليكي، مرجع سابق، ص 481.

(3) ولكن على الرغم من ذلك إلا أن الكثير من المماليك لم يتقنوا اللغة العربية، ومنهم من لم يفقه منها شيئاً قط، وكانت التركية هي اللغة السائدة فيما بينهم، رغم اختلاف أجناسهم وأعراقهم إلا أن السواد الأعظم منهم كانوا من أتراك آسيا الوسطى. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، مصدر سابق، ج 9، ص 52-51.

(4) المقريري: الخطط، مصدر سابق، ج 3، ص 373-372.

وتخصيص أفضل أنواع الأطعمة والأشربة والألبسة لهم، وكثيراً ما يتعهدون زيارة الطباق بأنفسهم⁽¹⁾ لتفقد أحوال مماليتهم والوقوف على حاجاتهم والتحقق من جودة مستوى تربيتهم وتعليمهم، وأحياناً يأمرّون بأحضارهم إليهم ليستعرضوا عليهم ما تعلموه في الطباق وينظّمون لهم المسابقات ويقدمون لهم الهدايا والجوائز القيمة،⁽²⁾ كما أنهم لم يغفلوا عن مراقبة الطواشي والمقدمين وكل العاملين بالطباق السلطانية ومعاقبتهم إذا ما أظهرّوا إخلالاً أو تقصيراً في عملهم،⁽³⁾ وتكون فترة تعليم وإقامة الغلمان بالطباق في الغالب ما بين أربعة عشر إلى خمسة عشر شهراً، وأحياناً تمتد إلى بضع سنين،⁽⁴⁾ حتى يتحقّق أستاذهم من تحصيلهم العلمي ويتثبت من فروسيّتهم وإتقانهم لفنون القتال، ثم يقوم بعقبتهم ويمنحهم كل واحد منهم إقطاعاً وجامكية⁽⁵⁾ وسلاحاً وفرساً ولباساً عسكرياً خاصاً بهم يميزهم عن بقية فرق وطوائف المماليك الأخرى، وتتم عملية الإعتاق بشكل جماعي تُقام له المراسم والإحتفالات التي يحضرها السلطان وكبار الأمراء وفي أثناء هذه المراسم يقوم المماليك بأداء يمين الولاء والطاعة لأساتذهم بشكل جماعي،⁽⁶⁾ ثم يُلحقون بالخدمة السلطانية

(1) وقيل أن السلطان المنصور قلاوون كان كثير التردد على الطباق لتفقد أحوال مماليكه الجدد، وكان يتحقق من الأطعمة والأشربة التي تقدم لهم بنفسه، فإذا وجد بها عيباً وبخ المشرفين والاستادار وفرض عليهم العقوبة باعتبار ذلك مخالفةً منهم للأوامر السلطانية. المقرّبي: الخطط، مصدر سابق، ج3، ص346.

(2) الحسيني: حسين بن محمد، نفائس المجالس السلطانية في حقائق الأسرار القرانية، دار الكتب المصرية، القاهرة، د.ت، ص225.

(3) وعلى سبيل المثال لا الحصر، ورد أنه عندما علم السلطان الناصر محمد بن قلاوون بنزول بعض مماليكه من القلعة إلى أسواق القاهرة وشرّبهم للخمر، غضب غضباً شديداً وعاقب الكثير من الطواشي على إهمالهم في تربية وضبط أخلاق وسلوكيات المماليك، فأمر بضربهم وقطع جوامكهم وطرد بعضهم من الخدمة السلطانية، واستبدلهم بأخرين ممن عُرفوا بالشدة والحزم. ابن حجر: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني، إنباء الغمر بأنباء العصر، ج1، تحقيق وتعليق حسن حبشي، وزارة الأوقاف - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1998م،

(4) المقرّبي: الخطط، مصدر سابق، ج3، ص348.

(5) الجامكية: وهي مصطلح فارسي مشتق من كلمة جامة وهي تعني اللباس، وقد استخدم المصطلح إبان العصر المملوكي للدلالة على النفقات والتعويضات التي تدفعها الدولة لموظفيها بدلاً عن اللباس، ثم توسع المصطلح وأصبح يستخدم للدلالة على الأجر أو الراتب أو المنح بصفة عامة، وعندما يتخرج المملوك من الطباق تقدر له جامكية شهرية تتراوح ما بين ثلاثة إلى خمسة أو سبعة وقد تصل إلى عشرة دنانير أحياناً. دهمان: معجم الألفاظ، مرجع سابق، ص50.

(6) عاشور: المجتمع المصري، مرجع سابق، ص19.

للعمل بالوظائف الإدارية والعسكرية المختلفة، ويتدرجون في مراتبها حتى يصبحوا أمراء ومنهم من يترشح لإعتلاء سُدة الحكم والجلوس على كرسي السلطنة، ولا يبلغ هذه المرتبة إلا من تهذبت أخلاقه وعظمت آدابه واستقر الإسلام في نفسه وأظهر درجة عالية من الذكاء ومهارات كافية في الفروسية والفنون العسكرية،⁽¹⁾ فإذا بلغ المملوك هذه المرتبة يسمح له باقتناء عدد من المماليك⁽²⁾ بحسب منزلته، فيكون منهم طائفة خاصة به تحمل اسمه وتكون له حمايةً وعوناً في إدارة اقطاعاته ومهامه السلطانية، ويستتبع ذلك بتشديد مجمع صغير من المرافق بجوار قصره يحتوي على ثكنات للمماليك الجدد، ومخازن للغلال والسلاح واسطبلات للخيل.⁽³⁾

2.2.1.3 النظام التربوي الانعزالي وأثره في أخلاق المماليك وسلوكياتهم:

اتبع سلاطين وأمراء المماليك نظاماً شديداً الإنعزالية في عملية تنشئة وتربية مماليتهم الجدد، وذلك لشدة حرصهم على ضمان ولاء وطاعة المماليك لهم، فكانوا يربونهم على ذلك ويغرسون في نفوسهم حب أساتذتهم والارتباط بهم فلا يتلقون الأوامر إلا منهم، ولتقوية تلك الروابط أصبح المماليك يُنسبون إلى أساتذتهم ويحملون أسماءهم ويتلقبون بها،⁽⁴⁾ أمثال المماليك الظاهرية نسبة إلى السلطان الظاهر بيبرس والمنصورية⁽⁵⁾ وهم من أكبر طوائف

(1) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مصدر سابق، ج 5، ص 427-428.

(2) حيث يتعهدهم بالرعاية والتربية والعطف والاهتمام بالقدر الذي وجده عند أستاذه سابقاً، فلا يأكل إلا بعد أن يجتمع جميع مماليتهم وأجناده عنده ويشاركوه الطعام؛ بل أنه كان يغضب عندما يعلم بأن أحدهم قد استوفد ناراً وأكل بمفرده. القلقشندي: مصدر سابق، ج 4، ص 61.

(3) المقرئزي: الخطط، مصدر سابق، ج 1، ص 88.

(4) وفي بعض الأحيان يُنسبون إلى التجار الذين يجلبونهم إلى الديار الإسلامية ويحملون أسائهم، أمثال يلغا السالمي نسبة إلى سالم تاجر الرقيق الذي جلبه، وكذلك المماليك العثمانية نسبة إلى الخواجا عثمان فخر الدين وهو من كبار تجار الرقيق الذين يفدون على سلاطين وأمراء المماليك بمصر والشام. ابن قاضي شهبه: تاريخ ابن قاضي شهبه، مصدر سابق، ج 4، ص 273.

(5) وهي أكبر طوائف المماليك أسسها السلطان المنصور قلاوون الألفي في عام 1281م عندما أراد تكوين فرقة جديدة من المماليك بدلاً عن المماليك الظاهرية الذين ناصبوه العداء بعد أن استشرى فيهم الفساد وغلب عليهم طابع التمرد، فاستكثر من شراء الغلمان الجراكسة، وهو عنصر جديد لم يكن معروفاً بين المماليك السابقين، ولا تربطهم بهم أي صلة دم أو عرق أو جنس، وقد حرص على عزلهم وإبعادهم عن طوائف المماليك الأخرى حتى لا يتأثروا بخلفهم السيئ وميلهم إلى العصيان والتمرد، وقيل أن عدد مماليتهم قد بلغ قرابة سبعة آلاف مملوك من الجركس. النويري: مصدر سابق، ج 1، ص 247.

الماليك ويُنسبون إلى السلطان المنصور قلاوون والأشرفية إلى السلطان الأشرف خليل بن قلاوون وغيرهم من طوائف الماليك، وقد بلغ تشدد السلاطين والأمراء في عملية تربية مماليكهم، أن فرضوا عليهم في أثناء فترة تعليمهم بالطباق نظاماً يعزلهم عن جميع طبقات المجتمع الأخرى بما في ذلك طوائف الماليك السابقين الذين ينتمون إلى عرقيات وأجناس أخرى، خوفاً من اختلاطهم بهم والتأثر بأخلاقهم الفاسدة ثم التمرد والانقلاب عليهم فيما بعد، وكانوا لا يسمحون لهم بالنزول من القلعة قطعياً، إلا للذهاب إلى الحمام مرة واحدة في الأسبوع، وقد حدث ذلك ولأول مرة في عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، كما أنه لا يسمح لهم بالمبيت خارج القلعة لأي سبب من الأسباب.⁽¹⁾ وقد أُصدر قرار سلطاني يمنع بيع الماليك أو تبادلهم فيما بين الأمراء خصوصاً الماليك السلطانية، وتم التحذير من نقل ملكية أي مملوك إلى العوام أو التجار أو غيرهم من فئات الشعب، ومن كان بحوزته مملوك منهم يجب عليه بيعه فوراً ومن وجد عنده مملوك بعد ذلك فهو عُرضة للعقاب ولا يلو من إلا نفسه،⁽²⁾ وأيضاً من السبل التي استخدمها السلاطين والأمراء لضمان ولاء مماليكهم، أخذ المواثيق والأيمان المغلظة منهم على ألا يعصونهم ولا يخونونهم تحت أي ظروف من الظروف، وكانوا يجددونها مثل البيعة من وقت لآخر وهي ما تُعرف باليمين العامة التي تجدد في مختلف المناسبات، خصوصاً عندما يتم تأمير أحد الماليك السلطانية، حيث يقوم الأمير الجديد بتأدية يمين الولاء والطاعة والتبعية والإخلاص للسلطان، ويكون ذلك على ملاء من الأمراء وكبار رجال الدولة،⁽³⁾ ولكن على الرغم من ذلك كان الماليك كثيراً ما يجثون بأيمانهم ويعلنون التمرد والعصيان على أستاذهم بمجرد أن يحسوا فيه الضعف، فيلتحقون بالأمراء الأقوياء ويباعونهم على الولاء والطاعة المبنية على المصالح والمكاسب الشخصية، طمعاً في الحصول على وظيفة ومكانة مرموقة أو إقطاع كبير أو ولاية.⁽⁴⁾

ومن قوانين نظام العزلة الاجتماعية عند الماليك منع المصاهرة والزواج من طبقة

(1) المقرزي: الخطط، مصدر سابق، ج 3، ص 373.

(2) ابن تغري بري: النجوم الزاهرة، مصدر سابق، ج 9، ص 92.

(3) القلقشندي: مصدر سابق، ج 12، ص 216.

(4) طرخان: مصر في عصر دولة الماليك، مرجع سابق، ص 43.

الشعب وعموم الرعية من أهل البلاد الأصليين، والاكتفاء بالزواج من جواريمهم وبنات جنسهم، وقد طبق هذا القانون على جميع منسوبي طبقة المماليك بمن فيهم طائفة السلاطين والأمراء، وأصدر بذلك مرسوم سلطاني إلى القضاة والشهود بألا يعقدوا عقد قران أي واحد من المماليك السلطانية إلا بإذن من السلطان نفسه،⁽¹⁾ وذلك لشدة حرصهم على عدم الاختلاط بطبقات المجتمع الأخرى من الرعية، وقد تمسك المماليك بهذا المبدأ ولم يحددوا عنه حتى لا يذوبوا وينصهروا في المجتمع المحلي، حيث كانوا يشعرون في قرارة أنفسهم بأنهم أفضل وأرفع من طبقات المجتمع الأخرى التي ينظرون إليهم بنظرة دونية عنصرية، ولم يحدث أن تزوج المماليك من غير طبقتهم إلا نادراً،⁽²⁾ وإذا وقع ذلك في الغالب يكون لأغراض مادية أي من أجل المال فيتزوجوا من بنات أهل الثراء من كبار التجار والمعممين طمعاً في أموالهم وأملاكهم التي تضمن لهم استمرار نمط الحياة المترفة الذي اعتادوا عليه إذا ما حلت أزمات أو ضوابط مالية في البلاد حيث كثر وقوعها آنذاك.⁽³⁾ أما أبناءهم الذين ينتجون عن تلك الزيجات فلا يرتقون إلى طبقة آبائهم فيلحقون بالمماليك كما أنهم لا ينسبون إلى العوام، فتكونت منهم طائفة جديدة أصبحت بين المماليك والعوام وعُرفت في المجتمع بطائفة أولاد الناس⁽⁴⁾، ولكن سرعان ما كانت تنصهر هذه الطائفة في المجتمع مع طبقة العوام بعد جيلين أو ثلاثة من ظهورها، وبتفاعلهم واندماجهم في حياة العامة يبعدون تدريجياً عن طبقة المماليك الحاكمة التي لم ينتموا إليها قط ولم يحملوا صفاتها ولا أخلاقها وقيمها وإن عاشوا على هامشها،⁽⁵⁾ وكان جُل اهتمامهم بالتجارة والجوانب العلمية،⁽⁶⁾ كما

(1) ابن إياس: مصدر سابق، ج2، ص228.

(2) ولم يكثر وقوع ذلك النوع من الزيجات إلا في عهد السلطان الظاهر برقوق والسلاطين الذين جاءوا من بعده، حيث سمح للمماليك بالنزول من القلعة والسكن في القاهرة مع العوام ومصاهرتهم والاختلاط بهم، وذلك مما أحل بنظام وآداب المماليك وأخلاقهم حيث خلدوا للبطالة وتخلوا عن العادات والطبائع التي كان يسير عليها أسلافهم. المقرئزي: الخطط، مصدر سابق، ج3، ص347.

(3) نفسه: ج2، ص216.

(4) أولاد الناس وهم أبناء عتقاء المماليك الذين يولدون بالديار الإسلامية ولم يمسهم الرق، بيد أنهم لم يحظوا بالمكانة الاجتماعية التي حظي بها آبائهم، فكانوا أقل من المماليك وأعز وأرفع درجة من العوام. دهمان: معجم الألقاب، مرجع سابق، ص26.

(5) قاسم: عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، دار الشروق، القاهرة، 1994م، ص18.

(6) وقد انصرفوا عن الحياة السياسية والعسكرية ومالوا إلى الحياة الهادئة والمجتمعات المدنية، وذلك نسبةً =

أن البعض منهم قد التحقوا بالجندي والوظائف الإدارية المتوسطة والصغيرة في الخدمة السلطانية.⁽¹⁾

وقد بلغت غطرسة المماليك أنهم لم يكونوا يلبسون لباس العوام، فكانوا يبالغون في تزيين ثيابهم وتذهيب رؤوس رماحهم، ويضعون على رؤوسهم التخفيف بدلاً من العمامة التي يستخدمها عوام الناس، كما حصروا على أنفسهم ركوب الخيل والفروسية ومنعوا غيرهم،⁽²⁾ واهتموا بالمظاهر المادية في مناسباتهم الاجتماعية من أجل التفاخر فيما بينهم والتعالي على طبقات المجتمع الأخرى، لا سيما في الزواج فقد بالغ المماليك في المغالاة في المهور عند زواجهم من بنات جنسهم حتى يُشعروا أنفسهم ونساءهم بأنهم أعز وأرفع مكانة في المجتمع من الآخرين، وذلك مما يعزز تغلغل النزعة العنصرية في نفوسهم ويؤكد اتساع الفجوة الطبقية بينهم وبين طوائف المجتمع الأخرى آنئذ.⁽³⁾ أما قضية العصية والعنصرية فيما بين طوائف المماليك أنفسهم فقد احتدمت بعد ظهور طائفة المماليك الجراكسة،⁽⁴⁾ في الميدان العسكري والسياسي بمصر والشام، ويتضح ذلك جلياً في الكثير

= لانشغال آبائهم عندهم بالخدمة العسكرية وتربية ممالئهم واهتمامهم بهم أكثر من آبائهم، وتركهم في حجور أمهاتهم يمضون معظم أوقاتهم في ممارسة الرياضة أو مجالس العلم، ونسبة للثروات التي ورثها أولاد الناس من آبائهم المماليك فقد تمكنوا من العيش بصورة أفضل من العوام ذلك مما أتاح للكثير منهم فرصة المساهمة في الأنشطة الثقافية والعلمية والتدوين التاريخي في عصرهم، ومن أشهر هؤلاء ابن تغري بردي وابن إياس وابن ابيك الدوادار وابن شاهين الظاهري وغيرهم من أولاد الناس. نفسه: ص 18-17.

(1) عاشور: مصر في عصر المماليك الجراكسة، مرجع سابق، ص 9-8.

(2) العلبي: أكرم حسن، دمشق بين المماليك والعثمانيين، الشركة المتحدة للطباعة والنشر، دمشق، 1982م، ص 91-90.

(3) وكانت قيمة المهور والصداقات التي تدفع لزوجات المماليك أضعاف التي تدفع لزوجات المعميين والعوام، حيث كان السائد عند العوام في قيمة المهور لا يتجاوز عشرين درهماً في أغلب الأحوال، أما عند المماليك فيكون أضعاف هذا المبلغ بمئات المرات وقد يصل إلى أكثر من خمس مائة دينار ذهبي أحياناً. عبدالرزاق: أحمد، عقد نكاح من عصر المماليك البحرية، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، العدد 1986، 22م، ص 80-77.

(4) الجركس أو الجهاركس كما ورد في بعض المصادر العربية، وهو مصطلح فارسي مركب ويعني الرجال الأربعة، أي قبائل الجركس الأربعة وهي أركس وسركس وكسا وأص، وتندرج تحت هذه القبائل كل بطون وعشائر الجنس القوقازي الأبيض، الذين يُعرفون بالشجاعة والفروسية والرشاقة والجمال والزكاء، ويسكنون في المناطق المتدة على سواحل بحر الخزر وشمال شرقي البحر الأسود. العيني: بدر الدين محمود، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، ط2، تحقيق فهم محمد شلتوت، دار الكتب والوثائق العامة، القاهرة، 1998م، ص 27-26.

من المواقف السياسية والمالية لاسمياً حُجج الأوقاف⁽¹⁾، حيث تنص إحدى حُجج أوقاف السلطان قايتباي على ألا يتنفع بالوقف أو يدخل فيه أحد ما لم يكن جركسي الأب، وكذلك فعل بعض الأمراء الجراكسة بأن أوقفوا جُل أمواهم على بني جنسهم من الجراكسة الذين يسكنون القاهرة ومن يفد عليهم من أقاربهم وأولادهم من مسلمي الجركس، ويُعزى ذلك لشعورهم بالانتماء إليهم حيث تدفعهم العصبية والعرقية تجاه بني جنسهم فقط دون غيرهم من فئات وطوائف المماليك الأخرى،⁽²⁾ أما العنصرية السياسية فتظهر في تمييز المماليك السلطانية وقربهم من السلطان واستئثارهم بالوظائف والترتب العُليا والإقطاعات الواسعة، ذلك مما يثير حنق وحقد طوائف المماليك الأخرى عليهم،⁽³⁾ وقد تتطور تلك العداوة إلى حبك المكائد والدسائس والاعتيالات وإثارة الفتن الداخلية التي هددت استقرار السلطنة وأمنها الداخلي، وذلك كالنزاع والصراع الذي وقع بين طائفتي المماليك المنصورية والأشرفية السلطانية الجركسية وبقايا طوائف المماليك التركية إبان عهد المنصور قلاوون وابنه الأشرف خليل.⁽⁴⁾ ولكن على الرغم من كل التدابير والنظم التي انتهجها السلاطين والأمراء في تربية مماليتهم والحرص على ضمان ولائهم لهم، إلا أنهم قد فشلوا في

(1) إلا أنَّ جميع أوقاف المماليك لم تكن بهذا الشكل، حيث بلغت الأوقاف الإسلامية مرحلة النضج إبان حقبة سلطنة المماليك، فقد أكثر السلاطين والأمراء من بناء وتعمير الأوقاف في شتى أطراف السلطنة بالحجاز والشام ومصر ونظموا شؤونها لتحقيق المنافع الدينية والدنيوية، وكسب قلوب الرعية والتقرب إليهم بمثل هذه الأعمال الخيرية وتثبيت شرعية حكمهم وتحليل ذكركم في تاريخ الأمة الإسلامية. أمين: محمد محمد، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر «923-648هـ / 1517-1250م»، دار النهضة العربية، القاهرة، 1980م، ص 17.

(2) علي: عبداللطيف إبراهيم، دراسات تاريخية وأثرية في وثائق من عصر الغوري، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، 1960م، ص 31-30.

(3) كما فعل الأمير التركي الطنغا السلطاني نائب أبلستين في سنة 1382م، حيث قام بثورة عنصرية تركية ضد حكم الجراكسة إبان سلطنة برقوق، فقال: «... ولا أكون في دولة سلطانها جركسي». ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، مصدر سابق، ج 11، ص 229.

(4) وذلك عندما علم المماليك الجراكسة بمقتل أستاذهم وابن أستاذهم الأشرف خليل على يد طائفة من المماليك البحرية بزعامة الأمير بيدرا، فلم يهدء لهم بال حتى تمكنوا من قتل بيدرا ومن معه من زعماء البحرية المتأمرين على أستاذهم فانتقموا منهم ونكلوا بهم شر تنكيل، ونصبوا ابن أستاذهم الثاني محمد بن قلاوون سلطاناً على الرغم من صغر سنه وكان ذلك في عام 1293م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، مصدر سابق، ج 5، ص 20-19.

ذلك حيث لم يعرف المماليك معنى الوفاء والولاء لأساتذتهم إلا قليلاً،⁽¹⁾ حيث كانوا بمجرد حصولهم على حريتهم يسعون وراء مصالحهم الشخصية ويكثرون من حركات العصيان والتمرد على أساتذتهم،⁽²⁾ بل إنهم في كثير من الأحيان وبمجرد موت أستاذهم ينقلبون على أبنائه وينازعونهم على السلطة والمال بالقوة أو عن طريق المؤامرات والدسائس،⁽³⁾ وكل ذلك يُعزى إلى سوء أخلاقهم الناتج عن خلل في تكوينهم ونظام تربيتهم القائم على العزلة والقسوة ومافيه من تعدٍ واضح وصریح على كرامة الإنسان وحقوقه الاجتماعية التي حرّمهم منها أساتذتهم من السلاطين والأمراء، ولكن على كثرة سلبيات هذا النظام التربوي الصارم الذي انتهجه الرعيل الأول من سلاطين وأمراء المماليك في تربية وتكوين طوائف مماليكهم الجدد، إلا أن له مزايا يمكن إيجازها في الآتي، أولاً: قدرتهم على التوفيق بين الجوانب الدينية والعسكرية والأخلاقية في عملية تربية المماليك، ذلك مما أدى إلى تميز الجيل الأول من المماليك بالتدين وحُسن الخلق والحماسة العسكرية والرغبة في الجهاد والاستماتة في الدفاع عن الأمة والديار الإسلامية، حيث كانت لهم مواقف بطولية سامقة ومشرفة أضحت شامةً في جبين تاريخ الأمة الإسلامية العريق، وأجلها موفقهم من تيار الغزو المغولي الذي اجتاح العالم الإسلامي وأسقط دار الخلافة الإسلامية العباسية ببغداد،

(1) وقد اتسمت أخلاق المماليك وطبائعهم بالعدو والخيانة والأنانية والانتهازية حتى لازمتهم هذه الخصال وكأنهم جُبلوا عليهم، ولم يستطيعوا التخلص منها إلى زوال دولتهم في مطلع القرن السادس عشر الميلادي، بل أن لهذه الصفات دور كبير في تدهور وفناء دولتهم وفساد مجتمعاتهم وعلاقاتهم الخارجية بالدولة الإسلامية المجاورة لهم. ضومط: مرجع سابق، ص 8.

(2) عندما تمكن المرض من السلطان المنصور قلاوون وشعر بدنو أجله، عهد بالسلطنة من بعده لأبنة خليل الذي لقب بالأشرف، وبمجرد وفاة السلطان ذهب كبار أمراء المماليك إلى نائب السلطنة الأمير طرنتاي، الذي كانت بينه وبين ابن السلطان خصومة قديمة، فقالوا له: «نحن نعلم بما بينك وبين ولد السلطان من حظوظ النفوس، ومتى صار الحُكم إليه فإنه قاتلك لا محالة، فبادره واقبض عليه، ونحن كُلنا عُصبتك»، إلا أنه كان رجلاً كريماً دِيناً وقيماً لأستاذة وقلما تجتمع هذه الصفات في أحد من المماليك، فرفض عرضهم لكنه سرعان ما ندم على ذلك، حيث أمر السلطان الأشرف بالقبض عليه وسجنه ثم قتله، بل أنه نكل بأهله وحاشيته وأمر بمصادرة جميع أملاكه وأمواله. ابن إياس: مصدر سابق، ج 1، ص 366-360. وهنا تظهر بجلاء صفة الغدر والخيانة وعدم الوفاء التي اتسمت بها أخلاق طبقة المماليك حينئذ، وعدم ولائهم لأساتذتهم والتنكر لهم ولأبنائهم من بعدهم في أغلب الأحيان.

(3) العبادي: أحمد مختار، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية، بيروت، 1986م، ص 11.

وكادوا يقضون على الأمة جمعاء حتى سخر الله جل وعلا المماليك للتصدي لذلك العدو الكاسر فتمكنوا بشجاعة نادرة وإيمان عميق أن يدحروا المغول ويكسروا شوكتهم في موقعة عين جالوت عام 1260م، ثم قاموا بإحياء الخلافة العباسية من جديد بمصر وجعلوا من القاهرة مقراً لها ومقاماً لبقايا نسل خلفاء بني العباس، وكذلك كان موقفهم من العدوان الصليبي الذي أرق العباد والبلاد الإسلامية ردحاً من الزمان حتى تمكنوا من إجلاء الصليبيين بالكليّة من الديار الإسلامية في عام 1291م،⁽¹⁾ أما المزية الثانية فهي اجتماعية وتخص طبقة المماليك فقط، وتتمثل في رابطة الخشداشية التي تعتبر من أقوى الروابط التي تربط بين أفراد الطائفة الواحدة من المماليك وهم لا يشعرون بالأمان والطمأنينة إلا مع أقرانهم وزملائهم في الخشداشية أي الذين تربوا معهم في طباق واحد، حيث يجتمع ولاؤهم لأستاذ واحد ينتمون إليه ويعملون في خدمته، وذلك مما يوحد صفهم ويشعرهم بالانتماء وتوافق المصالح الاجتماعية والسياسية والمعيشية في كثير من الأحيان.⁽²⁾

2.2.1.4 عوامل اختلال النظام التربوي وأثره في أخلاق المماليك والمجتمع:

تميزت حقبة المماليك البحرية عن حقبة الجراكسة إبان العصر المملوكي بالهدوء والاستقرار والأمن الداخلي نسبياً، والحفاظ على هيبة الدولة وحسن علاقتها مع دول الجوار، حيث حُصرت صراعاتهم الداخلية في طائفة كبار الأمراء والنواب وكان ذلك حول تولي الحكم والسلطنة في أغلب الأحوال، ولم يتدخل صغار الأمراء والأجناد في هذه الصراعات كثيراً، ويُعزى ذلك إلى نظام تربيته الصارم وارتباطهم الشديد بأساتذتهم والانصياع لأوامرهم، أما مماليك عصر الجراكسة فقد افتقروا إلى هذه الصفات الحميدة التي تحل بها أسلافهم البحرية، حيث لم يُحطوا بنفس القدر من الجودة العالية في علمية التربية والتعليم وترسيخ مبادئ الدين والأخلاق والآداب الإسلامية السمحة،⁽³⁾ وباعتلاء السلطان برقوق⁽⁴⁾ سدة

(1) ضومط: مرجع سابق، ص 89.

(2) قاسم: قاسم عبده، عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي، عين للدراسات والبحوث والانسانية والاجتماعية، القاهرة، 1998م، ص 30.

(3) قاسم وعلي: قاسم عبده وعلي السيد، الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، د.ت، ص 207.

(4) وهو المؤسس الحقيقي لدولة المماليك الجراكسة في عام 1382م، وقد عُرف بميوله العنصري والمتعصب =

الحكم الذي يعتبر بدايةً لعصر سلطنة الجراكسة وما صحبه من حركات عصيان وتمرد وفتنٍ داخلية وحروب خارجية أدت إلى ظهور حالة من الضعف والتدهور والانحطاط والتدني العام في جميع أنظمة الدولة، وقد انعكس ذلك سلباً في فلسفة السلاطين والأمراء الجراكسة بمخالفتهم لنهج أسلافهم البحرية في عملية تربية وتكوين طوائف مماليكهم الجدد، حيث استعاضوا عن نظام شراء المماليك الأطفال والغلمان وتربيتهم في الطباق، بنظام المماليك الجلبان أو الأجلاب⁽¹⁾ وهم طائفة من الرقيق الذين يجلبون إلى الديار الإسلامية بعد سن البلوغ،⁽²⁾ وأغلبهم كبار بذقون من أصل جركسي،⁽³⁾ ومنهم من يدخلها بإرادته طلباً للمال إذا ما علموا بأن هنالك حاجةً أو نقصاً في طائفة المماليك السلطانية، فيضطر السلطان إلى قبولهم ويلحقهم بمماليكهم السلطانية.⁽⁴⁾ ويُعزى ذلك لأسباب عديدة، أهمها سوء الأوضاع الصحية وانتشار الأوبئة والطواعين بمصر والشام التي أدت إلى وفاة عددٍ كبير من المماليك فأحدث ذلك نقصاً حاداً في طوائف المماليك بصفة عامة والمماليك السلطانية بصفة خاصة،

= تجاه بني جنسه الجراكسة فاستجلب الكثير منهم إلى مصر، بل أنه قد أرسل تجار الرقيق للبحث عن عائلته وأقربائه جمعهم وأحضرهم إليه وأجزل لهم العطاء من أجل ذلك، فأحضروا إليه أبوه وعدد كبير من أهله وبني عمومته، فاحتفل بقدموهم وضمهم إلى الخاشية السلطانية وخصهم بالعطايا والإقطاعات والوظائف والرتب الأميرية العليا، كما منح والده لقب أمير ألف وكان يجلسه بجواره في صدر المجالس السلطانية، وبذلك أصبح لهم دور كبير في تغيير مجرى الأحداث السياسية والأنظمة الإدارية في تلك الحقبة من حكم المماليك. ابن حجر: إنباء الغمر، مصدر سابق، ج 1، ص 148.

(1) وقيل أن الأجلاب بخلاف الجلبان وهم فرقة من طائفة المماليك السلطانية، يتم جلبهم إلى الديار الإسلامية وهم أحداث صغار السن، ثم يلحقون بالطباق حيث تتم عملية تربيتهم وتعليمهم وفق النهج المتبع والمعروف في تربية المماليك السلطانية سابقاً، فينالون حظهم من التربية الدينية والأخلاقية والآداب الإسلامية، ثم يُخضعون لتدريبات عسكرية مشددة وصارمة، ويكون ولائهم وارتباطهم الشديد بأستاذهم السلطان فقط، وليس لمن دونه من الأمراء. العريني: مرجع سابق، ص 117.

(2) وقد ورد على لسان أحد مؤرخي عصرهم واصفاً حالهم فقال: «... فكانوا يجلبون بعد أن تقدمت أعمارهم وترسخت في نفوسهم طبائع وعادات وأخلاق أهل بلادهم وصفات أجناسهم، فانعدم فيهم النظام وقل الالتزام بالقواعد والقوانين والأعراف التي تفرضها الدولة والمجتمع». عبدالباسط الظاهري: زين الدين عبدالباسط بن خليل بن شاهين الظاهري الحنفي، نيل الأمل في ذيل الدول، ج 2، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، 2002م، ص 198-197.

(3) ابن طولون: مفاكهة الخلان، مصدر سابق، ص 256.

(4) اللهيبي والحديدي: فتحي سالم حميدي وفائز علي بخيت، جوانب من الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في العصر المملوكي، جامعة الموصل، الموصل، 2014م، ص 19.

علاوة على تدهور الأوضاع الاقتصادية بسبب الجذب والقحط الذي حل بالبلاد، ذلك مما أجبر المماليك البرجية على التخلي عن نهج أسلافهم البحرية في عملية جلب المماليك الصغار وتربيتهم في الطباق السلطاني وما يترتب عليها من بذل أموال طائلة، فتوجب على السلاطين إيجاد حلول بديلة تناسب مع هذه الأوضاع الحرجة، وجلب أعداد كبيرة من المماليك الجدد ليحلوا محل المتوفين في الخدمة السلطانية بأسرع الطرق وأقل التكاليف، بغرض الحفاظ على هبة الدولة وأمنها الداخلي والخارجي وذلك لاعتمادهم على القوى العسكرية في جميع أقسام الدولة حيث اتسمت دولتهم بالصفة العسكرية في كل شؤونها الإدارية والاقتصادية والسياسية وحتى الاجتماعية،⁽¹⁾ وأيضاً من العوامل التي دفعت السلاطين للاستكثار من استجلاب المماليك الجدد بهذه الطريقة، تفتى حركات العصيان وزعزعة الأمن الداخلي من قبل طوائف المماليك السابقة خصوصاً طائفتي القرانصة⁽²⁾ والسييفية⁽³⁾، الذين ظلوا في صراع شبه دائم مع طوائف المماليك السلطانية الجدد، حيث كانوا يشعرون بالحقد والبغض تجاههم ويتهمونهم باغتصاب مناصبهم وإقطاعاتهم منهم وكل ما كانوا يتمتعون به من صلاحيات في السابق.⁽⁴⁾ ولحرص السلاطين على تأمين سلطانهم وحماية أنفسهم

(1) حسن: علي إبراهيم، مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1947م، ص 390.

(2) القرانصة هم مماليك السلطان السابق، وتشكل هذه الطائفة خطراً على حُكم كل سلطان جديد، وذلك لعدم الثقة بهم أو لتمسكهم بأستاذهم أي السلطان السابق وحرصهم على الاحتفاظ بإقطاعاتهم ومناصبهم وصلاحياتهم التي كانوا يتمتعون بها سابقاً، لذلك كان السلاطين يحرصون على تقديم أفراد هذه الطائفة في الحروب ويضعونهم في المهالك بغية التخلص منهم، ويؤخرون ممالكهم السلطانية متعللين بأن القرانصة أكثر خبرة في القتال وأصلب عوداً من الجُلبان نسبةً لأقدميتهم وتمرسهم على القتال. ابن شاهين: مصدر سابق، ص 255-254. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، مصدر سابق، ج 7، ص 700.

(3) السييفية وهم طوائف مماليك الأمراء الذين تُوفوا أو عزلوا عن الخدمة نتيجة لعدم ولائهم أو تقصيرهم في الخدمة السلطانية، وهم أقل قدراً من الجُلبان من حيث العدد والمكانة السياسية والاجتماعية. ابن إياس، مصدر سابق، ج 4، ص 444.

(4) وقد كان السلاطين الجدد يسارعون في تصفية طوائف مماليك السلاطين والأمراء السابقين أي القرانصة والسييفية، بالعمل على تحجيم صلاحياتهم ومصادرة أقطاعاتهم وأموالهم وتشيت شملهم بنفي أعداد كبيرة منهم، ثم يجلبون هذه الأموال يصادرونها منهم مالياً جُدداً يضمنون ولائهم، وبذلك أصبح هذا النظام يمثل دورة حياة كل مملوك في الخدمة السلطانية حيث تبدأ بمرحلة الجُلبان وهم يمثلون طائفة المماليك السلطانية، وبمجرد موت أو عزل أستاذهم سواء كان السلطان أو أحد الأمراء المواليين له يتحولون مباشرة إلى طوائف قرانصة أو سييفية، وقد ظل هذا النظام سائداً في دولة المماليك حتى نهايتها في =

وكسر شوكة هذه الطوائف يلجؤون إلى تعزيز طوائف ممالكيهم السلطانية بشراء مجموعات جديدة من الجلبان،⁽¹⁾ لا سيما بعد ظهور القوى الإسلامية الجديدة المنافسة لهم بالجوار أمثال العثمانيين والتموريين والصفويين وغيرهم بالأناضول وبلاد المشرق الإسلامي.⁽²⁾ وتتم عملية جلبهم وشراؤهم بطريقة عشوائية من مختلف البقاع دون مراعاة لأعمارهم ولا أجناسهم، فمنهم من كان يعمل بالملاحة أو الفلاحة ومنهم الخبازين وغيرهم من أصحاب المهن والحرف،⁽³⁾ وبمجرد جلبهم يتم دمجهم وإلحاقهم بالخدمة السلطانية، بعد أن يتلقوا تدريباتهم العسكرية خلال فترة وجيزة من الزمن لا تتعدى ثمان أو تسعة أشهر،⁽⁴⁾ أما الجوانب التعليمية والتربوية والأخلاقية فقد أهملت من قبل السلاطين غاية الإهمال وقتئذ، كما ساءت الأحوال بالطباق وقلة الرقابة فيه، فكثر نزول المماليك من القلعة إلى أسواق القاهرة ومخالطتهم للعوام وطوائف المماليك الأخرى، علاوة على ضعف الطواشي⁽⁵⁾ ومقدمي الطبقات وتهاونهم في عملية تربية المماليك ومراقبة وضبط سلوكياتهم وأخلاقهم، حيث تميز طواشي تلك الحقبة بافتقارهم للصفات والأخلاق الحميدة والسيرة الطيبة التي كان يتحلى بها أسلافهم البحرية.⁽⁶⁾ فنتج عن ذلك ظهور جيل جديد من المماليك السلطانية يتسم بالفساد والجهل والغلظة، وذلك نسبةً لضعف تدينتهم⁽⁷⁾ وعدم تشرب نفوسهم

= مطلع القرن السادس عشر الميلادي. فايز: عبدالعزيز، تمردات الجلبان ومدلولاتها السياسية والاقتصادية في عهد السلطان قايتباي، مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية، جامعة نواكشوط / كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 2019، ص39، ص222.

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج14، مصدر سابق، ص170.

(2) حسن: مرجع سابق، ص390.

(3) ابن إياس: مصدر سابق، ج2، ص217.

(4) المقرئ: الخطط، مصدر سابق، ج2، ص213.

(5) وقد اتصف طواشي ذلك العصر بالفساد الأخلاقي والمالي وقلة التدين والطمع وحب المال، كما عُرفوا بالحرفشة وقلة الحُرمة فضاعت هيبتهم وراحت صرامتهم وتبدلت مكانتهم في الطباق والمجتمع بشكل عام. ابن تغري بردي: أبوالمحسن جمال الدين يوسف بن سيف الدين، الدليل الشافي على المنهل الصافي، ج2، ط2، تحقيق فهم محمد شلتوت، مطبعة القاهرة، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1998م، ص217.

(6) نفسه: ص218-217.

(7) وقد ذكر ابن إياس في أحداث سنة 847هـ / 1443م أثناء حملة السلطان جقمق الثانية على جزيرة =

بالقيم والأخلاق الإسلامية الحميدة وافتقارهم إلى روح الولاء والطاعة، حيث ضعفت الروابط الاجتماعية فيما بينهم، لاسيما رابطة الخشداشية التي كانت تعتبر من أقوى الروابط الاجتماعية والعسكرية في مجتمع المماليك وذلك نسبةً لقصر المدة التي يقضونها مع بعضهم البعض في الطباق،⁽¹⁾ وكذلك رابطة الأستاذية وهي الأهم حيث أصبح ارتباطهم بأستاذهم السلطان ارتباطاً مادياً قُح فكانوا أشبه بفرق المرتزقة، ولا يزال السلطان موفور الاحترام عزيز الجانب عندهم مادام يدفع لهم ما يرضي رغباتهم وأطماعهم من الأموال، وبمجرد انقطاع ذلك ينقلبون عليه ويثورون ويعلنون العصيان،⁽²⁾ ويقومون بحملات سلب ونهب شعواء على الأسواق وأملاك الأمراء ولا يسلم من شرهم أحد بما في ذلك العوام حيث كانوا يخطفون النساء والغلمان ويفسقون بهم في الطرقات.⁽³⁾ وقد سعى السلاطين بكل ما أوتوا من قوة إلى ضبط هذه الطوائف المتمردة أو القضاء عليها ومحكمة أفرادها بالسجن أو التغريب والقتل أحياناً،⁽⁴⁾ إلا أن ذلك لم يغير شيئاً في الواقع وظل مجتمع المماليك على ذلك في حالة شدٍ وجذب بين طوائفهم القديمة والحديثة من الجلبان وبين الأمراء فيما بينهم والسلاطين حتى زوال دولتهم، وكذلك كان حالهم مع الرعية ويتبين ذلك من خلال تصرفاتهم وتعاملهم الفظ مع الرعية وتعديم الواضح على حقوقهم وحرمانهم وسلبهم حريتهم وكرامتهم والتعنصر عليهم وتزعيرهم وأكل أموالهم بالباطل، ذلك مما ملأ نفوس الرعية بالغبن والحقن والكره الشديد لطبقة المماليك فعكفوا يدعون عليهم ويرجون فناءهم وزوال دولتهم عاجلاً غير أجل، حتى أذاق الله المماليك وبال أمرهم ولو بعد حين.⁽⁵⁾

= رودس أن هنالك طائفة من المماليك قد ارتدوا عن الإسلام وتنصروا. مصدر سابق، ج2، ص38. وذلك مما يدل على سوء تربيتهم وفساد أخلاقهم وضعف تدينهم.

(1) الخويري: محمود محمد، مصر في العصور والوسطى، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، 2002م، ص266.

(2) قاسم وعلي: مرجع سابق، ص207.

(3) وقد وصفهم المقرئ مبيناً أخلاقهم فقال: «وهم أرزل الناس، وأدناهم وأخسهم قدراً، وأشحهم نفساً وأجهلهم بأمور الدين والدنيا، وما فيهم إلا من هو أزننى من قرد، وألص من فأرة، وأفسد من ذئب». الخطط، مصدر سابق، ج2، ص214.

(4) ابن إياس: مصدر سابق، ج4، ص95-94.

(5) وعلى الرغم من ذلك فقد كان هنالك أفراد من طبقة المماليك يتصفون بحبهم للخير ومراعاتهم =

2.2.2 الطبقة الوسطى (المعممون⁽¹⁾ أرباب الأقاليم وكبار التجار):

أما المعممون وأرباب الأقاليم فهم يمثلون طائفة المثقفين من الشعب وتشمل زمرة الفقهاء والقضاة والعلماء والأدباء والخطباء والمتصوفة والكتاب وغيرهم من أهل العلم، وكان جلهم من العرب من أهل البلاد وسكانها الأصليين،⁽²⁾ وهم الذين يباشرون الوظائف الدينية والتعليمية والديوانية، ويأتون في المرتبة الثانية من حيث المكانة الاجتماعية بعد طائفة أرباب السيوف من المماليك،⁽³⁾ وتشتمل هذه الطائفة على ثلاثة فئات وهم أرباب الوظائف الدينية،⁽⁴⁾ وقد لعبوا دوراً هاماً في المجتمع بما يقدمونه من نصح وإرشاد وإصلاح ذات البين في حالة وقوع الفتن والمشاكل سواء كان ذلك فيما بين العوام أو بينهم وبين من يحكمهم من نواب وأمراء المماليك،⁽⁵⁾ وكذلك في حث الناس على محاربة المتمردين والمفسدين في المجتمع، وفي الجهاد والدفاع عن الأمة والبلاد الإسلامية إن دعا داعي الجهاد،⁽⁶⁾ ولهم الكثير من الأفعال والمواقف المشرفة والخالدة في نصرة الحق والدين حتى ولو كان في ذلك

= لحرمان الدين وبعدهم عن الرشوة والخمر وغيرها من المنكرات. السخاوي: أبو الخير شمس الدين محمد بن عبدالرحمن بن محمد، وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، ج1، تحقيق معروف بشار عواد وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1995م، ص305.

(1) ولم يكن ارتداء العمام حصراً على هذه الطائفة في المجتمع، وإنما كانت عمائمهم الأكبر حجماً مقارنةً بعمائم الطبقات الأخرى، وذلك وفقاً لمفاهيم الطبقة الاجتماعية في ذلك العصر التي تجعل من طراز الملابس وحجم العمامة مدلولاً رمزياً يجسد الحالة المادية والمكانة الاجتماعية للأفراد في المجتمع، وقد تمسك الفقهاء والقضاة بهذا النمط من الزي تمسكاً شديداً حتى نهاية العصر المملوكي. ل.أ. ماير، الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشبتي، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1972م، ص93-90.

(2) المقرئزي: السلوك، مصدر سابق، ج3، ص365.

(3) البطاوي: حسن أحمد، أهل العمارة في مصر عصر سلاطين المماليك، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2007م، ص5-4.

(4) وتشتمل هذه فئة قضاء القضاة وهم أربعة بعدد المذاهب الأربعة ويتزعمهم قاضي الحنفية، وقضاة العسكر ومفتى دار العدل ووكيل بيت المال ونقيب الأشراف والمحتسبة والخطباء والمدرسين ومشايخ الشيوخ. القلقشندي: مصدر سابق، ج4، ص202-199.

(5) المقرئزي: السلوك، مصدر سابق، ج4، ص94.

(6) كما أن لهم دور كبير في محاربة تجارة الخمر والحشيش التي كانت شائعة بين الناس آنذاك، وما تبعها من مفاسد أخلاقية واجتماعية. البصروي: علاء الدين علي بن يوسف بن أحمد الدمشقي، صفحات مجهولة من تاريخ دمشق في عصر المماليك «تاريخ البصروي»، تحقيق أكرم حسن العلي، دار المأمون للتراث، دمشق، 1988م، ص62.

مخالفةً لرغبات السلاطين وأهوائهم،⁽¹⁾ ثم يليهم أرباب الوظائف الديوانية،⁽²⁾ وهم الذين يُعرفون بالأعيان ولهم مكانةٌ رفيعةٌ في المجتمع خصوصاً عند العوام الذين يقتدون بهم ويعتبرونهم المثل الأعلى في ذلك، نسبةً لما قدموه في مجال التعليم والأدب والوساطة في حل المشاكل الاجتماعية،⁽³⁾ ثم يليهم الأشراف⁽⁴⁾ وهم طائفةٌ شديدة الالتصاق بالمعممين ومنهم يكون نقيب الأشراف⁽⁵⁾ ووكلاؤه ومنهم من يتولى بعض الوظائف الدينية والإدارية الأخرى،⁽⁶⁾ وقد نالوا حظاً وافراً من التقدير والاحترام عند السلاطين حيث أنعموا على أشراف الحجاز ببعض الإقطاعات من أراضي السلطنة بمصر والشام رعايةً لحرمتهم ومكانتهم الدينية والاجتماعية في الأمة الإسلامية،⁽⁷⁾ ولكن بالرغم من ذلك لم يكن للأشراف ثقل أو دور سياسي كبير في ذلك العصر، وقد انحصرت أدوارهم وألقابهم في التشريف ورفع المكانة الاجتماعية من دون صلاحيات أو نفوذ واضح.⁽⁸⁾

(1) منها على سبيل المثال لا الحصر، موقف شيخ الإسلام أمين الأقصري عندما امتنع عن إصدار فتوى تجيز للسلطان قايتباي التعدي على أموال الأوقاف التي تُجرى على المساجد والمدارس، للانتفاع بها في إعداد العسكر وتجهيزهم إبان حربه مع شاه سوار وأوزون حسن زعيم دولة الآق قويونلو. عبدالرحمن عبدالرحمن محمود، قايتباي المحمودي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1987م، ص 118.

(2) وتشمل هذه الفئة أصحاب الوزارة وكتاب السر والكتاب والكشاف والنظار وغيرهم من الإداريين. القلقشندي: مصدر سابق، ج 4، 196-198.

(3) الكعبي: رشا فاضل كاظم، الحياة الاجتماعية لمصر في عصر الماليك، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الكوفة/ كلية الآداب، 2014م، ص 76.

(4) وهم السادة الذين ينتسبون إلى نسل النبي ﷺ عن طريق سبطه الحسين بن علي رضي الله عنهما. القلقشندي: مصدر سابق، ج 4، ص 200.

(5) نقيب الأشراف: وهي وظيفة اجتماعية دينية، ويشترط على القائم بها بأن يكون من منسوبي آل البيت النبوي الشريف، وهو الذي يقوم برعاية جميع شؤون المنتسبين لآل البيت بعد أن يتثبت من صحة أنسابهم، ويوثق ذلك في سجلات خاصة بهم، للتمكن من تقديم الخدمة والرعاية لهم على أكمل وجه، ويكون له وكلاء ومساعدين في جميع نقابات وأقاليم الدولة المملوكية. الأنصاري: شرف الدين موسى بن يوسف، نزهة الخاطر وبهجة الناظر، ج 1، تحقيق عدنان محمد إبراهيم، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1991م، ص 62.

(6) السخاوي: أبو الخير شمس الدين محمد بن عبدالرحمن بن محمد، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج 6، دار الجيل، بيروت، 1992م، ص 291.

(7) اليوسفي: عماد الدين موسى بن محمد بن يحيى، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق أحمد حطيط، عالم الكتاب، بيروت، 1986م، ص 289-290.

(8) العليبي: مرجع سابق، ص 92.

وقد نالت طائفة أرباب الأقلام أو المعممين بشكل عام جليل الامتيازات والرعاية الخاصة من السلاطين والأمراء والنواب بمصر والشام، الذين يكون لهم فائق الاحترام والتقدير،⁽¹⁾ وذلك لما لهم من نفوذ مادي ومعنوي على المؤسسات الدينية والتعليمية ذات التأثير المباشر على طبقة الشعب، ومنهم تصدر الفتاوى الشرعية التي يعتمد عليها السلاطين في تسيير جميع شؤون الدولة ومعاملتها السياسية والاقتصادية والإدارية والاجتماعية، ولكي يتمكن السلاطين من إدناء المعممين وتقريبهم منهم لكسب مودتهم قاموا بإنشاء مؤسسة خاصة بخدمتهم ورعاية مصالحهم تُعرف بنقابة المعممين، بالإضافة إلى منحهم مقامات الصدارة في مجالس النواب وحكام الأقاليم التي لا يجلس عليها إلا العلماء والقضاة وهم مقدمين في ذلك على بعض الأمراء والمقدمين.⁽²⁾ وقد خُوطب بعضهم بلقب صاحب الجناح العالي وهذا تشريفٌ لا يُخاطب به إلا وزراء السلطنة بالديار المصرية فقط،⁽³⁾ وكذلك في مجتمع العامة لم تقل درجة احترام وتقدير العلماء ورجال الدين عن القدر الذي حظوا به عند المهالك، فكانوا يببالغون في إكرامهم وتبجيلهم ولا يخاطبونهم إلا بالألقاب الرفيعة مثل عالم عصره وفقية زمانه وغير ذلك من صفات الإجلال والتكريم، وهم عندهم مقدمون في كل شيء حتى في الأسواق وشؤون البيع والشراء والحياة اليومية العامة،⁽⁴⁾ وكانوا يقصدونهم في حل المشاكل وقضاء الحوائج والشفاعات عند رجال الدولة

(1) والدلائل والمواقف كثيرة في ذلك، ومنها على سبيل المثال لا الحصر، أن السلاطين كانوا إذا دخل عليهم العلماء ورجال الدين يقفون لهم إجلالاً واحتراماً، وينزهونهم عن تقبيل الأرض بين أيديهم كما جرت العادة آنثذ في الدخول على السلاطين، وكانوا كثيري الزيارة للعلماء في بيوتهم وإعادتهم في مرضهم، وإذا مات عالم لا بد للسلطان من حضور جنازته والصلاة عليه والمشاركة في تشييع جثمانه حتى تنتهي مراسم الدفن، كما سمحوا لهم بركوب الخليل واقتنائها وهذا مما استثرت به طبقتي المهالك والمعممون دون غيرهم من طبقات المجتمع الأخرى وقتئذ. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، مصدر سابق، ج5، ص431.

(2) ابن الشحنة: أبي الفضل محب الدين محمد الحلبي الحنفي، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، ج26، تقديم عبدالله محمد الدرويش، دار الكتاب العربي، دمشق، 1984م، ص258.

(3) المقرئزي: السلوك، مصدر سابق، ج3، ص744.

(4) السخاوي: أبو الخير شمس الدين محمد بن عبدالرحمن بن محمد، التبر المسبوك في ذيل السلوك، تحقيق نجوى مصطفى كامل وليبية إبراهيم مصطفى، مطبعة دار الكتب الوثائقية القومية، القاهرة، 2002م، ص366-367.

والسلاطين.⁽¹⁾ وكذلك استفاد المماليك من ذلك حيث جعلوا من المعممين حلقة وصل تربط بينهم وبين الشعب، وذلك لأنهم كانوا دائمي الشعور بالغرابة والبعد والعزلة عن المجتمع المحلي، حيث كان السواد الأعظم منهم لا يجيدون العربية كما أنهم لم يألفوا التعامل مع الشعب الذين جهلوا بعباداته وطبائعه وأخلاقه وسلوكياته، فأضحوا في حاجة ماسة إلى وسيط محلي يؤيد سلطانهم ويرسخ دعائمه ويؤكد شرعيته في نفوس الرعية، ولم يتأتى لهم ذلك إلا بما لأهل العلم والدين من مكانة سامقة ومحبة وإجلال في نفوس الناس، فقام السلاطين بتعيين طائفة من المعممين⁽²⁾ في الوظائف الدينية والكتابية في الدواوين الإدارية لتحقيق هذه الغايات،⁽³⁾ فأغدقوا عليهم العطايا والهبات والرواتب العالية والخصص الشهرية من الأرزاق والأقوات، علاوة على ما يأتهم من دخل الأحباس التي أوقفت على المؤسسات الدينية والعلمية،⁽⁴⁾ ذلك مما جعلهم من أصحاب الثروات الطائلة التي مكنتهم من مجارة أرباب السيوف في طراز ونمط حياتهم المترفة، فسكنوا في القصور الفارهة واتخذوا الجواري والخدم والمماليك،⁽⁵⁾ واقتنوا الخيول والأنعام وجمعوا الكتب والمجلدات النادرة والنفيسة والأواني والمقتنيات الثمينة التي عجز بعض أمراء المماليك عن اقتنائها.⁽⁶⁾ وكما

(1) الغزي: أبي المكارم نجم الدين محمد بن محمد العامري، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، ج 1، تحقيق خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م، ص 74.

(2) وكان أكثرهم من المنصفين الذين يقفون مع الحق حتى ولو كان على السلطان أو النواب والأمراء، مثلما فعل القاضي شمس الدين الحريري قاضي قضاة الحنفية الذي وصفه ابن بطوطة بأنه رجل شديد في الحق لا يخشى في الله لومة لائم، وله مواقف عديدة ضد السلاطين والأمراء والنواب الذين يطغون ويتجبرون على الرعية، فكان يأمرهم بالكف عن الظلم والأذى وعدم التعدي على حقوق الناس، ومن مهابته ذكر أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون قال: «... والله إني لا أخاف أحداً إلا شمس الدين الحريري قاضي قضاة الحنفية». ابن بطوطة: أبو عبدالله شمس الدين محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار «رحلة ابن بطوطة»، ج 2، تحقيق وتقديم عبد الهادي التازي، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1996م، ص 88-62.

(3) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، مصدر سابق، ج 11، ص 12.

(4) النعمي: عبدالقادر بن محمد الدمشقي، الدارس في تاريخ المدارس، ج 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م، ص 429-428.

(5) ومنهم من زاد عدد مماليكه على الثمانين، فضلاً عن الغلمان الكتابية الصغار، وذلك مما لم يكون معهوداً به إلا عند أمراء المماليك. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، مصدر سابق، ج 2، ص 167.

(6) عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، مرجع سابق، ص 40.

هو معلوم دوام الحال من المحال حيث لم تستمر طبقة المعمرين طويلاً على هذه الحالة من الاستقرار والرفاه، لاسيما في حقبة سلاطين المماليك الجراكسة، حيث أصبح بعض الأمراء والأجناد يشعرون بالحنق والحقن تجاه طائفة المعمرين بسبب قربهم من السلاطين،⁽¹⁾ فكانوا دائماً ما يتعرضون لهم بالانتقاد والسخرية في مجالسهم وأخذوا يوغرون صدور السلاطين عليهم،⁽²⁾ وقد نجحوا في ذلك بصورة كبيرة حيث كان السلاطين في الغالب يرجحون إرضاء المماليك خوفاً من انقلابهم وتمردهم عليهم،⁽³⁾ ذلك مما أدى إلى تدهور أوضاع المعمرين لكثرة ما يتعرضون له من تضيق وعزل ونفي وسجن ومصادرة أموال، وذلك عند وقوفهم ضد رغبات السلاطين وأرباب السيوف في تعدياتهم على حقوق الرعية وأكل أموالهم بالباطل وانتهاك حرمتهم،⁽⁴⁾ كالذي حدث في عهد السلطان قايتباي حيث تعرضت طبقة المعمرين للكثير من الاضطهاد والتضييق، لدرجة أن السلطان قد أمر بقطع رواتبهم وأعطياتهم، علاوة على ما فعله بهم صاحب الوزارة وبعض الخانقين عليهم من أمراء المماليك حيث قاموا بالتنكيل بهم وتجريدهم من جُلِّ صلاحياتهم وامتيازاتهم التي كانوا يتمتعون بها في السابق، وقطعوا حصتهم الشهرية من المؤنة واللحوم وأجروها على أنفسهم وزملائهم من أمراء المماليك.⁽⁵⁾

وقد تأثرت طائفة المعمرين كغيرها من طوائف المجتمع الأخرى بتدهور الأوضاع

(1) ومن شدة حنقهم وحقدهم عليهم قاموا بإثارة السلطان عليهم واشتروا عليه بأن يصدر قراراً يمنع ركوب المعمرين للخيل في القاهرة، حيث كانت خاصة ركوب الخيل ميزة لا يتمتع بها إلا المماليك في المجتمع وقتئذ، وبعد ذلك كثر اعتداء المماليك على المعمرين في الطرقات فكانوا ينزلونهم عن خيولهم ويسلبونهم متاعهم وأموالهم ويعتدون عليهم بالضرب والسب وقد راجت مثل هذه الظواهر في المجتمع آنذاك بصورة كبيرة لا سيما في أواسط القرن الخامس عشر الميلادي. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، مصدر سابق، ج3، ص534.

(2) بيخيت: فائز علي، العلاقة بين الفقهاء سلاطين الدولة المملوكية، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية/ جامعة الموصل، عدد 4، مج 2013، م12، ص654.

(3) العيني: بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج5، تحقيق محمد محمد أمين، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2009م، ص266.

(4) رزق: علاء طه، عامة القاهرة في عصر سلاطين المماليك، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2003م، ص36.

(5) عبدالتواب: مرجع سابق، ص118.

الداخلية في الدولة وماحل بها من فساد أخلاقي وإداري، لا سيما وهم أقرب طوائف المجتمع إلى طبقة المماليك، حيث لم يكن أفراد طائفة المعممين على درجة واحدة من التدين والورع وحُسن الخلق والتواضع، فكان البعض منهم ممن همهم الدنيا واكتناز المال الذين يتزلفون إلى السلاطين بإصدار الفتاوى وفق أهوائهم وما تقتضيه مصالحهم الشخصية دون مراعاة لما يترتب على ذلك من ظلم وتعدي على حقوق الناس، بل إن بعضهم لجأ إلى بذل المال للحصول على المناصب والوظائف الدينية والإدارية في الدولة،⁽¹⁾ ونتج عن ذلك أن تقلد الوظائف الدينية الكثير ممن أتصف بالجهل وقلة العلم وفساد الأخلاق، وأصبحت الوظائف تباع وتشترى وتورث للأبناء حتى وإن كانوا صغاراً في السن ويفتقرون إلى المؤهلات الكافية لتولي تلك الوظائف،⁽²⁾ وقد اتخذت الدولة من ذلك مصدراً للحصول على المال وتغذية الخزانة السلطانية، ولكي يتمكنوا من جمع أكبر مبلغ من المال من قبل المتنافسين على الوظيفة كانوا يكثرون من عزل أصحاب تلك الوظائفهم بدون أسباب كافية ليستبدلوهم بأخرين يبرطلونهم ويدفعون لهم مقابل الحصول على الوظيفة،⁽³⁾ حتى قيل أنه خلال عشرة أيام تعاقب على منصب قاضي الحنفية في دمشق ثلاثة قضاة، كما أنه تم تعيين قاضيين بها خلال ثلاثة أيام فقط.⁽⁴⁾ ويرجع ذلك إلى كثرة الأزمات وتفشى الجهل والانحطاط الأخلاقي في جميع طبقات المجتمع في أواخر عصر المماليك الجراكسة، أما طائفة المعممين نفسها فقد فشلت فيها الخلافات داخلياً وفسدت العلاقات وشاع الحقد والحسد بين أفرادها، وبلغ بهم الأمر إلى الأشتباك والتعدي على بعضهم البعض بالضرب والشتم والتكفير في بعض الأحيان،⁽⁵⁾ وبذلك تذبذبت مكانتهم الاجتماعية فلم يتمكنوا

(1) ولم تكن تلك الظاهرة حصراً على العهود المتأخره من حُكم المماليك، بل كانت مرافقاً لهم منذ قيام دولتهم ونشأتها الأولى، حيث ذكر أنه عام 1260م تمكن القاضي ابن الزاكي من تولي منصب القضاء بدمشق من بعد سعي شديد وبذلٍ للكثير من الأموال إلى رجال الدولة. ابن كثير: البداية والنهاية، مصدر سابق، ج13، ص222.

(2) ابن الجيعان: أبوزكريا شرف الدين يحيى بن شاكر بن عبدالغني، القول المستظرف في سفر الملك الأشرف قايتباي، تقديم وتحقيق وتعليق محمد زينهم، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، 2006م، ص87.

(3) المقرئزي: السلوك، مصدر سابق، ج4، ص206-205.

(4) ابن حجر: إنباء الغمر، مصدر سابق، ج328، ص2.

(5) ابن طولون: مفاهمة الخلان، مصدر سابق، ج1، ص96.

من الارتقاء إلى مرتبة طائفة أرباب السيوف وأصحاب السلطة من طبقة المماليك، ولا هم في عداد العوام من الرعية، إلا أنهم كانوا كثيري التعاطف مع العوام وذلك لأنهم يدركون تمام الإدراك أن علاقتهم بالمماليك مرهونة بخدمة مصالح السلطان ورجال الدولة، خاصة أن النظام الإقطاعي في الدولة يضمن للمماليك أي السلطان وحاشيته الحق المطلق في التصرف في جميع أراضي السلطنة ومواردها من زكاة وخراج وجزية ومكوس وغيرها من الضرائب، والاستئثار بذلك دون غيرهم من طبقات المجتمع الأخرى.⁽¹⁾

2.2.2.1 طائفة كبار التجار:

وهم أولو النعمة واليسار من أثرياء التجار ويلقبون بياض العامة، ويمثلون الفئة الممتازة من العامة والأكثر قرباً من طائفة سلاطين وأمراء المماليك، نظراً للمصالح المتبادلة بينهم حيث أصبح سلاطين وأمراء المماليك وبعض الفقهاء والعلماء من المعممين يزالون التجارة ويتكسبون منها بغية جمع المال وتكوين الثروات الضخمة،⁽²⁾ لاسيما أن الموقع الجغرافي المتميز لمصر والشام قد ساعد في انتعاش حركة التجارة واقتصاد دولة المماليك ببسط سيطرتهم على طرق التجارة العالمية المرابطة بين آسيا وإفريقيا وأوروبا آنذاك، وقد عمل السلاطين على جذب التجار وإدنائهم منهم فأصطفوا منهم الندماء والجلساء والأصدقاء،⁽³⁾ وقد أنعموا على بعضهم برتبة أمير طبلخاناه وهذه رتبة من النادر جداً منحها لغير المماليك،⁽⁴⁾ وجعلوا على رأس هذه الطائفة شخصاً يُعرف بشيخ أو رئيس التجار وله أعوان يُعرفون بالعرفاء ينوبون عنه في الأسواق وذلك حتى يسهل التواصل مع التجار وتتمكن الدولة من مراقبتهم ورعاية مصالحهم والاجتماع بهم عند الحاجة،⁽⁵⁾

(1) الجبوري: أحمد ماجد عبدالله، أحوال العامة في مصر في عصر المماليك البرجية «923-784هـ / 1517-1382م»، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة آل البيت / كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2015م، ص 29.

(2) المقرئزي: السلوك، مصدر سابق، ج 4، ص 444.

(3) الذهبي: أبو عبدالله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ج 3، تحقيق عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، 1990م، ص 33.

(4) ابن قاضي شهبه: أبو الفضل تقي الدين أبو بكر بن أحمد بن محمد الأسدي، الإعلام بتاريخ أهل الإسلام، ج 4، دار الكتب المصرية، القاهرة، د.ت، ص 33.

(5) ابن طولون: مفاكهة الخلان، مصدر سابق، ج 1، ص 132.

وذلك طمعاً في الاستفادة منهم ومن أموالهم التي يمدون بها خزانة الدولة لا سيما في أوقات العسر والشدة أثناء الحروب والأزمات والأوبئة والمجاعات وأيام القحط والجذب التي كثر انتشارها في ذلك الزمان،⁽¹⁾ فتوافد عليهم التجار من كل حدب وصوب وكونوا جاليات تجارية كبرى بمدن وأقاليم السلطنة الممتدة،⁽²⁾ وقد حظيت هذه الطائفة من التجار بمكانة اجتماعية رفيعة ونالوا الاحترام والتقدير بين الناس، حتى قيل إنه إذا أريد مدح شخص قالوا عنه أنه من بيت أصحابه أهل تجارة ووجاهة، حيث كانت علاقتهم حسنة مع العوام وبقية طبقات المجتمع الأخرى وذلك مراعاة لمصالحهم التجارية فكانوا يحسنون إلى الفقراء والمساكين، ويساعدون المعسرين منهم ويقضون حوائجهم ويخففون عنهم وطأة ظلم المالكين وتعسفهم،⁽³⁾ فقاموا ببناء الأوقاف وترميم وإعادة عمارة بعض المؤسسات الدينية والتعليمية والأضرحة كما أسهم بعضهم في مفاداة أسرى المسلمين وتخليصهم من أيدي الظلمة والكافرين، وذلك بعد أن تمكنوا من تكوين الثروات الضخمة فابتنوا الدور والقصور الفارهة وامتلكوا البساتين والكروم والقياسر والحمامات والخانات التجارية،⁽⁴⁾ علاوة على المبالغ الطائلة من النقود الذهبية والفضية،⁽⁵⁾ وبعد أن عظمت ثروتهم وتضاعفت أموالهم ابتعد الكثير منهم عن الدين وتبدلت أخلاقهم واستكبروا على الناس، وأصبحوا لا يراعون الحرمات حتى في بيوت الله فكانوا يكثرون من اللغو والكلام فيها، بل إنهم لم يتخلوا عن تلك العادات السالبة حتى في رحلاتهم للحج وكان أكبر اهتمامهم وتركيزهم على ملابسهم ومظهرهم بغرض التفاخر أمام الناس،⁽⁶⁾ ويبدو أن كثرة هذه

(1) وذكر أن السلطان المنصور قلاوون قد استدان مبلغ ستين ألف دينار من أحد مياسير التجار، وكذلك فعل السلطان الظاهر برقوق واستدان مبلغ مائة ألف دينار من أحد التجار إبان اعتلائه لسدة الحكم في المرة الثانية. غوانمة: يوسف درويش، تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، دار الحياة، الأردن/ عمان، 1982م، ص 104-103.

(2) المقرئزي: السلوك، مصدر سابق، ج 4، ص 444.

(3) ابن طولون: مفاكهة الخلان، مصدر سابق، ج 1، ص 131-128.

(4) وذكر أن أحد التجار قد ابتنى داراً شبيهة بقصور السلاطين في فخامتها، وزين قاعاتها وأروقعتها بالرخام المثلث وزخرف جدرانها بالنقوش والزخارف البهية، وصرف في بنائها قرابة الخمسين ألف دينار من الذهب. عاشور: المجتمع المصري، مرجع سابق، ص 42.

(5) المقرئزي: السلوك، ج 3، ص 298.

(6) الشعراي: أبو محمد عبد الوهاب بن أحمد بن علي الحنفي، الطبقات الكبرى «لواقح الأنوار في طبقات =

الأموال والثروات كانت نقمةً عليهم فقد جعلتهم عرضة لابتزاز سلاطين وأمراء المماليك، الذين أثقلوا كاهلهم بالضرائب والأتاوات الفادحة والمصادرات التعسفية،⁽¹⁾ ومن شدة استيائهم من تضييق المماليك عليهم كان البعض منهم يدعون على أنفسهم بالموت ليريحهم الله من استحواذ وظلم المماليك لهم،⁽²⁾ حيث مارس السلاطين العديد من أشكال التجارة الاحتكارية، وأصدروا المراسيم السلطانية التي تمنع التجار من بيع بعض المنسوجات والتوابل التي تعتبر من سلع المتاجر السلطانية لكثرة عائداتها من الأرباح، كما عانوا من سياسية الطرح والرمي القائمة على الإكراه في المعاملات التجارية التي يفرضها عليهم المماليك في شراء وبيع بعض السلع التي تخص المتاجر السلطانية بالأسعار التي يرتضونها حتى وإن كانت مجحفه في حق التجار والعوام،⁽³⁾ لكن بالرغم من ذلك نجد أن الكثير منهم قد نالوا رضى السلاطين والقرب منهم حتى قيل إن بعضهم كانوا ينوبون عن القضاة في مجالسهم حال غيابهم أو مرضهم،⁽⁴⁾ وبعضهم تولى منصب الوزارة والحسبة ونظارة الجيش وغيرها من الوظائف الإدارية والدينية الهامة،⁽⁵⁾ ومن عناية الدولة بشؤون التجارة أنها قامت بتوفير الخدمات الضرورية للتجار وتأمين محلاتهم وقوافلهم التجارية ببناء القياسر والخانات والجسور وأوكلت مهمة حماية التجار وسلامة بضائعهم إلى صاحب البريد،⁽⁶⁾ كما خصصت بعض الأحياء السكنية الراقية والمؤمنة لسكن جاليات التجار الأجانب وسفراء الدول وممثليها بأراضي السلطنة المملوكية وذلك حرصاً على سلامتهم وأمنهم من مخاطر السلب والنهب والحرائق التي كثر وقوعها إبان فترة حكم المماليك الجراكسة،⁽⁷⁾

= الأبخار»، ج 1، تحقيق أحمد عبدالرحيم السايح وتوفيق علي وهبة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2005م، ص 355.

(1) ابن دقاق: صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدير العلائي، الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين، عالم الكتب، بيروت، 1985م، ص 132.

(2) المقرزي: السلوك، مصدر سابق، ج 4، ص 444.

(3) ابن طولون: مفاكهة الخلان، مصدر سابق، ج 1، ص 181.

(4) السخاوي: الضوء اللامع، مصدر سابق، ج 10، ص 14.

(5) ابن حجر: إنباء الغمر، مصدر سابق، ج 2، ص 252.

(6) ابن إياس: مصدر سابق، ج 4، ص 133.

(7) الطراونة: مبارك محمد سالم، الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في عصر المماليك الجراكسة «922-784هـ/

1516-1382م»، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الموصل / كلية الآداب، 2003م، ص 106.

لاسيما غارات العروبان الذين يمارسون عادة قطع الطرق على القوافل التجارية التي تمر بالقرب من ديارهم، ذلك مما أدي إلى زعزعة الأمن الداخلي وتدهور الأوضاع الاقتصادية والمعيشية لجميع طبقات المجتمع آنذاك خصوصاً طائفة التجار.⁽¹⁾

2.2.3 الطبقة الدنيا (الشعب أو العامة):

العامة أو العوام لفظ استخدم للدلالة على جميع من هم دون طبقة المالك والمعممين وكبار التجار من الرعية في المجتمع إبان العصر المملوكي،⁽²⁾ وتشمل هذه الطبقة على طائفتين تتمثل أولاهما في الفلاحين⁽³⁾ والعُربان⁽⁴⁾ أي أهل البادية، ثم أهل الذمة والحرفيين والصناع وصغار التجار والسوقة وماشابهم من أصحاب الحرف والمهن البسيطة، وهم يمثلون الطبقة الدنيا من المجتمع حينئذ، وذلك وفقاً للمعايير الاجتماعية والاقتصادية السائدة في العصر المملوكي،⁽⁵⁾ ويتزعم هذه الطبقة أشخاص يُعرفون بالشيوخ أو العُرفاء وأكابر الحارات، وهم الذين يمثلون حلقة الوصول بين أهالي الحارات من العوام والفئة الحاكمة للمدن والنيابات من المالك، ويقتصر دورهم على جمع الضرائب والأنوات

(1) ابن الفرات: مصدر سابق، مج 9، ج 2، ص 349.

(2) الحجبي: حياة ناصر، أحوال العامة في حكم المالك دراسة في الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، 1994م، ص 16.

(3) وهم أكثر طوائف الشعب اضطهاداً من قبل المالك الذين يلزمونهم بفلاحة أراضيهم الزراعية وإقطاعهم السلطانية، كما يفرضون عليهم دفع العشر من نصيبهم للدولة بعد الحصاد، علاوة على الضرائب الأخرى غير الرسمية، وقد عاش الفلاحين حياةً ذليلة بمصر والشام إبان العصر المملوكي، فكانوا أشبه بالعبيد مسخرين للعمل ودفع الضرائب وفوق ذلك يتعرضون للسخرية والتهكم والقهر والابتزاز من طرف المالك. عاشور: سعيد عبدالفتاح، مصر في عصر دولة المالك البحرية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1959م، ص 158.

(4) وهم أهل البادية من القبائل التي تسكن على أطراف المدن، ولكل قبيلة حمى أو منطقة نفوذ تقع تحت سيطرتها، ولا يمكن لأي قبيلة أخرى التعدي عليها، وهؤلاء العُربان عاداتهم وتقاليدهم الخاصة وأنماط حياتهم التي تعتمد على التنقل والترحال طلباً للكلاً والمرعى، حيث يمارسون مهنة الرعي وتربية المواشي، بيد أنهم لا يمارسون حرفة الزراعة إلا نادراً بل كانوا يسخرون ممن يمتنعونها ويحتقرونه كما هو سائد في المجتمع آنئذ، بل انهم كانوا في بعض الأحيان يعتدون على الفلاحين ويتغولون على أموالهم ومقتنياتهم. المقريري: السلوك، مصدر سابق، ج 3، ص 142.

(5) الجبوري: مرجع سابق، ص 43.

من العوام وتسليمها إلى السلطة الحاكمة من طرف الدولة،⁽¹⁾ ولم يكن هؤلاء الأشخاص محبين ولا يجدون القبول في نفوس العوام حيث عُرفوا بالتعالي والتعدي على حقوق الناس والتعسف في جمع الضرائب والأتاوات، ذلك مما أدى إلى تعرض بعضهم للسطب والضرب والقتل في بعض الأحيان،⁽²⁾ وعلى الرغم من محاولة إبطال هذه الوظيفة في الشام في عام 918هـ/ 1512م إلا أنها لا تزال موجودة حتى زوال دولة المماليك،⁽³⁾ أما طائفة أهل الذمة من النصرى واليهود فكانوا من أكبر الأقليات في المجتمع، ولهم أهمية اقتصادية واجتماعية كبيره في الدولة المملوكية، وقد ورد في كتب الرحالة الأوروبيين الذين زاروا مصر إبان فترة حكم المماليك أن أهل الذمة في القاهرة فقط بلغ تعدادهم عشرين ألف نسمة نصفهم من القبط والآخر من اليهود،⁽⁴⁾ ولم تكن سياسية المماليك ذات طابع ثابت في معاملتهم لأهل الذمة، بل كانت متقلبه بين التسامح والاضطهاد من حين لآخر، بيد أنهم قد أثقلوا كاهلهم بالضرائب لاسيما ضريبة الجوالي⁽⁵⁾، أما فترات الاضطهاد فقد كانت مرتبطة بقضية القضاء على بقايا الحملات الصليبية التي اجتاحت الديار الإسلامية آنذاك ورغبة بعض سلاطين المماليك في الظهور بمظهر حماة الأمة والدين لتثبيت ودعم موقفهم أمام الرعية والدولة الإسلامية المجاورة،⁽⁶⁾ وكذلك حسدهم لأثرياء أهل الذمة الذين عُرفوا بمهارتهم في التجارة واكتنازهم للأموال والثروات الطائلة، فكانوا يطمعون في التغول على تلك الثروات حيث يضمنون عدم تعرض أغلب الفقهاء ورجال الدين لهم بالنقد أو إثارة العوام عليهم في تلك الظروف،⁽⁷⁾ وقد ألزمهم بعض السلاطين بارتداء أشكال معينة

(1) البصروي: مصدر سابق، ص 113.

(2) ابن طولون: مفاكهة الخلان، مصدر سابق، ج 1، ص 274.

(3) ابن آجا: أبو الشاء محمد بن محمود بن خليل الحلبي، العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك «مع رحلة الأمير يشبك من مهدي الدوادار»، صنعه محمد أحمد دهمان، دار الفكر، دمشق، 1968م، ص 122.

(4) عاشور: المجتمع المصري، مرجع سابق، ص 47.

(5) الجوالي: وهي تسمية مملوكية للجزية التي تفرض على الذميين الذين يعيشون في كنف الدولة الإسلامية، وقد تهرب الكثير منهم من دفع هذه الضريبة مدعين الإسلام، حيث كان بعض السلاطين يأمرهم بجمعها مقدماً كما يفرضون مكوساً وأتاواتٍ إضافية على أهل الذمة في بعض الأحيان. القريري: الخطط، مصدر سابق، ج 1، ص 107.

(6) السخاوي: التبر المسبوك، مصدر سابق، ص 40.

(7) عاشور: المجتمع المصري، مرجع سابق، ص 49-50.

من الملابس وأمرهم بتقصير عمائهم إلى ما دون العشرة أو سبعة أذرع وصبغها باللون الأصفر لليهود والأزرق للنصارى،⁽¹⁾ كما منعوهم من ركوب الخيل والبغال ودخول الحمامات العامة إلا وهم مرتدو الصليب أو الجلاجل على أعناقهم، وأن لا تتخالط نساؤهم نساء المسلمين في حمام واحد،⁽²⁾ وفي فترة الاضطهاد هذه ينتهز الغوغاء والخرافيش الفرصة في النهب والسطو على منازل وممتلكات أهل الذمة، ويتعرضون لهم في الطرقات بالضرب والشتيم والسلب،⁽³⁾ وقد تعرضت الكثير من الكنائس والمعابد للهدم والتخريب سواء من قبل غوغاء العامة أو المماليك،⁽⁴⁾ إلا أن أهل الذمة لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام تلك الأعمال الاستفزازية فلجؤوا إلى إحراق بعض المساجد والأحياء بالقاهرة انتقاماً لما تعرضوا له من أضرار،⁽⁵⁾ كما اتبعوا بعض الطرق السلمية في حل هذه المسائل بدفع الأموال إلى أرباب السيوف وغيرهم من منسوبي طائفة المماليك الحاكمة،⁽⁶⁾ أو عن طريق ادعاء الإسلام ومنهم من حَسُن إسلامه حقاً ومنهم من اتخذ بذلك سبيلاً للتهرب من الجزية والسلامة من الاضطهاد.⁽⁷⁾ أما فترات السلم والأمان والاستقرار فكانت الأطول والأعم من فترات الاضطهاد، حيث تمتع أهل الذمة بكافة حقوقهم الاجتماعية والدينية

(1) المقرئزي: السلوك، مصدر سابق، ج2، ص216.

(2) ابن دقماق: الجوهر الثمين، مصدر سابق، ص170.

(3) ابن حجر: إنباء الغمر، مصدر سابق، ج2، ص59.

(4) الادفوي: أبو الفضل كمال الدين جعفر بن ثعلب الشافعي، الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد، تحقيق سعد محمد حسن، مطابع سجل العرب، القاهرة، 1966م، ص72.

(5) المقرئزي: السلوك، مصدر سابق، ج1، ص535.

(6) ابن حبيب: الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر، درة الأسلاك في دولة الأتراك، ج1، تحقيق محمد محمد أمين، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2014م، ص152.

(7) وقد ورد على لسان المقرئزي حيث قال: «إن الضرورة وشدة الاضطهاد قد الجأت بعضهم أي أهل الذمة إلى إظهار الإسلام أنفة من لبس الأزرق والأصفر وركوب الحمير، وقد سخر منهم العوام بالشعر فقالوا:

لقد ألزم الكُفَّارُ شاشات ذلة تزيدهم من لعنة الله تشويشا

فقلت لهم ما ألبسوكم عمائاً ولكنهم قد ألزموكم براطيشا»

الخطوط، مصدر سابق، ج4، ص163-161.

والاقتصادية ولم يجرموا من عطف السلاطين وكرامة العيش وحُسن المعاملة والجوار من قبل عوام المسلمين،⁽¹⁾ وقد قدم أهل الذمة خدمات جليلة للمجتمع والدولة آنئذ لاسيما في مجال الطب والتعليم والتجارة والصناعة، ذلك مما أدى إلى اندماجهم في المجتمع إبان العصر المملوكي والعيش في سلام مع إخوانهم المسلمين.⁽²⁾

وبشكل عام قد رزحت طبقة العوام تحت وطأة ظلم المالك ردحاً من الزمان، حيث تفننوا في أساليب قهرهم وأكل أموالهم بالباطل وإذلالهم، خصوصاً في أوقات الحروب حيث يتم أخذ الأموال منهم قهراً لتجهيز الجيوش،⁽³⁾ كما يتعرضون أحياناً للتجنيد الإجباري ويتم وضعهم في مقدمة الجيوش على الرغم من عدم معرفتهم وقلة حيلتهم في شؤون الحرب والقتال،⁽⁴⁾ علاوة على مايعانونه من آثار وعواقب الحروب من اعتداءات مادية ومعنوية وسلب ونهب وانتهاك لحرمان النساء والأطفال وغيرها،⁽⁵⁾ وإرغامهم على العمل في إعادة إعمار ما خلفته الحروب من دمار أو تسخيرهم للعمل في بيوت وقصور الأمراء والسلاطين مقابل أجور زهيدة وأحياناً دون مقابل.⁽⁶⁾ وقد كثرت مصادرات أموالهم من دون أسباب مقنعة، وكذلك كانوا يُجبرون على شراء بعض السلع التي تُطرح

(1) وقد ذكر ابن الأخوة الذي عاش في عصر المالك أن أهل الذمة في زمانه قد حظوا بنوع من الترف ورجد العيش حتى أن بيوتهم صارت أعلى من بيوت ومساجد المسلمين، وأصبحت ملابسهم ومراكبهم أفضل حالاً من التي للمسلمين، بل أنهم أصبحوا يلقبون ويكنون أنفسهم بألقاب وكنى الخلفاء والسلاطين مثل الرشيد وأبو الفضل وأبو الحسن وغيرها. أبو زيد ضياء الدين محمد بن محمد بن أحمد القرشي، معالم القرية في طلب الحسبة، تحقيق محمد محمود شعبات وصديق المطيعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1976م، ص 43-42.

(2) ابن الحاج: أبو عبدالله محمد بن محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي، المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبه على بعض البدع والعوائد، ج 2، مكتبة دار التراث، القاهرة، د.ت، ص 331 / 68.

(3) وقد تعنت المالك في ذلك فكانوا يهاجمون الأسواق وبيوت الأهالي لأخذ المال حتى اضطرت الناس إلى ترك بيوتهم والنزوح إلى خارج المدن خوفاً من ظلم المالك، وورد أنه في عام 1502م أمر السلطان الغوري بشق رجل من أهالي حلب بسبب تأخره في دفع المبلغ المطلوب منه في تجهيز إحدى التجريدات العسكرية. ابن إياس: مصدر سابق، ج 4، ص 42.

(4) ابن طولون: مفاكهة الخلان، مصدر سابق، ج 1، ص 118.

(5) الدويهي: اسطفان، تاريخ الأزمنة، تحقيق الأبائي بطرس فهد، دار لحد خاطر، بيروت، د.ت، ص 343-336.

(6) المقريري: السلوك، مصدر سابق، ج 4، ص 44.

في الأسواق من قبل المتاجر السلطانية بأثمانٍ باهظة ومضاعفة،⁽¹⁾ وقد حُرمت هذه الطبقة من حقوقها في التعليم وحرية العمل والغنى والثراء، وانحصر دورهم في خدمة الطبقات الأخرى ودفع الضرائب والأتاوات إلى المماليك،⁽²⁾ كما مُنعوا من اقتناء المماليك والخيل وحُرّم عليهم ركوبها،⁽³⁾ ومن وُجد بحوزته خيل أو مملوك يعتبر مخالفاً للأوامر السلطانية ويُعرّض نفسه لأشد أنواع العقوبات،⁽⁴⁾ ولم يقف العوام مكتوفي الأيدي أمام هذا الظلم والإذلال، بل كانوا يخرجون ويعبرون عن غضبهم بالدعاء على الظلمة من حُكام ونواب المماليك، ويعتلون المنابر والمآذن بالمساجد الجامعة ويدعون على الظالمين بأسمائهم،⁽⁵⁾ ثم يتوجهون إلى شيوخ الإسلام والأعيان وأكابر المعممين للاستغاثة والاستجارة بهم من ظلم المماليك، وكثيراً ما يقفون إلى جانبهم ويدعمونهم، فإن لم ينصفوهم ذهبوا إلى الأمراء أو السلطان نفسه من أجل إنصافهم ورفع الظلم عنهم،⁽⁶⁾ وفي الأغلب لا تجدي شكاوهم نفعاً مع سلاطين وأمراء المماليك وزبائنتهم، وذلك كما حدث مع أهالي حمص والقدس عندما شكوا للسلطان قانصوه الغوري ظلم نوابهم فلم يصغي لشكاوهم بل أنه أذلم وأهانهم على ذلك،⁽⁷⁾ وكان العوام عندما يغلبون على أمرهم ولا يجدون لهم منصفاً يتعرضون للظلمة من المماليك بالرجم والطرْد والقتل أو الحرق في بعض الأحيان،⁽⁸⁾ كما يعملون

(1) وفي أواخر القرن الخامس عشر الميلادي كثر الطرح للبضائع السلطانية بأسواق دمشق، وأجبرت الرعية على شراء الفين بغير وأعداد كبيرة من الماشية التي نهبا نواب السلطان وأجنادهم أثناء غاراتهم على بعض القرى الشامية وباعوها لهم بأثمانٍ باهظةٍ مبالغٍ فيها. ابن طولون: مفاكهة الخلان، مصدر سابق، ج 1، ص 249.

(2) قاسم: المجتمع المملوكي، مرجع سابق، ص 86.

(3) وقد أورد المقرئزي في ذكره لحرمان العامة من بعض المظاهر والحقوق الاجتماعية قائلاً: أنه قد نودي في العوام بأن لا يركب أحد منهم فرساً وأن لا يحمل لهم المكارية أي الخيلين حملاً على ظهور الأكاديش وهي نوعٌ من الخيول غير الأصيلة. السلوك: مصدر سابق، ج 3، ص 673.

(4) ابن حجر: إنباء الغمر، مصدر سابق، ج 2، ص 541.

(5) المقرئزي: السلوك، مصدر سابق، ج 2، ص 104.

(6) برغوث: مصدر سابق، ص 403-404.

(7) الدويهي: مرجع سابق، ص 343-336. الغزي: الكواكب السائرة، مصدر سابق، ج 1، ص 295.

(8) كما فعل أهالي حلب بنائبهم الخواجا بن الصوا الذي كان يأمر الدودار بالتعسف في جمع الضرائب والأتاوات منهم، فترصدوا له وقتلوه في سنة 1480 م. ابن طولون: مفاكهة الخلان، مصدر سابق، ج 1، ص 24.

على تعزيز الخلافات بين النواب وأمراء المماليك والسلاطين لكي يحصلوا على متنفس من ظلم المماليك لو لحين، علاوةً على الغنائم التي يحصلون عليها عندما يقع النزاع بين المماليك وتعم الفوضى في الدواوين وبيوت الأمراء،⁽¹⁾ وكذلك كانوا يستخدمون الشعر في هجاء الظلمة من المماليك للتهكم والسخرية منهم، ففي أواخر العصر المملوكي وتحديدًا في عام 914هـ/1508م بدأ المماليك يرتدون العمام الصوفية ذات الأحجام الكبيرة، وكانوا حين ذلك في ذروة أطوار فسادهم، فتناول ذلك أحد شعراء العوام متهمًا بالمماليك فقال:

قد لبس الصوف كل تيس قرونه يالها قرون

فرحت من ذلك مستريحاً لا صوف عندي ولا قرون⁽²⁾

أما الطائفة الثانية فهي تُعرف برثة العوام: ويُعرفون أيضاً بالغوغاء والدهماء وهم الذين لا عمل لهم ولا خُلُقٌ حسن وهم أراذل الناس وأوضاعهم مكانةً في المجتمع، ويتصفون بسوء السلوك والتفكك الأسري والاشتغال بالأعمال المنافية للأخلاق والمروءة والدين والتي لا تلاقي استحساناً من جميع طوائف وطبقات المجتمع الأخرى،⁽³⁾ وقد عاشوا على هامش الحياة فلم يكن لهم نصيب من التعليم ولا الوظائف الرسمية ولا المال والثراء ولم تكن لهم مساكن رسمية مقننة وإنما يعيشون في الطرقات والمساجد وبعض المنازل والأكشاك الحقيبة،⁽⁴⁾ ومن منسوبي هذه الطائفة زمرة الحرافيش⁽⁵⁾ والزُّعر⁽⁶⁾.....

(1) الغامدي: عبدالعزيز بن صالح، الخلافة العباسية في مصر في عصر المماليك، رسالة دكتوراة غير منشورة، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، كلية الدعوة وأصول الدين، 1415هـ، 388.

(2) ابن إياس: مصدر سابق، ج4، ص138.

(3) لايبدوس: مرجع سابق، ص143-142.

(4) عرار: شفيق عواد عبدالكريم، سكان فلسطين في العهد المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بيرزيت، كلية الدراسات العليا برنامج التاريخ العربي الإسلامي، عام 2004م، ص129.

(5) الحرافيش: مفردا حرفوش، وهم رجالٌ أقوياء البنية سليمي الأجساد، بيد أنهم ليسوا بأصحاب حرفة ولا صنعة لا عمل لهم، وهم أشد العوام فقراً وأحطهم قدراً وأرذلهم مقاماً في المجتمع. دهمان: معجم الألفاظ، مرجع سابق، ص33.

(6) والزُّعر في اللغة هي لفظة تُطلق على الرجل الشرس الحاد سبيء الخُلُق، الذي لا يلبس ولا ينقاد. الفراهيدي: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد، كتاب العين، ج1، دار ومكتبة الهلال، القاهرة، د.ت، ص352. ويُعرفون أيضاً بالأحداث أو الأوغاد في العصر المملوكي وهم فئة خارجه على القانون ومبادئ =

والشُّطار^(١) والمناسير^(٢) والبلاصية^(٣) والمشاعلية^(٤) وغيرهم،^(٥) وقد ظهرت هذه الفئات المحترقة اجتماعياً والمنحطة أخلاقياً في المجتمع نتيجة للتناقض الطبقي والنظام الاستبدادي الذي مارسه المماليك على الرعية،^(٦) علاوة على كثرة الأزمات من المجاعات والأوبئة والسنين الجُذب العجاف التي أفقرت البلاد وأهلكت العباد، ونسبة لقلّة التدين وتفشي الجهل والفساد الأخلاقي والاجتماعي الناتج عن تفاقم تلك الأزمات ظهرت الكثير من

= الدين والأخلاق يقومون بمضايقة الناس في الأسواق والطرقات، ويشون الرعب والزُعر في نفوسهم. المقرزي: السلوك، مصدر سابق، ج 1، ص 695.

(1) الشاطر في اللغة كل من نحى بخلاف الأستواء وتباعد عنه، والرجل الشاطر هو الذي أعبأ أهله ومؤدبه خبثاً، وشطر أهله أي تركهم مُراعماً ومخالفاً. الزبيدي: أبو الفيز محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، ج 12، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2001م، ص 224.

(2) المناسير: هم مجموعات من اللصوص والنهابيين الذين يداهمون الأسواق والقرى فينهبون ويسلبون كل شيء بالسلاح والقوة، ثم يخرجون منها ويختفون في أوكارهم. دهمان: معجم الألفاظ، مرجع سابق، ص 145.

(3) البلاصية: أو البلاصين هم جماعة أشبه باللصوص يتغولون على أموال الناس ويأخذونها بالقوة وبشتى السبل. نفسه: ص 38.

(4) المشاعلية: وهم أشبه بالخراس، يعسون بالمشاعل ليلاً وينظفون المراحيض والطرقات من الفضلات وجيف الحيوانات الميتة، كما يعملون كجلادين وحُجاب محاكم، وقد كان البعض منهم يستغلون هذه الوظيفة الليلية في لعب القمار وممارسة اللصوصية وبيع الحشيشة والمنكرات. لايبدوس: مرجع سابق، ص 144.

(5) ويلحق بهم النخاسون والمرابون والرقاصون والمرفهون والمهرجون والقصاصون واللصوص والذين يعملون في البغاء وبيع الخمر، ومدربوا الحمير والكلاب ونطاح الكباش والذين يعملون بالسحر والشعوذة والضرب بالرمل والأقداح وأشباههم من أصحاب المهن المناهية للأداب والأخلاق العامة الذين يتواجدون بمواضع الرذيلة والتسول، ويُعرف هؤلاء في المجتمع بأوباش أو أراذل العامة أو الغوغاء. ابن إياس: مصدر سابق، ج 2، ص 46.

(6) وقد استفاد المماليك من هذه الفئات غاية الفائدة، حيث قام بعض النواب والأمراء بتعزيز صلاتهم مع الزعر، واتخذوا منهم أتباعاً وأعواناً لهم يستخدمونهم في تصفية النزاعات والصراعات التي تقع بينهم وتنفيذ المؤامرات والاعتقالات أو لنهب أموال الناس وابتزازهم في الطرقات والأسواق ثم يتقاسمون الغنائم بينهم، وبذلك ساهم المماليك في تقنين فئات هؤلاء الأوباش وتسليطهم على الناس خصوصاً في أوقات الحروب والأزمات والمجاعات. ابن طولون: مفاكهة الخلان، مصدر سابق، ج 282، 1. وقيل أن السلطان قانصوه الغوي كان يقرب شيخ الحرافيش منه ويصطحبه معه في حروبه وحمالاته العسكرية، ويغدق عليه وعلى أتباعه الكثير ومن الأموال والصدقات. ابن إياس: مصدر سابق، ج 1، ص 428.

العادات السالبة في المجتمع وقتئذ مثل الحرفشه واللصوصية والسلب والنهب،^(١) والتسول في الطرقات وأمام المساجد والأضرحة وكان هؤلاء الأوباش كثيري التذمر والصراخ والشتم والتلفظ بأسوء الألفاظ في الطرقات فيأذون أسماع المارة بما لا يليق قوله ولا سماعه ويشوشون على المصلين بالمساجد والناس في بيوتهم من دون استحياء ولا خوف، بل كان الأهالي يخشونهم ويخافون الاحتكاك بهم لشدة بأسهم وصلتهم بالماليك،^(٢) وقد دخل في هذه الفئات أناس من ضعاف النفوس من العوام الذين فقدوا عملهم أو خسرت تجارتهم هرباً من سوء حالهم وواقعهم المرير، وقد يكون ذلك بغرض الانتقام التشفي لما لقوا من سوء معاملة وظلم من قبل الماليك، وفي أواخر حكم الماليك الجراكسة نزع عدد كبير من الفلاحين^(٣) من سكان الأرياف إلى المدن وتركوا الزراعة بسبب كثرة المظالم وفداحة الضرائب والمكوس والغلظة في جمعها فانضموا لفئات الحرافيش والزعر وأصبحوا يمارسون السلب والنهب في الأسواق والطرقات،^(٤) إذ لم يختلف الماليك كثيراً عن الزعر والحرافيش وأمثالهم من حيث المستوى الأخلاقي، فقد كان هؤلاء يسرقون الأثرياء وبيوت الأمراء من أجل الحصول على رغيف الخبز وسد الحاجة،^(٥) أما الماليك فيسرقون وينهبون أقوات الشعوب ويفقرونهم ظلماً واقتداراً دون رحمة ولا استحياء،^(٦) وفي أواخر العصر المملوكي ازدادت أعداد هذه الفئات نسبة لسوء الأوضاع الاقتصادية والمعيشية والاجتماعية، وتغيرت المصطلحات المستخدمة للدلالة على فئات الأوباش والحرافيش

(١) رزق: مرجع سابق، ص 48.

(٢) لا بيدوس: مرجع سابق، ص 295.

(٣) ومن مظاهر الاستبداد الاجتماعي والغبن الطبقي الذي عانى منه الفلاحين، أنهم كانوا يلزمون من قبل ديوان الجند بفلاحة أراضي إقطاعات الماليك لمدة ثلاثة سنوات على الأقل ولا يسمح لهم بتركها قبل انتهاء المدة، وإذا هرب أحدهم تتم إعادته قهراً للعمل حتى انتهاء الأمد، فكان حالهم أشبه بحال أقنان النظام الإقطاعي في أوروبا آنئذ، وفي أثناء عملهم بفلاحة الأرض كان الماليك يتعرضون لهم ويعتدون على أموالهم وأعراضهم بأبشع الأساليب والصور، وقد اعترض بعض العلماء ورجال الدين على تلك المعاملة الفظة للفلاحين قائلين: «بأن الفلاح حر وهو صاحب نفسه ولا يد لمخلوق عليه». السبكي: مصدر سابق، ص 48-72.

(٤) المقرئزي: إغاثة الأمة، مصدر سابق، ص 44-52.

(٥) ضومط: مرجع سابق، ص 93.

(٦) رزق: مرجع سابق، ص 32.

وأصبحوا يُعرفون بالشحاذين أو الشحاتين وجُعل عليهم زعيم يُعرف بشيخ الشحاتين وهو الذي يضع لهم القوانين والنظم التي تسير عليها حياتهم.⁽¹⁾ ولكن على الرغم من كل هذه المظالم والتعديات على حقوق الناس كانت هنالك فئة من السلاطين والنواب الذين يتصفون بالعدل وسماحة الأخلاق، قد أنصفوا العوام وقاموا بعزل الظلمة وأعوانهم من عمالهم على النيابات والأقاليم، كما أصدروا الأوامر بمنع الأمراء والأجناد من التعرض للأهالي وممتلكاتهم ومحارمهم أثناء تسيير التجريدات العسكرية أو مقاومة حركات العصيان والتمرد،⁽²⁾ وكانوا يعيدون الأموال التي تمت مصادراتها بغير وجه حق إلى أصحابها، كما كانوا يكثرون من تقديم المعونات وتوزيع الصدقات والأموال عليهم، وحبس الأوقاف لخدمة الفقراء والأيتام، والتأكيد على حرمتها وتشديد الرقابة على العاملين عليها،⁽³⁾ وقد حرص بعض الأمراء والنواب على إقامة صلوات وعلاقات طيبة مع العوام وكانوا يعتنون بالفقراء والمساكين ويتعهدونهم بالنفقات الشهرية ويحثون الأغنياء من كبار التجار والمعممين على ذلك خصوصاً في أوقات الأزمات والجذب وغلاء الأسعار،⁽⁴⁾ وكانوا يشاركونهم في مناسباتهم ويدعونهم للولائم والاحتفالات التي يقيمونها في قصورهم كما فعل الأمير قانصوة اليحياوي عندما تولى نيابة دمشق في عام 893هـ/1487م، بعد أن استقبله الأهالي استقبالاً حاراً وذلك لما عُرف عنه من تواضع وكرم وحسن أخلاق وطيب معشر.⁽⁵⁾

* * *

(1) النجار: محمد رجب، حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي، عالم المعرفة، الكويت، 1981م، ص 182.

(2) المقريري: السلوك، مصدر سابق، ج 3، ص 101.

(3) نفسه: ج 1، ص 841.

(4) ابن إياس: مصدر سابق، ج 2، ص 748.

(5) ابن طولون: مفاكهة الخلان، مصدر سابق، ج 1، ص 83.

الفصل الثالث

الأزمات الأخلاقية والاجتماعية

وأثرها في إضعاف وزوال

دولة المماليك الجراكسة

3.1 الجوائح⁽¹⁾ والكوارث الطبيعية والأزمات المعيشية وأثرها في أخلاق المجتمع والطبقة الحاكمة أواخر عهد الجراكسة:

شهدت الديار المصرية والشامية إبان العصر المملوكي ضروباً وألواناً مختلفة من الجوائح الطبيعية من أوبئة وطواعين وقحط وجفاف ومجاعات وزلازل وحرائق وغيرها من الكوارث التي تسببت في وقوع أزمات اقتصادية ومعيشية طاحنة، أدت إلى هلاك جمع غفير من الناس وإتلاف كبير في الزروع والضرع وهذا على الصعيد المادي، أما الجانب المعنوي فقد ظهرت الكثير من العادات الغريبة والسالبة لاسيما في الجوانب الإدارية والاجتماعية حيث تفشى الفساد الأخلاقي والظلم واستشرى في جميع طبقات المجتمع بل أصبح ذلك السمة المميزة لتلك الحقبة من العصر المملوكي، وكما ورد في السنة النبوية الشريفة عن عبدالله بن عمر رضي الله عنه قال: كُنتُ عاشر عشرة من المهاجرين عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقبل علينا صلى الله عليه وسلم بوجهه فقال: «يامعشر المهاجرين، خمس خصال، وأعوذ بالله أن تدركوهن، ما ظهرت الفاحشة في قوم قط حتى أعلنوا بها، إلا ابتلوا بالطواعين والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا، ولانقص قوم المكيال والميزان إلا ابتلوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان،

(1) الجوائح: وهي النوازل العظيمة التي تصيب الإنسان والحيوان والمال وتؤثر على جميع جوانب الحياة لاسيما الاقتصادية والمعيشية والاجتماعية، وهي تتمثل في الزلازل والفيضانات والسيول والأمطار والرياح والأعاصير والحرائق والطواعين والأوبئة والمجاعات والفتن والحرب وغيرها. بولقطيب: الحسين، جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، منشورات الزمن، الرباط، 2002م، ص 23-24.

ومامنع قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولا خفر قوم العهد إلا سلط عليهم عدوهم من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تعمل أئمتهم بما أنزل الله ﷻ ويتخبروا في كتاب الله ﷻ إلا جعل الله ﷻ بأسهم بينهم» أخرج بن أبي الدنيا،⁽¹⁾ ومن أقوى الزلازل التي أصابت البلاد آنئذ الذي وقع في سنة 902هـ/ 1497م، فأحدث أضراراً جسيمة تركزت بمنطقة فلسطين ودمشق من الديار الشامية، وهلك فيه خلق كثير وعظمت الخسائر والدمار والتلف، وقيل إنه بمدينة نابلس فقط مات تحت الأنقاض ما لا يقل عن خمسمائة شخص علاوة على الجرحى والخسائر المادية الأخرى،⁽²⁾ كما تعرضت البلاد لموجات من الطواعين والأمراض الوبائية، وقد سماها ابن خلدون وهو شاهدٌ على العصر بالموتان وذلك لكثرة هلاك الأرواح والموت الذي يصاحب فترات تفشي تلك الأمراض التي تفتك بالخلق مكان انتشارها،⁽³⁾ وقد ضربت الطواعين أراضي السلطنة المملوكية خلال الفترة ما بين 1481م وحتى 1516م أكثر من سبع مرات، وكان أشدها الذي وقع في سنة 1492م بالديار المصرية والشامية وقد وصفه مؤرخو تلك الحقبة بالفتاك العجيب الذي لم يرى ولم يُسمع له بمثل، وقيل إن ربع أهل الأرض قد هلكوا فيه،⁽⁴⁾ ونصف سكان القاهرة،⁽⁵⁾ علاوة على هجرات آلاف الأسر من المدن الموبوءة إلى البوادي والأرياف وغيرها من الأماكن التي لم يصلها الوباء، وقد استمرت هذه الهجرات لبضع أشهر حتى انتهاء الوباء،⁽⁶⁾ أما الطاعون الأقوى فقد كان الذي وقع في سنة 1498م وبدأ

(1) ابن أبي الدنيا: أبي بكر عبدالله بن محمد، العقوبات الإلهية للأفراد والجماعات والأمم، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، 1996م، ص 25-24.

(2) العليمي: مصدر سابق، ص 90-86.

(3) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مصدر سابق، ص 302.

(4) وقيل إنه في آنٍ واحد هلك أكثر من مائتي ألف نفس، وكان من ضمنهم زوجة السلطان وابنته، كما هلك ثلث المالك في ذلك الطاعون، علاوة على ماتكبدته البلاد من خسائر أخرى ومالقيته من مجاعات وصراعات داخلية بسبب عدم الاستقرار الأمني الذي أصابها وقتئذ. الصيرفي: علي بن داود الجوهري، إنباء المصر بآباء العصر، تحقيق وتقديم حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2002م، ص 51-46.

(5) السيوطي: الحافظ جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد الخضير، مقامات السيوطي، تحقيق عبدالغفار البنداري ومحمد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، 1986م، ص 70.

(6) ابن طولون: مفاهمة الخلان، مصدر سابق، ج 3، ص 335.

بالقاهرة ثم تفشى في كافة أرجاء الديار المصرية، وقد هلك فيه آلاف الخلق وتزايدت أعداد الوفيات حيث صاحب الطاعون مرض عُرف بالحب الإفرنجي⁽¹⁾، فبلغت نسبة الموتى بالقاهرة فقط ثمانمائة نفس يومياً⁽²⁾ وخلال هذه الموجات المتتالية من الطواعين مات قرابة نصف المماليك السلطانية من الجلبان، علاوة على الذين ماتوا من طائفتي السيفية والقرانصة والطواشي والخدم والإماء، حتى قيل إن السلطان ذات مرة حمل الطعام بنفسه إلى حريمه وذلك لتفشي المرض وكثرة الموت حتى داخل القلعة والبيوت الشريفة، ونسبة لارتفاع أعداد الوفيات وخوف الناس من المرض وانتقال العدوى صارت الجثث تُرمى بالطرقات وشواطئ النيل من دون تجهيز وتكفين ولا دفن⁽³⁾، ومن الآثار التي تخلفها الطواعين تفشي العديد من الأمراض المعدية مثل الجدري والحميات والجرب التي تضعف الأبدان وتمنع المصابين من ممارسة حياتهم الطبيعية في المجتمع حيث ينفر منهم الناس، واستمر الحال على هذه الشاكلة حتى رفع الله تلك الأوبئة عن الناس في 1513م⁽⁴⁾، وأيضاً من تلك الجوائح التي أصابت البلاد آنذاك موجات من القحط والجذب والجفاف وانخفاض في مستوى فيضان النيل الذي يمثل المقوم الأساسي للحياة في مصر، حيث كانت الدولة تعتمد على الزراعة كمصدر رئيسي للدخل القومي عن طريق الاقطاعات والأملاك الشريفة والتي يُعتمد في ريها على فيضان النيل أو ما يُعرف بعطاء النيل وقتئذ⁽⁵⁾، وكذلك الأهالي كان جُلهم

(1) الحُب الإفرنجي: ويُعرف بالسفليس أو الزُهري وهو أحد الأمراض الجنسية الفتاكة، وكان أول ظهور له في سنة 1501م ببلدة في أسبانيا وقد وصل إليه عن طريق الجنود الذين أنفذهم الملك إلى بلاد الدنيا الجديدة إبان حملات الكشوف الجغرافية، فاختلطوا بأهالي تلك البلاد ولم تسلم منهم نساؤها حيث كان بهم ذلك المرض، فتفشى بين الجنود نتيجة لفساد أخلاقهم وكثرة ممارستهم للفواحش والزنا، وقيل أن ظهور هذا المرض كان قبل ذلك بأعوام، وقد أطلق عليه العرب اسم الداء أو الحُب الفرنجي أو الفرنسي نسبة لأرض الفرنجة الموطن الأصل الذي انبعث منه ذلك المرض البوابي. ابن سلوم: صالح، مخطوط غاية الاتقان في تدبير بدن الإنسان، نسخة ولي الدين، استانبول 2520، ص 273.

(2) صلاح: محمد حمزه محمد، الكوارث الطبيعية في بلاد الشام ومصر «923-491هـ/ 1517-1097م»، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية غزة، كلية الآداب، 2009م، ص 162.

(3) عبدالباسط الظاهري: مصدر سابق، ج 7، ص 174-184.

(4) الطراونة: مبارك محمد، الأوبئة (الطواعين) وآثارها الاجتماعية في بلاد الشام في عصر المماليك الجراكسة «922-784هـ/ 1517-1382م»، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، مج 4، العدد 2010، ص 3، ص 52.

(5) كما ورد على لسان المقرئ حينها تحدث عن النيل قائلاً: وقد جعل الله في نيل مصر من حكمة الزيادة =

يعملون بالزراعة أو التجارة في المحاصيل الزراعية، وكان منسوب الفيضان النيل ووفائه هو المقياس الأساسي في التنبؤ بالحالة الاقتصادية والمعيشية للبلاد بصورة سنوية،⁽¹⁾ فإذا ارتفع منسوب الفيضان عن الحد اللازم كان ذلك نذيراً بوقوع السيول والفيضانات التي تبتث الرعب والقلق في نفوس الناس لما ينتج عنها من خراب ودمار، وكذلك إذا قل عن المستوى المطلوب فذاك نذيراً بالقطط والجذب وحلول الغلاء والاحتكار ثم المجاعات والأوبئة وما يصاحبها من فوضى واضطراب وفساد أخلاقي في المجتمع،⁽²⁾ أما بلاد الشام فكانت تعتمد على الزراعة المطرية ومياه الآبار الجوفية، وقد كثرت حالات الجذب والجفاف والمجاعات بها لاسيما إبان العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الخامس عشر الميلادي، وكان أشدها التي وقعت في سنة 1514م وقد استمرت حتى العام التالي وظلت آثارها باقية حتى قبيل دخول العثمانيين إلى الديار الشامية، وأيضاً من الجوائح التي أصابت البلاد في تلك الفترة غارات أسراب من الجراد والطيور والفئران والديدان التي أفسدت المحاصيل الزراعية وقضت على الأخضر واليابس منها، وكان الجراد أشدها فتكاً حيث توالى غاراته على الأراضي الزراعية بالشام لأكثر من ست مرات خلال العقد الثامن من القرن الخامس عشر الميلادي، فألحقت بالمزارع والمحاصيل أضراراً فادحة،⁽³⁾ وكذلك فعلت الفئران في سنة 1511م فنجم عن ذلك نقصٌ حاد في الأقوات مما أدى إلى ظهور مجاعات طاحنة أرهقت البلاد والعباد،⁽⁴⁾

= في موسم الصيف بشكل متدرج حتى يبلغ الكمال في ري البلاد، ثم هبوطه بنفس الطريقة عند البدء في الزراعة، ولولا ذلك لفسد إقليم مصر وتعذر على الناس سكنه لافتقاره للعيون الجارية والأمطار الكافية للزراعة، في جميع أطرافه عدا إقليم الفيوم. الخطط، مصدر سابق، ج 1، ص 62.

(1) وإذا حدث تأخر أو نقصان في وفاء النيل كان الناس يعزون ذلك لانتشار المعاصي والفساد الأخلاقي وغضب الله عليهم، فيبادر السلاطين ورجال الدولة بمكافحة الفساد ومداهمة الأوكار التي تمارس فيها الرذائل، وذلك كما حدث في سنة 1511م حيث أشيع بين الناس أن سبب عدم وفاء النيل من كثرة المعاصي والفواحش التي ترتكب في جزيرة الروضة، فكبس عليها رجال الدولة وحطموا الخيام التي كانت ترتكب فيها الفواحش وقبضوا على جميع من فيها من أهل الفحش والفساد. ابن إياس: مصدر سابق، ج 4، ص 231.

(2) قاسم: عبده قاسم، النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، القاهرة، 1978م، ص 54-53.

(3) ابن طولون: مفاكهة الخلان، مصدر سابق، ج 1، ص 213-43-6.

(4) ابن الحمصي: شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الأنصاري، حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران، ج 3، تحقيق عبدالعزيز فياض حروفوش، دار النفائس، بيروت، 2000م، ص 60.

وقد تخللت تلك الجوائح موجات من الحرائق والرياح والعواصف الشديدة لاسيما التي عصفت بالقاهرة ودمياط في سنة 1503م، فأحلت الكثير من الخراب والدمار وأتلفت الأملاك والزروع واقتلعت الأشجار وأغرقت عدداً من المراكب ببحر الروم، كما أدت إلى نفوق الكثير من الدواب والطيور،⁽¹⁾ أما الحرائق فقد كثر اندلاعها في أماكن عديدة ومختلفة من أراضي السلطنة ولم تُحدد أسباب وقوعها بل كان جُلها مجهولاً، وكان أكثر وقوعها في الأسواق وبيجوار المساجد، ومن أشدها الذي اندلع تحت أسوار القلعة واحترق فيه مسجد النخلة وجسرى الزلاوية والحديد وما بينهما من بيوت وأسواق وكان ذلك في آخر يوم من شهر رمضان سنة 900هـ / 1495،⁽²⁾ وقد اندلعت الكثير من الحرائق بسبب حركات تمرد الزعر والغوغاء أو المماليك الجلبان واحمادها من قبل الدولة،⁽³⁾ حيث تعم الفوضى والاضطراب وتكثر حالات النهب والسرقه، علاوةً على ما تخلفه الحرائق نفسها من إتلاف ودمار وخسائر في الأنفس والأموال وموجات من الغلاء والضوائق المعيشية والفقر،⁽⁴⁾ وقد أدت هذه الجوائح والأزمات إلى إحداث تحول كبير في التركيبة السكانية والطبقية في المجتمع وقتئذ، فأصبح الناس على ثلاثة أقسام، غني افتقر، ومكتسب لا يفي بنفقته، وفقير معدم كان يسأل الناس رغيغ الخبز فصار يطلب لبابة أو لقمة لعله يجدها أو لا يجدها.⁽⁵⁾

(1) ابن إياس: مصدر سابق، ج4، ص60.

(2) ابن طولون: مفاكهة الخلان، مصدر سابق، ص136-135.

(3) مثل الذي وقع في سنة 1497م إبان تمرد المماليك الجلبان بدمشق، حيث عمت الفوضى واندلعت الحرائق في كل مكان وكثر السلب والنهب، حتى لجأ الأهالي إلى صنع المتاريس والحوارج في الطرقات بين الحارات لوقف النيران وعرقلة عمليات السلب والنهب، حيث عاش الناس في حالة من الزعر والخوف على أرواحهم وممتلكاتهم من بطش المماليك ولهب النيران. ابن طولون: مفاكهة الخلان، مصدر سابق، ص156. أو كالذي وقع بالقاهرة سنة 1512م عندما حاول أحد المماليك حرق دار أستاذه بالقاهرة بغرض الانتقام والنهب، وقد اتسع نطاق الحريق والتهمة النيران الكثير من الدور المحيطة بها، وامتدت ذلك حتى الربوع والأحياء المجاورة. ابن إياس: مصدر سابق، ج4، ص258.

(4) عبيد: إياد أحمد، الحرائق في مصر وبلاد الشام منذ بداية الدولة الطولونية حتى نهاية دولة المماليك «923-245هـ / 1517-868م» رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية بغزة / كلية الآداب، 2015م، ص165.

(5) الحازمي: نوف محمد، أثر الأوضاع الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية على الحياة العلمية في عهد المماليك الجراكسة في مصر «784/922هـ - 1382/1517م»، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، 2010م، ص333.

3.1.1 مظاهر الفساد الأخلاقي والاجتماعي إبان الجوائح والأزمات وموقف

الدولة من ذلك:

عندما تقع الجوائح والطواعين كان السلاطين يستفتون العلماء ورجال الدين من المعممين في سبب وقوعها وكيفية مكافحتها، فيذكر لهم أغلبهم أن وقوع تلك الأزمات والجوائح مرتبط بالفساد الديني والأخلاقي الذي فشى في المجتمع آنئذ، ويرجعون ذلك إلى غضب الله عليهم وعقابه لهم من جراء التدني الأخلاقي والظلم والفجور والفسق والتعامل بالرشوة وقلة التدين الذي يعيشون فيه،⁽¹⁾ علاوةً على فساد أخلاق النساء وتبرج طائفة منهن وخروجهن بتلك الحالة في الطرقات والأسواق بالليل والنهار، واتباعهن للجنائز وغير ذلك من الأفعال التي تتنافى مع مبادئ وأخلاقيات الشريعة الإسلامية،⁽²⁾ فيلجؤون إلى الله تعالى متذللين مدعين له كافة سلاطين ورعية، مكثرين من فعل الطاعات والعبادات والدعاء مبتعدين عن المفاصد والمعاصي بقدر المستطاع،⁽³⁾ ولكن ما تبرح أن تنجلي تلك الغمة ويرفع البلاء فيعودوا إلى ما كانوا فيه من ظلم وهو ومفاصد أخلاق،⁽⁴⁾ ومما

(1) وقد ورد ذلك في السنة النبوية، فعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي ثم يقدرون على أن يغيروا ثم لا يغيروا إلا يوشك أن يعمهم الله بعقابٍ» أخرجه الطبراني: مصدر سابق، ج2، ص378.

(2) وقد أمر بعض السلاطين بمنع النساء من الخروج من بيوتهن بشكل قطعي، درءاً للفتنة والفساد حتى يرفع الله الوباء والبلاء، ونودي بذلك في الطرقات والأسواق، وتشدد المحتسبون في ذلك وكانوا يضربون النساء اللاتي يخالفن ذلك يهددوهن بالقتل، فتأذت النساء كثيراً من ذلك وعجزن عن قضاء حوائجهن، فضج الناس واعترضوا على ذلك القرار، فسمح السلطان بخروج العجائز والإماء لقضاء الحوائج، ثم سمح للنساء بشكل عام بالذهاب إلى الحمامات فقط، شريطة أن لا يقمن بها إلى الليل. ابن حجر: إنباء الغمر، مصدر سابق، ج9، ص7.

(3) وقد اجتهد الناس في التقرب إلى الله بفعل الطاعات والبعد عن مفاصد الأخلاق حتى ظهر ذلك في حياتهم الأدبية فأورد ابن الوردي حالهم شعراً فقال:

وهذا يُوسع إنفاقه وهذا يُخالل من خان وهذا يُجيبس أمواله وهذا يجرر غلماؤه

وهذا يُغير أخلاقه وهذا يُعير ميزانه. عبدالرحيم: رائد، رسالة «النبأ عن الوباء» لزين الدين بن الوردي ت749هـ دراسة نقدية، مجلة جامعة النجاح للأبحاث والعلوم الإنسانية، العدد 5، مج 2010، ص24، ص1504.

(4) وقد ورد على لسان مؤرخ العصر ابن إياس قائلاً: وقد كثر انتشار الفاحشة وارتكاب المعاصي والزنا واللواط وشرب الخمر وأكل الربا وأمواال الناس بالباطل، فضلاً عن جور الممالك وظلمهم للرعية. مصدر سابق، ج3، ص287.

لاشك فيه أن الدولة قد سعت جاهدة إلى مكافحة الجوائح والأوبئة بتقديم الإرشادات الطبية والخدمات الصحية وبناء المرافق الصحية وغيرها، بيد أن العجز والاضطراب كان سمةً ملازمة لها في جميع تصرفاتها من الجوانب الاجتماعية والأخلاقية وقتئذ، حيث كان الكثير من السلاطين يتظاهرون بالرحمة والعدل والتدين إبان وقع هذه الجوائح والأزمات، وذلك لشدة خوفهم على أنفسهم من غضب الله عليهم أو من تمرد الرعية والتعرض لهم بشيء من السوء الذي قد يصل إلى حد القتل في بعض الأحيان، فيأمرون بأن يُنادى في الناس لصلاة الاستسقاء، ويحثونهم على الصيام والقنوت في الصلاة والدعاء والتضرع لله تعالى برفع البلاء،⁽¹⁾ كما أن البعض منهم كانوا يأمرون بإلغاء الكثير من المكوس والضرائب التي كانوا يفرضونها على الرعية تجنيباً وظلماً، وينفذون الحملات التأديبية لمهاجمة أو كارت الفساد والفحش، ولكن بمجرد زوال البلاء وانجلاء الأزمات يأمررون بإعادة تلك الضرائب إلى ماكانت عليه من قبل بل ويضاعفونها أحياناً، كما فعل السلطان قانصوه الغوري إبان الطاعون الذي اجتاحت البلاد في سنة 910هـ/ 1504م،⁽²⁾ حيث أمر بإنفاذ حملات لمهاجمة مواضع الفساد ومنع سواقط النساء من فعل البغاء وبيع الخمر والحشيش والبوزة⁽³⁾ ومداهمة النصارى واقتحام بيوتهم واتلاف ما فيها من خمر ومسكرات،⁽⁴⁾ كما أمر بمنع النساء من النياح على الموتى والذهاب إلى أماكن العزاء ليلاً، وأمر بإطلاق مجموعة من المساجين وعقد مجلساً للنظر في شكاوى المظلومين من العوام،⁽⁵⁾ وأمر بوقف عقوبة

(1) المقرئزي: السلوك، مصدر سابق، ج3، ص219-218.

(2) الهنداوي: هنادي زعل مسعود، السلطان قانصوه الغوري ونهاية دولة الماليك «923-906هـ/ 1517-1500م»، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك - كلية الآداب، 2002م، ص118.

(3) البوزة: ضربٌ من ضروب المسكرات، وهي شراب يصنع من الأرز أو القمح حيث تتم معالجته وتخميره لفترة من الزمان حتى يصير مُسكرًا. الباباني: إسماعيل بن محمد أمين بن سليم البغدادي، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، ج1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت، ص114.

(4) ويذكر الصيرفي متعجباً من فعلهم هذا قائلاً: والعجب في ذلك أنهم يعرفون موسم عصر الخمر في كل عام، بل أنهم يعاونونهم في ذلك ويبيعونهم العسل لصنع الخمر ويقبضون ثمنه. نزهة النفوس، مصدر سابق، ج3، ص406.

(5) ابن طولون: شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الصالحى، أعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى «تاريخ الشام من قيام دولة الماليك في مصر إلى صدر العهد العثماني»، تحقيق عبدالعظيم حامد خطاب، مطبعة عين شمس، القاهرة، 1973م، ص218.

التجريس⁽¹⁾ وضريبة المشاهرة⁽²⁾ ولم يكن فعله هذا إلا خوفاً على نفسه وسلطانة، فسرعان ما تراجع عن ذلك كله بمجرد انجلاء الطاعون، وأمر بمضاعفة الضرائب التي أبطلها في نفس العام⁽³⁾، فكان لذلك دور كبير في ضياع حقوق الناس وفساد أخلاقهم ومعاشهم لما صاحب ذلك من ظواهر مخالفة للأداب العامة وضوابط الشريعة الإسلامية.

ومن الأعمال الخيرية التي قام بها سلاطين المماليك أثناء وقوع الطواعين والجوائح للعمل على تخفيف وطأة الأزمة على العوام، لاسيما عندما يكثر الموت فكانوا يشاركون في مصاريف تجهيز الجنائز وصناعة نعوش وبناء المغاسل ويحثون الأمراء والأثرياء من التجار على أن يحدوا حذوهم في ذلك الصنيع⁽⁴⁾، حيث أنشأ السلطان قايتباي موضعاً لغسل وتكفين الموتى إبان الطاعون الذي حل بمصر سنة 1498م وسماه بسبيل المؤمنين، كما شدد في العقوبة على لصوص القبور الذين يسرقون الأكفان والنعوش⁽⁵⁾، وقد تم تشييد مبنياً آخر على غرارها بالشام عندما حل بها الطاعون في سنة 1513م⁽⁶⁾، وكان البعض منهم يُكثرون من التصدق على العامة ويوزعون الطعام على الزوايا والخوانق وأمام المساجد وعلى المساجين⁽⁷⁾، ولكن على الرغم من ذلك كله إلا أنَّ سلاطين وأمراء المماليك لم يتخلوا ولو لبرهة من الزمان عن عنصريتهم وظلمهم وأنانيتهم وحرصهم على الدنيا، حيث كانوا يهربون هم وحاشيتهم

(1) التجريس: وهي من أكثر طرق العقاب والتشهير استخداماً في العصر المملوكي، حيث يُطاف بالشخص المذنب على ظهر حمار ويضرب الجرس عليه حتى يتجمع حوله الناس ويزفونه بالمغاني، ثم يجلد على الملاء عقاباً على ما اقترف من ذنب. ابن إياس: مصدر سابق، ج 4، ص 77.

(2) المشاهرة: هي ضريبة شهرية فرضها السلطان قانصوه الغوري على كل الباعة والتجار وأصحاب الطواحين، أما مصارفها فيخصص ربعها لصالح الأمراء الذين لا يملكون اقطاعات، ويذهب الباقي إلى خزانة الدولة، وقد تسبب هذا المكس في زيادة أسعار الغلال والأقوات، فتأرجح أمرها بين الابقاء والإلغاء حيث كان السلطان يلغئها عند وقوع الطواعين وظهور الجوائح تقرباً وخوفاً من الله تعالى، وبمجرد زوال البلاء يعيدها ويزيد فيها أحياناً. نفسه: ج 4، ص 304.

(3) نفسه: ج 4، ص 329-328.

(4) عبد الباسط الظاهري: مصدر سابق، ج 7، ص 170.

(5) صالح: أسماء جلال، العادات المصاحبة للأوبئة في مصر في عصر المماليك «648هـ - 923هـ/ 1250 - 1517 م»، المجلة العلمية بكلية العربية بأسبوط/ جامعة الأزهر، العدد 39، ج 2020، ص 2، م، ص 1797.

(6) ابن إياس: مصدر سابق، ج 3، ص 319.

(7) المقريري: السلوك، مصدر سابق، ج 3، ص 919.

وأولادهم إلى المناطق الصحيحة التي لم يصبها الوباء، ولم يقتصر ذلك الفعل على طبقة المماليك فقد تبعهم عليه القوم من المعممين وأرباب الوظائف حيث أرسلوا أبناءهم إلى تلك الأماكن بعد تأمين سبل العيش والراحة لهم،⁽¹⁾ كما فعل قاضي قضاة الحنفية إبان الطاعون الذي وقع في سنة 1514م حيث أرسل أبناءه إلى ناحية جبل الطور فاقتدى به جمع من أمراء المماليك فألحقوا بهم أبناءهم خوفاً عليهم من المرض والموت،⁽²⁾ وكذلك فعلت طائفة من العوام حيث هاجروا بأهلهم نحو الحجاز وأقاموا بمكة والمدينة،⁽³⁾ ولم يتنازل سلاطين وأمراء المماليك عن امتيازاتهم ومظاهر حياتهم المترفة والمرفهة قط حتى في أشد أوقات العسر، فكان منهم من يخرجون للنزهة والترفية ويصرفون الأموال الطائلة على هذه الرحلات، ويهرقون خزينة الدولة ويكلفون أهالي تلك الأقاليم التي يزورونها أو يمرون عليها بمواكبهم السلطانية بما لا يطيقون من تكاليف،⁽⁴⁾ وقد اهتم البعض منهم في هذه الأوقات بشؤون البناء والعمارة وكانوا يُسرفون في بذل الأموال لأجلها حرصاً على تخليد أسمائهم والظهور بمظهر التدين والاهتمام بشؤون الرعية،⁽⁵⁾ وكانوا يفعلون ذلك كله ويتركون رعيتهم يرزحون تحت وطأة الفقر والمرض والجوع يواجهون مصيرهم المجهول منفردين دون رحمة ولاشفقة، ويعزى ذلك لعدم شعورهم بالمسؤولية وتهاونهم وفساد أخلاقهم وقلة تدينهم ومروءتهم،⁽⁶⁾ وقد كان لبعضهم دور كبير في تعزيز مشكلة الغلاء، وذلك باحتكارهم للغلال قبيل وقوع الغلاء ليبيعوها بأسعار مضاعفة عند وقوع الغلاء، فقد أكثروا من الرمي والطرح في الأسواق لبيع بضائعهم الخاصة التي يغالون في

(1) وفي ذلك مخالفة للشريعة الإسلامية كما ورد في السنة النبوية عن أسامة بن زيد أن النبي ﷺ قال: «إذا سمعتم الطاعون بأرض، فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض، وأنتم فيها، فلا تخرجوا منها» متفق عليه. ابن حجر: فتح الباري، مصدر سابق، ج 10، ص 190.

(2) ابن إياس: مصدر سابق، ج 4، ص 299-296.

(3) السخاوي: مصدر سابق، ج 3، ص 123.

(4) نفسه: ج 3، ص 54-53.

(5) قاسم: عصر سلاطين المماليك، مرجع سابق، ص 367.

(6) وقيل أن العوام قد وقفوا في طريق موكب السلطان قايتباي يشكون له ضيق العيش وغلاء الأسعار وانعدام الخبز من الأسواق، إلا أنه لم يلتفت إليهم ولم يتهم لأمرهم. ابن إياس: مصدر سابق، ج 3، ص 165.

أثمائها، وكذلك يفعلون في رفع قيمة أجرة الأراضي الزراعية التابعة للسلطنة حتى أصبحت محاصيل تلك الأراضي لا تغطي ما ينفق عليها من مال، وقد أدت هذه الأفعال إلى خراب البلاد وفساد حال العباد وملازمة الغلاء لهم حتى اعتاده الناس وصار أمراً طبيعياً لا يرجى زواله،⁽¹⁾ ومما أدخلته الأزمات والمجاعات في نفوس الناس من شح وبخل حتى الأثرياء منهم وأمراء المماليك كانوا لا يستقبلون أحداً في وقت تناول الطعام،⁽²⁾ وعلى الرغم من كل هذا البلاء قام السلطان قايتباي في سنة 892هـ/1486م بفرض مكوس جديدة على التجار وذلك عندما احتاج للمال في تجهيز حملة عسكرية لمجابهة العثمانيين بمنطقة الأناضول، فلم يتقبل التجار ذلك وتضجروا منه، إلا أن السلطان لم يكتفِ بل أضاف مكساً آخر عُرف بمكس الغلة وهو عبارة عن نصف درهم يؤخذ ممن يعملون في بيع الغلال من التجار وقد ضُعب المبلغ فيما بعد حتى صار درهماً كاملاً في عام 901هـ/1495م،⁽³⁾ ومن مفاصد الأخلاق التي ظهرت آنذاك ظاهرة الاستيلاء على أموال وميراث الكلاله من أموات العوام بغير وجه حق شرعي،⁽⁴⁾ ومن غرائب ما وقع من المماليك إبان فترة الأزمات والطواعين، ما فعله السلطان أبو السعادات ناصر الدين محمد بن قايتباي عندما علم ب بدايات الوباء الذي وقع بمصر في سنة 1497م، فنادى بأن تعلق القناديل على أبواب المنازل والخوانيت لإنارة الشوارع وأصبح يخرج بنفسه كل يوم بعد صلاة العشاء إلى شوارع القاهرة، فإذا وجد أحداً يمشى في الطريق أمر بقطع أذنيه وأنفه، ثم ضربة بالمقارع، فقتل جمٌ غفير من الناس في فتره وجيزه بسببه، وذلك لما عُرف به من طيش وخفه وفساد أخلاق واضطراب في الشخصية فكان ذلك سبباً في إضعاف الدولة وضياع حرمتها بين الناس ودول الجوار، حيث انتهج مماليكه نهجه في الظلم والبطش، حتى تضايق الرعية من ذلك فقالوا:

أقول للطعن والمماليك جاوزتما الحد والحكاية

ترفقا بالورى قليلاً فواحد منكم كفاية⁽⁵⁾

(1) المقرئزي: السلوك، مصدر سابق، ج4، ص226.

(2) نفسه: ج1، ص72.

(3) الوقاد: مرجع سابق، ص127.

(4) صالح: مرجع سابق، ص177.

(5) ابن إياس: مصدر سابق، ج3، ص389-387.

أما طائفة الفقهاء ورجال الدين من المعممين فكان لهم دور كبير وهام جداً في حث الناس على الرجوع والتوبة إلى الله تعالى والتضرع بالدعاء والاعتكاف بالمساجد وقراءة القرآن وصحيح البخاري وغيره من كتب الدين والقنوت في الصلوات والدعاء برفع اليدين، والبعد عن المعاصي ومفاسد الأخلاق وكل ما يثير غضب الله عليهم.⁽¹⁾

3.1.2 مظاهر الفساد الأخلاقي في المعاملات التجارية وظهور الغلاء

والمجاعات:

توالت الأزمات والجوائح والكوارث الطبيعية على البلاد إبان العصر المملوكي من نواح عدة، علاوة على ما صحبتها من أزمات اجتماعية وأخلاقية، لاسيما وأن هناك طوائف منحرفة من الماليك والعربان والعوام قد حولوا حياة الناس إلى جحيم وضيقوا عليهم في معاشهم وشؤون دينهم ودنياهم، فكانوا يتلاعبون بأقوات الناس حتى أفقروهم وأصبح البعض لا يملكون قوت يومهم ولا يجدون ما يسترون به أنفسهم من لباس ولا مأوى يأمنون فيه على أنفسهم وأهليهم من الأخطار وعوامل الطبيعة، وبذلك حُرِم الكثير من الناس أبسط حقوقهم في كرامة العيش من مأكَل ومشرب وأمن وإيجاد عمل ومسكن،⁽²⁾ ولكثرة موجات الغلاء التي ضربت البلاد وشدتها لاسيما بالديار المصرية، حيث قل الوازع الديني وانتشر الجهل والفساد كما قلت مظاهر التكافل الاجتماعي بين الناس حتى إن البعض منهم لجأوا إلى بيع أبنائهم بأبخس الأثمان خشية العيلة والإملاق،⁽³⁾ كما اضطروا لأكل لحوم القطط والكلاب وقيل إن بعضهم قد أكل لحوم البشر من شدة المسغبة،⁽⁴⁾ ومن شدة الجوع كانوا يلتقطون حب الشعير من بعر الدواب ليأكلونه كما يأكلون الجيف ولحوم الميتة وغير ذلك مما تقشعر من ذكره الأبدان،⁽⁵⁾ وذلك بسبب الاحتكار والغلاء المُفتعل والغش والتدليس وما شابهها من السياسات التي لم تعد ممارستها حصراً على فئة التجار

(1) نفسه: ج1، ص531.

(2) قاسم: عصر سلاطين المماليك، مرجع سابق، ص351.

(3) المقرئزي: الخطط، مصدر سابق، ج3، ص99.

(4) ابن قاضي شهبة: التاريخ، مصدر سابق، ج2، ص484.

(5) عبدالباسط الظاهري: مصدر سابق، ج6، ص60.

فقط؛ بل إن عوام الناس أصبحوا يشرون في شراء الأقوات بكميات كبيرة لتخزينها،⁽¹⁾ لما قُذِف في قلوبهم من رعب المجاعات،⁽²⁾ وقد تم ضبط الكثير من التجار الذين اتصفوا بالجشع والطمع وهم يبيعون الناس الأطعمة الفاسدة ولحوم الكلاب والقطط والحيوانات الميتة،⁽³⁾ وكان الخبازون من أشد الناس وأعظمهم طمعاً وأقلهم ورعاً، حيث يمتنعون عن بيع الخبز لأيام عديدة طمعاً في ارتفاع الأسعار وكسب المزيد من الأرباح متلاعبين بأقوات الناس، كما أن هناك فئة من الحرافيش كانوا يقومون بسرقة الخبز وخطفه من الحمالين ثم يبيعونه بأثمان باهظة للناس لندرتهم، فأصبح لا يتم بيع القمح والخبز إلا تحت حراسة ورقابة رسمية من رجال الدولة،⁽⁴⁾ وأحياناً تصدر أوامر سلطانية بإجبار الخبازين وأصحاب المطاحن بفتح محلاتهم والبيع بأسعار معينة تُحدد من قبل المحتسب⁽⁵⁾، ومن يخالف ذلك يعرض نفسه للعقوبة البدنية بالجلد أو التسمير⁽⁶⁾ والمادية بمصادرة بضائعهم ونهب محلاتهم،⁽⁷⁾ ومع ندرة القمح وسياسة الاحتكار التي يتتبعها البعض من حين لآخر يئس الفقراء وضعاف الناس من الحصول على الرغيف حتى أصبح البعض منهم يرمون

(1) وقد تحدث ابن حجر العسقلاني عن ذلك قائلاً في خبر الغلاء والمجاعة التي وقعت بالشام سنة 818هـ/1415م، أنه من شدة الغلاء وندرة القمح وتفشي الاحتكار، صار الناس الذين يكتفون بعشرة أرغفة لو وجدوا مائة لشتروها لما قُذِف في قلوبهم هلع مخافة فقده، وكذلك يفعلون بالقمح لندرتهم، فتعطلت حركة البيع والشراء بالأسواق بسبب انشغال الناس بتحصيل الأقوات والتراحم على المخازن منذ منتصف الليل حتى الصباح لعلهم يحصلون على رغيف الخبز. إنباء الغمر، مصدر سابق، ج 7، ص 186-185.

(2) الصيرفي: نزهة النفوس، مصدر سابق، ج 1، ص 391.

(3) المنصوري: ركن الدين ببيرس الناصري الخطائي، مختار الأخبار، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، د.ت، ص 102.

(4) الصيرفي: نزهة النفوس، مصدر سابق، ج 1، ص 43.

(5) الحسبة هي وظيفة دينية تقوم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويُعرف القائم بها بالمحتسب حيث يقوم بمحاربة الظواهر السالبة من غش وفساد في المجتمع، وذلك بمراقبة الأسواق والطرق والاماكن العامة وحث الناس وإلزامهم بمراعاة الآداب العامة ومكارم الأخلاق وضوابط الشرع، ويقوم بمعاقبة كل من يخالف ذلك لاسيما في أوقات الشدة والغلاء حيث يمنعون التجار من المغالاة في الأسعار والتلاعب بأقوات الناس. ابن تغري بردي: حوادث الدهور، مصدر سابق، ج 1، ص 298.

(6) التسمير: هو نوع من أشد العقوبات التي تطبق على المذنبين إبان العصر المملوكي، حيث يتم تجريد المذنب من جميع ملابسه عدا ما يستر عورته، ثم يصلب على خشبتين وتندق المسامير الغليظة على أعضائه ويترك تحت الشمس على هذه الهيئة حتى يموت. الجبوري: مرجع سابق، ص 105.

(7) ابن الفرات: مصدر سابق، مج 9، ج 2، ص 387.

أنفسهم على سبت الخبز على الرغم من معرفتهم بما سيلاقونه من شتم وضرب حتى يغمى عليهم أحياناً، ولكن ذلك كله يهون عليهم بمجرد حصولهم على رغيفة واحده،⁽¹⁾ وبذلك انعدم الأمن وانتشرت الفوضى في المجتمع وكثرت حالات السرقة وقطع الطريق، ومن أشهر أنواع السرقات أنتد سرقة الأقمشة حيث ارتفعت أسعارها لكثرة الموت الناتج عن الطواعين، فعجز الناس عن تكفين موتاهم، وظهرت فئة من اللصوص يقومون بنش القبور لسرقة الأكفان، كما أنهم يقومون بخطف الأطفال ويقتلونهم ثم يأخذون ملابسهم لبيعها والحصول على طعام بأثمنها، وهناك فئة أخرى كانت تمارس القرصنة النهرية بقطع طريق المراكب التي تحمل الغلال من الأرياف إلى القاهرة،⁽²⁾ ومن الظواهر السالبة التي رافقت المجاعات وسياسات الاحتكار، إدعاء طائفة من الناس الفقر والحاجة لكي ينالوا بذلك شيئاً من الصدقات والعطايا التي توزع على المحتاجين أنتد، وأصبحوا يمارسون التسول والشحاحه وغيرها من الأعمال المنافية للدين ومكارم الأخلاق، واتخذوا منها مهنةً رسمية لاسيما فئة الحرافيش الذين صاروا يسألون الناس من دون حاجه ويقعدون لهم في الطرقات وعند أبواب المساجد بيد أنهم لا يدخلون للصلاة فيها قط، ومنهم من يظهر عورته أو يمشي عارياً بين الناس ليخدعهم ويقنعهم بأنه لا يملك ما يستر به عورته، ولهم غير ذلك الكثير من الحيل والألاعيب التي يسترقون وسيتعطفون بها قلوب الناس.⁽³⁾ أما بلاد الشام فلم تكن بحال أفضل من الديار المصرية عندما يحل الجذب وتقع الأزمات والجوائح، ومن أشدها تلك التي وقعت متتالية خلال العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الخامس عشر الميلادي، واستمرت حتى أواسط العقد الثاني من القرن السادس عشر لم تنته إلا قبيل دخول العثمانيين بقليل،⁽⁴⁾ حيث نضبت الآبار وغارت مياهها وكان الناس يتقاتلون على ما بقى منها ويستقوي القوي منهم على الضعيف فتكثر المفاسد والمظالم بالمجتمع، ويتزاحم الناس على المخابز ويصطفون أمامها لساعاتٍ طويلة لندرة الخبز وغلاء

(1) العيني: عقد الجمان، مصدر سابق، ج 3، ص 201.

(2) ابن حجر: أنباء الغمر، مصدر سابق، ج 8، ص 201.

(3) السبكي: معيد النعم، مصدر سابق، ص 113.

(4) ابن طولون: مفاهكة الخلان، مصدر سابق، ج 1، ص 263.

أسعاره، ويلجؤون لبيع الغالي والنفيس من ممتلكاتهم من أجل الحصول المأكل والمشرب حيث يمارس تجار الأزمات من المالك والعوام ضروباً من الاحتكار والجشع والطمع بالتلاعب بأقوات الناس والمزايدة في أسعارها، وقد عبر الناس ساخرين من سوء أحوالهم قائلين:

وبعنا الفرش والبسط الغوالي ونمنا بالثياب على الحصير
ولقينا من أذاها مالقينا وزاحمنا الحمير على الشعير

وفي أواخر العصر المملوكي تدهور نظام الحسبة وضعفت سلطات المحتسبين وضاعت هيبتهم بين الناس في المجتمع، وذلك بسبب فساد أخلاقهم وقلة ورعهم وتعاملهم بالرشوة والبراطيل وجهل أكثرهم بأمور الدين والدنيا، وتوليتهم بالبذل حيث أصبحت المناصب تباع وتشترى بالمال لمن يدفع أكثر ويبرطل السلطان ورجال الدولة،⁽²⁾ فلم تعد الوظيفة قصراً على الفقهاء ورجال الدين من المعتمدين، وصار يتولها الجهال المفسدون⁽³⁾ من العوام وأراذل الخلق بالبراطيل،⁽⁴⁾ ثم اقتضت الوظيفة على المالك فقط، على الرغم من عدم توفر شروط وصفات المحتسبين فيهم وأهمها الحرية ثم العدل والعلم والدراية بشؤون الدين والحلال والحرام ومعرفة المنكرات، والورع وحسن الخلق وأن يكون ذا هبة ومهابة بين الناس،⁽⁵⁾ ولم تكن لهذه الفئة من المحتسبين ذمة ولا أمانة ولا علم وكانوا يطرحون

(1) ابن صصري: محمد بن محمد بن أحمد، الدرّة المضية في الدولة الظاهرية، تحقيق عارف أحمد عبدالغني، دار سعد الدين للطباعة والنشر، دمشق، 2014م، ص 202-226.

(2) المقرئزي: السلوك، مصدر سابق، ج 4، ص 92.

(3) ومن أمثال هؤلاء نجم الدين الطنبري الذي تولى حسبة القاهرة بعد أن برطل رجال الدولة بخمسين ألف درهم، وكان رجلاً مجهولاً سيئ الخلق والسيرة، جاهلاً بالفقه وعلوم الدين وشؤون القضاء والحسبة، ولا يتورع عن التعامل بالبراطيل ولا يراعى الذمم وجعل غاية همه جمع المال حلالاً وحراماً وأكل حقوق الناس بالباطل. المرادي: أبو الفضل محمد خليل بن علي بن محمد الحسيني، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، ج 4، ط 3، دار البشائر الإسلامية، بيروت، 1988م، ص 157.

(4) دراج: أحمد السيد، الحسبة وآثرها في الحياة الاقتصادية في مصر المملوكية، المجلة التاريخية المصرية، مج 1968، 14م، ص 86.

(5) الماوردى: أبو الحسن بن محمد البصري، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، 1960م، ص 488.

البضائع السلطانية والأميرية في الأسواق ويفرضون على التجار شراءها بأهبط الأثمان، كما أنهم يتعاملون بالرشوة علانية مع التجار،⁽¹⁾ بل إنهم تجاوزوا ذلك بأن فرضوا على التجار والباعة وأصحاب الحرف دفع مبالغ مالية شهرية مقابل تقاضيهم عنهم وإرخاء العنان لهم وغض الطرف عنهم في القيام بالمعاملات التجارية غير الرسمية والسماح لهم بالتلاعب في الأسعار وجودة السلع وأقوات الناس كيفما شاؤوا،⁽²⁾ كما فعل بعض التجار والخبازون بدمشق في سنة 1486م عندما قاموا ببرطلة المحتسب، وذلك بعد أن طرح عليهم القمح بثمن باهظ، فبرطلوه لكي يسمح لهم بزيادة سعر الخبز حيث احتج الناس على ذلك واعتصموا بالجامع الأموي، إلا أن المحتسب لم يأبه لهم بعد بذل التجار له فتركهم يبيعون الخبز بالأسعار التي يريدونها دون مرعاة لأحوال الناس وشكواهم وتظلمهم من ذلك،⁽³⁾ وكان من عادة المحتسبين أن يستتروا في بيوتهم متخفين من أعين الناس إبان وقوع الأزمات والغلاء خوفاً على أنفسهم من غضب العوام عليهم حيث يتهمونهم بالتقصير وينسبون إليهم سوء الأحوال وضيق العيش وفساد أخلاق التجار والباعة والمجتمع بصفة عامة،⁽⁴⁾ ومن فساد المحتسبة ورجال الدولة أنهم كانوا يفرضون ضريبة على حجاج بيت الله الحرام بيد أنهم لا يوفرون لهم الحماية اللازمة في الطريق حيث يتعرض لهم العُربان وقطاع الطرق بالسلب والنهب، وعلاوة على ذلك يفرض المحتسبون على قوافل حجيج أهل الشام المرور على القاهرة أولاً عند إياهم حيث يتم تفتيش متاعهم ومعاينة البضائع والهدايا التي جلبوها من الحجاز فيفرضون عليها مكساً معين ولا يسمحون لهم بالتوجه إلى بلادهم إلا بعد دفع ما فرض عليهم من مكوس.⁽⁵⁾ أما بالنسبة للتجارة الخارجية والسلع المستوردة فقد احتكرها السلاطين وذوو النفوذ من كبار أمراء المماليك، ومن أهم السلع

(1) البصروي: مصدر سابق، ص 110.

(2) أحمد: أحمد عبدالرزاق، البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1979م، ص 118.

(3) ابن طولون: مفاكهة الخلان، مصدر سابق، ج 1، ص 267-268.

(4) ابن الفرات: مصدر سابق، ج 9، حصص 435.

(5) المقرئزي: السلوك، مصدر سابق، ج 4، ص 707.

التي كانت المتجارة بها حكراً على الدولة ورجالها تجارة الكارمية⁽¹⁾ وبعض الغلال أحياناً لاسيما في أوقات الأزمات والمجاعات وكذلك تجارة السكر إبان الطواعين وذلك لكثرة الطلب عليه حيث كان الناس يستخدمونه كعلاج للكثير من الأمراض،⁽²⁾ فكان سماسرتهم يجبرون التجار على بيع بضائعهم التي يجلبونها من الخارج للسلطين أو الأمراء بالأسعار التي يحددونها هم، وليس للتجار الحق في الاعتراض أو الرفض أو تحيل بضائعهم وبيعها في مكان آخر،⁽³⁾ ذلك مما قلل وفود التجار الأجانب على أراضي الدولة المملوكية ونزوح الكثير من التجار المحليين عنها لاسيما بعد أن فرضت الدولة رسوماً جمركية عالية على كل البضائع الواردة حتى وإن كانت البضائع لتجار عابري سبيل لا يبيعون بضائعهم في الديار المملوكية،⁽⁴⁾ وقد عارض الكثير من العلماء ورجال الدين هذه السياسة الجائرة التي يتبعها المماليك من احتكار ومصادرات وفرض أتاوات وضرائب جمركية باهظة على السلع، وذلك لما فيه من تضيق على الناس في معاشهم وأقواتهم، إلا أن الدولة قد قابلت ذلك بعنف شديد فُضرب الكثير من العلماء وسُجنوا وعُزلوا عن وظائفهم الدينية.⁽⁵⁾

أما ظاهرة الرمي والطرح فهي من أكبر المفاسد والمظالم التي ابتدعها المماليك للتسلط على حقوق الناس وكل أموالهم بالباطل، حيث كانوا يقومون بطرح البضائع التي تخصهم أيّاً كان نوعها في الأسواق،⁽⁶⁾ ثم يفرضون على التجار شراءها بالكميات والأسعار التي

(1) وهي تجارة البهارات المتمثلة في التوابل والفلفل التي تجلب بلاد المشرق خصوصاً البهار الهندي والصيني ومجاورها من بلدان، ولشدة حرص السلطين على احتكار هذه السلعة وحصرها عليهم، قاموا بتعيين موظف يُعرف بناظر التجارة الكارمية ومهمته مراقبة كل موافى السلطنة والأشراف على كل ما يصلها من توابل وغلال. حطيط: أحمد، الكارمية وتجار الكارم في عصر المماليك، مجلة الفكر العربي، العدد 54، دار الانهاء العربي، بيروت، 1988م، ص 171-170. صالحية: مرجع سابق، ص 62.

(2) طرخان: مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، مرجع سابق، ص 254.

(3) صالحية: مرجع سابق، ص 62.

(4) نراوي: رأفت، أسعار السلع الغذائية والجوامك في مصر عصر سلطين المماليك الجراكسة، الرياض، 1990م، ص 72.

(5) الجبوري: مرجع سابق، ص 117.

(6) وغالباً ماتكون مصادر تلك البضائع عبارة عن هدايا تقدم للأمراء والسلطين أو بضائع محتكره بمخازن المتاجر السلطانية أو عن طريق السلب والنهب والمصادرات. قاسم: قاسم عبده، أسواق مصر في عصر سلطين المماليك، دار المعارف، الزقازيق، 1976م، ص 16.

يحدونها لهم دون نقاش، ولا يحق للتجار الاعتراض أو الرفض ولا المساومة والمجادلة في ذلك، ومن يعترض على ذلك منهم يعرض نفسه للعقوبة الجسدية والمادية ومصادرة أمواله وبضائعه أو إتلافها، وقد أثري السلاطين وأمراء المماليك من هذا النظام ثراءً فاحشاً وتمكنوا من فرض سيطرتهم على جميع ضروب التجارة الداخلية والخارجية في الدولة بهذه الطريقة،⁽¹⁾ ولم يكتفِ المماليك بذلك بل إنهم سخروا كل من يمتحن السمسة لخدمة مصالحهم وفرضوا عليهم مكساً معلوم يدفعونه للدولة من كل معاملة تجارية يقومون بها، وذلك بمرسوم رسمي من السلطان ينص على أن يحصل السمسار على درهمين من كل مائة درهم من قيمة السلعة من قبل المشتري، فيجعل منها درهماً لنفسه والآخر للدولة، وبذلك حققت الدولة أرباحاً طائلة من ضريبة السماسرة علاوة على الاستفادة منهم في طرح البضائع السلطانية،⁽²⁾ وقد شكلت هذه السياسات عبئاً عظيماً أثقل به المماليك كاهل الرعية، وكانت سبباً رئيسياً في قلة الأقوات وغلاء المعيشة وحدوث المجاعات، لاسيما مع كثرة احتكار المماليك للغلال والسلع الغذائية الرئيسية، كما فعل نائب دمشق في سنة 1505م عندما قام بنهب الغلال واحتكارها فأحدث ذلك غلاء في الأسعار وشحاً في الأقوات، فعارضه الفقهاء في ذلك إلا أنه لم يكثر لهم وتمادى في فعله،⁽³⁾ وقد اعترض الكثير من الفقهاء ورجال الدين على هذه السياسات لما فيها من مخالفة للشرع وتجويع للخلق، إلا أن المماليك لم يأبهوا لهم، فلجأ البعض من العوام للترصد لهذه الفئة التي تمارس هذه السياسات الاقتصادية الجائرة بالقتل والحرق والاتلاف وغيرها من سبل التشنفي والانتقام،⁽⁴⁾ حيث أصبحت هذه الظواهر الجائرة سمةً من سمات عصر المماليك الجراكسة، يستخدمها السلاطين والأمراء في تحقيق طموحاتهم في جمع المال وتكوين الثروات، ويجعلون منها وسيلةً لإضعاف كل من يشعرون بازدياد ثروته وقوته على

(1) لايبديوس: مرجع سابق، ص 96.

(2) المقرزي: السلوك، مصدر سابق، ج 1، ص 988.

(3) أبوزيتون: منال أحمد إبراهيم، المجاعات في مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي «922-648هـ/ 1516-1250م»، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، كلية الآداب، 1998م، ص 16.

(4) صالحية: محمد عيسى، ظاهرة الطرح والرمي في الاقتصاد المملوكي، مجلة أبحاث اليرموك، مج 9، العدد 1993، 4م، ص 92-66.

الحد الذي قد يشكل عليهم خطراً وينازعهم على السلطة أو بدعم المتمردين والمخالفين لهم من الطوائف الأخرى، ويرافق تلك المصادر حالات من العزل والسجن أو التشريد والقتل في بعض الأحيان،⁽¹⁾ ومن الدوافع التي جعلت المماليك لا يتورعون عن ممارسة أمثال هذه السياسات الاستغلالية القاسية والمجحفة في حق الرعية، هو عدم شعورهم بالانتماء إلى هذا المجتمع وترسخ الأنانية وحب الذات في نفوسهم مما جعلهم يقدمون مصالحهم الشخصية دوماً على مصلحة الجماعة، وقد أثر ذلك بشكل كبير في إضعاف الدولة اقتصادياً وتفككها اجتماعياً وانهارها أخلاقياً علاوةً على تأصل بغض المماليك في نفوس الرعية وسعيهم للتخلص منهم بشتى السبل،⁽²⁾ حيث كان المماليك يستغلون حجة المصادر⁽³⁾ في الهجوم على القرى والنواحي فيستبيحونها بأكملها من دون مراعاة لحقوق الرعية وحرمتهم فيأخذون الأموال والغلال والمواشي والعبيد ولا يتورعون عن النساء الحرائر والأطفال فيسترقونهم ثم يبيعون منهم ويهبون ويهدون كيفما شاؤوا،⁽⁴⁾ وأيضاً من تلك الأسباب حاجة الدولة الماسة لسد عجزها المالي الناتج عن النفقات الزائدة في إخماد الفتن والثورات وجلب وشراء المماليك الجدد، علاوة على ترفهم المفرط والإسراف في بناء الدور والقصور والأوقاف التي يخلدون بها أسماءهم،⁽⁵⁾ لكثرة ما عرف به المماليك من ظلم وجهل وفساد أخلاق بين الرعية حتى صارت صفات العدل والورع والتواضع فيهم تُعد من النوادر، وقد أورد ابن إياس معدداً نوادر ومحاسن سلاطين المماليك في زمانه قائلاً: «أن السلطان قايتباي قد أعاد إلى جماعة من الناس أموالاً لهم من بعد مصادرتها، بيد أنه قام بعد ذلك بمصادرات كثيرة تُعد ولا تحصى، كما أنه قام

(1) الشربيني: بيومي إسماعيل، مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية «عصر سلاطين المماليك»، ج 1، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1997م، ص 66-64.

(2) آشتور: إي، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة عبدالهادي عبلة، دار قتيبة، دمشق، 1985م، ص 369.

(3) وفي الكثير من الأحيان يستخدمون حججاً وتبريراتٍ واهية في مصادرة أموال الناس بالباطل، بأصدار أوامر سلطانية أمثال «تغير خاطر السلطان عليه أو لنقمته وغضبه عليه أو لأمرٍ أقتضى ذلك». الشربيني: مرجع سابق، ص 124.

(4) المقريني: السلوك، مصدر سابق، ج 4، ص 274.

(5) ابن خلدون: المقدمة، مصدر سابق، ص 281.

بإعطاء أبناء نجار فقير مائة دينار بعد أن سقط والدهم ومات أثناء عمله بالقلعة، وقيل إنه شمت أحد كتّابه حين عطس، وعلى الرغم من ذلك يعتبر قايتبائي من خيرة سلاطين المماليك وأكرمهم أخلاقاً⁽¹⁾، وكذلك تحدث المقرئزي عن فساد السلاطين قائلاً: «وقد سمعت بعض العواجيز من أهلنا وأنا صغير يقلن: إنه ليأتي على الناس زمان يترحمون فيه على فرعون، ولقد وقع ما أذرنا به والله عاقبة الأمور»⁽²⁾، ومن الأمثال الشعبية المرتبطة بالظلم والفساد التي كانت شائعة في المجتمع إبان العصر المملوكي قولهم: اضرب البريء لما يقر المتهم، وحاميتها حراميتها، وفم يسبح وقلب يذبح، وغير ذلك⁽³⁾. وأيضاً من الظواهر التي رافقت تلك الأزمات ظاهرة فساد وتزييف العملة التي كثيراً ما كانت تحدث بعلم وتصرف السلاطين ورجال الدولة الذين يتلاعبون في سك العملة والغش فيها لخدمة مصالحهم الشخصية، حيث ينقصون في وزنها ويغشون في الخام الذي تصنع منه بإضافة كميات كبيرة من النحاس على الذهب أو الفضة التي كانت تضرب منها العملات الجيدة آنئذ، فتتج عن ذلك ظهور عملة رديئة منخفضة القيمة⁽⁴⁾، وفي بعض الأحيان كانت الدولة تصدر قراراً بمنع التعامل بالذهب في معاملات البيع والشراء وذلك مما يكبد العوام والتجار خسائر فادحة حيث يحدث هبوط في أسعار الذهب، وكانت جُلّ المعاملات التجارية قائمة عليه، وعندما ترفع الدولة ذلك القرار يحدث ارتفاع حاد في سعر الذهب وذلك مما يتسبب في وقوع الغلاء والمجاعات فتكثر الجرائم والسرقات وغيرها من الأفعال المخالفة للدين ومكارم الأخلاق⁽⁵⁾.

(1) ابن إياس: مصدر سابق، ج2، ص125.

(2) المقرئزي: السلوك، مصدر سابق، ج2، ص708.

(3) الأبهسي: شهاب الدين محمد بن أحمد، المستطرف في كل فن مستظرف، ج1، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1992م، ص29.

(4) ابن إياس: مصدر سابق، ج4، ص177.

(5) المقرئزي: السلوك، مصدر سابق، ج4، ص112.

3.2 ظواهر الفساد الأخلاقي والمجون والخلاعة والبدع في المجتمع المملوكي:

3.2.1 ظاهرة بيوت البغاء والمغاني⁽¹⁾:

وقد انتشرت بيوت البغاء والمواخير⁽²⁾ والخانات التي تمارس فيها الرذيلة والفاحشة وتُعقد بها مجالس الفسق واللهو والمجون في الكثير من المدن المصرية⁽³⁾ والشامية⁽⁴⁾ إبان العصر المملوكي بشكل عام وفي أواخره بشكل خاص وذلك نسبةً لارتفاع مستوى الفساد والانحلال الأخلاقي الذي فشى في جميع طبقات المجتمع وقتئذ، ولقد وجدت هذه الظاهرة المنافية للدين والأخلاق نوعاً من القبول والتصريح الرسمي بممارسة تلك المفاسد علناً وبرسم موثوق من قبل الدولة في الكثير من الأحيان، وذلك مقابل ضريبة معينة تُعرف بضريبة الغواني تدفعها الغواني والبغايا للدولة،⁽⁵⁾ فيسمح لهن بمزاولة الأعمال والممارسات

(1) المغاني جمع غانية وهن النساء اللواتي يعملن بالرقص والغناء في الملاهي الليلية وبيوت الأفراح، وللحصول على ترخيص للعمل في هذا المجال من قبل الدولة تقوم الغانية بدفع مَكس معين للضامنة مقابل كل حفل تهيئها، وللضامنة جماعة يقومون بتفتيش بيوت الغواني بشكل يومي في كل ليلة، فإذا لم تكن الغانية داخل بيتها أثناء وقت التفتيش تُلزم بدفع مبلغ معين حتى وإن لم تكن تعمل في تلك الليلة وخرجت لقصاء حاجة أخرى. المقريري: السلوك، مصدر سابق، ج3، ص125.

(2) وهو من أساء بيوت البغاء في الجاهلية، حيث تجتمع فيهن البغايا من النساء ويجعلن على تلك البيوت رايات وعلامات فلا يدخل عليهن إلا زان. ابن عاشور: مصدر سابق، ج19، ص224.

(3) ومن أشهر مواضع الفساد ودور البغاء بمصر وقتئذ كان بمكان يُعرف ببركة الرطلي بأرض الطبالة بالقرب من النيل، وكذلك جزيرة بولاق والجزيرة الوسطانية وغيرها من المواضع التي تجتمع فيها البغايا والغواني وباعة الخمر والحشيش، وقد كان الأمراء ورجال الدولة وأعيان العوام يترددون على هذه المواضع ليلاً حتى لا يراهم عوام الناس. المقريري: الخطط، مصدر سابق، ج3، ص162.

(4) ومن أشهرها قيسارية ابن الصقر بحارة البغيل وبعض المواضع الأخرى بجوار المدرسة البيونسية بالشرف الأعلى بدمشق. ابن طولون: مفاكهة الخلان، مصدر سابق، ص21.

(5) وقيل أن هذه الضريبة قد استحدثت مع الضرائب التي ابتدعها سلاطين المماليك منذ قيام دولتهم في عهد السلطان عز الدين أيبك، حيث استوزر رجل فاسد الأخلاق يسمى الأسعد شرف الدين هبة الله بن الصاعد الفائزي، فأحدث الكثير من المظالم والمفاسد في المجتمع المصري وأقر فعل المنكرات من الخمر والحشيش وبيوت البغاء وضمنها بأموال تحجي من العاملين عليها، وسمها بالحقوق السلطانية والمعاملات الديوانية. ابن دقماق: ابن دقماق: صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدير العلائي، نزهة الأنام في تاريخ الإسلام، تحقيق سمير طيارة، المكتبة العصرية، بيروت، 1999م، ص212-202.

غير اللائقة أخلاقياً وإتيان الفاحشة والرذيلة بالمواضع والبيوت المخصصة لذلك،⁽¹⁾ حيث يجب على كل امرأة تعمل في هذا المجال تسجيل اسمها عند الضامنة وهي موظفة يتم تعيينها من قبل السلطات الإدارية بكل منطقة لجباية هذه الضريبة، ولها أعوان يطوفون في كل ليلة على بيوت المغاني والبغايا لجمع الضريبة اليومية التي يحملونها إليها وهي بدورها ترفعها إلى الجهات المخولة بذلك من طرف الدولة، ويتبين من خلال ذلك أن الدولة لم تفرق بين المغاني والبغايا من حيث التباين في درجات الإنحلال الأخلاقي وإنما كان تركيزها على جمع أكبر كمية من المال عن طريق الضريبة التي تفرضها عليهن على حد سواء، وقد وقع الكثير من نساء وبنات الأعيان والعوام في الفاحشة والأعمال غير الأخلاقية ولم يكن من السهل ردعهن عن ذلك إلا نادراً حيث استشرى الفساد في كل طبقات المجتمع بشكل عام آنئذ،⁽²⁾ وصار وجود العاهرات والبغايا والغواني في المجتمع المصري آنذاك أمراً مألوفاً لدى الجميع،⁽³⁾ يمشين في الطرقات متبرجات سافرات الوجوه، وصاحب ذلك إظهاراً لآلات الطرب والمعازف وآنية الخمر على الملأ دون حياء ولا استنكار من الناس،⁽⁴⁾ وقد خُصصت لهذه الممارسات غير الأخلاقية بعض الحوانيت في الأسواق التي تجلس عندها البغايا اللاتي يُعرفن بزعيرات الشاعين نسبةً لسوق الشاعين بالقاهرة، الذي اشتهر بجل رواه بالفساد الأخلاقي ومجالس الفسق واللهو والزنا، حيث تظل حوانيتهم مفتوحة إلى وقت متأخر من الليل تجالسهم فيها البغايا اللاتي يتميزن بنمط معين من لباس الملاءات والطرح وسراويل الأديم الأحمر، حيث كن يعاين الزعارة والمشالقين من الرجال في أوقات لعبهم وهوهم ويشاركنهم في ذلك أحياناً،⁽⁵⁾ أما في جهتي بلاد الصعيد والوجه البحري

(1) مصلحي: سامية علي، البغاء في مصر في العصر المملوكي (923-648هـ / 1517-1250م)، حوليات آداب عين شمس، كلية الآداب، العدد 2005، 33م، ص114.

(2) ابن إياس: مصدر سابق، ج3، ص337.

(3) حتى قيل أنه لو خرجت أجل نساء مصر تريد البغاء ودفعت للضمانة الضريبة وقامت بما يلزمها على أكمل وجه، لم يقدر أكابر أهل مصر وأعيانها من منعها عن اتيان الفاحشة. المقرزي: الخطط، ج1، ص106

ص55، ج2: مسفذ (4)

(5) الرواشدة: آمنة محمود سليمان، حيوات المرأة في الدولة المملوكية في مصر والشام «923-648هـ/ 1517 - 1250م»، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، كلية الآداب، 1997م، ص-216. 217

فقد كانت الحال أسوأ مما هي عليه في القاهرة، حيث يتم في تلك الجهات تخصيص حارات بأكملها للمغاني والبغايا بشكل رسمي ومقنن مقابل مكوس معينة يدفعها للدولة، وكان إذا مر أي شخص بتلك الأماكن حتى ولو كان عابر سبيل مر بها من دون قصد وجب عليه إتيان إحدى البغايا طوعاً أو كرهاً، أو يفتدي نفسه بمبلغ من المال يدفعه إليهن ليستعن به على سداد ماتفضله الدولة عليهن من مكوس، أما أهل البر من العُربان فكانوا أشد سوءاً حيث كانوا يتظاهرون ويتباهون بفعل الفاحشة والزنا في مجتمعاتهم ومجالسهم ولا يباليون في ذلك البتة، بل إنهم كانوا يحطون من قدر ومكانة المرأة في المجتمع ويحرمونها من الميراث ويعتبرونها أداة للمتعة وجلب الولد لاغير، فكانوا يعاشرون النساء في بعض الأحيان سفاحاً من دون زواج، ويأتون غير ذلك الكثير من الفواحش والموبقات ومفاسد الأخلاق،⁽¹⁾ وقد عمل بعض السلاطين على محاربة هذه الظاهرة وإلغاء ضريبة البغايا والغواني مرات عديدة، لاسيما في أوقات الأزمات وانتشار الأوبئة والقحط والمجاعات، تقرباً لله تعالى حتى يرفع عنهم البلاء والغلاء ولكنهم سرعان ما يترجعون عن ذلك كله بمجرد زوال الأزمات، وما يلبث زبانيتهم من بطانة السوء أن يزينوا لهم إعادتها لما يحصلون عليه من منافع شخصية من تلك المكوس، فتعاد إلى ماكانت عليه في السابق أو يُزاد في قيمتها،⁽²⁾ فتكثر اعتداءات المماليك بما فيهم زمرة السلاطين⁽³⁾ والأمراء على نساء وبنات العوام، بل أن بعضهم قد اشتهروا بشغفهم وحبهم لإتيان النساء ومعاشرتهن سفاحاً بما في ذلك نساء خشداشيهم من الأمراء والسلاطين،⁽⁴⁾ وكانوا يستعينون على ذلك ببعض

(1) السبكي: معيد النعم، مصدر سابق، ص 55.

(2) المقرئزي: السلوك، مصدر سابق، ج 5، ص 4-5.

(3) وكان السلطان أبو السعادات محمد بن قايتباي «904-901هـ/ 1498-1495م» من أفسد سلاطين المماليك وأرذلهم أخلاقاً وقد عُرف باللهو والمنجون وإتيان الغريب والقبیح من الأفعال، حتى قيل إنه كان إذا سمع بامرأة جميلة حسناء هجم عليها من فوره وفجر بها ثم قطع دائر فرجها ونظمه في خيط كالعقد قد أعده مسبقاً لنظم فروج النساء اللاتي يفجرهن، وقيل ذات مرة أنه خلا بإحدى الجواربي وبعد أن فرغ منها قام بسلخها وهي حيه ثم حشا جلدها بالحرير، ثم خرج إلى الناس يتباهى بفعله هذه ويتفاخر باستاذيته في السلخ الذي يعجز عنه الجلادين. العصامي: عبد الملك بن حسين بن عبد الملك المكي، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، ج 4، تحقيق أحمد عبدالموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م، ص 59.

(4) الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبدالله، الوافي بالوفيات، ج 10، تحقيق أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، 2000م، ص 142.

المفسدات من النساء اللاتي يُعرفن بالقوادات أو الماشطات والحمايات والحافضات اللاتي يدخلن البيوت ويطلعن على عورات النساء، ثم يقمن باستدراجهن وجرحهن إلى الرذيلة وتزيين وتسهيل الأمر لهن، وقلما تنجو منهن امرأة دون إفسادها،⁽¹⁾ وقد كثر فساد المماليك وقل حياؤهم لاسيما في أوقات الأزمات والجوائح حيث يهجمون على النساء في الحمامات والأسواق والاحتفالات العامة والخاصة ويفسقون بهن في الطرقات،⁽²⁾ كذلك كان البعض من سفهاء العامة يمشون وراء النساء في الطرقات والأسواق ويقومون بقطع أكمام ثيابهن الواسعة دون أن يشعروا بذلك فيستمتعون بالنظر إلى ما يظهر من أجسادهن، ذلك مما أدى إلى تجنب الكثير من النساء الخروج بمثل تلك الثياب إلى الأسواق، ثم أصدرت الدولة قراراً بمنع نساء العوام من ارتداء ذلك النوع من الملابس، وجعلته حصراً على نساء وجواري المماليك،⁽³⁾ وعندما كثر وقوع مثل هذه الأحداث قام السلاطين بمنع الاحتفالات والولائم وحفلات الزفاف إبان وقوع الأزمات والجوائح خوفاً من تفلتت المماليك واعتدائهم على أعراض الناس وحریمهم وغلماهم، وأحياناً يُشدد في ذلك بمنعهم من النزول من القلعة، إلا أنهم لم يلتزموا بهذه القوانين إلا قليلاً ولا يتعدى ذلك اليوم أو اليومين حتى يعودوا إلى ما كانوا عليه من فساد وانحلال أخلاقي، وذكر أن أحد الأمراء قد خرج إلى الصيد في ركب من مماليكه فهجموا على حريم أهل البر ففسقوا بأكثر من سبعين واحدة منهن في وضح النهار،⁽⁴⁾ وقد شاعت الفاحشة وجرائم الزنا في أواخر العصر المملوكي بشكل واسع حتى شمل ذلك الفساد طائفة القضاة الذين يمثلون السلطة الدينية والتشريعية في المجتمع آنئذ، وقد بلغ فسادهم ذروته في عهد السلطان الغوري بفضيحة الشيخ المشالي قاضي الشافعية الذي كان على علاقة غرامية مع زوجة قاضي الحنفية غرس الدين خليل، فحنق عليهما وترصدهما ابن أخت القاضي نور الدين الدمياطي، الذي كان يعشق المرأة نفسها، فأخبر

(1) التيفاشي: شهاب الدين أحمد، نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب، تحقيق جمال جمعة، رياض الريس للكتب والنشر، قبرص، 1992م، ص 75-74.

(2) الصيرفي: نزهة النفوس، مصدر سابق، ج 1، ص 222.

(3) المقرئزي: السلوك، مصدر سابق، ج 3، ص 571-570.

(4) السبكي: معيد النعم، مصدر سابق، ص 59.

زوجها بذلك، فراقبها حتى ضبطها مع عشيقها قاضي الشافعية وهما متعانقان تحت لحاف واحد، فعوقبا بالضرب والشهير، وقد غضب السلطان من تلك الحادثة غضباً شديداً وقام بتوبيخ قضاة المذاهب الأربعة بكلام شديد وقيح لتهاونهم وضعفهم في إصدار الأحكام، وسوء أخلاق نوابهم الذين يشربون الخمر ويمارسون الزنا ويبيعون الأوقاف، ثم أمرهم بعقد مجلس آخر لمعاقبة ذلك القاضي وصاحبته بأشد أنواع العقوبات فحكّموا عليها بالرجم، بيد أن القاضي المتهم قد تراجع عن إقراره بالزنا فاسقط القضاة عنها حد الرجم، فغضب عليهم السلطان وعزلهم جميعاً عن مناصبهم، وظلت البلاد خالية بلا قضاة وتعطلت مصالح الناس وغُلقت دكاكين الشهود ولم تحرر وثيقة نكاح أو طلاق لمدة خمس أيام بالقاهرة، وأمر السلطان الغوري بالتشديد على المعيين من الفقهاء وجلد كل من قبض عليه مخموراً منهم، ومن حنقه وغضبه عليهم منع دخول أي أحد عليه وعلى رأسه عمامه، حتى تشفع بعض الأمراء في أمر قضاة المذاهب الأربعة، فازداد السلطان غضباً عليهم وأمر بشنق الشيخ الزاني والمرأة على الملأ تنكيلاً بهما، لعل الناس يتعظون ويعتبرون بهم،⁽¹⁾ وقد ظلت الديار المصرية على هذه الشاكلة تحمل عار ضريبة البغايا والمغاني طوال عصر المماليك حتى أواخر العصر العثماني، بيد أن وجود البغايا كان نادراً جداً في الأراضي العثمانية، عدا مصر التي كانت من أكثر الأقاليم سوءاً في مجال الأخلاق، وكانت البغايا والغواني فيها على صلات وثيقة بطائفة مرموقة من رجال الدولة الذين يسترزقون من الضرائب التي يجبوها منهن، وبقي الحال على ما هو عليه حتى أواخر العصر العثماني حيث تمكنت الدولة من إلغاء تلك الضريبة والقضاء على هذه الظاهرة السالبة، إلا أنها مازالت موجودة في المجتمع المصري بيد أنها أصبحت عادةً منبوذة ولا تمارس إلا في السر والخفاء، حيث يعتبرها الناس ضرباً من ضروب الكبائر ومفاسد الأخلاق المنافية للدين والأعراف.⁽²⁾

(1) ابن إياس: مصدر سابق، ج4، ص345-340.

(2) كلوت بك: أنطوان بارتملي، لمحة عامة إلى مصر، ترجمة وتحرير: محمد مسعود، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2011م، ص327.

3.2.2 ظاهرة اللواط:

وقد ظهرت عادة إتيان الغلمان وفعل قوم لوط عند طائفة من الفاسدين والمفسدين من الرجال بالشام ومصر إبان العصر المملوكي،⁽¹⁾ حيث كثر اغتناء الغلمان الأعاجم من سبي الحروب والرقيق الأبيض الذين يتصفون بالوسامة والرشاقة وحسن المنظر،⁽²⁾ لاسيما المردان من غلمان الترك والتتار الذين اشتهروا بالجمال الفائق حتى أصبحوا يشبهونهم بالبدور لشدة جمالهم فيقال البدر فلان وفلان البدر،⁽³⁾ وقد كانت هذه العادة متجذرة في دولة المماليك منذ عهد الرعيل الأول من سلاطينهم وأمرائهم،⁽⁴⁾ حيث اشتهر السلطان ططر وكذلك السلطان برقوق بحبهم للغلمان، كما اتهم أيضاً السلطان الأشرف إينال العلائي بإتيان الذكران وحب الغلمان المرد صبحي الوجوه، كما أنه لم يكن مستعففاً عن النساء، وقد بلغ من شيوخ تلك العادة واستفحالتها في طائفة السلاطين ورجال الدولة أن السلطان حسن قد عُرف بشغفه وولعه بالنساء، فاستغرب الناس منه ذلك حيث لم يكن له ميل للغلمان كسابقه من السلاطين الذين عُرفوا بعادة إتيان الذكران،⁽⁵⁾ وقد كان البعض من السلاطين والأمراء الذين شغفوا بهذه العادة يتقصدون استعمال المرد من الغلمان الملاح في وظيفة الجمدارية⁽⁶⁾، ويقربونهم منهم حتى أصبحوا يلازمونهم في جميع أوقاتهم أثناء خلواتهم وجلواتهم وحتى في أوقات نومهم، وصار غلمان الجمدارية يتكلفون في التأنيق

(1) ابن العماد: أبو الفلاح عبدالحى بن أحمد بن محمد العسكري، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج8، تحقيق: عبدالقادر ومحمود الأرنؤوط، دار ابن كثير، دمشق، 1986م، ص65.

(2) التيفاشي: مصدر سابق، ص193.

(3) أمين: فوزي محمد، أدب العصر المملوكي الأول وقضايا المجتمع والفن، دائرة المعارف الجامعية، الإسكندرية، 1993م، ص395.

(4) حيث ورد أن الأمير أحمد بن السلطان الناصر محمد بن قلاوون، كان مولعاً بحب الغلمان وقد شغف بأحد المرد منهم وكان جميل الصورة والمنظر فتهتك فيه وهام به غراماً، فلما علم والده السلطان بذلك أمر بحبس الغلام، فشق ذلك على ابنه الأمير ولم يطقه وامتنع عن الأكل والشرب وهدد بالانتحار حتى رق له قلب والده وأفرج له عن الغلام. ابن حجر: الدرر الكامنة، مصدر سابق، ج1، ص294.

(5) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، مصدر سابق، ج5، ص159-158.

(6) الجمدارية: وهي مصطلح فارسي مركب من جام وتعني الثوب أو اللباس ودار وتعني المسك، والجمدار هو الشخص الذي يتولى شؤون لباس السلطان أو الأمير وترتيب وتنسيق ثيابه وملابسه. السبكي: معيد النعم، مصدر سابق، ص34.

والتزيين وارتداء الملابس المهيجة للشهوة لجذب أنظار سادتهم حتى إنهم كانوا يضاھون النساء في ذلك، ويخرجون عن الآداب العامة وضوابط الشرع وحسن الخلق،^(١) حيث إن الكثير منهم قد يقع في الفاحشة مع صاحبه بكثرة المخالطة في الخلوات فيقبله ويلوط به أحياناً،^(٢) وقيل إن الجمال والحسن في الغلمان والشباب كان من أهم الصفات التي تؤهلهم للعمل مع شذاذ السلاطين والأمراء وغيرهم من فاسدي الأخلاق من أرباب الدولة، وذلك من أيسر الطرق التي يصلون بها إلى المناصب والمراتب العليا التي تقرهم إلى السلاطين،^(٣) ومنهم على سبيل المثال لا الحصر الأمير شاهين غزالي الذي عُرف واشتهر بحسنه وانهماكه في الملذات، وقيل إنه كان أجمل أبناء جنسه وجهاً وقداً وأدناهم صوتاً، عديم النظير في زمانه، وقد بدأت شهرته منذ أن كان غلاماً عند نائب قلعة دمشق، فرآه الأمير كرد الناصري فأعجب بجماله وشاكلته وقامته وهيفه وحسن صوته، فأسّر ذلك في نفسه حتى عاد إلى القاهرة فأخبر به السلطان الظاهر جقمق، الذي سارع بطلبه من أستاذه، فأرسله إليه ومع هدايا أخرى، وقد هام فيه الشعراء وتهكوا في مدحه وترنموا به، حتى قيل إن كل من رآه يكاد لا يفارقه لحسنه ولطف مداعبته، وقيل إنه كان يعاشر رجلاً يُقال له ابن رمضان ويحب البسط ولا يفارقه،^(٤) ومن أقوال الشعراء فيه ما أورده ابن إياس:

أيها العشاق اصغوا واسمعوا حسن مقالي كل عاشق له غزال وأنا شاهين غزالي^(١)

وقد استفحل أمر الشذوذ الجنسي عند سلاطين المماليك حتى بلغ خبرهم الممالك المجاورة، قيل إن السلطان الإيلخاني محمود غازان سأل مستنكراً ومستغرباً الأمير حسام

(١) وقد ذُكر أن أحد المماليك قد جُبت مذاكيره بسبب غلام أمرد شغفه حبا ولم يقدر عليه فغلبه الغلام وقطع آيره، فحمل إلى المارستان ومات هنالك بعد وقت قصير. ابن حجر: إنباء الغمر، مصدر سابق، ج 3، ص 237.

(٢) السبكي: معيد النعم، مصدر سابق، ص 35-34.

(٣) ويستدل على ذلك بوصف السخاوي للأمير شيخ الخاصكي بأنه كان شاباً فاتقاً في الجمال بارعاً في الحُسن كثير الأنهالك في اللهو والملذات، وهو أجمل ممالك الظاهر برقوق وأقربهم إليه وأخصهم به وأدناهم منزلةً منه. الضوء اللامع، مصدر سابق، ج 3، ص 305.

(٤) الصيرفي: إنباء الهصر، مصدر سابق، ص 86-85.

(٥) ابن إياس: مصدر سابق: ج 3، ص 24.

الدين المجيري المملوكي، عن سوء أخلاق سلاطينهم وأمرائهم وكيف يأتون الرجال شهوةً من دون النساء، ويستخدمون المردان؟!،⁽¹⁾ ولم تنحصر تلك الظاهرة عند طائفة السلاطين ورجال الدولة وطبقة المماليك فقط؛ بل تبعهم في ذلك الكثير من الفاسدين ومنحطي الأخلاق من بقية طبقات وطوائف المجتمع، حتى ضج البغايا من النساء وتزمرن لبوارهن بسبب مُلحاء الغلمان،⁽²⁾ ولجذب الرجال الذين شغفوا بحب الغلمان لجأ إلى التشبه بالرجال في لباسهن حتى أُطلق عليهن لقب الغلاميات لتشبههن بالغلمان، وقد اقتدى بفعلهن نساء العوام حتى لا ينصرف عنهن أزواجهن إلى الغلمان،⁽³⁾ ومن الحوادث المشهورة والمتعلقة بهذه الظاهرة قيل إنه في سنة 911هـ/1506م قدم شابٌ من الشام إلى مصر وكان معروفاً بفعل اللواط وصحب معه جماعة من المردان أمثاله، وصاروا يشهرون أنفسهم بذلك ويتشبهون بالنساء في لباسهم وأفعالهم، وقد بلغ بهم الفجور أنه قد أتى يوماً في زي امرأة مع رجل وجاءوا بشهود وعقد نكاحه عليه، فعلم الأمير طراباي رأس النوبة بذلك وكان رجلاً حسن الخلق فتحقق من أمره ثم أمر بتجربته وضربه بالمقارع وألقى به في السجن فظل به حتى مات،⁽⁴⁾ وقد لجأ البعض من العوام إلى هذه العادة السيئة بسبب عجزهم عن الزواج حيث فرضت الدولة على كل رجل يريد الزواج ضريبة مالية تُحدد على حسب حالته المادية ووضعوا لها حداً أدنى يبدأ من خمسمائة درهم، وفُرض مثلها على الزوجة، ذلك مما ساعد على شيوع الفاحشة حتى اعتادها الناس ولم يعد ارتكابها عيباً ولا عاراً في المجتمع وقتئذ، وفي ذلك قال ابن القيم وهو ممن عاصر ذلك الزمان: «ولما سُهل الأمر في نفوس الكثير من الناس صار البعض من المماليك يُمتدح بأنه لا يعرف غير أستاذه أي سيده، وأنه لم يطأه سواه، مثلما تمتدح المرأة بأنها لا تعرف غير سيدها وزوجها، وكذلك يُمتدح الكثير من المردان بأنه لا يعرف غير خليله وصديقه أو معلمه، ويُمتدح الكثير من

(1) مجهول: تاريخ السلاطين المماليك (741-690هـ)، نشر زير ستين، ليدن/ هولندا، 1919م، ص 102.

(2) المقرئزي: السلوك، مصدر سابق، ج 2، ص 231.

(3) المقرئزي: الخطط، مصدر سابق، ج 3، ص 188.

(4) ابن طولون: مفاكهة الخلان، مصدر سابق، ص 240.

الفاعلين بأنه عفيف عما سوى خدنه وقربنه وعشيرته كالزوجة أو عما سوى مملوكه الذي هو كسريته أي مُلك يمينه»،⁽¹⁾ ومن سوء أخلاق الناس وفجورهم قيل إن بعضهم يقومون خلف الغلام أو المرأة في الطريق ليلاً ويجامعه حتى يقضي وطره، وهما ماشيان من غير أن ينهائهما أحد، وذلك لشدة الزحام وانشغال كل أحد بلهوه،⁽²⁾ وقد شاعت هذه الظاهرة بين البعض من رجال الدين من القضاة والمعلمين، وقد اتهم بهذا الفعل قاضي قضاة الشافعية الشيخ ابن النقيب، حيث قيل إنه كان غير محمود السيرة والأخلاق، رث الهبة يزدرية كل من رآه، وقد هجاه أحد شعراء زمانه قائلاً:

يا أيها الناس قفوا واسمعوا صفات قاضينا التي تطربُ
يلوط، يزني، ينتشي، يرتشي ينم، ويقضي بالهوى، ويكذب⁽⁴⁾

وفي أواخر العصر المملوكي تكاثرت المخشون وأصحاب الشذوذ الجنسي، وانتشر فعل الفاحشة بينهم حتى صارت لهم مجالس ونجوم يُعرفون بألقاب معينة أشهرها «عشير الناس»، وهو الشخص الشاذ والمنحرف جنسياً ويمارس الزنا واللواط في آن واحد، ويكون في العادة مليحاً ظريفاً حسن الوجه حلو المعشر، ماهراً في الحديث، يجذب الناس إلى صحبته والتسامر معه ومعاشرته أي ممارسة الفاحشة معه، فيشاهر بذلك ويلتفت إليه الشعراء فيتهتكون في مدحه حتى يصل خبره إلى مسامع الأعيان فيطلبونه لمجالسهم الخاصة، ومن لقبوا بعشير الناس الشيخ أمين الدين الغيطي، كان عشيراً وندياً للأمرء والأعيان، وهو رجلٌ مُقعدٌ يُحمل على الأكتاف إلى مجالسهم وبيوتهم، وقيل أنه كان مأبوناً بالشذوذ الجنسي ومبتلى به لدرجة المرض والإدمان، وقد اشتهر بذلك بين الناس حتى سخر منه البعض من الشعراء وتفحشوا في هجائه، وهذا أيضاً مما يستدل به على انحطاط مستوى الأدب والشعر آنئذ الذي خلا جُله من ضوابط الحياء والحشمة والآداب العامة، ونذكر منه قول أحدهم:

(1) ابن قيم الجوزية، أبو عبدالله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي، إغائة اللهفان في مصايد الشيطان، ج2، تحقيق محمد عزيز ومصطفى بن سعيد إيتيم، مجمع الفقه الإسلامي، جدة، 1432هـ، ص146.

(2) المقرئزي: الخطط، مصدر سابق، ج2، ص55.

(3) ابن إياس: مصدر سابق، ج4، ص92.

عجباً من صاحب كان لنا فيه للعاقل منا معتبر
جمع المال صغيراً باسته ثم أعطاه عليها في الكبر
فإذا عاتبته في فعله قال: هذا قضاءً وقدر

وقال آخر:

يقول لي: والأير في استه كأنه مبرد حداد

إن شيوخ الأرض في عصرنا تفضل الميم على الصاد⁽¹⁾

وقد فشت هذه الظاهرة بين الكثير من منحرفي وشذاذ الصوفية، الذين أولعوا بالمردان أمثال الشيخ ضياء الدين العجمي المشهور بحبه للغلمان والتهتك فيهم حتى يخرج عن صوابه، وكان لا يمشى في الطريق إلا وفي قبضته حزمة من الرياحين يشممها من لقيه من المردان ويدنيه منه حتى يتحسسها، فإن سأله ذلك ممن قد طر شاربه ولحيته قلبها وضربه بسيقانها على أنفه،⁽²⁾ وكذلك كان الشيخ البخاري أحد المشيخ الذين يقيمون بالخانقاة الشيخونية، يهيم بمليح من المردان حتى عُرف به وقد داعبه البعض من اللطفاء بذلك،⁽³⁾ وفي أحداث سنة 911هـ/1504م، ورد أن أحد شذاذ الصوفية حاول أن يُسجل زواجه من أمرد بعقد نكاح رسمي، فكُشف أمره قبل أن يُحقق مراده، وفي نفس العام قبض الشيخ محمد بن سلامة بعد أن تزوج بامرأة خنثى ودخل بها وهو يعلم بذلك، ففُضرب بالمقارع حتى مات،⁽⁴⁾ ومن شدة انتشار هذه الظاهرة في المجتمع آنئذ أصبح الناس لا يرسلون أبناءهم إلى الحمامات بمفردهم، فكان الرجل منهم إذا طلب عياله الحمام لا ينزلهم إليه إلا بالليل وهو معهم حيث يسبقهم إلى الحمام فيدخل قبلهم ويفتش جميع أطرافه من المدخل إلى الموقد وحتى السطح، وبعد أن يتأكد من خلوه من الشواذ يخرج ويغلق الباب عليهم

(1) والمراد بالميم الدبر، والصاد فرج المرأة. ابن إياس: مصدر سابق، ج2، ص226-225.

(2) الشوكاني: محمد بن علي بن محمد بن عبدالله، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ج1، تحقيق محمد حسن حلاق، دار ابن كثير، دمشق، 2006م، ص301-300.

(3) ابن إياس: مصدر سابق، ج2، ص182-181.

(4) الغزي: الكواكب السائرة، مصدر سابق، ج1، ص51.

ويجلس عندهم ليحرسهم حتى يفرغوا، ثم يعود بهم إلى بيته.⁽¹⁾ وقد حض كبار علماء الأمة والأخيار من السلف الصالح على تجنب الغلمان المرد درءاً للمفسدة والتزاماً بضوابط الشرع ومكارم الأخلاق وحفاظاً للأداب والأعراف العامة في المجتمع الإسلامي، فقد روي عن سعيد بن المسيب أنه قال: «إذا رأيتم الرجل يلح بالنظر إلى غلام أمرد فاتهموه» أي يتهموه في أخلاقه، وكذلك ورد عن الإمام أحمد بن حنبل أنه نهى عن مجالسة الغلمان المرد ومصاحبته في الطرقات دون حاجه، فهم أشد فتنة من العذراى على الرجال، وقد أفتى الإمام النووي بتحريم النظر إلى وجه الأمرد بشهوة أو غيرها، وكذلك يقول إبراهيم النخعي وسفيان الثوري وغيرهم من العلماء والسلف الصالح.⁽²⁾

3.2.3 ظاهرة اللصوصية:

وهي ظاهرة سلبية قلما يخلو منها مجتمع، وكذلك كان المجتمع المملوكي كبقية المجتمعات السابقة واللاحقة له لم يخلو من هذه الظاهرة، لاسيما إبان حلول الأزمات الاقتصادية والاضطرابات السياسية والفتن الداخلية والأوبئة والمجاعات التي تصيب البلاد من حين لآخر، حيث تكثر المفاسد وتسوء أخلاق الناس ويكثر الهرج والمرج في المجتمع فيتجسر الأقوياء على الضعفاء بالتعدي على حقوقهم وانتهاك حرمتهم وأكل أموالهم بالباطل سراً وعلانية، وفي أواخر العصر المملوكي حيث ضعفت الدولة وقبضتها الأمنية وقلت هيبتها ودب الفساد في جميع مفاصلها فأصبح المجال مفتوحاً للصوص والنهب في جميع أطراف الدولة المترامية بمصر والشام والأناضول حيث ظهرت مجموعات كبيرة منهم فعاثوا الفساد في الأرض وصاروا ينهبون ويسرقون البيوت والمحلات التجارية والأسواق ويشعلون النيران فيها بعد أن يأخذوا ما يريدونه منها، وذلك مما يضاعف الضرر على الناس ويفاقم الأزمات بالمجتمع من حيث تدهور الأوضاع المعيشية وارتفاع نسبة الفقر والوفيات من جراء تلك الأحداث والأرواح التي تُزهق جوعاً أو قتلاً أثناء الاشتباكات

(1) الشعراي: أبوالذهب عبدالوهاب بن أحمد بن علي الحنفي، لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية، تحقيق محمد عبدالسلام، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005م، ص 259.

(2) ابن تيمية: أبوالعباس تقي الدين أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام، مجموعة فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية، ط 3، تحقيق عامر الجزار وأنور الباز، دار الوفاء، القاهرة، 2005م، ص 7-4.

التي تقع أثناء عمليات السرقة والنهب،⁽¹⁾ ولم تكن ظاهرة السرقة آنئذ حصرًا على طائفة أو فئة معينة في المجتمع ولا جنس الرجال فقط، بل إن هناك الكثير من النساء كن يمارسن اللصوصية لاسيما في الحمامات حيث تأتي نساء الأثرياء والأعيان وهن في كامل زينتهن من الثياب الفاخرة والمجوهرات والحلي النفيسة،⁽²⁾ كما أن البعض منهن كن يتخذن من ممارسة الدعارة سبيلًا للصوصية والنهب، حيث تقوم القوادات باستدراج الأثرياء من الرجال إلى أماكن وبيوت البغاء، وبمجرد دخوله يهجم عليه عُصبة من الرجال الأشداء المعدين لهذه المهمة مسبقًا، فيقتلونه ويأخذون كل ما لديه حتى ملابسه يجردونه منها ثم يحرقون جسده أو يلقونه في النيل،⁽³⁾ وكذلك كانت من بعض أساليب اللصوصية والنهب عند فساد عواجيز النساء استدراج حريم الأعيان والأثرياء من بيوت الأفراح والمناسبات إلى بيوتهن أو إلى أماكن خالية حيث يتفقدن مع أزواجهن أو غيرهم من الرجال على جلب الضحايا وقتلهم بعد نهبهم ثم تلقى جثثهم في الآبار المعطلة أو النيل،⁽⁴⁾ كما كثرت حالات خطف الأطفال لاسيما أولاد الناس، فقد ذكر أن امرأة قد قامت بخطف جارية صغيرة لنهب ما في أذنيها من أقراط ثم قتلتها بعد ذلك وأخفت جثتها في بيتها، فرآها ابنتها فأبلغ عنها رجال الشرط فقبض عليها وتم إعدامها وكان ذلك في سنة 916هـ/1510م، وتكاد تنحصر ضحايا حالات السرقة والنهب والخطف التي تقوم بها الفاسدات من النساء في فئتي حريم الأثرياء والأطفال نسبة لضعفهم وقلة حيلتهم، أما دوافع تلك الأعمال المنافية للدين ومكام الأخلاق من سرقة ونهب وخطف فما هي إلا نتاج لما يعانیه المجتمع من فقر وجوع وجهل وفساد في القيم والأخلاق وبعده عن الدين،⁽⁵⁾ كما شاعت ظاهرة القرصنة النيليلة على

(1) ابن الوردي: أبي حفص زين الدين عمر بن مظفر بن أبي الفوارس، تاريخ ابن الوردي، ج2، دار الكتب العملية، بيروت، 1996م، ص216.

(2) ابن أبيك الدواداري: أبو بكر بن عبدالله، كنز الدرر وجامع الغرر، ج8، مكتبة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، 1971م، ص103.

(3) الكتبي: محمد بن شاكر، عيون التواريخ، ج2، تحقيق عفيف نايف حاطوم، دار الثقافة للنشر، بيروت، 1996م، ص293.

(4) العيني: عقد الجمان، مصدر سابق، ج1، ص266.

(5) ابن طولون: مفاهمة الخلان، مصدر سابق، ج1، ص369.

المراكب التجارية التي تقصد القاهرة وتكون في الأغلب محملة بالغلال والأغذية، فكان ذلك سبباً في تفاقم الأزمات والغلاء والمجاعات وشدة وطنتها على العوام، حيث أحجم الكثير من التجار عن جلب بضائعهم إلى أسواق القاهرة خوفاً من القراصنة والتهابة،⁽¹⁾ بيد أن الدولة لم تقف مكتوفة الأيدي أمام هذه الظواهر والفوضى التي حلت بالمجتمع على الرغم من ضعفها واضطرابها في أواخر عهدها، حيث فرضت أشد أنواع العقوبات على كل من يروج أو يقوم بهذه الأعمال السلبية بالضرب بالمقارع وقطع الأيدي والتسمير والقتل في بعض الحالات.⁽²⁾

3.2.4 ظاهرة السُخرة:

وهي عملية استخدام المماليك للعوام وتسخيرهم بالقوة والإجبار على القيام ببعض أعمال البناء والعمارة وغيرها من الإصلاحات دون مقابل سوى قوت يومهم أثناء أوقات العمل،⁽³⁾ وقد عانى العوام من هذه الظاهرة وذاقوا أشد أنواع القهر والإذلال من قبل سلاطين وأمراء المماليك الجراكسة الذين لم يتورعوا عن استنزاف طاقات وخبرات هؤلاء المستضعفين قهراً وتشغيلهم دون أي مقابل مادي ملموس، وبهذه الطريقة تمكنت الدولة من إنجاز العديد من المشاريع المعمارية الضخمة وبناء الكثير من المرافق العامة والخاصة كالقصور والدور السلطانية وبيوت الأمراء وغيرها،⁽⁴⁾ كما تم تسخيرهم في عمارة وبناء بعض العماثر التذكارية تخليداً لذكرى أسماء بعض سلاطين وأمراء المماليك، وقد استفادت الدولة الاستفادة القصوى من نظام السُخرة في تشييد العماثر المائية والزراعية من سدود وجسور وشق للترع والقنوات وحظائر الحيوانات،⁽⁵⁾ ولم يقتصر الأمر على التسخير البدني فقط للعوام وإنما تعدى ذلك إلى ممتلكاتهم من حيوانات وآلات زراعية، وأدوات بناء وغيرها، وكان المماليك يبررون لذلك بأنهم يستغلونها من أجل المصلحة العامة، وذلك بعد

(1) المقرئزي: إغاثة الأمة، مصدر سابق، ص 47.

(2) الرواشدة: مرجع سابق، ص 224.

(3) المقرئزي: السلوك، مصدر سابق، ج 2، ص 473.

(4) الحجري: أحوال العامة، مرجع سابق، ص 302.

(5) المقرئزي: السلوك، مصدر سابق، ج 2، ص 130.

أن حصل الولاة والنواب وجميع أمراء المماليك على تفويض سلطاني مُطلق في ذلك الأمر يتيح لهم استخدام كافة وسائل وأساليب الشدة والغلظة في تسخير العوام من أجل تحقيق المصلحة العامة،⁽¹⁾ إلا أن هذه الإنجازات لا تبرر ذلك الأسلوب البشع الخالي من الإنسانية والرحمة والمروءة والأخلاق الحسنة تُحذف، حيث يتعرض الكثير من العوام الذي يعملون بالسُّخرة لأضرار جسدية ومعنوية ونفسية بالغة وقد يموت الكثير منهم أثناء العمل من شدة الحر أو التعب، أو الإعياء،⁽²⁾ وذلك من كثرة استحثاثهم وإجبارهم على العمل حتى قيل إن الرجل منهم يُخْرُ مغشياً عليه من شدة التعب، فيؤمر رفاقه بأن يردموا عليه التراب حتى يموت ثم يواصلون عملهم، ومما ذُكر في فساد العمل بالسُّخرة وبيان قسوة المماليك، أنهم قد سخروا خلقاً كثيراً من العوام لصيانة أحد الجسور بالجيزة، ومن سوء معاملتهم وإهمالهم وعدم اكتراثهم لحقوق الناس وسلامة أرواحهم، أنه قد غرق نحو ثلاثين شخصاً من المسخرين دفعةً واحدة عندما سقط عليهم الجسر، كما غرق منهم مائة آخرون كانوا على متن مركب كبير ولم ينجوا منهم أحد،⁽³⁾ أما طريقة المماليك في اصطیاد العوام للسُّخرة فقد كانت بأساليب شتى حيث كانوا يترصدون للناس عند أبواب المساجد وفي الطرقات والأسواق في وقت السحر، ويسخرون كل من يقع في أيديهم من العوام ويجبرونهم على العمل حتى وإن لم تكن لهم الخبرة الكافية للقيام بتلك الأعمال، كما أنهم يأمرّون التجار بإغلاق حوانيتهم ودكاكينهم من أجل تسخيرهم لبعض الوقت، وقد يستمر ذلك الوضع لأسابيع أو أشهر في بعض الأحيان،⁽⁴⁾ ومن يعترض على ذلك أو يخالف يُعرض نفسه لأشد أنواع العقوبات التي قد تصل إلى الشنق أحياناً،⁽⁵⁾ وإذا لم يحصل المماليك على العدد الذي يحتاجونه من العوام لتسخيرهم من الأسواق والشوارع، فإنهم يكبسون على الناس في بيوتهم وهم نيام فيأخذونهم للعمل بالقلعة أو ماسواها من المرافق العامة أو الخاصة بهم،

(1) الحججي: أحوال العامة، مرجع سابق، ص 309-307.

(2) نفسه: ص 306-305.

(3) المقرئبي: السلوك، مصدر سابق، ج 2، ص 351.

(4) الحججي: أحوال العامة، مرجع سابق، ص 306.

(5) الجبوري: مرجع سابق، ص 162.

وقد ابتلى الناس بلاءً عظيماً من تلك السخرة وما صاحبته من أضرار مادية ومعنوية فكثرت الشكاوى والاستغاثات، إلا أن المماليك لم يكثرثوا لذلك، كما أنه لم يتجرأ أحدٌ من العوام على الاعتراض علناً أمام أمراء المماليك أو السلطان خوفاً من بطشهم وجبروتهم،⁽¹⁾ بيد أن الكثير من العلماء ورجال الدين الشاهدين على العصر قد استنكروا ذلك الصنيع المنافي للدين والأخلاق والأعراف الاجتماعية، وقالوا: إن من حق العمال الرفق بهم وألا يكلفون بعمل فوق طاقتهم، وأن لا يُجَاع أحدٌ منهم ويترك بلا طعام، وأن تراعى أوقات الصلاة أثناء العمل، وذلك بخلاف ما هو متبع في أعمال السخرة وما فيها من أساليب تعسفية حيث يتم تجويعهم وإن أعطوا شيئاً يكون أقل مما يستحقون بكثير، كما أنه يتم تكليفهم فوق طاقتهم وهذا من أبشع الأعمال وأشنع الإجراءات وأقبح الحرمات، والأسوأ من ذلك أنهم يسخرونهم في بناء الأوقاف والمساجد والمدارس ويدعون أنهم يتقربون بتلك الأعمال إلى الله تعالى وتعالى الله علواً كبيراً عما يفعل الظالمون.⁽²⁾ وقد اقترن تشييد الكثير من المنشآت والأوقاف الدينية التي تحمل أسماء سلاطين وأمراء المماليك بسرقة ما شيده وبناءه السابقون من عمائر وسرقة ونهب الرخام من البيوت والأوقاف والخوانق والمساجد القديمة، كما فعل السلطان أبو النصر المؤيد شيخ المحمودي عندما بنى مسجده الجامع، فأمر ممالিকে بأن يكبسوا على الحارات التي يسكنها الأغنياء وأعيان الناس لنهب الرخام من بيوتهم، فكان الوالي يهجم بنفسه ومعه المرخون على بيوت الأثرياء بالقاهرة فيقتلعون الرخام من الدور طوعاً أو كرهاً، فخربت دُورٌ كثيرة وتأذى الناس من ذلك الظلم وانتهاك حرمت بيوتهم وأموالهم، ولم تسلم المدارس والخوانق من ذلك حيث قام ممالিকে باقتلاع باب مدرسة السلطان حسن فجعله على مسجده الجامع، وأخذ منها أيضاً تنوراً نحاسياً كبيراً وعموداً سماقياً من جامع الأمير قوصون الناصري، وغير ذلك من الأعتاب والرخام الذي اقتلع من العديد من المساجد القديمة بمصر القديمة، وأورد ابن إياس عن ذلك بعض الأشعار منها قوله:

(1) المقرئزي: السلوك، مصدر سابق، ج2، ص447.

(2) السبكي: معيد النعم، مصدر سابق، ص129.

بنى جامعاً لله من غير حله
فجاء بحمد الله غير موفق
كمطعمة الأيتام من كد فرجها
فليتك لا تزني ولا تتصدق⁽¹⁾

وقد بنى الأمير آق بغا الناصري مدرسةً باسمه تُعرف بالآقبغاوية، وهي مدرسة دامية يكسوها الظلام ليس عليها من بهجة الجوامع ولا أنس دور العبادة شيء البتة، وذلك لأنها لم تُبنَ ابتغاء مرضاة الله جل وعلا، وكانت جُل مستلزماتها قد جُلبت بالغصب والسرقة، وبُنيت بالسُخرة حيث سخر فيها الأمير كل صناع ومعماريي القاهرة ومصر، وأقام عليهم أغلظ مماليكه الذين لم يراعوا فيهم حرمة ولاذمه فأذاقوهم أشد أنواع التعذيب، فكانوا يضربونهم ويحملونهم فوق طاقتهم، وكذلك كان يفعل بهم الأمير حيث كان معروفاً بالظلم والكبر والطمع وسوء الخلق فكلما نزل لتفقد أحوال البناء قام بمضاعفة كل ذلك عليهم من ضرب وتوبيخ وإذلال فوق الذي كانوا يلاقونه من مماليكه الغلاظ، وظل على ذلك الحال حتى اكتمل البناء فأنزل بها القضاة والفقراء.⁽²⁾ وكذلك فعل غيره الكثير من السلاطين والأمراء في بناء التُّرب والمنشآت الوقفية التذكارية، فشقوا على الناس بالسُخرة والظلم والتعسف في المعاملة والقسوة، فما عفوا ولا كفوا أيديهم عن الخلق إلى أن أخذهم الله أخذ عزيزٍ مقتدر،⁽³⁾ بزوال دولتهم وانتهاء سلطانهم وتسلطهم على الخلق على يد بني عثمان.

3.2.5 ظاهرة البذل والبرطلة:

وهما من الألفاظ التي شاع استخدامها إبان العصر المملوكي خصوصاً في حقبة الجراكسة، والبذل في اللغة يراد به العطاء والكرم، بيد أن هذا المعنى قد حُرف واستخدم بمعنى الرشوة في العصر المملوكي،⁽⁴⁾ أما البرطلة فهي الرشوة صراحة، ويقال برطل وتبرطل أي رشى وارتشى، وجمعها براطيل،⁽⁵⁾ وقد فشت ظاهرة البذل والبرطلة في جميع

(1) ابن إياس: مصدر سابق، ج2، ص20.

(2) المقرئ: السلوك، مصدر سابق، ج2، ص488.

(3) ابن إياس: مصدر سابق، ج3، ص728.

(4) أحمد: مرجع سابق، ص11.

(5) ابن منظور: لسان العرب، مصدر سابق، ج11، ص51.

طبقات المجتمع إبان العصر المملوكي، وسرت في جميع مفاصل الدولة من أعلى درجة في الهرم الإداري أي السلاطين وحتى آخر طائفة في طبقة العوام، ولم تكن هذه الظاهرة حديثة عهد في أيام المماليك الجراكسة بل إنها صاحبت الدولة منذ قيامها وعهدها الأول أيام السلطان المظفر الظاهر بيبرس،⁽¹⁾ بيد أنها لم تكن فاشية بالصورة التي كانت عليها إبان فترة حكم المماليك الجراكسة حيث بلغ الانحطاط الأخلاقي والفساد الإداري ذروته في المجتمع وقتئذ، وكان ذلك سبباً من أسباب إضعاف الدولة بإسناد الأمر إلى غير أهله ثم أسقوطها بعد ذلك.⁽²⁾ وقد وجدت ظاهرة البذل والبرطلة الشرعية الرسمية من الدولة في جميع المعاملات، حيث كان السلاطين أنفسهم يتعاملون بها في تعيين النواب والقضاة وفي قضاء مصالح الأمراء وترقياتهم،⁽³⁾ وذلك كما فعل الأمير الماس الملقب بدوادار سكين عندما قام ببرطلة السلطان بأكثر من أربعين ألف دينار من أجل أن يوليه على القاهرة وكان ذلك في سنة 922هـ/ 1516م،⁽⁴⁾ وقبله فعل ذلك الأمير فرج الحلبي مع السلطان برقوق⁽⁵⁾ من أجل توليته على نيابة الأسكندرية فبرطله بأربعمائة ألف درهم، وبذلك أصبحت ظاهرة البذل والبرطلة نهج متبعاً عند الكثير من سلاطين المماليك الذين خلفوهم على سدة الحكم والسلطنة وأخذوا يتعاملون بها في جميع شؤون الدولة الخاصة والعامة،⁽⁶⁾ بما فيهم السلطان

(1) وقيل أن ظاهرة البذل والبرطلة قد ظهرت لأول مرة بشكل علني في دولة المماليك إبان عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون وابنه المظفر حاجي، وذلك عندما قام الأمير شيخو الناصري بتعيين عمال الأقاليم بعد أن بذلوا له وبرطلوه بالأموال الطائلة. الجبوري: مرجع سابق، ص 163.

(2) أحمد: مرجع سابق، ص 25.

(3) وقد أورد المقرئ مؤرخ ذلك العصر والشاهد عليه في ذلك الأمر قائلاً: «وقد حدث في أيام السلطان الظاهر برقوق تجاهراً بالبراطيل بين الناس، فلا يكاد يلى أحد عملاً ولا وظيفة إلا ببذل وبرطلة، فترقى للأعمال الجليلية والرتب العلية أراذل الناس وأفسدهم أخلاقاً». السلوك، مصدر سابق، ج 4، ص 429.

(4) ابن إياس: مصدر سابق، ج 5، ص 27_26.

(5) وقد ورد في الرسالة التي بعث بها تيمورليناك إلى السلطان برقوق في سنة 796هـ/ 1394م، «... وكيف يسمع الله تعالى دعاءكم وقد أكلتم الحرام وأموال الأيتام وضيعتم الأنام، وقبلتم الرشوة من الحكام...». ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، مصدر سابق، ج 12، ص 50. وهذه نظرة تيمورليناك للمماليك، وهو السفاح الذي سفك دماء المسلمين وهدم دار خلافتهم وشتت كلمتهم، فكيف بنظرة أهل السنة والعدل من حكام المسلمين إليهم آنذا؟! وكيف بحال الرعية المستضعفين المقهورين الذين عاشوا تحت وطأة حكمهم؟!.

(6) الجبوري: مرجع سابق، ص 165.

قايتباي الذي عُرف بحُسن سيرته وكثرة أعماله الخيرية وتشبيده للعديد من الأوقاف والمنشآت العمرانية الدينية والمدنية والحربية، إلا أنه أيضاً قد اتهم بالتعامل بالبراطيل لاسيما في تولية القضاة والوزراء بعد أن يبذلون له آلاف الدنانير الذهبية،⁽¹⁾ وفي بعض الأحيان يتعرض الأمراء للتهديد بالطرد من الخدمة السلطانية وعزلهم من وظائفهم وتجريدهم من صلاحياتها ورتبهم العسكرية، فيقوموا ببرطلة السلطان وتقديم الغالي والنفيس من الهدايا الفارهة والأموال والذهب له حتى يرضى عنهم، وكذلك كانوا يفعلون فيما بينهم،⁽²⁾ قد أصبح من غير الممكن أن يتولى أحد أي وظيفة أو منصب إداري في الدولة من دون بذل وبرطلة لأرباب الدولة أو للسلطان نفسه، وبذلك تُسند الأمور إلى غير أهلها من الجهال وفسادي الأخلاق والرأي من أراذل الناس، وكانوا يضطرون في كثير من الأحيان لإقراض المال بالفائدة أي بالربا حتى يتمكنوا من برطلة رجال الدولة، وبمجرد حصولهم على تلك الوظائف يقوم الدائنون بمطالبتهم بسداد ما عليهم من ديون وذلك بعد أن تضاعفت إلى أضعاف مضاعفة، حيث يعجز الكثير منهم عن سدادها فيلجؤون إلى الطرق غير الشرعية في كسب الأموال مستخدمين صلاحياتهم التي تخولها إياهم الدولة، فيتجولون على المال العام ويفرضون الضرائب والمكوس العالية على التجار وأصحاب الحرف والحوانيت ويتعسفون في جمعها،⁽³⁾ ذلك مما يؤدي إلى انتشار الفساد والغش والتدليس والسرقة والغلاء والظلم في المجتمع بصورة عامة وفي الأسواق بشكل خاص، فتسوء الأوضاع الاقتصادية ويُضيق على الناس في معاشهم، ويكون الضحية في ذلك كله وأصحاب الضرر الأكبر هم عوام الناس،⁽⁴⁾ وقد بلغ الفساد الأخلاقي أوجه في المجتمع عندما دخلت الرشوة والبرطلة في مجال القضاء فكان القضاة لا يعينون ولا يقضون إلا بالبراطيل،⁽⁵⁾

(1) الصيرفي: إنباء الهضر، مصدر سابق، ص 152/226.

(2) الجبوري: مرجع سابق، ص 164.

(3) المقرزي: إغاثة الأمة، مصدر سابق، ص 43-44.

(4) الحججي: حياة ناصر، السلطة والمجتمع في سلطنة المالك فترة حكم المالك البحرية، لجنة التأليف والتعريب والنشر، الكويت، 1997م، ص 94.

(5) وكان منصب القضاء يُورث لإبن القاضي المتوفى إذا قام ببرطلة رجال الدولة، كما فعل ابن حجي قاضي قضاة دمشق عندما تولى المنصب عوضاً عن والده، وهو شابٌ صغير لم تطر لحيته بعد، وقد وُصف =

وذلك مما تسبب في ضياع حقوق الناس فكثير تعدي بعضهم على بعض وانتشر الظلم بشكل واسع في جميع طبقات المجتمع،⁽¹⁾ وقد صارت الوظائف الدينية أيضاً تُباع وتشتري بما في ذلك وظيفة قاضي القضاة وهي أسمى وأعلى مرتبة في هرم الوظائف الدينية في الدولة آنئذ،⁽²⁾ حيث يحق لصاحبها المشاركة في المجالس السلطانية والتحدث بالأحكام الشرعية وإصدار الفتاوى والفصل بين الخصوم وتعيين النواب من القضاة والإشراف على الأوقاف ورعاية الأيتام والحفاظ على أموالهم وغير ذلك من مهام تسند إليهم من قبل السلطان، وقد ورد أن قاضي القضاة الشيخ كمال الدين الطويل كان من ضمن وفد العلماء ورجال الدين الذين رافقوا السلطان الغوري في حربه ضد العثمانيين، قد ولى هذه الوظيفة أربع مرات كان آخرها في عام 921هـ/1515م، وبلغ مجموع ما بذله من براطيل عليها ما يزيد على ثلاثة عشر ألف دينار، وذلك مما أدى للحط من قدر العلماء ورجال الدين في المجتمع وقتئذ، حيث انساق جُل القضاة ورجال الدين لطلب الوظيفة والمقامات الرفيعة في الدولة بالبذل والبرطلة، ثم اتخذوا منها مصدراً لجمع الأموال وتكوين الثروات الطائلة من دون مراعاة لحرمة الدين والآداب والأخلاق العامة أو الحفاظ على حقوق الناس،⁽³⁾ وقد بلغ الفساد الأخلاقي ببعض القضاة والولاة أنهم كانوا يُعطلون حد السرقة بعد أن يرطلهم السارق علاوة على ما يلزمونه به من مبالغ مالية من أجل إخلاء سبيله وتبرئته من تهمة السرقة، ولا ينفذ حد السرقة عندهم إلا في حالتين، الأولى إذا عجز السارق عن برطلة

= بالجهد وعدم الدراية بشؤون الفقه والقضاء وسوء الخلق، إلا أنه قد بذل الكثير من المال للرجال الدولة، فتغافلوا عن كل ذلك وأقروه على منصب والده، فقال الناس في ذلك متهمكين:

تُعد ذنوبه والذنب جُمٌ ولكن للغني ربٌ غفورٌ

المقريزي: السلوك، مصدر سابق، ج2، ص751.

(1) السبكي: معيد النعم، مصدر سابق، ص72.

(2) وإذا ما قورنوا بقضاة الدولة العثمانية وقتئذ من حيث النزاهة والأخلاق فنجد أن البون شاسع بين الطرفين، وعلى سبيل المثال نستشهد بأحد مواقف القاضي العثماني الشيخ شمس الدين الفناري عندما لم يقبل بشهادة السلطان يلدرم بايزيد في أحد المواقف، بحجة أنه لم يكن يواظب على صلاة الجماعة، فما كان من السلطان إلا أن ابتنى مسجداً بالقرب من مجلس وديوان حكمة، وقيل أنهم لم يتهاون بعدها في صلاة الجماعة قط. طاش كوبري زاده: طاش كوبري زاده: أبوالخير عصام الدين أحمد بن مصطفى بن خليل، الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، دار الكتاب العربي، بيروت، 1976م، ص19.

(3) أحمد: البذل والبرطلة، مرجع سابق، ص103.

القاضي أو الوالي الذي يحكم في القضية، والثانية إذا كان المسروق من عليّة القوم وذوي النفوذ والمقام الرفيع بين الناس،⁽¹⁾ وقد توالت أمثال هذه الوقائع كثيراً لاسيما في أواخر عهد سلطنة المماليك الجراكسة، حيث ورد في أحداث سنة 906هـ/1500م أن السلطان جانبلاط قد قام بخلع الشيخ علي محي الدين بن النقيب قاضي قضاة الشافعية من وظيفته، لكن سرعان ما أقره عليها مرة أخرى بعد أن برطله الشيخ بسبعة آلاف دينار، فشق ذلك على الناس ولا موال السلطان على فعله هذا لوجود من هو أفضل وأحق من الشيخ علي للقيام بتلك الوظيفة،⁽²⁾ ولشدة تدني وانحطاط المستوى الأخلاقي والعلمي لدى القضاة آنذ، كان قلما تجد من بينهم من هو كفء لمنصب القضاء حقاً، حيث كان خيارهم يمتدح بعدم نسبته إلى قضاة السوء وما يرمون به من فساد أخلاق وتعامل بالرشوة،⁽³⁾ وقد كثرت مقالة العامة فيهم، فشهروا بهم لكثرة ما يبذل المتداعون وأصحاب الشكاوى عند أبوابهم، ذلك مما حط من منصب وسمعة القضاء عند الرعية ورجال الدولة آنذاك، فجاهروا بالسيء من القول فيهم،⁽⁴⁾ وكذلك كان الحال في وظيفة كاتب السر وهي من أهم الوظائف وأكثرها خصوصية في دولة المماليك، بيد أن السلاطين والنواب أيضاً لم يتورعوا عن بيعها وتوليها لمن يدفع أكثر حتى وإن ظهر جهله وفساده وقلة خبرته، فوليتها من السوق من لأجسن القراءة والكتابة، وإذا ما وصله كتاب وهو بين يدي النائب عجز عن قراءته، فيسرع إلى بيته ليستقره رجلاً أعده لهذه المهمة مسبقاً فيفهمه فحوى الكتاب، فيرجع إلى النائب ويوضح له ما ورد في الكتاب،⁽⁵⁾ وهكذا كان ولاية البر الذين لم يكونوا بأفضل من النواب وبقية أمراء المماليك في الفساد الأخلاقي، بل إنهم كانوا أشبه بقطاع الطرق يتعاملون بالبذل والبرطلة في جُل معاملاتهم، ويتسلطون على أرواح الخلق وأمواهم وينهبون كل ما يقع

(1) المقرئزي: السلوك، مصدر سابق، ج4، ص389.

(2) ابن إياس: مصدر سابق، ج3، ص448.

(3) المقرئزي: السلوك، مصدر سابق، ج2، ص600. وقد أورد ذلك ابن تغري بردي في مدحه وثنائه على القاضي بدر الدين البغدادي واصفاً آياه بالعفة والبراءة مما يُرمى به قضاة السوء في زمانه. النجوم الزاهرة، مصدر سابق، ج15، ص538.

(4) المقرئزي: السلوك، مصدر سابق، ج2، ص616.

(5) نفسه: ج4، ص671.

في أيديهم من أغنام وإبل ورقيق تخص التجار أو الفلاحين والعربان أو غيرهم حتى وإن كانوا عابري سبيل، ولا ينفقون تلك الأموال إلا على وجهين إما كهدايا وبراطيل للسلطان حفاظاً على وظائفهم، أو على ملذات الدنيا ومتاعها اتباعاً لأهوائهم في ارتكاب الفواحش والمحرمات ومفاسد الأخلاق،⁽¹⁾ وفي الشطر الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي بلغ الفساد الإداري والأخلاقي ذروته وفشا الظلم والتعامل بالرشوة والبراطيل بين الناس، حيث ترتب على أصحاب الوظائف الذين حصلوا عليها بالبذل والبرطلة أن يعملوا تحت وطأة القلق والترقب خوفاً من العزل والطرْد أو السجن، وذلك في حالة عجزهم عن البذل وبرطلة السلاطين والولاء وتقديم الهدايا لهم من حين لآخر لضمان بقائهم في تلك الوظائف والمناصب،⁽²⁾ كما أصبحت ظاهرة الجمع بين عدة وظائف أمراً عادياً طالما أن متوليها قادرٌ على برطلة السلاطين والولاء وتلبية مطالبهم، فقد جمع الشيخ ولي الدين السقطي بين وظيفة قاضي قضاة الشافعية ونظارتها ووكالة المال وغيرها من الوظائف التي كان يتكسب منها ليعوض بها ما بذله من براطيل على السلطان ورجال الدولة، وقد عُرف السقطي بين الناس بسوء السيرة والخُلُق وكثرة تعامله بالرشوة بل وممارسة الشحاذة أحياناً،⁽³⁾ وبشكل عام يتمكن أصحاب هذه الوظائف من تعويض كل ما بذلوه في برطلة السلاطين والولاء من أموال عن طريق الأعمال والمعاملات غير المشروعة والأخلاقية من مكوس ومصادرات ونهب وسلب ورمي وطرح للبضائع في الأسواق وأكل لأموال الناس وحقوقهم بالباطل،⁽⁴⁾ ولكن بالرغم من كل ذلك الفساد ومن باب الإنصاف التاريخي لا بد أن نذكر ما قام به السلطان طومان باي آخر سلاطين المماليك وبذله من مجهود عظيم في محاربة عادة البذل والبرطلة والعمل على الحد منها ومنع التعامل بها في جميع المعاملات الرسمية وتولية الوظائف، وقد بدأ بنفسه حيث قام بتولية العديد من الولاة والقضاة والإداريين ولم يأخذ منهم شيئاً؛ بل إنه منعهم من التعامل بالرشوة في جميع معاملاتهم، إلا

(1) المقريري: السلوك، مصدر سابق، ج4، ص389.

(2) أحمد: البذل، مرجع سابق، ص94.

(3) السخاوي: التبر المسبوك، مصدر سابق، ج3، ص144.

(4) أحمد: البذل، مرجع سابق، ص95-94.

أن هذه الخطوة قد جاءت متأخرة جداً حيث كانت الدولة تلفظ أنفاسها الأخيرة وخيول بني عثمان بالشام تتأهب للمسير نحو الديار المصرية.⁽¹⁾

3.2.6 ظاهرة انتشار البدع والخرافات والادعاءات وضعف الوازع الديني:

ومن الظواهر الاجتماعية الفاسدة التي فشت بين الناس إبان سلطنة المماليك، ظاهرة البدع والخرافات وعادة الالتجاء إلى المشعوذين والمنجمين والعرافين والمغلاة في التوسل والتبرك بالأولياء والمشايخ، وقد انتشرت هذه الظواهر على نطاق واسع في جميع أنحاء البلاد، وذلك نسبةً لارتفاع مستوى الجهل وضعف الوازع الديني في المجتمع آنذ، ولم تكن تلك الظواهر والعادات السلبية حصراً على طبقة أو طائفة معينة من المجتمع بل كانت فاشيةً في جميع طبقات وطوائف المجتمع ويؤمن بها السواد الأعظم منهم بما فيهم طائفة السلاطين والأمراء،⁽²⁾ وقد اتخذ الكثير من المنجمين والمشعوذين مجالساً لهم في الأسواق والخوانيت حيث يفد عليهم الرجال والنساء للحصول على التمام أو الكشف بالنجوم وغير ذلك من أمور الدجل والشعوذة،⁽³⁾ وقد كثر تردد النساء عليهم طلباً للوقاية أو العلاج من العين والسحر والمس والعمى والعقم وجلب الفأل الحسن والزواج للعوانس والأرامل منهن، حيث يقومون بالاحتيال والنصب عليهن بإعطائهن بعض التعاويذ والتمام والطلاسم وماشابهها من الضلالات والبدع، ويأخذون منهن في مقابل ذلك الغالي والنفيس من الذهب والمال وغير ذلك من المطالب والأعمال المنافية للأخلاق والدين،⁽⁴⁾ ولم يكن ذلك حصراً على نساء العوام بل إن نساء المماليك بما فيهن زوجات وجواري السلاطين كُنَّ يفعلن ذلك ويترددن على المشعوذين والمنجمين للكيد لبعضهن من أجل الفوز بمحبة السلطان والخطوة عنده، وقد وقعت خلافات ومشاجرات عديدة بينهن بسبب اتهام بعضهن البعض بالكيد للأخريات بالسحر والضر والقتل أحياناً، ذلك

(1) ابن إياس: مصدر سابق، ج5، ص117.

(2) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، مصدر سابق، ج7، ص226.

(3) ابن الأخوة: مصدر سابق، ص267.

(4) ابن دانيال: شمس الدين محمد بن دانيال بن يوسف الخزاعي الموصل، خيال الظل وتمثليات ابن دانيال، تحقيق: إبراهيم حمادة المؤسسة المصرية العامة، 1961م، ص213-212.

مما أدى إلى الكثير من حالات الطلاق والطرْد خارج القلعة،⁽¹⁾ وقيل إن بعض النساء المطلقات سواء كن من نساء المهاليك أو العوام يتزوجن برجال آخرين مرتين وثلاثة قبل انتهاء العدة من طلاق الزوج الأول وقد تكون حاملاً منه أحياناً، وفي ذلك فسادٌ كبيرٌ وتعدّ واضح على الشرع والأعراف والأخلاق الإسلامية.⁽²⁾ ومن البدع والمعتقدات الباطلة التي كانت سائده في المجتمع آنئذ حتى أصبحت من المسلمات وبمثابة السنن الثابتة، عادة عدم زيارة المرضى والذهاب إلى الحمام أو غسل الملابس وشراء الصابون والسمك في يوم السبت،⁽³⁾ وكانوا يتطيرون من العملات الجديدة التي تضرب ويجعل اسم السلطان عليها على شكل دائرة حيث يقولون إن هذا السلطان لن يعمر في السلطة وستدور عليه الدوائر ويحل البلاء والفتن على البلاد، ومن سذاجة السلاطين ورجال الدولة أنهم يصدقون ذلك فيسارعون إلى إبطال تلك الفلوس واستبدالها بأخرى،⁽⁴⁾ وكذلك في المأتم إذا كان المتوفى عروساً رجلاً كان أم أنثى كانوا يقومون بوضع خشبة عند رأس الميت بعد أن يكسونها بأخر ثياب كان يرتديها قبل وفاته، ثم يبكون عليه وتقوم النساء بحثو التراب على رؤوسهن ثم يلطخن البيوت بالسواد،⁽⁵⁾ أما إذا كانت المتوفية فتاة غير متزوجة فيقومون بوضع أصنافٍ معينة من الحلوى على ظهر النعش بموضعي الأقدام والرأس،⁽⁶⁾ كما أنهم لا يغسلون ثياب الميت رجلاً كان أو أنثى إلا بعد ثلاثة أيام من الوفاة لاعتقادهم بأن ذلك يرد عنه عذاب القبر ويخفف عنه، ويحرمون على أنفسهم أكل السمك والملوخية طوال فترة حدادهم على الميت لاعتبارهم إياها من ضمن المأكولات التي يجتمع عليها الأحباب فيتذكرون فقيدهم وتتجدد أحزانهم، وقد تستمر فترة الحداد لحولٍ كامل أو تزيد على ذلك أحياناً،⁽⁷⁾ وقد اعتقد الكثير منهم بكرامات الأطفال، ففي سنة 1509م زعمت فتاة صغيرة أنها رأت النبي

(1) ابن إياس: مصدر سابق، ج 1، ص 170.

(2) نفسه: ج 3، ص 83.

(3) ابن الحاج: مصدر سابق، ج 1، ص 278-279.

(4) المقرئ: السلوك، مصدر سابق، ج 3، ص 476.

(5) ابن الحاج: مصدر سابق، ج 1، ص 213-212.

(6) ابن إياس: مصدر سابق، ج 4، ص 304.

(7) ابن الحاج: مصدر سابق، ج 3، ص 277-276.

عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم في المنام عدة مرات، ثم تحدث الناس بظهور كراماتٍ لها وأنها تشفي العمي والبكم، فتهافت عليها الناس من كل حذب وصوب بما فيهم السلطان وكبار رجال الدولة من الأمراء والأعيان،⁽¹⁾ ومن تلك البدع أيضاً وضع عصا أو حربة للنساء الحوامل على حافة ضريح أحد الصالحين، ثم تجلب لها للتوكؤ عليها عندما يحضرها المخاض ظناً منهم أن ذلك يهون عليها عملية الوضع،⁽²⁾ ومن الطريف في أخبار البدع والخرفات أنه عندما وقع الطاعون في سنة 1513م قدّم جمعٌ من الحكماء والصلحاء بعض النصائح والارشادات للسلطان الغوري بغرض الحماية والوقاية من الوباء، ونصحوه بأن يتخذ خواتماً من الياقوت الأحمر،⁽³⁾ فما لبث أن فعل السلطان ذلك فأخذ يلبس على كل أصبعٍ خاتمين، وهذا يبرهن على ضعف إيمانه وتصديقه للبدع والخرفات، وأيضاً من الخرافات التي راجت وانتشرت بين الأمراء والأعيان وكبار رجال الدولة، أن وباء الطاعون لا يصل ولا ينتشر بمنطقة جبل الطور لما فيه من أسرار وقداسة مكان، وأن كل من سكن بجواره يسلم من الطاعون والموت، فأخذوا يقدمون إليه أبناءهم وأزواجهم ثم يلحقون بهم زرافاتٍ ووحدانا، قيل إن زوجة السلطان الغوري وابنه كانوا من ضمن الذين أرسلوا إلى منطقة الجبل هرباً من الطاعون،⁽⁴⁾ وبشكل عام كان تردد الناس على المنجمين والمشعوذين كثيراً لاسيما في مثل هذه الأوقات عند وقوع الأوبئة والأزمات يلجؤون إليهم لمعرفة تنبؤاتهم بأوقات زوال هذه الأزمات وارتفاع البلاء والطاعون، وبناءً على تلك التنبؤات يرجع الكثير ممن هربوا من المدن خوفاً من الطاعون فيتجاجؤون باستمراره ويتبين لهم كذب المنجمين ولكن ذلك بعد فوات الأوان حيث يهلك جمٌّ غفيرٌ منهم نتيجة اتباعهم

(1) ابن إياس: مصدر سابق، ج4، ص162.

(2) الغزي: كامل بن حسين بن محمد بن مصطفى البالي الحلبي، نهر الذهب في تاريخ حلب، دار القلم، حلب، 1419هـ، ص243-244.

(3) وهذه من الخرفات والمعتقدات اليونانية القديمة، وقيل أن أرسطاطاليس قد ذكر من منافع الياقوت الأحمر أنه يحمي من يرتديه من الطاعون إذا ظهر ببلدةٍ وهو فيها. ابن الوردي: سراج الدين أبو حفص عمر بن المظفر بن الوردي البكري القرشي، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، تحقيق أنور محمود زناقي، مكتبة الثقافة الإسلامية، القاهرة، 2008م، ص77.

(4) ابن إياس: مصدر سابق، ج4، ص298-299.

للمشعوذين والمنجمين،⁽¹⁾ ومن أشد أنواع البدع والخرافات التي ظهرت آنذاك أن هناك حائطاً يتكلم بدار قرب الجامع الأزهر بالقاهرة، وملخص القصة أن امرأة قد شكّت لأحد المشايخ سوء معاملة زوجها لها، فقام الشيخ يوعظ الرجل ويوصية بزوجه خيراً من وراء الحائط حتى لا يدري من المتكلم، فظن الرجل أن الحائط يتكلم وشاع الخبر بين الناس فأصبحوا يتوافدون على منزل ذلك الرجل لرؤية الحائط الذي يتكلم بما فيهم أكابر رجال الدولة وهم يرددون (يا سلام سلم الحيطه بتتكلم) ظناً منهم أن هنالك جان أو ملك يتكلم من رواء الحائط، وقد افتنوا بذلك الحائط فتنةً عظيمة حتى كادوا يعبدونه من شدة فتنتهم به، وكان البعض منهم يقدمون النذور والقرابين وغير ذلك من البدع والضلالات عند ذلك الحائط، ونظموا في ذلك شعراً، حيث قال أحدهم:

يا ناطقاً من جدارٍ وهو ليس يرى اظهرْ وإلاّ فهَذَا الْفِعْلُ فَنَّا
لَمْ تَسْمَعْ النَّاسُ لِلْحَيْطَانِ أَلْسِنَةً وَإِنَّمَا قِيلَ لِلْحَيْطَانِ آذَانُ

وقد عكف الناس على تلك الفتنة شهراً عديدة، تاركين أعمالهم وأشغالهم حتى خاف رجال الدولة من فساد الحال واستمراره لأكثر من ذلك، فقبض على المرأة وزوجها والشيخ الذي ذهب إليه لطلب النصيح، فأمر السلطان بضرهم حتى اعترفت المرأة بأن ذلك تم باتفاق بينها وبين الشيخ، فأمر السلطان بتسميرها وضرب الزوج والشيخ بالمقارع وتجريسهم بشوراع القاهرة، ثم أفرج عنهم بعد أن حُبسوا فترة من الزمان.⁽²⁾ وأيضاً من العادات والظواهر السلبية التي كانت منتشرة في المجتمع آنذاك عادة زيارة القبور وأضرحة الأولياء والصالحين التي كثر بناؤها في معظم مدن الشام ومصر حتى أصبحت ركناً من الأركان الأساسية التي قامت عليها الحياة الاجتماعية إبان العصر المملوكي،⁽³⁾ وذلك بغرض التبرك بهم وإجلالهم والتوسل والدعاء بأسمائهم زعماء بأن الدعاء عندهم والتشفع بهم مستجاب عند الله تعالى، وقد أسرف البعض من أهل الغلو من المتصوفة وجُهل العوام في تعظيم

(1) ابن طولون: مفاكهة الخلان، مصدر سابق، ج2، ص178.

(2) المقرئزي: النجوم الزاهرة، مصدر سابق، ج11، ص141-140.

(3) ابن إياس: مصدر سابق، ج2، ص217.

هؤلاء الأولياء وزعموا بأن لهم أسراراً وخفايا خارقة لقوانين الكون والطبيعة المعروفة والمتاحة لدى الناس وقتئذ،⁽¹⁾ وأخذوا يبدلون ويتدعون حتى أواخر العصر المملوكي فأصبح للتصوف طابعاً مختلفاً عما كان عليه في السابق حيث أصبح ظاهرةً اجتماعية بعيدة كل البعد عن الدين والأخلاق الإسلامية السامية الشريفة، حيث ادعى الكثير من الناس الزهد والتصوف والدروشة واتخذوا منها وسيلةً للكتسب والتهرب من المسؤوليات ودفع الأتاوات واتقاء شر المماليك وبطشهم وجبروتهم وغير ذلك من الصفات التي تتناقض مع مبادئ وأصول التصوف المستقيم عند السلف الصالح من أهل الايمان⁽²⁾،⁽³⁾ ولم يكن السلاطين والأمراء أقل اعتقاداً من العوام في قضية التبرك بالأولياء والمجاذيب، لاسيما في أوقات الازمات والجوائح حيث يكثرون من الاجتماع بهم طلباً للبركة،⁽⁴⁾ كما فعل السلطان الغوري عند خروجه للملاقاة بني عثمان بالشام حيث أصر على اصطحاب عدد من خلفاء كبار الصالحين بغرض البركة، وقد ألزمهم بذلك بعد أن تعلل البعض منهم بالمرض والهرم وغير ذلك من الأعذار،⁽⁵⁾ وكذلك قبله كان يفعل السلطان برقوق ومن شدة اعتقاده ومغالاته في هذا الأمر أوصى بأن يدفن تحت أقدام أحد المجاذيب،⁽⁶⁾ وكان يحرص على المشاركة بنفسه في تشييع ودفن المتوفى منهم حتى إنه كان يدفن البعض منهم في تربة بعض السلاطين، أما الأمراء فكانوا يتنافسون مع أهل الزوايا والعوام في شراء ثياب الشيخ المتوفى للاحتفاظ بها بغرض البركة،⁽⁷⁾ وبعد الدفن يتهافت الناس على زيارة القبر والضريح

(1) الوقاد: محاسن، الطبقات في القاهرة المملوكية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1999م، ص 255.

(2) بيد أن المتصوفة الحق الصادقين من زهاد المسلمين، كانوا شُم الأنوف عُزاز النفوس، لا يقبلون الدعومات المالية والعينية التي يقدمها لهم المماليك، تورعاً عن المال الحرام والمشبه الذي لا يعلمون مصادره، ويفضلون العيش بالقليل الذي يرد عليهم من الأوقاف التي تقوم بالكثير من الخدمات التعليمية والاجتماعية لطلاب العلم والفقراء من الناس فيستعينون بذلك على طلب العلم والانقطاع للعبادة. الحججي: حياة ناصر، صور من الحضارة العربية الإسلامية في سلطنة المماليك، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، 1992م، ص 163.

(3) رزق: مرجع سابق، ص 132.

(4) المقريري: السلوك، مصدر سابق، ج 3، ص 399.

(5) ابن إياس: مصدر سابق، ج 2، ص 22.

(6) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، مصدر سابق، ج 5، ص 624.

(7) عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، مرجع سابق، ص 261.

للتبرك والدعاء والتوسل بجاهه ومكانته عند الله تعالى، ثم ابتدعوا عادة الاحتفال بالموالد والحواليات التي يقيمونها عند قبور هؤلاء الأولياء تكريماً لهم وإحياءاً لذكورهم،⁽¹⁾ فتقع أثناء تلك الاحتفالات الكثير من الفاسد، حيث يختلط الرجال بالنساء والغلمان في تلك الليالي فتقع الكثير من حوادث الزنا واللواط وشرب الخمر وغيرها من المفاسد والضلالات المنهي عنها في الشرع الحنيف،⁽²⁾ ومن البدع والغرائب التي كان يفعلها البعض شذاذ المتصوفة حلق رؤوسهم ولحاهم وحواجبهم وإزالة رموشهم حتى تصبح أشكالهم غريبة ومخيفة،⁽³⁾ وأيضاً من البدع والضلالات التي كانت تقع في الاحتفالات الدينية لاسيما في ليلة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف وليلة دوران المحمل، حيث يبالغون ويسرفون في ذلك ويحيئون بالمغاني وآلات الطرب والمعازف وغيرها، ويختلط الرجال بالنساء ويكثر الفساد، وكذلك يكون احتفالهم بدوران المحمل قبل خروجه إلى الأراضي المقدسة حيث تجلس النساء والأطفال على أبواب الحوانيت والأسواق ويختلطن بالرجال، فتنتهز ذلك فئة من المماليك يُعرفون بعفاريت المحمل لهم لباسٌ غريب وأشكال مزعجة من الزينة يزينون بها خيولهم، يشرعون في إزعاج الناس ومضايقتهم وخطف عمام الرجال وصفعهم على أفقيتهم وحرق لحاهم بالنار، وأحياناً تبلغ بهم الجرأة بأن يتعرضوا للنساء والأطفال فيفجرون بهم في الطرقات، وقد قلدهم في ذلك بعض فُساق العوام فصاروا يدخلون الدور والحوانيت ويفرضون على أصحابها وعلى جميع المارة مبالغ مالية محددة يأخذونها غصباً، ومن يمتنع عن ذلك يقومون بإيذائه وإلحاق الضرر به مادياً وجسدياً، حتى أصبح الناس يترقبون انتهاء دوران المحمل بفارغ الصبر ليستريحوا من هذه الفئة المزعجة وأفعالها القبيحة المنافية للخلق والدين،⁽⁴⁾ وكذلك من المفاسد والبدع التي كان يرتكبها الكثير من الناس في الاحتفال بعيد الفطر المبارك، أنهم كانوا يذهبون إلى القرافة ومنها إلى مواضع الأُنس

(1) وكان السلاطين شديدي الحرص على رعاية هذه الاحتفالات ودعمها أمثال السلطان قايتباي الذي كان يأمر بإقامتها ويدعو الخليفة والأمراء والقضاة وكبار المعتمدين من رجال الدين والأعيان للحضور والمشاركة في الاحتفال. ابن إياس: مصدر سابق، ج2، ص221.

(2) المقرئزي: السلوك، مصدر سابق، ج3، ص567.

(3) عاشور: العصر المالكي، مرجع سابق، ص352.

(4) عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، مرجع سابق، ص203-199.

والنزهة رجالاً ونساءً ويستأجرون المراكب النيلية ويرتكبون الكثير من المفاسد والمناكر، ولما استفحل أمر هذه الظاهرة أصدرت الدولة مرسوماً بمنع العوام من الذهاب إلى القرافة وشواطئ النيل والقيام بتلك النزعات المشبوهة، وأنذرتهم بأشد أنواع العقوبات لكل من يخالف تلك الأوامر.⁽¹⁾

وكذلك من البدع والظواهر السلبية التي ظهرت في المجتمع آنئذ عادة محاكاة المسلمين للنصارى في الاحتفال بعيد النيروز⁽²⁾، حيث يخرج الناس إلى الطرقات ويتصافون بالجلود ويتراشقون بالماء، وقد تجاوزوا الحد في أشكال الاحتفال بهذا العيد، وما فيه من مجاهرة بالفجور والعُهور وشرب الخمر، واختلاط النساء بالرجال ومشاركتهم الألعاب والخروج إلى الخلجان وبرك الماء وغيرها من مواضع النزهة، حيث يقومون بنزع ثيابهم للعب بالماء رجالاً ونساءً حتى يصبح أكثرهم عارياً والمحتشمين منهم يكتفون فقط بقميص رقيق شفاف، وقد صار هذه الأمر معتاداً لدى الناس حتى إن الولاة ورجال الدولة كانوا لا يحاسبون أحداً في ذلك اليوم على ما اقترف من ذنب،⁽³⁾ بل إن هنالك البعض من السلاطين أنفسهم قد اعتادوا الاحتفال بالنيروز أمثال السلطان فرج بن برقوق الذي كان يحتفل احتفالاً كبيراً في ذلك اليوم ويقضيه مع أصدقائه وندمائه في اللهو واللعب وشرب الخمر وغير ذلك من المفاسد والفواحش، بيد أن الكثير من السلاطين قد حاولوا محاربة تلك البدعة والظاهرة السلبية في المجتمع إلا أن تلك المحاولات قد باءت بالفشل، وذلك لتمسك العوام من أهل الذمة والمسلمين بتلك العادات والطقوس التي تمارس في ذلك اليوم وما فيها من فساد أخلاقي ومخالفة للشريعة الإسلامية بالنسبة للمسلمين، حيث يعتبرون أن الاحتفال بالنيروز عيد قومي تحتفل به جميع طبقات وعناصر المجتمع دون تمييز طبقي أو ديني أو عنصري، كما أنه يجب أن تغلق فيه الأسواق والمدارس وغيرها من المرافق والمؤسسات العامة لقضاء اليوم في اللعب واللهو والمرح،⁽⁴⁾ وكذلك كانوا يفعلون في الاحتفال بعيد

(1) ابن الفرات: مصدر سابق، ص 366.

(2) النيروز: هو من أعياد الفرس ويكون يوم الاعتدال الربيعي، أما قبط مصر فقد أخذوا التسمية فقط وأطلقوها على رأس السنة القبطية. المقرئزي: الخطط، مصدر سابق، ج 2، ص 30.

(3) ابن الحاج: مصدر سابق، ج 2، ص 51-48.

(4) ابن تغرير بردي: النجوم الزاهرة، مصدر سابق، ج 6، ص 166.

وفاء النيل وهو من التراث الفرعوني القديم، حيث كان الناس يجتمعون بمواضع عديدة مطلة على النيل منها جزيرة الروضة ومنطقة الجسر وغيرها، ويرتكبون مفاسد وقبائح الافعال ويقعون في الكبائر من شرب الخمر والحشيش والزنا واللواط وركوب البحر بالملاهي وغير ذلك من مفاسد الأخلاق.⁽¹⁾ وفي أواسط القرن التاسع الهجري ظهرت في المجتمع طائفة من المنحرفين الذين يدعون التصوف يُعرفون بالمجازيب، وقد مُنحت لهم الحرية المطلقة في القول والفعل، فلا يطالبون بشيءٍ من الآداب العامة طالما أنهم في تلك الحالة من الجذب الإلهي، ولا يُسألون ولا يُحاسبون على أفعالهم مهما بلغت من عظم، وذلك لإعتقاد الناس بأن هؤلاء المجازيب من أصحاب الكشف وأنهم يعلمون الغيب،⁽²⁾ وهكذا أصبح ادعاء الجذب دثاراً للكثير من أهل الفسق والتطرف والفجور والعهر يرفعون به الكلفة والحياء الاجتماعي، ويتخلصون به من المحاكمات والمساءلات القضائية والقانونية، ومنهم من تجرأ وافترى على الله الكذب بوضع واختلاق بعض الكلام المنظوم على هيئة سور القرآن الكريم، يتلوها في المساجد ودور العبادة علناً دون أن ينكر عليهم أحدٌ ذلك، حيث كان الجهل فاشياً بين العوام آنئذ فيظنونها سوراً من القرآن الكريم لشبهها بالآيات في الفواصل وطريقة التلاوة،⁽³⁾ وتعالى الله وقوله الكريم عما يفعل الجاهلون، وقد تجاوز البعض منهم ذلك وادعوا النبوة حيث تزعمت طائفة ممن يعتقدون بنظريات الحلول والاتحاد والاتصال والامتزاج ووحدة الوجود والقطبية وكمال البشر، أن مرتبة النبوة درجة مكتسبة ويمكن بلوغها عن طريق صفاء القلب وبعض الممارسات الرياضية وغيرها من الأفعال والأقوال،⁽⁴⁾ وكان ممن ادَّعوا النبوة رجلٌ زعم أنه النبيّ الأمي الذي تنطق له حروف القرآن الكريم، ويتنزل عليه من الله جل وعلا عن طريق رهطٍ من الملائكة منهم

(1) ابن حجر: انباء الغمر، مصدر سابق، ج2، ص203.

(2) الشعراي: أبوالذهب عبدالوهاب بن أحمد بن علي، اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر، المطبعة الأزهرية، القاهرة، 1903م، ص154.

(3) الشعراي: أبوالذهب عبدالوهاب بن أحمد بن علي، الطبقات الكبرى، ج2، تحقيق وضبط أحمد عبدالرحيم السايح وتوفيق علي وهبة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2005م، ص167-168.

(4) ابن خلدون: أبويزيد عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي الأشبيلي، شفاء السائل وتهذيب المسائل، تحقيق: محمد مطيع الحافظ، دار الفكر، دمشق، 1996م، ص86-84.

جبريل وميكائيل وإسرافيل ورضوان ومالك عليهم السلام وغيرهم من الملائكة الكرام، وأن الله قد بعثه لقتل الكفار، فقبض عليه وحبس بهارستان المجانيين في القاهرة، ثم أطلق سراحه بعد أن تاب وتراجع عن ذلك الادعاء،⁽¹⁾ وكذلك ادعى رجلٌ من أهل الصعيد يقال له عَرَّام النبوة، وزعم أنه قد رأى السيدة فاطمة بنت النبي عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم في اليقظة، فحدثته عن والدها عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم وبشرته بأنه سيُنْبأ من بعده، فخرج يدعوا الناس في ناحيته فتبعه الكثير منهم، حتى تصدى له رجل من أعيان المنطقة وقبض عليه وضربه ووبخه وحبسه حتى تراجع عن مقالته تلك وأعلن توبته،⁽²⁾ ومنهم من تجاوز مرحلة ادعاء النبوة وجاؤوا بأكبر من ذلك حيث ادعى أحدهم بأنه يصعد إلى السماء في كل يوم مرة ويكلم الله جل وعلا كفاحاً دون حجاب، فتبعه خلق كثير من عوام الناس بمصر، وشاع خبره حتى بلغ السلطان فأمر بأن يعقد له مجلساً يضم قضاة المذاهب الأربعة، وقد أرادوا أن يثبتوا عليه الكفر لولا أن شهد نفرٌ من الحاضرين باختلال عقله، فأمر بحبسه مع المجانين بالمارستان ولم يثبت عليه الكفر،⁽³⁾ ونسبةً للتهاون والتساهل في الكثير من الأحيان في معاقبة هؤلاء وأمثالهم تجرأ الكثير من الفساق والزنادقة على الدين والشرع بنسب الكثير من البدع والخرافات إليه بالادعاءات والرؤى والمنامات، كما فعل رجلٌ بمصر يدعى شمس الدين الميموني الذي ادعى على الله الكذب حيث قال: إن الله قد أباح له شرب الخمر والحشيش واللواط والفطر في نهار رمضان، فشهد عليه جماعة من الناس ثم قبض عليه وأحضر إلى السلطان، بيد أنه خرج من التهمة بعد أن أفتى المجلس باختلال عقله، ثم أعلن توبته بعد ذلك عن الرؤى والمنامات والادعاءات، والملاحظ من ذلك أن السواد الأعظم ممن يأتون بمثل هذه الادعاءات والبدع لم تتم معاقبتهم بطريقة رادعة وصارمة، حيث يخرج الكثير منهم من هذه التُّهم بادعائه الجنون فينجو من العقاب ثم يتوب بعد ذلك،⁽⁴⁾ وهكذا كان حال المدن أما الأرياف فقد كانت أشد جهلاً وضلالاً

(1) ابن إياس: مصدر سابق، ج 1، ص 249.

(2) ابن حجر: إنباء الغمر، مصدر سابق، ج 3، ص 243.

(3) ابن إياس: مصدر سابق، ج 2، ص 126.

(4) ابن حجر: إنباء الغمر، مصدر سابق، ج 3، ص 349.

من ذلك، حيث ورد أنه في أواسط القرن الخامس عشر الميلادي ظهرت جماعةٌ من الزنادقة في النواحي الغربية بقريةٍ يقال لها ططبة،⁽¹⁾ ففيهم من ادعى النبوة ومنهم ومن ادعى الألوهية وغير ذلك من البدع والضلالات والخرافات، فاجتمع حولهم خلقٌ كثير من عوام الناس وأوباشهم، حيث وقعت منهم الكثير من الفواحش والأفعال الشنيعة التي تنافي الدين ومكارم الأخلاق، وقد ذاع سيظهم حتى علمت بهم السلطات فقبض على أربعة عشر رجل منهم، وأحضرُوا أمام السلطان والقضاة، فأنكروا ما نسب إليهم من تُهم، واكتفى المجلس بتعزيرهم، إلا أن السلطان لم يكتفي بذلك فأمر بسجنهم، فظلوا به بضع سنين ثم أطلق سراحهم،⁽²⁾ أما بلاد الشام فقد ظهر بها رجلٌ يدعى نجم الدين بن خلكان وهو رجلٌ صاحب علم وفقه وقد تولى القضاء بعدة نواحي في الشام، وكان يقول بأنه حكيم زمانه وأن له كلامٌ يشبه حديث الوحي ويصرح بأنه سيتولى السلطنة وغير ذلك، وقد نُعت بالانحلال الأخلاقي والزندقة، واتهمه البعض باضطراب وخفة العقل، وقد عُقدت لمحاكمته عدة مجالس بدمشق، وانتهى الأمر باستتابته بعد أن رجح البعض إصابته بالوسواس ونوع من الهذيان مما يجعله يتكلم بمثل هذا الكلام أحياناً، ثم رحل إلى القاهرة ورجع إلى ادعاءاته السابقة، فاستتاب فتاب عنها بقي على هذه الحالة حتى مات في أواسط القرن الرابع عشر الميلادي،⁽³⁾ وأيضاً ممن ادعى النبوة بالشام رجلٌ يدعى وضاح الخياط، كان يعمل خياطاً بمدينة حلب ثم ادعى النبوة، قيل إنه رأى شيطاناً بين اليقظة والنام فقال له: «قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم أجمعين» فسجن واستتاب فتاب ورجع عن مقالته تلك فحقن دمه وأطلق سراحه.⁽⁴⁾

ويتبين من خلال ما ورد عن المشعوذين والمنحرفين والمغالين وأصحاب البدع

(1) وقيل إنها قرية بطيطة واسمها القديم بطيط، وهي قرية من قرى كفر الشيخ حالياً. رمزي: محمد، القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة 1945م، ج2، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1994م، ص139.

(2) ابن إياس: مصدر سابق، ج3، ص419.

(3) النويري: نهاية الأرب، مصدر سابق، ص64-32.

(4) ابن حبيب: الحسن بن عمر بن الحسن، تذكرة النبوة في أيام المنصور وبنيه، ج3، تحقيق محمد محمد أمين، مراجعة سعيد عبدالفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1982م، ص166.

والخرافات ومدعي النبوة والألوهية بمصر والشام إبان العصر المملوكي، مستوى الجهل والفساد والانحطاط الأخلاقي الذي كان يعيش فيه الناس آنذ، حتى وإن لم يكن بشكل دائم ومستمر طوال فترة حكم المماليك إلا أنه كان يمثل الطابع السائد في المجتمع أغلب الأحيان، حيث خلفت هذه الظواهر آثاراً سلبية في المجتمع على الصعيد الديني والأخلاقي والفكري والاقتصادي والاجتماعي، بل حتى على الجوانب الإدارية والسياسية حيث تأثر الكثير من السلاطين والأمراء بمثل هذه الخرافات والبدع والضلالات.

3.2.7 ظاهرة تداول وتعاطي الخمر والحشيش:

لم تكن ظاهرة تعاطي الخمر والحشيش وغيرها من المخدرات والمسكرات بالديار المصرية والشامية شيئاً مستحدثاً في عصر المماليك، إلا أن الفساد الأخلاقي وضعف الوازع الديني الذي فشى في المجتمع إبان فترة حكمهم قد عزز من انتشارها وتقنينها رسمياً من قبل الدولة في الكثير من الأحيان، لاسيما في فترة سلطنة المماليك الجراكسة حيث بلغت المجاهرة بتداول الخمر والمخدرات وتعاطيها والمتاجرة فيها حد الذروة، فابتلي بها الكثير من الناس وفشى أمرها بين جميع طبقات المجتمع آنذ،⁽¹⁾ وكانت الحشيشة الأكثر انتشاراً ورواجاً بين العوام مقارنة ببقية أنواع المخدرات والمسكرات وتُعرف بخمر الفقراء وذلك نسبةً لرخص ثمنها مقارنة مع الخمر، ومن أسائها أيضاً مدامة حيدر⁽²⁾ حيث قيل إنه أول الواقفين عليها

(1) خليل: سعيد صالح موسى، التجارة الداخلية في دولة المماليك الثانية «2-784هـ/ 1516-1382م»، رسالة دكتوراة غير منشورة، الجامعة الأردنية، كلية الدراسات العليا قسم العلوم الأنسانية والاجتماعية، 1992م، ص226.

(2) هو الشيخ الفقير حيدر الخراساني أحد كبار مشايخ الصوفية المنحرفين، عاش ببلدة نشاور في خراسان إبان القرنين السادس والسابع الهجريين، وإليه ينسب الكثير من المؤرخين قضية إظهار نبتة القنب أي الحشيشة في ذلك الزمان، وقيل أنه قد انزوى في الجبال برفقة نفر من أتباعه، وكان رجلاً قليل التناول للطعام، فخرج ذات يوم منفرداً إلى الصحراء في وقت القائلة فوجد كل الأشياء ساكنة عدا نوعاً واحداً من النبات له أوراق يانعه وبراقه تميمس وتترنح بلطف مثل المنتشي السكران، فناداه مناد أن كل من ورق هذه الشجرة فذلك من أعظم القربات، فهو طعام المتفكرين في معانينا ومدام المعتبرين بمغانينا، فلما أكل منها انتشت نفسه وتحرك وجده وطرب، فأخبر به أتباعه وأمرهم بأكله وقال لهم: إن الله قد خصكم بهذا العقار ليذهب به همومكم ويجلو به أفكاركم الشريفة فراقبوه فيها أودعتكم، ولا تخبروا به أحداً من عوام الناس ولا تخفوه عن الفقراء أي أمثالهم من شذاذ المتصوفة، وبعد وفاة الشيخ حيدر ذاع أمر الحشيشة في خراسان وجميع بلاد فارس ثم انتقل منها إلى العراق ثم الشام وبلاد الروم ومصر. البدري: تقى الدين أبي التقى =

في ذلك الزمان، وبعد أن عرف سرها وخص بها أتباعه وحثهم على تعاطيها،⁽¹⁾ ويزعم المقریزی وهو الشاهد على العصر أن انتشار الحشيشة وتعاطيها بمصر قد تزامن مع وصول السلطان أحمد بن أويس الجلائري⁽²⁾ وأتباعه من العراق إلى مصر فراراً من تيمورلنك، وقد كانوا مدمنين على الحشيشة فنشروا ذلك البلاء في القاهرة، ثم انتقلوا إلى دمشق وأقاموا بها رداً من الزمان فتأثر بهم أهلها أيضاً في تعاطي ذلك العقار وجاهروا به، وقيل إن وجودها قد سبق ذلك بقرنين من الزمان حيث ذكر أن السلطان الظاهر بيبرس البندقداري قد أبطل ضمان الحشيشة والخمور وأمر بإراقتها وحرقتها وتأديب ومعاقبة أهلها،⁽³⁾ كما أمر بإغلاق الحانات وبيوت البغاء بمصر والشام،⁽⁴⁾ وذلك يعني أن وجودها قديم بل ومعترف بها من قبل الدولة وعليها ضمان أي ضريبة تقنن تداولها رسمياً،⁽⁵⁾ وفي مطلع القرن التاسع الهجري أصبح التجاهر بتلك النبتة الملعونة مفخرة بين الناس، فذاع أمرها واشتهر أكلها، وارتفع الاحتشام عن الحديث بها في المجالس والطرفات والأسواق، وبالغ

= البدری الدمشقی القاهری، راحة الأرواح في الحشيش والراح، تحقيق ودراسة دانيلو مارينو، مخطوط، I. Lozano, Un fragmento، ص 6.

(1) أمين: مرجع سابق، ص 351.

(2) وهو مغولي مستعرب من أسلاف رجال جنكيز خان وهولاكو الذين غزو الديار الإسلامية، من أواخر سلاطين الدولة الجلائرية الشيعية التي حكمت العراق وغرب إيران وأذربيجان وديار بكر في الفترة ما بين «1432-1335م»، وكانت بداية نهايتها على يد تيمورلنك إبان حملته على الأناضول والشام والعراق وما جاورها من البلدان، ثم جاء القره قوينلو واجتروا شأفة الجلائريين واستولوا على حكمهم وأقاموا دولتهم الجديدة على أنقاض دولة الجلائريين. العسيري: أحمد معمور، موجز التاريخ الإسلامي من عهد آدم عليه السلام إلى عصرنا الحاضر، ج 1، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1996م، ص 287.

(3) وقد شدد في العقوبة على كل من يتعاطها لدرجة القتل، ولم يستثن عن ذلك أحداً حتى الأمراء وكافة المالك فقد ساوهم بالرعية في ذلك، كما أمر بمنع إدخال جميع صنوف المسكرات والمخدرات وكل ما يتعارض مع الشريعة الإسلامية إلى أراضي السلطنة. ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، مصدر سابق، ص 299.

(4) المقریزی: السلوك، مصدر سابق، ج 1، ص 553-554.

(5) ولم يكن المالك هم أول من قننوا بيع الخمور والمخدرات، فقد سبقهم الفاطميون إلى ذلك بإصدار المراسيم التي تقنن بيع وتداول الخمور وفرض مكوس عليه تجبيها الدولة بشكل رسمي، والتي ظلت باقية حتى ألغاه صلاح الدين الأيوبي عام 567هـ/ 1172م، وقام بحملات على جميع مواضع بيع وتعاطي الخمور وأمر بإراقتها والتشديد في معاقبة متعاطيها. قاسم: أهل الذمة في العصور الوسطى، مرجع سابق، ص 58.

الناس في تعاطيها حتى كادت تكون تحفةً لمرفي ذلك الزمان، وكان البعض من شذاذ المتصوفة الأعاجم يخلطونها بالعسل وبعض النباتات الأخرى ثم يعونها للفقراء وعوام الناس، ذلك مما ساعد على انتشارها بشكلٍ أوسع في المجتمع، فغلبت السفالة والوضاعة على أخلاق الناس وارتفع الحياء والحشمة بينهم، فأصبحوا يتجاهرون بالسوء قولاً وفعلاً ويتفاخرون بالمعائب والفواحش، فما بُلي الناس بأرذل ولا أفسد منها على أخلاقهم، فيها ينحط المرء في أخلاقه وسائر أفعاله وتصرفاته ولا تكاد تبقى له من إنسانيته شيءٌ البتة، فيجمع بين ارتكاب الكبائر وسوء الأخلاق في كافة أمور دينه ودنياه،⁽¹⁾ وقد كان أهل مصر أميل لتعاطي الحشيشة عن غيرهم، فخصصت لها بعض الأماكن والحوانيت التي كانت تُعرف بالمحاشش بالإضافة إلى بعض المقاهي العامة التي كانوا يدخلونها ويتناولونها بها،⁽²⁾ وقد تعددت طرق استعمالها وكان ذلك وفقاً للطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها الفرد وقدرته المالية، فكان العوام يستعملونه على ضروب شتى فمنهم من يطبخها ثم يعجنها فيجعلها أقرصاً ثم يأكلها، ومنهم من يجففها ثم يفرکہا بيده ويخلطها بالسكر والسمسم المشور فيستفها ويطيل مضغها، حتى ينتشي ويفرح وربما سكر أحياناً،⁽³⁾ ولم يقتصر استعمال الحشيشة على طبقة العوام وفقراء الناس فقط، بل تجاوزتهم إلى بقية طبقات المجتمع حيث شغف بها الكثير من القضاة والعلماء وغيرهم من المعتمدين، حتى أفتى البعض منهم بجواز وإباحة أكلها،⁽⁴⁾ ونظموا في مدحها القصائد لبيان مزاياها وفضلها على الخمر،⁽⁵⁾ كما شاع تعاطيها بين طائفة كبيرة من شذاذ ومنحرفي الصوفية، حتى أطلق عليها

(1) المقريري: الخطط، مصدر سابق، ج 2، ص 521-522.

(2) كلوت بك: مصدر سابق، ج 2، ص 18-19.

(3) المقريري: الخطط، مصدر سابق، ج 2، ص 520.

(4) السخاوي: الضوء اللامع، مصدر سابق، ج 10، ص 4.

(5) وقد ذكر أن أحدهم قال في مدحها وتفضيلها على الخمر:

وله بكاسات المدام ولوع
لهي المحرم والحشيش ربيع

قل للذي ترك الحشيشة جاهلاً
إن المدامة لو أردت تطوعاً

المقريري: الخطط، مصدر سابق، ج 2، ص 126.

البعض حشيشة الفقراء أي المتصوفة،⁽¹⁾ وقد سموها فيما بينهم بلقيمة أهل الذكر والفكر،⁽²⁾ ولشدة فشوها بينهم وشغفهم بها ربط الكثير من الكتاب والمؤرخين بين انتشار ظاهري التصوف وتعاطي الحشيشة في مصر،⁽³⁾ وكذلك شاع تناولها في طبقة المالك بمن فيهم فئة السلاطين ورجال الدولة، فقد قيل إن السلطان المؤيد شيخ كان يعاقر الخمر ويستعمل غيرها من المسكرات والمخدرات ويأكل الحشيش المستقطر،⁽⁴⁾ وكذلك كان الأمير ابن سيف الشويكي حتى قيل إن عيناه من شدة احمرارهما كأنهما جمرتان من كثر تناوله للحشيش، وأيضا الأمير جانبك التاجي قيل إنه كان يستعمل لقيمة الفقراء الخضراء أي الحشيش،⁽⁵⁾ وعلى الرغم من شيوع تعاطي الحشيش في المجتمع المملوكي، إلا أنه لم يؤثر على وجود الخمر فهي أم الكبائر حيث كان مجال الفساد والانحلال الأخلاقي مفتوحاً يسع الصنفين وغيرهما من المسكرات والمنكرات التي فشى تداولها في المجتمع، فقد عُصرت الخمر وبيعت في جميع أنحاء السلطنة طوال فترة حكم المالك، فأسرف الناس فيها حتى قيل إن العنب قد غلا لشدة الطلب عليه في أيام السلطان فرج بن برقوق لكثرة ما عصر منه في صناعة الخمر،⁽⁶⁾ وبلغ نتاج ما عُصر منها في عام واحد بخزانة البنود⁽⁷⁾ اثنين وثلاثين ألف جرة، حتى إن الكثير من التجار والوافدين الأوروبين الذين زاروا مصر إبان سلطنة المالك ذكروا توفر الخمر بها وأنهم لم يجدوا أي صعوبة في الحصول عليها طوال مدة إقامتهم بها، وكذلك كان حال أهل البلد حيث أصبحوا يتفاخرون ويتظاهرون بمعاقرتهم للخمر،⁽⁸⁾ ومن أشهر أنواع الخمر التي كانت منتشرة آنئذ نبيذ القمز وهو يصنع من لبن الخيل، والتمر

(1) المقرزي: السلوك، مصدر سابق، ج4، ص339.

(2) الذهبي: مصدر سابق، ج32، ص75.

(3) عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المالك، مرجع سابق، ص253.

(4) ابن إياس: مصدر سابق، ج2، ص61.

(5) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، مصدر سابق، ج16، ص332.

(6) ابن إياس: مصدر سابق، ج1، ص822.

(7) وهي بالقاهرة وكانت تستخدم كموضع لحبس المذنبين من جنود وأمرء المالك. المقرزي: السلوك، مصدر سابق، ج3، ص394.

(8) عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المالك، مرجع سابق، ص254.

بغاوي^(١) الذي يُصنع من الزبيب، والمزر من القمح والشعير، والبوزة من الدقيق،^(٢) وقد عُرف الكثير من أمراء وسلاطين المهاليك بولعهم وإسرافهم في معاورة الخمر لاسيما في الولايم والأفراح ورحلات النزهة والصيد، وكان يتهادون بها في أفراحهم ويتجاهرون بذلك على الملأ،^(٣) ومن شدة ولعهم بها ذكر أن البعض منهم كان يبلغ استهلاكه لليوم الواحد ما يزيد على خمسين رطلاً من الخمر، حتى قيل إن السلطان فرج كان عند عودته من رحلات الصيد يمر على شوارع القاهرة وهو لا يكاد يثبت على فرسه من شدة سُكره،^(٤) وكذلك كان حال الأمير أبي بكر بن محمد بن سيف الدين قلاوون مع ندمائه الذين يعكفون معه على شرب الخمر في قصره حتى لا يكادون يفيقون من سُكرهم إلا قليلاً،^(٥) وقيل إذا حج أحد الأمراء أو السلاطين ظن الناس أنه قد تاب عن الخمر والمسكرات، ولكن ما يبرح أن يرجع فيعود إلى ما كان عليه في السابق من معاورة الخمر والمحرمات،^(٦) وكذلك كان حال الكثير من عوام الناس مع الخمر حتى قيل إنهم كانوا يترقبون الحملات التي تقوم بها الدولة على بيوت وكنائس النصارى واليهود لمكافحة الخمر والمسكرات فيسرع فُساق العوام إليها مستغلين الفرصة في نهب وشرب أكبر كمية من الخمر دون مقابل حيث ينافسون في ذلك وينازعون فيها قبل أن يتنبه إليهم رجال الشرط،^(٧) ومن عظم فساد الأخلاق آنئذُ ذكر أن أحد المعميين قد راهن أصحابه على أن يشرب الخمر وهو على المنبر، فتظاهر بالكحة والسعال واستأذن الحاضرين في شرب الماء وكان قد اتفق مع شخص أن

(١) نسبة للأمير تمرغا الذي كان مولعاً بشرب الخمر حتى أنه ابتكر نوعاً جديداً من الخمر فنسب إليه وأصبح يُعرف بالخمر التمرغاوي، وقد أسرف البعض من السلاطين والأمراء على معاورته لجودته، حتى قيل أن مجالس السلطان برقوق وحاشيته لا تكاد تخلو منه لاسيما في المناسبات الخاصة. ابن حجر: إنباء الغمر، مصدر سابق، ج١، ص 381.

(٢) عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المهاليك، مرجع سابق، ص 254.

(٣) المقرزي: السلوك، مصدر سابق، ج٣، ص 305.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، مصدر سابق، ج٦، ص 250.

(٥) ابن حجر: الدرر الكامنة، مصدر سابق، ج١، ص 462.

(٦) الذهبي: تاريخ الإسلام، مصدر سابق، ج٢٢، ص 107.

(٧) عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المهاليك، مرجع سابق، ص 255.

يناوله زق خمرٍ فشر بها حتى آخر قطرةٍ فيها،⁽¹⁾ وكانت هنالك علاقة وثيقة بين معايرة الخمر والحشيش وانتشار ظاهرة الشذوذ الجنسي في المجتمع إبان العصر المملوكي، ولعل ظاهرة التعلق بالمردان والشغف بهم ومنادمتهم في مجالس الخمر والحشيش واللهو والمجون كان أمراً عادياً لا يُستحى منه عند أهل ذلك العصر، لاسيما عند عليّة القوم ورجال الدولة وفتة الأدباء والشعراء الذين لم يكاد يخلو شعر أحدهم من التهتك والتغزل في الغلمان وجمالهم وحسن منادمتهم ومجالستهم،⁽²⁾ ويقول أحدهم:

ومهفهف بادي النفار عهدته	لا التقيه قط غير معبس
فرأيته بعض الليالي ضاحكا	سهل العريكة ريضاً في المجلس
فقضيت منه مآربي وشكرته	إذ صار من بعد التنافر مؤنسي
فأجابني لا تشكرن خلائقي	واشكر شفيحك فهو خمر المفلس
فحشيشة الأفراح تشفع عندنا	للعاشقين ببسطها للأنفس
وإذا هممت بصيد ظبي نافر	فاجهد بأن يرعى حشيش القنبس
واشكر عصابة حيدر إذ أظهروا	لذوى الخلاعة مذهب المتخمس ⁽¹⁾

ويقول آخر مصرحاً بولعه وحبّه للحشيش والمردان:

لو قال لي خالقي تمنى	قلت له سائلاً بصدق
أريد في صبح كل يوم	فتوح خير يأتي برزق
كف حشيشٍ ورطل لحمٍ	ومنّ خبزٍ وطءٍ علق ⁽¹⁾

(1) الجوبري: جمال الدين عبدالرحيم بن عمر الدمشقي، المختر في كشف الأسرار، تحقيق مانويلاد نجلر، المكتبة العربية، برلين، 2006م، ص35.

(2) الشروف: فواز شاكر أحمد، شعر الخمر في العصر المملوكي الأول «784-648هـ»، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الخليل / كلية الدراسات العليا/ برنامج اللغة العربية وآدابها، 2013م، ص110.

(3) المقرزي: الخطط، مصدر سابق، ج2، ص518-517.

(4) الصفدي: صلاح الدين خليل بن أبيك، الغيث المسجم في شرح لامية العجم، ج2، المطبع الأزهرية المصرية، القاهرة، د.ت، ص138.

ويقول آخر في الخمر والمردان:

مُدَامُ إِذَا لَاحَ الحُبَابُ حِسَاتِهَا	بِكَاسَاتِهَا شَمْسًا تُخَفُّ بِأَنْجَمِ
يَدُورُ بِهَا سَاقٌ مِنَ التُّرْكِ أَهْيَفُ	يُرِيكَ عَقُودَ الدُّرِّ عِنْدَ التَّبَسُّمِ
لَهُ طَعْلَةٌ كَالْبَدْرِ يُشْرِقُ نُورَهَا	عَلَى قَامَةٍ مِثْلِ القُضَيْبِ المُنْعَمِ
يُسَلُّ عَلَى عُشَاقِهِ سَيْفَ لِحْظِهِ	وَيُرْشُقُهُمْ مِنْ نَازِئَةٍ بِأَسْهُمِ
تَقَدَّمَتْ إِذْ أَقْدَمْتَ لَيْلَةَ وَصَلِهِ	عَلَى قُبْلَةٍ وَالفَضْلِ لِلْمُتَقَدِّمِ
فَمَا رَدَنِي عَمَّا أَرَدْتُ وَنَلْتُ	مَاقْصِدْتُ مِنَ التَّقْبِيلِ فِي ذَلِكَ الفَمِ
وَعَانَقْتُ مِنْهُ غُضْنَ بَانَ عَلَى نَقَاً	وَوَسَدَتْهُ فِي اللَّيْلِ زَنْدِي وَمِعْصَمِي ^(١)

وقد عملت الدولة على مكافحة هذه الظواهر من حين لآخر لاسيما أثناء وقوع الجوائح والأزمات والمجاعات، حيث كانت تقوم بحملات على المواضع التي تُزرع وتُتعاطى بها الحشيشة، فتتلف الزرع وتُعاقب المتعاطين باقتلاع أضراسهم وغير ذلك من العقوبات الشديدة والرادعة،^(٢) وتعتمد كثافة هذه الحملات ومدى قوتها على شخصية السلطان ومستوى دينه وتكوينه الفكري والأخلاقي وقوته وتوجهاته السياسية، حيث تعتبر الخمر والمسكرات من أكبر الأخطار التي تهدد أمن وسلامة المجتمع والدولة، كما أنها تفسد الأخلاق وتورث الخمول والكسل والتعاس عن العبادة والعمل،^(٣) ويُعد السلطان الظاهر بيبرس من أولو العزم من السلاطين في محاربة الفساد وتطهير المجتمع من العادات والظواهر السلبية بشكل عام والخمر والحشيش والمخدرات بشكل خاص، حيث كان يباشر تلك الأعمال ويقوم بحملات تفتيشية للأماكن المشبوهة وأوكار الفساد، ويطبق الحدود على الجناة بنفسه، ذلك مما جعل عصره يتسم بالاستقرار والوقار والبعد عن اللهو والمجون وقلة الفساد،^(٤) وقد سار على نهجه البعض من السلاطين في محاربة الخمر

(١) الصفدي: أعيان العصر، مصدر سابق، ج ٢، ص ٩١.

(٢) المقرئزي: الخطط، مصدر سابق، ج ٢، ص ٥٢١.

(٣) ابن دانيال: مصدر سابق، ص ٩٠.

(٤) عاشور: سعيد عبدالفتاح، الظاهر بيبرس، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، د.ت، ص ٦٢.

والمخدرات، على الرغم من تناقض سلوكهم وأفعالهم أحياناً، حيث كانوا يتعاطونها ويحاربونها في الوقت نفسه، أمثال السلطان المؤيد شيخ المحمودي الذي عُرف بمعاقرته للخمر، بيد أنه قام بالعديد من الإصلاحات الاجتماعية وتأتي في مقدمتها محاربته للخمر والحشيشة حيث أبطل ضمانها وأمر بإراقة وحرق كميات كبيرة منها، وهدم أوكار الفساد وعمل على تطهير المجتمع منها في جميع أنحاء السلطنة،⁽¹⁾ وبفضل جهود ومساعي طائفة من فضلاء العلماء والفقهاء ورجال الدين من المعممين وبعض صلحاء وأتقياء أمراء المهاليك الذين كان لهم دور فعال ومؤثر في قرارات وتوجهات البعض من السلاطين تم إصدار العديد من المراسيم والأوامر السلطانية بمحاربة ومنع الخمر والمخدرات بالبلاد، أمثال السلطان قايتباي الذي أصدر مرسوماً بمنع بيع وتداول وتعاطي الخمر والمخدرات بأراضي السلطنة، وكذلك فعل السلطان الغوري في سنة 1504م حيث أمر بإراقة الخمر ومنع بيعها،⁽²⁾ ثم أصدر مرسوماً آخر أمر فيه بتطهير المجتمع من الفساد الأخلاقي الذي استشرى في البلاد فمنع بيع وتداول الحشيش والبوظة وبقية أنواع المخدرات، كما منع البغايا من ممارسة الرذيلة وعمل الفاحشة وشدد في العقوبة على كل من يخالف ذلك،⁽³⁾ وقد أصدرت العديد من المراسيم السلطانية بمنع أهل الذمة من بيع الخمر والمسكرات للمسلمين وعدم معاقرتها معهم،⁽⁴⁾ وقامت الدولة بحملات عديدة وكبست على بيوت النصارى وأتلفت ماها من خمر ومسكرات،⁽⁵⁾ كما منعت التجار والوافدين الأفرنج من جلب الخمر إلى الاسكندرية،⁽⁶⁾ وألزمتهم بإتلاف وإراقة ما جلبوه معهم أو إرجاعه إلى بلادهم،⁽⁷⁾ إلا أن ذلك لم يكن يدوم طويلاً فسرعان ما يُرفع الحظر ويرجع التجار الأفرنج والوافدون إلى جلب الخمر والمسكرات إلى مصر أو تصنيعها داخلياً نسبةً للأرباح المادية

(1) عاشور: العصر المملوكي في مصر والشام، مرجع سابق، ص 187.

(2) ابن الأخوة: معالم القرية في أحكام الحسبة، مصدر سابق، ص 21.

(3) ابن إياس: مصدر سابق، ج 4، ص 303.

(4) السخاوي: التبر المسبوك، مصدر سابق، ج 3 ص 229.

(5) عبدالباسط الظاهري: مصدر سابق، ج 2، ص 155.

(6) المقرئزي: السلوك، مصدر سابق، ج 2، ص 647.

(7) ابن حجر: إنباء الغمر، مصدر سابق، ج 3، ص 405.

العالية التي تدرها هذه التجارة على الدولة والتجار،⁽¹⁾ وكذلك كان الحال في الشام حيث أصبحت المجاهرة بالمعاصي وشرب الخمر والحشيشة والبغاء واللواط أمراً مألوفاً لدى الناس، حتى إن البعض من عليّة القوم ورجال الدولة قد خصصوا لأنفسهم خمرات وأماكن خاصة للهو والمجون، إلا أنّ الصلحاء من الحكام والنواب ورجال الدين والقضاة لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام تلك الأعمال المخالفة للدين ومكارم الأخلاق، فأزالوا الكثير منها وهدموها بمساعدة الشرفاء من العوام، كما حدث في سنة 913هـ/1507م عندما قام نائب دمشق برفقة البعض من القضاة والمشايخ وجمع من الأهالي فأبطلوا الخمرات وأغلقوها وأراقوا ما بها من خمور ومسكرات،⁽²⁾ واستمر الحال على هذه الشاكلة بين صحوة وهفوة حسب توجهات السلاطين وتكوينهم ومستوى تدينهم وحزمهم في شأن محاربة الفساد الأخلاقي لاسيما الخمر والمخدرات حتى زوال سلطانهم على يد بني عثمان في مطلع القرن السادس عشر الميلادي.

3.2 الفساد الأخلاقي ودوره فيه إثارة الفتن والاضطرابات الداخلية أواخر عهد المماليك الجراكسة:

3.3.1 فساد العُربان وحركات عصيانهم وتمردهم على الدولة:

وهم يمثلون القبائل البدوية التي تسكن في بوادي مصر والشام، وقد كثرت حركات عصيانهم وتمردهم على السلطنة في تلك الأنحاء التي عاثوا فيها الفساد لاسيما إبان فترات ضعف الدولة وفي أواخر أيامها، حيث كانوا يشكلون خطراً على القوافل التجارية والمسافرين بين المدن والأقاليم داخل البلاد، فأصبحوا مصدر قلق وإزعاج للناس وقد أرقوا الدولة وكبدوها المشاق في إخماد حركات عصيانهم وتمردهم عليها، لاسيما في أوقات الجوائح والمجاعات والقحط والطواعين التي تصيب البلاد من حين لآخر، متهزئين بحالات الاضطراب والفوضى التي تعم البلاد وقتئذ فيهجمون على الأراضي الزراعية القريبة منهم

(1) الحسيني: نجلاء مصباح عبدالعال، المكوس في مصر عصر سلاطين المماليك «923 - 648هـ/1250 - 1517 م»، رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة المنصورة/ كلية الآداب، 2017م، ص 213.

(2) العليبي: دمشق بين المماليك والعثمانيين، مرجع سابق، ص 139.

ويقومون بنهب وسلب كل مايقع بين أيديهم من غلال ومواشي وغيرها من ممتلكات الفلاحين،⁽¹⁾ علاوة على ممارستهم لعادة قطع الطريق على الناس لاسيما الطرق التي تمر بها القوافل التجارية، ولا يتم ذلك إلا بتدبير وموافقة من أمراء العرب وهم زعماء القبائل المخولين من قبل الدولة لرعاية شؤون قبائلهم والحفاظ على استقرارها وضمان ولائها للسلطان،⁽²⁾ وذلك مقابل إقطاعات وأموال تهبها لهم الدولة لتستميلهم وتسترضيهم بها، بيد أن جل هؤلاء الأمراء قد عُرفوا بسوء الخلق والفساد والجهل، فبمجرد أن يشعروا بضعف السلطان و اضطراب أحوال الدولة داخلياً حيث يعتبر ذلك نذيراً بانقطاع إعطياتهم أو تأخرها، فينقلبون على السلطان ويقطعون حبال المودة والولاء التي كانت بينهم، ثم يشرعون في التسلط على ممتلكات الناس ويتهكون حرمااتهم ويسفكون دماءهم بغياً وعدواناً بغير وجه حق،⁽³⁾ ويفرضون الأتاوات على العوام والقوافل التجارية التي تمر على الطرق التي يسيطرون عليها، علاوةً على غاراتهم⁽⁴⁾ المستمرة على القرى المجاورة لهم وتشريد الكثير من الفلاحين والأهالي عن مزارعهم وقراهم بالشام،⁽⁵⁾ ومهاجرتهم لقوافل الحجيج،⁽⁶⁾ وإيوائهم للمخالفين والخارجين على السلطان من الأمراء والمماليك، وقد

(1) الأسدّي: محمد بن محمد بن خليل، التيسير والاعتبار والتحرير والأخبار فيما يجب من حسن التدبير والنصيحة في التصرف والاختيار، تحقيق عبدالقادر محمد عليان، دار الفكر العربي، القاهرة، 1976م، ص 97.

(2) والغريب في الأمر أن من مهام أمراء العرب هؤلاء تأمين الطرق وحماية القوافل من غارة البدو وقطاع الطرق، علاوةً على تكليفهم بالمشاركة في حماية حدود السلطنة وأطرافها، وتربية الخيول الأصيلة وتقديمها للسلاطين حيث يتم اختيار المراكب السلطانية وخيول البريد منها. العمري: شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق كامل الجبوري ومهدي النجم، دار الكتب العلمية، بيروت، 2010م ص 69.

(3) السبكي: معيد النعم، مصدر سابق، ص 54.

(4) وكانت هذه الغارات منظمة حيث يهجمون على الأسواق والدكاكين والحوانيت على شكل مجموعات كبيرة، وقد يتجاوز عدد أفراد كل مجموعة المائة شخص ما بين راكب وراجل مسلحين بالنشاشيب والسيوف والقسي وغيرها من الأسلحة، فيعثون الفساد في الأرض يسرفون في السلب والنهب وسفك الدماء. العليمي: مصدر سابق، ج 2، ص 285.

(5) الأسدّي: مصدر سابق، ص 91.

(6) وفي أواخر القرن الخامس عشر الميلادي وبعد أن تفشى الضعف والفساد في جميع مفاصل الدولة، حتى عجزت عن حماية قوافل الحجيج التي كثر تسلط العُربان عليها بالنهب والسلب والقتل دون تمييز بين =

استفحل أمرهم وازدادت قوتهم حتى إنهم بدأوا في التدخل في شؤون الدولة وسياستها الداخلية،⁽¹⁾ ولحسم تلك الفوضى وحركات التمرد والعيصان التي يقوم بها العُربان تضطر الدولة لإرسال حملات عسكرية للقضاء عليها في أسرع وقت قبل أن يعظم أمرها ويستعصي إخمادها، حيث يتخذ العُربان من الأراضي الزراعية والإقطاعات التي يغيرون عليها ميادين للصراع المسلح الذي يقع بينهم وبين العساكر السلطانية، وذلك مما يتسبب في إفساد الزرع والضرع وإهلاك النسل والحراث، فتتفاقم الأزمات والمجاعات والضوابط المعيشية،⁽²⁾ وحيث ترتفع الأسعار و ينتشر الغلاء، وتكثر حالات السرقة والنهب في الأسواق وغيرها من الظواهر السلبية والفساد التي تحل بالمجتمع آنئذ.

3.3.2 فساد طائفة المماليك الجلبان وحركات تمردهم وأثرها في المجتمع وإضعاف وتفكك الدولة داخلياً:

تزايدت حركات تمرد طوائف المماليك وثوراتهم على السلاطين لاسيما إبان النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي، حيث شاخت الدولة وبدت عليها مظاهر الوهن والانحلال، وقد تمحورت أسباب تمردهم وعصيائهم حركات حول طلب المال والزيادة في الأعطيات والإقطاعات، أو من أجل السلطة وبسط النفوذ وتوسيع الصلاحيات، ولم يتورع المماليك في سبيل تحقيق تلك الغايات من اتباع كافة السبل حتى وإن كانت تتنافى مع الأخلاق ومبادئ الشريعة الإسلامية،⁽³⁾ فكانوا يقدمون مصالحهم الشخصية على مصلحة

= الرجال والنساء والأطفال بلا رحمة ولا مراعاة لحرمة دماء المسلمين لاسيما حجاج بيت الله الحرام، وبسبب هذه الهجمات المتكررة قيل إن قوافل الحجيج الشامية تعطلت عن المسير إلى الحجاز لمدة عشر سنوات، ولم تنتظم من جديد إلا في عام 1508م وذلك بعد أن حصلوا على موافقة من أمراء العُربان بذلك. المقرزي: السلوك، مصدر سابق، ج 1، ص 699.

(1) المقرزي: السلوك، مصدر سابق، ج 1، ص 699.

(2) ابن طولون: شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الصالحي، نقد الطالب لزغل المناصب، تحقيق محمد أحمد دهمان وآخرون، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1992م، ص 85.

(3) وقد بلغ الفساد بهم أن بعضهم كانوا يأخذون رواتبهم مضاعفة ويصرفون رواتب بأسماء أولادهم دون أن يكون لهم أولاد أصلاً أو يزيدون في عددهم زوراً حتى يُزاد لهم في الرواتب، ولا يتم لهم ذلك إلا بعد أن يبرطلوا الموظف المسؤول عن الرواتب في ديوان الجند. ابن الصيرفي: انباء المصير، مصدر سابق، ص 32.

الجماعة بل ويتعدون على حقوق الآخرين ولا يتورعون عن أكل المال العام والتعامل بالبذل والرشوة في جميع معاملاتهم،⁽¹⁾ وقد استغلوا فترات الجوائح والأوبئة والمجاعات التي أرهقت البلاد والعباد، حيث تدهورت الأوضاع الاقتصادية في الدولة وضاعت الأحوال المعيشية على الرعية، فما صبروا على ذلك البلاء ولم يطيقوا فراق حياة الترف والبذخ التي ألفوها منذ نزولهم بالطباق السلطاني، لاسيما طائفة الجلبان من المماليك السلطانية الذين فشت فيهم الخيانة وقلة الولاء وفساد الأخلاق، فلم يقفوا عند حد المطالبة بجوامعهم فقط بل طالبوا بالزيادة فيها على الرغم من علمهم بسوء الأوضاع الاقتصادية في الدولة، وكانوا عندما يبلغهم أحد السلاطين بعجز الدولة عن ذلك وخلو الخزانة من المال، مباشرة يعلنون عليه العصيان والتمرد عليه، فيهجمون على بيوت الأمراء ومخازنهم التي يحفظون بها الغلال فينهبونها، كما أنهم لا يتورعون عن سلب العوام وكبار وصغار التجار ونهب الأسواق والخوانيت فيلحقون بهم الخسائر الفادحة،⁽²⁾ بل إن الناس لم يسلموا من ظلم الجلبان وغاراتهم حتى في أوقات صفاهم مع السلاطين، ومن فساد أخلاقهم وطمعهم أنهم كانوا ينهبون كل ما يحتاجون إليه من طعام وأعلاف وغيرها من المستلزمات عند مرورهم بالمدن والقرى أثناء التجريدات والحملات العسكرية من الأسواق دون مقابل، على الرغم من امتلاكهم لأثمان تلك المستلزمات حيث يقبضون من السلطان أموال النفقات مقدماً قبل بدء مسير الحملة، إلا أن أنفسهم الدنيئة وأخلاقهم الفاسدة كانت توزمهم على القيام بتلك الأفعال المشينة التي اعتادوا عليها، ولا يكتفون بذلك فقط فيقومون بختف نساء الأهالي وغلماهم فيزنون ويلوطون بهم في الطرقات، ويشربون الخمر وغيرها من صنوف المسكرات ولا يتركون شيئاً من المعاصي والمفاسد إلا ارتكبوها،⁽³⁾ فيدخلون الرعب والخوف في نفوس الناس على أرواحهم وأهليهم وأموالهم من شدة بطشهم وفسادهم، وذلك مما يجعل التجار يججمون عن فتح محلاتهم فتتعطل مصالح الناس، وترتفع الأسعار

(1) زيان: حامد، الأزمان الاقتصادية والأوبئة في عصر سلاطين المماليك، المكتبة العالمية، القاهرة، 1976م ص92.

(2) ابن طولون: مفاكهة الخلان، مصدر سابق، ج1، ص102/221.

(3) ابن إياس: مصدر سابق، ج3، ص319.

ويتوجس الناس من ظهور المجاعات وما يتبعها من فتن وأمراض،⁽¹⁾ ولم يكن موقف الدولة والسلطات من ذلك كله يتعدى الأمر بأن يُنادى في الناس بإغلاق الأسواق وحبس النساء والأطفال في البيوت وتأمين الدواب حرصاً على سلامتهم من معرة العساكر السلطانية،⁽²⁾ حيث أصبحت ظاهرة الظلم عادةً من عادات المماليك وسلاطينهم وجميع منسوبي دولتهم من أمراء ونواب وأجناد وغيرهم،⁽³⁾ وقد استفحل أمر الجلبان في عهد السلطان قانصوه الغوري الذي حاول تخفيف حدتهم وضبطهم ومنعهم من التعدي على حقوق الناس، فأمر بأن ينادى في القاهرة بأن لا يُظلم أحدٌ من الرعية، وأن لا يُؤخذ منهم شيء بغير وجه حق، ومن ظلم منهم فعليه بأبواب البيوت الشريفة حتى يرد له حقه، ففرح الناس ودعوا له بالخير، إلا أن ذلك لم يتم وظل الحال على هو عليه من فساد وظلم، فأصيب الناس بخيبة أمل،⁽⁴⁾ حيث تزايدت أعداد الجلبان واستكثر منهم السلطان وقربهم منه لكسب ولائهم وحماية نفسه وسلطانة، وكان يتغاضى ويعفوا عنهم ويسامحهم في الكثير من أعمالهم اللا أخلاقية، ولم يتخذ سياسةً حاسمةً في التعامل معهم لكي يضمن ولائهم وعدم تمردهم عليه،⁽⁵⁾ ومن أشد حركات التمرد التي قام بها الجلبان تلك التي كانت في سنة 1497م وقد استمرت لمدة عام كامل حيث عجزت الدولة عن ضبطهم فكثرت استخفافهم بالأمراء والسلطان نفسه، وعاثوا في الأرض الفساد فنهبوا بيوت الأمراء وبيوت العوام من المسلمين وأهل الذمة وهاجموا الأسواق ونهبوا الأقوات والأقمشة من الدكاكين ولم يسلم منهم موضع حتى الأوقاف والمدارس نهبوا وأحرقوا ودمروا أجزاءً كثيرةً منها،⁽⁶⁾ وكانوا

(1) ابن تغري بردي: مصدر سابق، ج4، ص95-94.

(2) ابن طولون: مفاكهة الخلان، مصدر سابق، ج1، ص221-102.

(3) برغوت: عبدالودود، جوانب اجتماعية من تاريخ دمشق في القرن الخامس عشر من مخطوطة أحمد بن طوق، المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، 1974م، ص399. وأحمد بن طوق (915هـ/1509م)، هو من كبار المحدثين المشهورين الذين عاشوا في بدمشق إبان العصر المملوكي.

(4) ابن إياس: مصدر سابق، ج4، ص134.

(5) الكرمي: زين الدين مرعي بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد المقدسي، نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين، دار النوادر، دمشق، د.ت، ص155.

(6) وقد فعلوا ذلك مجدداً في عام 1500م حيث هجمت جماعة من الجلبان على بيت كاتب السلطان وولي القاهرة والمحاسب ونهبوا كل ما فيها من متاع وطعام، ولم تتمكن الدولة من كبحهم أو ردعهم ومعاقبتهم على ذلك لشدة ضعفها وفسادها آنذ. ابن إياس: مصدر سابق، ج4، ص16.

يتعرضون للفقهاء ورجال الدين من المعممين بالتهكم والكلام البذيء والرجم بالحجارة أحياناً وخطف عمائمهم وإلقاء القاذورات عليهم،⁽¹⁾ ولكثرة ظلمهم وإضرارهم بالخلق كان الناس يفرحون إذا ما وقعت فتنة أو نشب بينهم صراع أو تم عزل أحدهم أو موته أو أي شيء يجعل كيدهم بينهم فيشغلهم عن ظلم الرعية ولو لحين،⁽²⁾ حيث وقع الناس بين حجري رحي بطش الجلبان وضعف وظلم السلطان فعندما يثور الجلبان يلجأ السلاطين لأخذ أموال الرعية بالباطل ويضاعفون الضرائب والأتاوات ويفرضون أخرى جديدة ويأمرون بجبايتها مقدماً لعدة أشهر لسد عجز خزانة الدولة وصرف رواتب الجلبان واتقاء شرهم مخافة تمردهم،⁽³⁾ كما فعل السلطان قانصوه الغوري عندما أمر بجمع ضرائب ومكوس عشرة أشهر مقدماً من جميع أصحاب الحوانيت والتجار والحمالين وأصحاب دواب النقل والسفن بل حتى خدم القصور والأوقاف الخيرية لم تسلم من ذلك، علاوة على مضاعفتها والتلاعب في وزن العملة وزغلها بالنحاس وغيره من المعادن الرديئة،⁽⁴⁾ إضافة إلى بعض الضرائب اليومية التي كانت تُجبي أحياناً مرتين في اليوم من قبل جهتين مختلفتين يتبعن للدولة، فضج الناس ولم يقبلوا بذلك إلا أنه لم يجد نفعاً مع المماليك وسلاطينهم،⁽⁵⁾ وقد وصف ابن إياس حال الناس شعراً بعد النشر فقال:

لما جبوا أملاك مصر والقرى في عام سبع مَضْنَى الإهلاك
الله أكبر ياله من حادث قد ضج منه الأرض والأملاك⁽¹⁾

(1) نفسه: ج3، ص400-388.

(2) ابن العماد: مصدر سابق، ج7، ص164.

(3) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، مصدر سابق، ج16، ص367.

(4) ابن إياس: مصدر سابق، ج5، ص90-89.

(5) بل أن كل من يعارض هذه القرارات ويتلصقاً في دفع الأتاوات للدولة تتم معاقبته بأشد أنواع العقاب التي قد تصل إلى حد القتل أحياناً، كما فعل نائب حلب مع رجل من العوام لم يدفع ما فرض عليه من ضريبة فأمر بشنقه على الملأ في سنة 911هـ/1505م. الهنداوي: هنادي زعل مسعود، السلطان قانصوه الغوري ونهاية دولة المماليك «923-906هـ/1517-1500م»، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، كلية الآداب/ قسم التاريخ، 2002م، ص60.

(6) ابن إياس: مصدر سابق، ج4، ص17-16.

وذلك بعد أن تبين وهن الدولة وعجزها عن مكافحة تلك التمردات وكبح رغبات الجلبان وأطماعهم، حيث أشد حرص السلاطين على إرضائهم خوفاً من انقلابهم عليهم، علاوةً على حاجتهم إليهم في حماية سلطانهم من خطر طوائف المماليك السابقة والأعداء الخارجيين، فصارت الدولة تحميهم وتمنع الناس من التعرض لهم مهما فعلوا، وقد أصدرت الأوامر السلطانية بذلك في سنة 921هـ/1515م، حيث نُودي بالقاهرة بألا يتعرض عوام الناس ولا التجار للمماليك السلطان، ولا يبهدلوا ولا يُمسك لأحدٍ منهم لجام فرس ومن فعل ذلك من الرعية قُطعت يده،⁽¹⁾ ولكي يضمن السلاطين ولاء مماليكهم الجدد أي الجلبان، كانوا يُغدقون عليهم بالمال الوفير ويجزلون لهم العطاء ويخصونهم بالوظائف والرتب العليا والإقطاعات الكبيرة دون غيرهم من طوائف المماليك الأخرى، فأضحوا من أغنى طوائف المماليك وأرغداهم عيشاً، وأشداهم إسرافاً وتبذيراً للمال العام، يستأثرون بخيرات البلاد ويتنعمون بثرواتها هم وسلاطينهم،⁽²⁾ ويكثرون الذهب والفضة ونفائس الأحجار الكريمة في دورهم وقصورهم الفارهة،⁽³⁾ ولكن على الرغم من ذلك كله إلا أن أطماعهم لم تقتصر عند هذا الحد، فقد سعوا إلى توسيع صلاحياتهم حتى أصبحوا يتدخلون في جميع شؤون السلطنة الداخلية والخارجية، بما في ذلك تعيين النواب وحكام الأقاليم، وذلك كما فعلوا مع السلطان إينال⁽⁴⁾ عندما أرغموه على عزل أمير قبرص واستبداله بآخر ممن يرضونهم، وقد بلغ بهم الطمع أن يقتلوا أسانذتهم أحياناً أي السلطان نفسه من أجل الحصول على السلطة والمال،⁽⁵⁾ وذلك مما أدى إلى انتشار الفوضى وانقسامات فيما بينهم

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، مصدر سابق، ج 16، 96.

(2) وكما أورد المقرئ وهو الشاهد على العصر فقال: «... فصارت كل أراضي مصر والشام تحت أيديهم تُقطع للسلطان وحاشيته من الأمراء والأجناد...». الخطط، مصدر سابق، ج 1، ص 156.

(3) دهمان: محمد أحمد، ولادة دمشق في عهد المماليك، دار الفكر المعاصر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1987م، ص 177-176.

(4) هو السلطان الملك أبو النصر سيف الدين إينال بن عبدالله العلائي الظاهري، من مماليك الظاهر برقوق، اعتلى سدة السلطنة بالديار المصرية في عام 857هـ، وهو السلطان الثاني عشر من سلاطين الجراكسة، السادس والثلاثون من سلاطين المماليك بصفة عامة، توفي في عام 865هـ. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، مصدر سابق، ج 16، ص 368.

(5) كما حدث في عام 762هـ حيث قام الأمير سيف الدين يلغا الخاصكي بقتل أستاذه السلطان الناصر =

دخلت طائفة الجلبان وأخذت كل جماعة تتجسس على الأخرى وتكيد لها، وكانوا إذا مرض أحدهم أو حل به مكروه يسرعون لأخذ ماله وإقطاعه دون حياءٍ لا خوف من السلطان أو المجتمع،⁽¹⁾ وهكذا ظل الجلبان خطراً دائماً يهدد الأمن والاستقرار الداخلي بدولة المماليك حتى سقوطها على يد العثمانيين في مطلع القرن السادس عشر الميلادي.⁽²⁾

= حسن بن محمد بن قلاوون، الذي عُرف بالطمع وسوء السيرة والخُلُق، وتضييقه على الناس في معاشهم، ولم يتجرأ أحد من العلماء والقضاة والصُلحاء بتقديم النصح له أو إنكار ذلك عليه، حتى سلط الله عليه أحد خواصه أي الأمير يبلغا الذي نازعه على السلطة فانتزعها منه وقتله. ابن كثير: البداية والنهاية، مصدر سابق، ج 14، ص 278.

(1) وكان المماليك في أواخر أيامهم كما وصفهم مؤرخ عصرهم وابن جنسهم ابن تغري بردي قائلاً: «... وليس لهم صنعة سوى نهب البضائع، يتقنون على الضعيف ويشرون حتى في الرغيف، جهادهم الإخراق بالرئيس وغزوهم في التبن والدريس وحظهم مُنقَم ولا مروءة لهم والسلام». النجوم الزاهرة، مصدر سابق، ج 7، ص 329.

(2) عاشور: المجتمع المصري في سلاطين المماليك، مرجع سابق، ص 33.

الفصل الرابع

الأوضاع الاجتماعية والأخلاقية في الأناضول وأثرها في العلاقات العثمانية المملوكية أواخر عهد الجراكسة

4.1 التركيبة الاجتماعية في الأناضول وطبيعة تكوينها الأخلاقية والسياسية وأثرها في بؤادر العلاقات العثمانية المملوكية:

الأناضول أو آسيا الصغرى وهو مصطلح جغرافي يُطلق على المنطقة الغربية المتاخمة لأوروبا الشرقية من قارة آسيا، وهي شبه جزيرة حيث يحدها بحر إيجه من الغرب وبحر مرمرة ومضيق غاليبولي والبنفسور والبحر الأسود من الشمال والبحر الأبيض المتوسط وبلاد الشام والعراق جهة الجنوب و آذربيجان وأرمينيا وبلاد فارس من الشرق، وتحاط هضبة الأناضول بسلاسل جبلية ضخمة فمن الجنوب بجبال طوروس ومن شمال بجبال الأناضول،⁽¹⁾ وتعتبر منطقة الأناضول من أقدم بقاع الأرض عمارةً على نطاق تاريخ البشرية منذ بدء الخليقة، نسبةً لتمييز موقعها وطبيعتها الجغرافية حيث توفر المياه وخصوبة التربة واعتدال المناخ نسبيًا، ذلك مما جعل منها بيئةً صالحةً للزراعة والرعي ومُلتقىً لطرق التجارة العالمية آنئذ، فاشتربت إليها أعناق الدول والممالك وتصارع الملوك والسلاطين للسيطرة عليها على مر العصور والأزمنة، وقد أثر ذلك في تركيبها السكانية حيث هاجرت إليها الكثير من الأعراق والأجناس لأسباب سياسية واقتصادية ودينية وأمنية وغيرها، فتكونت بها مجتمعات متباينة من حيث العادات والتقاليد والأعراف والمذاهب والأديان والتكوين

(1) محمد: نصار حسين، الموسوعة العربية الميسرة، ج1، المكتبة العصرية، بيروت، 2009م، ص451.

الفكري والأخلاقي،⁽¹⁾ ومن أهم هذه الشعوب والأعراق التي قطنت تلك المنطقة العرب والأكراد وقبائل التركمان الذين أسسوا بعض الممالك الصغيرة على تخوم بلاد الروم وهامش حدود دولة المماليك التي كانت تستمد شرعيتها وسلطانها من الخليفة العباسي وتحكم باسمه ذلك مما منح سلاطينها مكانة عالية ودرجة رفيعة في نفوس المسلمين وحكام الإمارات الإسلامية المجاورة لهم، فخضع لهم زعماء تلك القبائل والإمارات وأعلنوا لهم الولاء والطاعة، فكافأهم المماليك بأن أوكلوا إليهم حماية الثغور⁽²⁾ والعواصم⁽³⁾ الإسلامية المتاخمة لبلاد الروم آنئذ،⁽⁴⁾ إلا أن العلاقة بين زعماء هذه القبائل والإمارات بسلاطين المماليك كانت متأرجحة بين الولاء والتبعية والخضوع تارةً، والعصيان والتمرد والخروج عن طاعتهم تارةً أخرى،⁽⁵⁾ ومن أهم هذه الإمارات التركمانية إمارة بني رمضان⁽⁶⁾ وبني

(1) سنيوبوس: شارل، تاريخ حضارات العالم، تعريب: محمد كرد علي، العالمية للكتب والنشر، القاهرة، 2012م، ص 67-52.

(2) الثغور: جمع ثغر وهي الثلمة أو الفرجة وموضع الضعف من كل شيء، وهي كل موضع قريب من أرض العدو، وتطلق بصفة خاصة على المواضع الحدودية المتاخمة لبلاد الروم من الديار الإسلامية من جهة الشام. الجوزوري: علية عبد السميع، الثغور البرية والإسلامية على حدود الدولة البيزنطية في العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2006م، ص 15.

(3) العواصم: جمع عاصم أي مانع، وهي الحصون المنيعة التي شيدها المسلمون ليعتصموا بها من هجمات وغارات العدو بعد إياهم من الغزو وأراضي الثغور، حيث أحاطوا بها ما بين حلب وأنطاكية التي اتخذوا منها قصباً لهذه العواصم. الحموي: أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومي، معجم البلدان، ج 14، دار صادر، بيروت، 1995م، ص 165.

(4) فأوكلوا إلى الرمضانيين حماية طرسوس وطريقها على امتداد الثغور الشامية، كما أوكلوا إلى الدلغاديين حماية درب الحدث وما جوره على امتداد ثغور الجزيرة، واحتفظوا لأنفسهم بالحكم المباشر للمدن الممتدة ما بين طرسوس والفرات التي جعلوا عليها أميراً مملوكياً يُعين من قبل السلطان مباشرة، وذلك بغرض حفظ الأمن والتوازن بين القوى السياسية والعسكرية الداخلية والحدودية في تلك المنطقة. SHAI, HAR-EL: Struggle for domination in the Middle East, CE j. Beill, I Eiden, Newyork, 1995, p45.

(5) عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، مرجع سابق، ص 251.

(6) وهم من القبائل الأوجاقية التركمان الذين هاجروا من أواسط آسيا إلى الأناضول قبيل قيام دولة بني عثمان، وقد استقروا بمنطقة أذنه واتخذوا منها عاصمةً لإمارتهم الصغيرة التي أسسوها عام 1352م بزعامه رمضان بن يورغير الذي أعلن ولائه وتبعيته لسلطان المماليك، ثم شرعوا بالتوسع فشمّل حكمهم منطقة سبب وأياس وتوابعها، ولم تكن علاقتهم بالمماليك على حالة من الوفاق الدائم وإنما كانوا يناصرونهم حيناً ويناهضونهم حيناً آخر. القرمانى: مصدر سابق، ج 3، ص 340-339.

قرمان⁽¹⁾ وإمارة ذي القادر⁽²⁾ الذين بسطوا نفوذهم على منطقة مرعش⁽³⁾ وما حولها، وكانوا على علاقة وثيقة بسلطنة المماليك حتى عهد السلطان المؤيد شيخ المحمودي حيث اشتدت قوتهم بعد أن ضموا إليهم بعض الإمارات التركمانية المجاورة لهم مثل إمارتي الآق قوينلو⁽⁴⁾ والقره قوينلو⁽⁵⁾،⁽⁶⁾ فأصبحت هذه الإمارات الناشئة تشكل مصدر قلق لسلطين المماليك ولضمان استقرار حكمهم وفرض هيمنتهم على العالم الإسلامي كممثلين للخلافة

(1) بنو قرمان: وهي إمارة حدودية تقع بين الأراضي المملوكية والعثمانية، نشأت في أواسط القرن الثالث عشر الميلادي تحت ظل الدولة السلجوقية، بزعامة نوره صوفي وابنه كريم الدين قرمان واتخذوا من مدينة أرمناك عاصمة لهم، وبعد سقوط دولة السلاجقة أصبح ولائهم تارة إلى سلاطين المماليك وتارة إلى العثمانيين الذين تصاهروا معهم، وقد انتهى أمرهم بضم إمارتهم تحت لواء الدولة العثمانية في النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي. المحيميد: علي بن صالح، إمارة بني قرمان ودورها السياسي في آسيا الصغرى «888-654هـ / 1483-1256م»، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة والدراسات الإسلامية، عدد 1433، 55، ص 266-270.

(2) ذي القادر: وقد وردت بصيغ مختلفة في المصادر العربية والتركية والفارسية ومنها ذو القادر وذي لغادر وذو القدر وغيرها، وهم من القبائل التركمانية التي هاجرت إلى منطقة الأناضول إبان حملات الغزو المغولي على منطقة الشرق الأوسط وبلاد المسلمين، وقد أسسوا إمارتهم في سنة 1337م بزعامة الأمير زين الدين قراجه في منطقة مرعش وجعلوا من مدينة ألبستان عاصمة لهم، ثم بدأوا بالتوسع فيما حولهم وضموا الكثير من الأراضي المجاورة لهم مثل عينتاب وقيصري وملاطية وغيرها المدن، وقد أعلنوا تبعيتهم وولائهم للسلطان المملوكي لنيل شريعة حكم المناطق التي أصبحت تحت أيديهم، إلا أن علاقتهم لم تكن على وفاق دائم مع المماليك، إنما كانوا في حالة بين الشد والجذب كمثل بقية الإمارات الأناضولية. İsmail; Altınöz, Dulkadir Beylerbeyliğinin Teşekkülü Ve Gelişmesi, İstanbul 10-Üniversitesi, Sosyal Bilimler Enstitüsü, Yeniçağ Tarihi Bilim Dalı, 1995, s1.

(3) مرعش: وهي من مدن الثغور بين الشام وبلاد الروم، فتحها المسلمون مبكراً منذ عهد الخلافة الراشدة، وقد أعاد الأمويون إعمارها وترميم أسوارها وكذلك فعل العباسيون إبان حكم الخليفة هارون الرشيد. الحموي: مصدر سابق، ج 5، ص 107.

(4) الآق قوينلو: وتعني الخروف الأبيض، وهي أسرة تركمانية هاجرت من أواسط آسيا إلى الأناضول أثناء الغزو المغولي على بلاد خوارزم، وقد تعاونوا مع تيمورلنك إبان غزوه للشام والأناضول فمنحهم حُكم بعض الأراضي في أرمينيا وأعلى الفرات، وأستقر بهم المقام في منطقة ديار بكر حيث أسسوا إمارتهم السنوية بزعامة فخر الدين قره يلك عثمان واتخذوا من مدينة آمد عاصمة لهم سنة 1378م. طرخان: مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، مرجع سابق، ص 118-119.

(5) القره قوينلو: وتعني الخروف الأسود، وهي إمارة تركمانية شيعية نشأت في جنوب شرق الأناضول أسسها الأمير قره محمد تورمش سنة 1380م، وقد حكموا منطقة أذربيجان والعراق واتخذوا من تبريز عاصمتهم لهم، وقد دخلوا في صراع طويل مع الآق قوينلو انتهى بهزيمتهم وضم إمارتهم إلى الآق قوينلو. متولي: أحمد فؤاد، الفتح العثماني للشام ومصر، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1995م، ص 68.

(6) عبدالتواب: مرجع سابق، ص 139.

العباسية، كان لابد لهم من إخضاع هذه الإمارات والقبائل لسلطانهم وضمان تبعيتهم لهم، وقد تمكنوا فعلياً من تحقيق ذلك بإرسال حملات عسكرية لتأديب المتمردين والعصاة من الأمراء وزعماء القبائل واستبدالهم بمن يضمنون ولاءهم وطاعتهم لهم، إلا أن ذلك لم يدم طويلاً ولم يكن بشكل مستمر، حيث استغلت هذه الإمارات القبلية فرصة ضعف سلطنة المماليك التي أرهقتها الاضطرابات والفتن والصراعات الداخلية والأزمات الاقتصادية والجوائح التي أظهرت عجزها وضعفها عن فرض هيبتها وحمايتها لحدودها من الأخطار الخارجية، فدأبت هذه الإمارات على الاستقلال عن سلطان المماليك وسعت في التوسع والتمدد على حساب بعضها البعض تارةً، وعلى حساب الأراضي المملوكية جنوباً أو العثمانية والبيزنطية شمالاً تارةً أخرى،⁽¹⁾ وعلى الرغم من ذلك إلا أن المماليك لم يستسلموا وحاولوا جاهدين على إعادة توطيد سلطانهم على تلك المناطق بوضع حاميات عسكرية في المراكز والمواقع وذلك حسب أهميتها التجارية والسياسية،⁽²⁾ وبعد تفاقم الأزمات وتراكم الديون وتجلي العجز المالي والعسكري للسلطنة أضحى المماليك مجبرين على تقبل الوضع الراهن وقتئذٍ والتخلي عن العديد من المواقع لصالح الإمارات التركمانية والاكتفاء منهم بحماية الحدود فقط،⁽³⁾ فعظم شأن زعماء وأمراء تلك الإمارات حتى أصبح لا يفرق بينهم وبين سلاطين المماليك إلا باللقب والخلة،⁽⁴⁾ واستمر الحال على هذه الشاكلة حتى تمكن العثمانيون من جمع منطقة الأناضول كلها تحت سلطانهم وكذلك أراضي الدولة المملوكية بالشام ومصر في مطلع القرن السادس عشر الميلادي.

4.1.1 العثمانيون طبيعة تكوينهم الاجتماعي والأخلاقي وأثرها في سياستهم لتوحيد مجتمع الأناضول:

تميزت الدولة العثمانية منذ نشأتها الأولى بالطابع الجهادي الديني،⁽⁵⁾ الذي تمكنت من

(1) ابن إياس: مصدر سابق، ج2، ص55-40.

(2) زقلمة: أنور، المماليك في مصر، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995م، ص89.

(3) لايبندوس: مرجع سابق، ص75.

(4) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، مصدر سابق، ج13، ص107.

(5) ويستدل على ذلك بوصية السلطان المؤسس عثمان بن أرطغرل لابنه أورخان عندما حضرته المنية، =

خلاله بالتوغل في بلاد الروم وفتح العديد من مدنها وحصونهم ورفع رايات الإسلام عليها، وقد ركزوا على ترسيخ مفاهيم الدين والالتزام بها حتى في تكوين عساكرهم وجيوشهم، حيث كان القضاة والمفتون من العناصر الأساسية المكونة والمرافقة للجيش العثماني في حله وترحاله، للقضاء بين الناس وإصدار الفتاوى اللازمة إبان المسير أو عند دخول الأمصار وفتحها، ومن شدة اهتمامهم بهذا الأمر ابتكروا وظيفة قاضي العسكر⁽¹⁾ وهي من أهم وأرفع المناصب الإدارية والعسكرية في الدولة العثمانية طوال فترة حكمها، وكذلك كان حال الدولة ومجتمعها من الداخل حيث كانوا يهتمون بربط وتطبيق مفاهيم الدين الإسلامي على المجتمع والدولة وعدم تجزئة الشريعة أو الفصل بينها وبين مبادئ وأسس الدولة التي قامت عليها منذ النشأة الأولى، كما أنهم قد اهتموا بالتخلق بالأخلاق الإسلامية في جميع معاملتهم الخاصة والعامة لاسيما في معاملتهم مع الرعية والحرص على إحقاق حقوقهم والحفاظ على حرياتهم والقيام بما يجب تجاههم وإقامة العدل فيهم على اختلاف أعراقهم وأديانهم،⁽²⁾ ولقد كان لهذه السياسة الراقية والعادلة والتسامح الديني الذي أظهره العثمانيون من خلال معاملتهم للرعية لاسيما أهل الذمة منهم أثراً كبيراً في دخول الكثير من النصارى في الدين الإسلامي، بل والالتحاق بميادين الخدمة العسكرية الإدارية في بلاط الدولة العثمانية، ويتجلى ذلك في رقى سلوك وأخلاق السلطان محمد الفاتح في معاملته لأهل القسطنطينية وتسامحه معهم على الرغم من فتحه

= حيث أمره بالالتزام بشرع الله وسنة نبيه الكريم عليه الصلاة والسلام، والأخذ بالشورى في كل شؤون الدولة والعمل بها، كما أمره بإكرام الرعية والرحمة والترفق بهم واحترامهم وحفظ حقوقهم، وكذلك أوصاه بالجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الحق ونصرة المظلومين. جودت باشا: أحمد بن الحاج إسماعيل آغا، تاريخ جودت، ج 1، ترجمة عبدالقادر أفندي، مطبعة جريدة بيروت، بيروت، 1308هـ، ص 29-28.

(1) استحدثت هذه الوظيفة منذ عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وقد بلغت ذروتها في العصر العثماني ويأتي قاضي العسكر في المرتبة الثانية في الدولة بعد شيخ الإسلام من حيث الدرجة العلمية والوظيفية، ومن مهام قاضي العسكر إصدار الفتاوى والأحكام الشرعية وتعيين القضاة، وفي عهد السلطان محمد الفاتح جعلت هذه الوظيفة على قسمين قاضي عسكر الأناضول وقاضي عسكر الرومي. Kazıcı, Ziya, Osmanlı Devletinde Din ve Hukuk, Marmara Üniversitesi, 76-İlahiyet Fakültesi, İstem, Yıl 1, Sayı 1, 2003, s75.

(2) هريدي: محمد عبداللطيف، الحروب العثمانية الفارسية وأثرها في إنحسار المد الإسلامي عن أوروبا، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1987م ص 19-18.

للمدينة عنوةً، إلا أنه قد أحسن إليهم وأمنهم على أرواحهم وأعراضهم وممتلكاتهم ودور عبادتهم، وذلك مما رسخ جذور الإسلام في أوروبا الشرقية ووطد ثقافة التعايش السلمي والتسامح في نفوس الرعية من أهل الذمة حيب إليهم العيش تحت ظل الدولة الإسلامية العثمانية، حيث كان ذلك بخلاف ما ألفوه من سياسات التطهير العرقي والديني التي يمارسها الغزاة آنئذ، كما فعل متطرفوا نصارى الأسبان مع مسلمي ويهود الأندلس،⁽¹⁾ ولكن على الصعيد الداخلي لم تكن الأوضاع السياسية والاجتماعية في الأناضول مستقرة للعثمانيين بشكل دائم، وذلك مما كان يعيق حركة فتوحاتهم في بلاد الروم، حيث كان البعض من زعماء القبائل والإمارات التركمانية يستغلون فرصة انشغال العثمانيين بحروبهم مع الروم فيغيرون على ما جاورهم من الأراضي العثمانية، علاوة على ظهور بعض الفتن والانحرافات العقدية والأخلاقية التي بدأت تدب في أطراف الأناضول، فاستوجب على العثمانيين تأمين ظهورهم أولاً قبل المضي قدماً في استكمال فتوحاتهم ببلاد الروم، وقد انتهجوا أساليب عديدة في ذلك منها السلمية مثل المصاهرة والتزاوج مع الأسر الحاكمة وزعماء القبائل، كما فعل السلطان مراد الأول عندما قام بتزويج ابنه بايزيد الأول من ابنة أمير كرميان سليمان جلبي عام 1381م،⁽²⁾ حيث أصبح ذلك الزواج بمثابة عقد تحالف بين الطرفين وقد تنازل سلطان كرميان عن الكثير من أراضيه لصالح العثمانيين لكسب مودتهم والتقرب منهم أكثر وذلك بعد إدراكه بأن لا قبل له بمجاهتهم في ميادين القتال،⁽³⁾ ومن تلك السبل أيضاً التي اتبعها العثمانيون في ترسيخ سلطانهم بالأناضول نظام شراء الأراضي من أمراء الإمارة التركمانية الصغيرة، حيث تيقن أكثرهم بضعفهم وعدم قدرتهم على مجابهة العثمانيين ففضلوا كسب مودتهم والتقرب منهم ببيعهم أجزاء كبيرة من أراضيتهم، كما فعل

(1) Şener; Aktürk, Osmanlı Devletinde Dini Çeşitlilik, Farklı Olan Neydi? Doğu Batı Dergisi, Doğubank Yayınları, 2010, s138.

(2) أنيس: محمد، الدولة العثمانية والشرق العربي 1914-1415م، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ت، ص36.

(3) Sakaoğlu: Necdet, Bu Mülkün Sultanları, Alfa Basım Yayım San, İstanbul, 2015, s 60.

حسام الدين بن إلياس أمير إمارة بني حامد⁽¹⁾ حيث باعهم جُل أراضيهم بمنطقة سيديا المجاورة لإمارة بني قرمان وكان ذلك في عام 1377م، وبهذه الطريقة تمكن العثمانيون من ضم العديد من المدن والأراضي الواسعة في الأناضول سلماً من دون عناء ولا قتال،⁽²⁾ وقد دخل بعض زعماء وأمراء تلك القبائل والإمارات التركمانية في طاعة العثمانيين دون قتال وسلموهم زمام أمورهم رهبةً ورغبةً إليهم، كما فعل أهل قيصرية وطوقا وأقسراي ونكدة وذلك بعد أن رأوا الخدمات الجليلية التي يقدمها العثمانيون لرعاياهم علاوة على علو كعبهم واهتمامهم في حركة الجهاد والفتوحات الإسلامية التي كانوا يحققونها في أرض الروم،⁽³⁾ وكذلك فعل أهل مدينة سيواس عام 1396م بعد مقتل زعيمهم القاضي برهان الدين على يد أحد الخونة من أمراء التركمان الذين حالفوا تيمورلنك إبان غزوه للأناضول،⁽⁴⁾ فاستغاث أهلها بالسلطان بايزيد الأول وطلبوا منه تسليم المدينة فدخلها وأمنهم ورفق بهم وأحسن إليهم،⁽⁵⁾ ولكن ما لبث البعض منهم أن انقلبوا عليهم وذلك لاستيائهم وعدم تفهمهم لأخلاقيات السلاطين العثمانيين في معاملتهم مع النصاري بشيء من الرفق والإحسان،⁽⁶⁾ فكانوا يستغلون فرصة ابتعادهم عن الأناضول إبان حملاتهم

(1) وهم من القبائل التركمانية التي سكنت الأناضول إبان فترة حكم السلاجقة، وقد عملوا بالسياسة في خدمة السلاجقة وبعد انهيار دولتهم في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، أسس فلك الدين دوندار بك بن إلياس بن حامد إمارته الخاصة واستقل بحكم منطقة إغريد واسبارطة التي جعل منها عاصمةً له، وقد إمتد حكمهم إلى ماحولها من أراضي جنوب الأناضول. Üçok; Bahriye, Hamitoğulları. Beyliği, Ankara Üniversitesi, İlahiyat Fakültesi Dergisi, Cilt; IV, Sayı I-II, 1955, 74-s-75.

(2) نافع: مرجع سابق، ص 36.

(3) حسون: علي، تاريخ الدولة العثمانية، ط3، المكتب الإسلامي، بيروت، 1994م، ص 20.

(4) وقد اختلف العلماء في ديانة تيمورلنك فمنهم من نسبته أهل السنة من المسلمين ومنهم جعله من الشيعة ومنهم من أخرجه من الملة جملةً وتفصيلاً لسوء خلقه وصفاتها وما أرتكبه من مجازر ومظالم في حق المسلمين. العقيد: محمد أسد الله صفا، تيمورلنك، دار النفائس، بيروت، 1990م، ص 7-5.

ابن شاهين: مصدر سابق، ص 88.

(5) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، مصر سابق، ج 12، ص 179.

(6) ويمكن الاستشهاد على ذلك بقول المستشرق الإنجليزي جيبونز في وصفه للسلطان المؤسس عثمان: «... ولقد كان عثمان رجلاً غيوراً على دينه ورعيته، كما أنه كان شديد التسامح نبياً، وذلك مما جعله مكان احترام وإجلال لدي الجميع حتى عند أعدائه الذين كانوا سرعان ما يتحولون إلى أصدقاء أوفياء يتسابقون =

الجهادية في بلاد الروم فيلتفون حول زعماء بني قرمان بهدف استرجاع بعض أراضيهم التي ضمها العثمانيون لسلطانهم، فيضطر العثمانيون للرجوع إلى الأناضول وإيقاف حركة الفتوح لضبط هذه التمردات وإعادة استتباب الأمن في المجتمع والدولة ومعاينة الخارجين،⁽¹⁾ وهناك بعض الإمارات قد استعصت على العثمانيين فلم يتمكنوا من ضمها إلا بالقوة والحرب مثل إمارة صاروكان ومنتش وآدان وهي إمارات صغيرة تسيطر على بعض الأراضي المطلة على بحر إيجه،⁽²⁾ وعندما سمع العثمانيون بحملة تيمورلنك نحو الأناضول وبلاد الشام أدركوا حجم خطورة الأمر وما سيحل من خراب ودمار وفساد بالمجتمع الأناضولي على يد ذلك السفاح إن لم يعددوا العدة لمواجهة وصدّه، فهبوا لتنظيم صفوفهم وترتيب شؤونهم الإدارية والعسكرية وعقد تحالفات دفاعية مع دول الجوار، ومد نفوذهم لتوطيد سلطانهم على أكبر قدر ممكن من أراضي الأناضول لاسيما المواقع الاستراتيجية لتدعيم خطوطهم الدفاعية، وبتكرار مثل هذه الأحداث يُضطر العثمانيون للتقهقر والرجوع إلى الأناضول وتغيير سياساتهم العسكرية بين الفينة والأخرى، ذلك مما يعرقل ويشل نشاطهم الجهادي وفتوحاتهم بأرض الروم مخافة انقلاب البعض من الناقمين والحقادين عليهم من أمراء وزعماء القبائل التركمانية الذين لا يؤمن شرهم وغدرهم أو انضمامهم للأعداء والمتربصين بهم وضربهم من الخلف،⁽³⁾ وقد تمكن السلطان محمد جلبي وابنه مراد الثاني من ضم العديد من أراضي الإمارات الأناضولية تحت سلطانهم، ثم جاء نجلهم السلطان محمد الفاتح فخضعت له جُلُّ إمارات الأناضول عدا إمارة بنو قرمان ومدينة سينوب ومملكة طرابزون البيزنطية في منطقة البحر الأسود، ثم كان الفتح الأعظم

= في خدمته، وقد اعتنق الكثير منهم دين الإسلام بعد طول صداقتهم مع عثمان ووثيق علاقتهم به لكريم أخلاقه وصدق معاملته، أمثال الأمير ميخائيل وآله وآل ماركوزو وغيرهم، حيث أصبحوا من ضمن قاداته ورجاله المقربون يأتمرون بأمره على الرغم من أن البعض منهم كان يفوق عثمان نفسه من حيث الخبرة العسكرية..» والفضل ما شهدت به الأعداء. Gibbons: Herbert Adams, The Doundations of Ottoman Empire, London, 1968, p 52.

(1) مصطفى: أحمد عبدالرحيم، في أصول التاريخ العثماني، ط3، دار الشروق، بيروت، 1993م، ص 45.

(2) أوزتونا: يلماز، تاريخ الدولة العثمانية، ج1، ترجمة: عدنان محمود سلمان، مؤسسة فيصل للتموين، إستانبول، 1988م مرجع سابق، ص 103.

(3) المحامي: محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، دار النفائس، بيروت، 1981م، ص 49

لمدينة القسطنطينية حاضرة بلاد الروم، فغير ذلك الحدث الضخم مجرى الأحداث العالمية آنئذ كما تغيرت نظرة العالم الإسلامي للعثمانيين وكذلك العالم الأوروبي وكان ذلك في سنة 1453م، ظل العثمانيون متمسكين بمنطقة الأناضول باعتبارها قاعدتهم الأساسية ومكان سكنهم وبيئتهم الاجتماعية الأولى وبعد هجرتهم من أواسط آسيا.⁽¹⁾

4.2 العوامل الأخلاقية والاجتماعية وأثرها فيه العلاقات المملوكية العثمانية:

4.2.1 نشأة العلاقات المملوكية العثمانية وبوادر الخلافات والنزاعات

الحدودية:

اكتسبت سلطنة المماليك شيئاً من الرفعة والإجلال في نفوس الأمة وأمراء الممالك الإسلامية قاطبة، نسبةً لما قدمته من خدمات جليلة للأمة الإسلامية في بداية عهدها لاسيما مواقفها الجهادية والدفاعية في حماية الأمة من الغزو المغولي وإجلائها للصليبيين بشكل نهائي وطردهم من ديار الإسلام، علاوةً على إحيائهم للخلافة العباسية وتوحيد صفوف المسلمين بعد فرقةٍ وشتات، وبناءً عليه فقد كان العثمانيون مثلهم مثل بقية الإمارات والدويلات الإسلامية الناشئة ينظرون إلى المماليك بعين الإجلال والتقدير والاحترام، وكذلك كان المماليك ينظرون إليهم بعين العجب والارتياح والغبطة لما يحققونه من انتصارات وفتوحات في أرض الروم، بل إنهم كانوا يقيمون الاحتفالات ويدقون البشائر والطبول في القاهرة فرحاً بتلك الانتصارات العثمانية حيث لا يجعلونها حجراً على العثمانيين فقط وإنما هي نصرٌ للأمة الإسلامية كافة، ومن باب التقدير والاحترام كان العثمانيون كلما حققوا انتصاراً على الروم يرسلون بعض الهدايا والأسرى إلى سلاطين المماليك، بغرض مشاركة إخوانهم المسلمين بمصر والشام فرحة النصر، كما أن العلاقات بين العثمانيين والمماليك لم تكن محصورة في الجانب السياسي فقط، بل كانت هنالك روابط عرقية واجتماعية بينهم فإن جُل سلاطين الدولتين ينتمون إلى عرقٍ واحد وهو

(1) عباس إسماعيل، تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية، دار النفائس، بيروت، 1999م، ص 31.

العرق التركي،⁽¹⁾ علاوة على رابطة الإسلام وهي الأقوى فمن باب التعاون والتكامل الاجتماعي كان المماليك يقومون بتأمين قوافل الحجيج الأناضولية ومن ضمنها العثمانية في رحلتي الذهاب والإياب أثناء مرورها بأراضيهم، وكذلك كانت بينهم علاقات اقتصادية وتبادل تجاري حيث يستورد العثمانيون من الديار الشامية التوابل والحريز وغيرها من واردات الشرق المختلفة، كما يصدرون للمماليك الأخشاب والحديد وكل ما يستخدم في صناعة السفن،⁽²⁾ ووفق ما ذكره القلقشندي فإن بواصر العلاقات العثمانية المملوكية والمراسلات بينهم ترجع إلى عهد السلطان أورخان بن عثمان صاحب بُرسا أي مدينة بورصة، الذي كان يُلقب بسيف الدين من قبل نظرائه من الحكام والأمراء لحركته الدؤوبة في الجهاد والفتوحات، ويُخاطب بالأخ ويُدعى له بالمجلس العالي بعد التعريف باسمه عند سلاطين المماليك، وذلك بعد أن توسعت دولة بني عثمان وعظم شأنهم وارتفع قدرهم على كافة الإمارات التركمانية بالأناضول،⁽³⁾ وقد استمر الحال على هذا النهج في أيام السلطان مراد الأول بن أورخان الذي أولى أهمية خاصة بشأن توثيق علاقته مع دولة المماليك باعتبارهم القوى الإسلامية الكبرى وممثلي الخلافة العباسية آنئذ، وقد ابتدأت العلاقات والمعاملات الرسمية بينهم في عام 1366م بمبادرة السلطان مراد الأول ومراسلته للسلطان الأشرف زين الدين شعبان المملوكي، يعده فيها بتقديم الدعم والعون بالسفن الحربية لمساعدتهم في فتح جزيرة قبرص،⁽⁴⁾ وفي عام 1388م أرسل إلى السلطان برقوق وفداً محملاً بالهدايا وقد تزامن ذلك مع خروج تيمورلنك من تبريز إلى سمرقند وحلول الغلاء علاوة على تفشي الطاعون بالشام،⁽⁵⁾ وكذلك هذا السلطان بايزيد الأول حذو والده في توطيد الصلات مع سلاطين المماليك والتقرب منهم، لاسيما بعد أن احتل تيمورلنك العراق وشرع بالدخول إلى الشام ولاح خطره يهدد الأناضول

(1) الهنداوي: هنادي زعل مسعود، السلطان قانصوه الغوري ونهاية دولة المماليك «923-906هـ/ 1517-1500م»، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك/ كلية الآداب / قسم التاريخ، 2002م، ص 78.

(2) Winler, Micheal; Egyptin Society Under Ottoman Rule 1517-1798, London And New York, n.d, p 5.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، مصدر سابق، ج 8، ص 15-13.

(4) المقرئزي: السلوك، مصدر سابق، ج 4، ص 293.

(5) نفسه: ج 5، ص 205.

ومصر وكافة البلدان الإسلامية بشكل عام، فأرسل إلى السلطان برقوق يعرض عليه التعاون والإتحاد لتكوين جبهة إسلامية سنه تدفع خطر ذلك السفاح الجائر وكان ذلك في عام 1393م⁽¹⁾ وذلك بعد أن وقعت جفوة بين الطرفين بسبب بعض الخلافات الحدودية التي لم يطل أمدتها حيث بادر السلطان بايزيد الأول بالاعتذار وأرسل الهدايا إلى السلطان برقوق فقبل منه ذلك،⁽²⁾ إلا أنه لم يتجاوب معه في قضية التعاون والاتحاد وفضل الخروج بمفرده لمواجهة تيمورلنك، حيث لم يكن مطمئناً لتعاظم قوة العثمانيين وتوسعهم وطموحهم الزائد الذي قد يشكل خطراً عليه وعلى سلطنته فيما بعد،⁽³⁾ وبعد وفاة السلطان برقوق أعاد السلطان بايزيد عرضه على السلطان فرج⁽⁴⁾ بن برقوق، إبان حملة تيمورلنك الثانية على بلاد الشام والعراق وأطراف الأناضول سنة 1400م، إلا أن فرج وحاشيته قد رفضوا دعوة السلطان بايزيد الأول متحججين بمشكلة الخلافات الحدودية التي وقعت بينهم وبين العثمانيين متهمين السلطان بايزيد باستغلال فرصة وفاة السلطان برقوق واضطراب دولتهم داخلياً من بعده واحتلاله لمدينة ملطية التابعة للحماية المملوكية،⁽⁵⁾ بيد أن المصلحة كانت تقتضي الصلح والاتحاد والتعاون لدفع العدو المشترك فالماليك يحتاجون لعقل مدبر وقائد محنك مثل السلطان بايزيد وهو ينقصه العدد الوفير من الجند الأقوياء مثل العسكر المملوكية، وقد ارتكب الماليك خطأً فادحاً برفضهم لدعوة السلطان العثماني لتوحيد صفوفهم ضد

(1) عبدالباسط بن شاهين: نيل الأمل، مصدر سابق، ج2، ص165.

(2) وذلك لأن السلطان بايزيد قد أغار على منطقة قيصرية المشمولة بحماية الماليك إبان حركته التوسعية لضم بعض الإمارات التركمانية بالأناضول تحت سلطانه وكان ذلك في سنة 1391م. المقريري: السلوك، مصدر سابق، ج5، ص232-311.

(3) وعلى الرغم من استمرار التواصل وتبادل المراسلات بين الطرفين إلا أن السلطان برقوق لم يخف مخاوفه وعدم اطمئنانه لنوايا العثمانيين، وقد صرح بذلك قائلاً: «إني لا أخاف الكُفَّار، فإن الكل يساعدي عليهم وإنما أخاف من ابن عثمان». القرمانى: مصدر سابق، ج3، ص19.

(4) وقد وصفه السخاوي: بالظلم والطمع والفتك والتجبر على الخلق والتعدي على حرمان الخلق وأكل أموالهم بالباطل، والانهك في شرب الخمر والملاذات والشهوات. الضوء اللامع، مصدر سابق، ج6، ص168.

(5) وقال أمراء الماليك: «آلآن صار صاحبنا؟!»، وحينما مات أستاذنا السلطان الظاهر برقوق مشى على أرضنا وبلادنا، فأخذ ملطية من عاملنا، والله ما هو لنا بصاحب، فليقاتل هو عن بلاده ونحن نقاتل عن رعيتنا وبلادنا». ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، مصدر سابق، ج12، ص217.

تيمورلنك، ويعزى ذلك إلى قصور في الفكر السياسي وضعف في الوازع الديني عند المماليك، وجهل السلطان فرج وحادثة سنه وعدم قدرته على ادراك خطورة الأمر،⁽¹⁾ علاوة على تضليل الأمراء له وتحاذهم وانشغالهم بصراعاتهم الداخلية حول السلطة والإمارة وكيدهم لبعضهم البعض وخيانتهم للرعية بتقديم مصالحهم الشخصية على مصلحة الأمة والجماعة، على الرغم من أن نواب بلاد الشام قد أرسلوا إلى السلطان فرج بمصر مستنجدين به ومنبهين له بخطر تيمورلنك الذي شرع في اجتياح المدن الشامية وخرب ودمر الكثير منها، إلا أن السلطان وحاشيته كانوا في فسادهم وطغيانهم يعمهون منشغلون بشرب الخمر ومجالس الطرب واللهو والمجون،⁽²⁾ ذلك مما اتاح لتيمورلنك فرصة ذهبية في ضرب المماليك والعثمانيين كل واحد على حدة،⁽³⁾ فهزم المماليك في الشام واحتل قصبتها وسُدة حكمها دمشق في سنة 1401م وعاث فيها الفساد وأهلك الحرث والنسل والعباد،⁽⁴⁾ ثم تحول إلى الأناضول لمواجهة خصمه الآخر السلطان العثماني بايزيد الأول الذي ألحق به أيضاً هزيمة نكراء وأسر في معركة أنقره سنة 1402م فمات كمدماً في الأسر وبموته كان سقوط الدولة العثمانية الأولى، وظل تيمورلنك شبحاً يخلق في سماء الأناضول وبلاد الشام حتى وفاته 1405م،⁽⁵⁾ من الآثار السلبية التي خلفها الغزو التيموري في المجتمع الإسلامي على وجه العموم والتي امتد تأثيرها على مدى طويل، توسيع الفجوة بين الإمارات الإسلامية وغرس بذور الشك والأحقاد بينهم، باستقطاب ضعفاء النفوس وسيئي الخلق من أمرائهم وزعمائهم لجانبه، حيث وزع عليهم تركة آل عثمان وأجزاء من الأراضي المملوكية وغيرها مما احتله من بقاع الأناضول والشام،⁽⁶⁾

(1) الشيباب: حامد إبراهيم، العلاقات السياسية بين المماليك والجراسية والعثمانيين في مصر وبلاد الشام «1383-1517 / 923-784م»، رسالة ماجستير غير منشوره، جامعة القديس يوسف / كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1995م، ص 14.

(2) سليمان: أحمد عبدالكريم، تيمورلنك ودولة المماليك الجراسية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1985م، ص 28.

(3) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، مصدر سابق، ج 218-217، ص 12.

(4) ابن عريشاه: مصدر سابق، ص 116.

(5) الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان، مصدر سابق، ج 2، ص 159.

(6) وقد حاول هؤلاء الأمراء انتهاج نظام حكم جديد مبني على الاستقلال عن سلطتي المماليك والعثمانيين، لاسيما أمراء بنو قرمان ودلغادر الذي تشددوا في ذلك إلا أن السلطان المؤيد شيخ المحمودي =

علاوةً على دخول الكثير من العادات السلبيّة في المجتمع الأناضولي لاسيما بواذر التشيع وأمثالها من الانحرافات العقائدية والأخلاقية بالإضافة إلى الفوضى السياسية،⁽¹⁾ أما الدولة العثمانية على وجه الخصوص فقد كانت وطأة المصيبة عليها أكبر حيث مات سلطانهم في الأسر فانهارت دولتهم وتشتت شملهم واتسعت دائرة الشقاق والنزاع بين ورثة العرش من أبناء السلطان بايزيد الأول، فقسمت الدولة وظلت على تلك الحالة حتى قام السلطان محمد الأول جلبي بجمع شتاتها وإحيائها مرةً أخرى عام 1413م، لبدأ العثمانيون بذلك مسيرتهم السياسية والجهادية من جديد حيث بلغ سلطانهم مشارق الأرض ومغاربها بعد ذلك، وقد انتهج السلطان محمد جلبي نهجاً سلمياً في إعادة بناء دولته فاكتفى من القرمانيين بالولاء دون أن يدخل معهم في صراع أو قتال، كما عقد تحالفاً مع الدلغادرلين حيث قام سيدهم سولي بن دلغادر بتزويج السلطان محمد جلبي من إحدى بناته لتوثيق عرى الصداقة والتعاون بينهم،⁽²⁾ أما التيموريون فقد ورث شاه رخ عرش والده تيمورلنك ولم يحدث جديداً في سياسة والده تجاه الأناضول، وكذلك فعل السلطان جلبي حيث لم يرغب في إثارة شاه رخ حتى لايفتح على نفسه باب لا قبل له به آنئذ، أما علاقته مع المماليك فقد عمل على ترميمها وكسب ودهم من جديد، ولتأكيد حسن نواياه ورغبته في تجديد الصداقة معهم قام بإرسال وفد محمل بالهدايا الفاخرة إلى القاهرة سنة 1416م، فسر السلطان المملوكي بذلك وأكرم الوفد وأحسن استقبالهم،⁽³⁾ وظلت الأوضاع على هذه الحالة من الهدوء النسبي رداً من الزمان حيث عاد العثمانيون إلى نهجهم القديم في حركة الجهاد والفتوحات في بلاد الروم، أما الأناضول وإماراته فقد تركزت القوى في دولتي بني قرمان ودلغادر اللذان ما برحا يتنازعا فيستقوي أحدهما

= قد خرج بنفسه لتأديبهم وخاض الكثير من المعارك ضدهم حتى تمكن من هزيمتهم وضبطهم، فأذعنوا له بالولاء والطاعة، وبذلك أعاد هيبة سلطنة المماليك وفرض سيطرتها على تلك المنطقة من جديد، وكان ذلك في سنة 1417م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج14، ص51-48. إلا أن ذلك لم يدوم طويلاً كما هو معهود في سياسة المماليك القائمة على مبادئ البقاء للأقوى والولاء للمصلحة الشخصية.

(1) نافع: مرجع سابق، ص55-54.

(2) ابن آجا: مصدر سابق، ص25.

(3) ابن إياس: مصدر سابق، ج2، ص28.

على الآخر بالمليك تارةً ويستنجد الآخر بالعثمانيين تارةً أخرى وهكذا، بل إن القرمانيين قد تعدوا ذلك ودخلوا في حلفٍ مع البيزنطيين ضد العثمانيين إبان عهد السلطان مراد الثاني، حيث دعموا شقيقه الأصغر مصطفى للخروج عليه إلا أن السلطان مراد قد تمكن من دحرهم جميعاً وانتهى الأمر بقتل أخيه مصطفى والأمير محمد بن قرمان بعد أن انتزع حكم الإمارة منه وأوكل أمرها إلى ابنه إبراهيم القرماني الذي زوج أخته للسلطان مراد كما تنازل له عن حكم وأراضي إمارة حميد التي كانت تحت يده، وبذلك تمكن العثمانيون من استرداد جميع الأراضي التي فقدوها إبان الغزو التيموري للأناضول وكان ذلك في سنة 1423م،⁽¹⁾ وبعد ذلك دخلت العلاقات المملوكية العثمانية في طور التحسن والتقارب، ففي سنة 1424م قام السلطان مراد الثاني بإرسال وفدٍ محمل بالهدايا إلى القاهرة لتهنئة السلطان برسباي باعتلائه سدة الحكم والسلطنة، فأكرم السلطان المملوكي الوفد وأحسن استقبالهم ورد الهدية بأفضل منها،⁽²⁾ ثم توالى المراسلات وتبادل الهدايا بينهم وفي عام 1427م بعث السلطان العثماني وفداً محملاً بالهدايا إلى القاهرة يستأذن السلطان برسباي في الحج،⁽³⁾ وفي العام التالي أرسل إليه وفداً آخر لتهنئته بانتصاره الكبير وضمه لجزيرة قبرص،⁽⁴⁾ وقد سرَّ السلطان المملوكي بذلك غاية السرور، واستمرت العلاقات بين الدولتين على هذه الشاكلة الطيبة لبضع أعوام حتى سنة 1433م حيث استقبل السلطان برسباي الأمير سليمان واخته فاطمة شاه زاده العثمانية الهاريين من عمهما السلطان مراد الثاني، فأكرمهما ورفض تسليمهما إلى عمهما السلطان مراد عندما طلب منه ذلك⁽⁵⁾،⁽⁶⁾ وفي تلك الأثناء وقع صراع بين القرمانيين والدلغاديين وكالمعتاد

(1) المقرئزي: السلوك، مصدر سابق، ج7، ص77-69.

(2) متولي: مرجع سابق، ص28.

(3) ابن إياس: مصدر سابق، ج2، ص114. ولعله هنا يمكن الاستدلال بهذا على من يزعمون بعدم حج السلاطين والأمراء العثمانيين إلى بيت الله الحرام.

(4) المقرئزي: السلوك، مصدر سابق، ج7، ص175.

(5) وقد ورد أن السلطان برسباي قد تزوج بالأمره فاطمة شاه زاده العثمانية سنة 1436م، وفي العام التالي مات أخوها الأمير سليمان بالطاعون وكان عمره لم يتجاوز خمسة عشر عاماً وقتئذ. السخاوي: الضوء اللامع، مصدر سابق، ج3، ص262.

(6) ابن تغري بردي: أبوالمحسن جمال الدين يوسف الأتابكي، حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، ج2، تحقيق محمد كمال الدين، عالم الكتب، بيروت، 1990م، ص560-559.

استنصر القرمانيون بالماليك وكذلك فعل الدلغادرليون مع العثمانيين،⁽¹⁾ ونتيجة لذلك فقد حدثت جفوة بين الدولتين وتوترت العلاقات بينهم ولم تستقر وتحسن إلا بعد وفاة السلطان برسباي واعتلاء الظاهر سيف الدين جقمق سُدة الحكم حيث أرسل إليه السلطان مراد وفداً محملاً بالهدايا لتهنئة بجلوسه على عرش السلطنة ولتعزيز حبال الصداقة والمودة رد السلطان الهدية بأفخر منها وكان ذلك في عام 1440م،⁽²⁾ ومما دعم أو اصر الصداقة بين الطرفين زواج السلطان جقمق من أرملة السلطان برسباي الأميرة فاطمة شاه زاده العثمانية ابنة أخ السلطان مراد الثاني،⁽³⁾ وبإستقرار العلاقات بين الدولتين استقرت الأحوال بالأناضول أيضاً لاسيما بعدما زوج السلطان مراد ابنه الأمير محمد الثاني من ابنة الأمير سليمان بك الدلغادري سنة 1449م،⁽⁴⁾ وقد انتهج السلطان الفاتح محمد الثاني نهج والده في تحسين العلاقات مع الماليك،⁽⁵⁾ حيث أرسل موفداً إلى السلطان جقمق محملاً بالهدايا يخبره بتولية عرش السلطنة سنة 1451م، فرد عليه بمثلها وكتب إليه مهنتاً بجلوسه على العرش،⁽⁶⁾ ثم استمر بينهم يتبادلون المراسلات حتى تحققت بشارة فتح القسطنطينية سنة 1453م حيث لم تشهد الأمة الإسلامية فتحاً بعظمته وضخامته منذ زمن طويل، وفرح به المسلمون فرحاً عظيماً لاسيما بعد

(1) وقبيل هذا الصرع قد انقلب القرمانيون على العثمانيين على الرغم من تعاطف العثمانيون معهم وإكرامهم لهم والعفو عنهم في أغلب المواقف رغم مقدرتهم على استئصال شأفتهم، وكالعادة استعان بنو قرمان بملوك أوروبا وتحالفوا معهم للقضاء على العثمانيين واتفقوا على أن يكون لهم الشطر الأناضولي من الأراضي العثمانية، بينما يأخذ ملوك أوروبا شطر الروم إيلي، إلا أنهم لم ينجحوا في ذلك حيث تمكن السلطان مراد الثاني من سحقهم وهزيمتهم جميعاً، بيد أنه قد عفا عنهم مجدداً واطلق سراح زعيمهم الأمير إبراهيم بن محمد القرماني ورده حاكماً على بلاده، وكان ذلك في سنة 1435م. عبدالباسط الظاهري: مصدر سابق، ج4، ص 378/419.

(2) ابن إياس: مصدر سابق، ج2، ص 223.

(3) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، مصدر سابق، ج2، ص 560.

(4) نافع: مرجع سابق، ص 61.

(5) فكان السلطان الفاتح يبالغ في احترام وتقدير سلاطين الماليك، لاسيما السلطان إينال حيث كان يحاطبه بلقب والدنا سلطان الحرمين، وكذلك السلطان خشقدم بلقب أخونا السلطان خادم الحرمين، وغير ذلك من الألقاب التي تظهر التقدير والاحترام والتودد. Muslu; Cihan Yüksel, Osmanlılar ve Memluklar (İslam Dünyasında İmparatorluk Diplomasisi ve Rekabet, Çeviren: Zeynep Rona, Kitap Yayınevi, İstanbul 2016, s162.

(6) العيني: عقد الجمان، مصدر سابق، ص 642.

أن أرسل السلطان الفاتح إلى السلطان إينال المملوكي يبشره فيها بالنصر مع بعض الهدايا الفاخرة، فسر السلطان إينال بذلك غاية السرور ودقت البشائر والطبول بالقعلة وزُينت القاهرة وعمت الفرحة نفوس المسلمين، وبعث السلطان المملوكي إلى السلطان الفاتح مهتناً له بهذا الفتح والإنجاز الكبير ومؤكداً له على توثيق عُرى الصداقة والمحبة بينهما،⁽¹⁾ وقد برهن على ذلك بتجاهله لموفد الأمير إبراهيم بن قرمان الذي وصل إلى القاهرة سنة 1456م شاكياً من العثمانيين ومستنصراً بالسلطان إينال عليهم، وعلى الرغم من أن إمارة بني قرمان مشمولة بحماية المماليك إلا أن السلطان قد تجاهل طلبه حتى لا يكدر صفو علاقته مع العثمانيين، فكان ذلك سبباً في استمرار الصلات والعلاقات الطيبة ومتانتها بين الدولتين حتى نهاية سلطنة إينال،⁽²⁾ وبتولي السلطان خشقدم زمام سلطنة المماليك سنة 1461م حدث فتور في العلاقات بين الدولتين، فبعد أن تنامت قوة العثمانيين وازدادت توسعاتهم لاسيما بعد فتحهم القسطنطينية حاضرة الروم وسُدة حكمهم وغيرها من الحصون والمدن والقلاع الكبيرة، تغيرت نظرة المماليك تجاههم حيث شعروا بأنهم يحاولون سحب البساط من تحتهم في زيادة الأمة والعالم الإسلامي، فتبدلت مشارعهم تجاههم من الأخوة والمودة إلى الشك والارتياب والحذر والترقب، لاسيما عندما بدأ العثمانيون بالاحتكاك والتدخل المباشر في شؤون بعض الإمارات التركمانية ومسألة الحدود بحكم توسعهم وامتداد دولتهم الناهضة الفتية، لاسيما مع إمارتي دلغادر وبني قرمان إبان النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي،⁽³⁾ وقد نتج عن ذلك وقوع أزمة دبلوماسية بين الدولتين ثم تطور الأمر إلى مناوشات متكررة تحدث لأول مرة بين المماليك والعثمانيين، ولم تستقر الأحوال بعدها واستمرت الجفوة والوحشة بينهم حتى تسلطن

(1) ابن إياس: مصدر سابق، ج2، ص316.

(2) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، مصدر سابق، ج2، ص516.

(3) Yinanç; Refet, Dulkadir Beyliği, TTK Yay,1989, s92.

الأشرف قايتباي⁽¹⁾ سنة 1568م،⁽²⁾ حيث قام بإرسال وفدٍ دبلوماسي إلى البلاط العثماني، فأحسن السلطان محمد الفاتح استقبالهم، وأرسل بدوره وفداً إلى القاهرة لتهنئة قايتباي بجلوسه على كرسي السلطنة،⁽³⁾ ولكن على الرغم من ذلك إلا أن العلاقات لم تصفو بين الطرفين وظل الوضع على ماكان عليه من الوحشة والحذر والترقب، حيث لم يتقطع دعم المماليك والعثمانيين للعناصر المتصارعة حول السلطة في البيت الحاكم لإمارة الدلغاديين، وقد تكبد المماليك خسائر فادحة في سبيل تثبيت سلطانهم وفرض هيبتهم وسيطرتهم على الموقف، ذلك مما أرهق دولتهم عسكرياً وأفقرها مالياً حتى اضطر السلطان قايتباي لأخذ أموال الناس بطرق غير شرعية من أجل تجهيز الحملات التي يرسلها إلى الأناضول،⁽⁴⁾ وهذا ليس بغريب على سلاطين المماليك بيد أن السلطان قايتباي يُعد من أختيارهم، وكان يمكنه أخذ الأمر باللين والسياسة في إخماد الفتنة إلا أنه قد رجح أخذ الأمور بالشدّة والعترسة،⁽⁵⁾ ولعل نظرتة كانت مختلفة للأمر حيث أراد بذلك أن يثبت جدارته وقوته حتى لاينكسر ويظهر ضعفاً أمام العثمانيين وإن لم يكن الصراع مباشراً بينهم، وعندما تيقن بأن ذلك لن يتم له بالقوة لجأ إلى الدبلوماسية مرةً أخرى فأرسل إلى السلطان محمد الفاتح وفداً بهدف توثيق

(1) وهو من حسنات الدهر وخيار سلاطين الجراكسة وأطولهم عهداً حيث حكم قاربه ثلاثين عاماً، وقد وصف بأنه كان شيخاً طوالاً فصيح اللسان مفوهاً، ذا هيبة وجلال، خيراً ديناً لم يشرب الخمر قط ولاغيرها من المخدرات، وافر العقل كفوفاً للسلطنة، له من الأعمال المعمارية والخيرية الوفية الكثير، لاسيما بالخرمين الشريفين ومصر، بيد أنه كان محباً للمال كثير الناظر لما في أيد الناس، شديد الحرص مُقتراً على الرعية والمماليك في أغلب الأحيان. ابن أجا: مصدر سابق، ص 209-204.

(2) ففي عام 1464م أرسل السلطان محمد الفاتح إلى السلطان المملوكي يطلب منه تولية الأمير سوار شاه بن دلغادر على الأبلستين مكان أخيه الأمير سيف الدين أرصلان الذي مات مقتولاً إبان زيارته للقاهرة، إلا أن السلطان خشقدم لم يستجب لذلك وولى شاه بضاغ أخو سوار شاه وقد كان متهماً في قضية قتل أخيه الأمير، فنشب صراع بين الأخوين بدعم من العثمانيين لسوار شاه والمماليك لشاه بضاغ فرجحت كفة سوار شاه على أخيه، علاوة على ذلك قيل أن السفير العثماني عندما مثل بين يدي السلطان المملوكي لم ينحن ويقبل الأرض كما هو معهود عند المماليك آنئذ، فغضب السلطان ولم يخلع عليه وكاد يقتله لولا تدخل الأمراء وردداهم له عن ذلك. ابن إياس: مصدر سابق، ج 2، ص 420/ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، مصدر سابق، ج 16، ص 345.

(3) Chai, Har- EL; Struggle for domination in description of Asia Minor, Oxford, 1832, p85.

(4) عبدالباسط الظاهري: مصدر سابق، ج 6، ص 323-327.

(5) ابن إياس: مصدر سابق، ج 3، ص 8.

العلاقات وإعادتها من جديد مع بعض الهدايا والتنازلات في بعض القضايا المختلف عليها سابقاً بين الدولتين،⁽¹⁾ فرحب العثمانيون بذلك وأرسل السلطان الفاتح وفداً إلى القاهرة مبشراً السلطان قايتباي بعدة فتوحات وانتصارات حققها في بلاد الفرنج والبنادقة سنة 1471م،⁽²⁾ حيث وجد فائدةً ومصالحةً كبيرة في ذلك لكي يتفرغ لمواصلة فتوحاته وتوسعه في أوروبا، بالإضافة إلى ضمان عدم تحالف المماليك مع أوزون حسن⁽³⁾ زعيم وصاحب إمارة الآق قوينلو الذي شرع بالتوسع في الأناضول وكان يطمع في أراضي العثمانيين، وكان يستقبل ويدعم العديد من زعماء وأمراء التركمان الخارجين عن طاعة العثمانيين، كما أنه لم يتورع في التعاون مع النصارى البنادقة ضد العثمانيين والمماليك،⁽⁴⁾ حيث وقعت عدة صدامات مسلحة بينهم انتهت بانتصار العثمانيين في عام 1473م،⁽⁵⁾ فاضطر الأمير أوزون حسن إلى تغيير وجهته وبدأ في التغول على أراضي المماليك بالأناضول والشام ودخل معهم في حروب عديدة، وانتهى الأمر بالصلح حيث بادر الأمير أوزون حسن بإرسال وفد إلى السلطان قايتباي معترداً منه ومؤكداً على توثيق عُرى الصداقة بينهما وكان ذلك في عام 1474م، إلا أن ذلك لم يفسد العلاقات بين المماليك والعثمانيين حيث استمر تبادل المراسلات التي توحى بالمودة واحترام

(1) زقلمة: مرجع سابق، ص 91.

(2) عبد الباسط الظاهري: مصدر سابق، ج 6، ص 427.

(3) الأمير المسلم السني صاحب العراقين أوزون حسن بن علي بك بن قرابلك، وأوزون هذه لقب وتعني الطويل، وهو خامس سلاطين دولة الآق قوينلو التركمانية التي حكمت منطقة ديار بكر وأذربيجان وأجزاء من العراق، وقد امتد حكمهم على تلك المنطقة في الفترة ما بين « 914-806هـ / 1403-1508م ». لين بول: ستانلي، الدول الإسلامية، ج 2، ترجمة صبحي فرزات، مكتب الدراسات الإسلامية، دمشق، 1974م، ص 587-581.

(4) حيث تمكن العثمانيون من القبض على قاصد الأمير حسن إلى ملوك الفرنج، فوجدوا في رسالته ما ينص على توأته معهم ضد العثمانيين والمماليك، ويحثهم فيها على مهاجمة مصر والأناضول وديار بني عثمان من جهة البحر، بينما يهاجمهم هو من ناحية البر، وبعد أن اطلع السلطان الفاتح على الرسالة أمر بإرسالها إلى السلطان المملوكي حتى يخطر به حقيقة نوايا الأمير أوزون حسن تجاههم، ويتباحث معهم في مسألة التعاون للقضاء عليه. الربيعي: صالح بن محمد، جامع الدول لمنجم باشي القسم الأول من دول القرن السادس وفروعها- دراسة وتحقیقاً، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة القصيم/ كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية/ قسم التاريخ، 2016م، ص 590.

(5) القرمانی: مصدر سابق، ج 3، ص 35-34.

الاتفاقيات والمعاهدات التي أبرمت بين الطرفين،⁽¹⁾ وظل الحال على هذه الشاكلة حتى وفاة السلطان محمد الفاتح سنة 1481م.⁽²⁾

4.2.2 اللجوء والمصالح السياسية وأثرها في المجتمع واضطرابات العلاقات المملوكية العثمانية:

شهدت الدولة العثمانية نوعاً من الاضطرابات والصراعات الداخلية الحادة عقب وفاة السلطان محمد الفاتح، حيث ترك دولة غنية ومترامية الأطراف ولم يحدد وريثاً للحكم من بعده،⁽³⁾ ولم يكن هناك قانون محدد يبيت في أمر توريث الحكم عند العثمانيين وإنما جعل الأمر مفتوحاً لكافة أبناء السلطان المتوفى، وكان ذلك مرهوناً بالقوة والخبرة والدعم من الوزراء وقادة اليكيجري،⁽⁴⁾ فكان ذلك سبب في قيام العديد من الصراعات حول السلطة وولاية العرش بين أبناء السلاطين وأخوانهم وقد أدى ذلك استنزاف امكانيات الدولة وتشتيتها في

(1) إلا أن المالميك لم يلتزموا بذلك حيث رفضوا تسليم الأمير قاسم القرمانلي الذي لجأ إليهم بعد خروجه على العثمانيين وهزيمته أمامهم سنة 1477م، حيث اعتبروا أن ذلك تدخلاً من العثمانيين في شؤونهم الداخلية، مخالفين بذلك بنود اتفاقية التعاون التي أبرموها مع العثمانيين عام 1471م، والتي تم بموجبها الاعتراف للعثمانيين بأحققتهم في المطالبة بالتدخل في إدارة إمارة بني قرمان ومنحهم كامل الصلاحية في ذلك. نافع: مرجع سابق، ص 80.

(2) وقد توفي السلطان الفاتح بعد أن عبر البسفور إلى أسكدار وهو على رأس جيشه بالقرب من منطقة كبهه، وكان من عاداته إخفاء وجهته في أسفاره وتحركاته، وقيل أنه كان قاصداً بلاد العرب ومصر وقيل غير ذلك من المناطق إلا أن ذلك لم يثبت بشكل جلي وقاطع. Tursun Bey, Târih-i Ebû'l-Feth, İstanbul Fetih Cemiyeti, 1977, s172.

(3) وقد راجع في كتب التاريخ لاسيما الحديث منها ذكر وضع السلطان محمد الفاتح مادة قتل الأخوة في قانون نامه الذي أصدره في زمانه، بيد أن العلماء والمؤرخون قد اختلفوا في ذلك، ومنهم من نفى نسبة تلك المادة إلى السلطان الفاتح، وقالوا أنها لم ترد إلا في النسخة المحفوظة في فيينا، وقالوا أنها مزيفة، وأن النص الأصلي للمادة هو قوله: «... وإن الموت سيكون مصير كل من يعلن العصيان المسلح ضد السلطان، ويتعاون مع أعداء الإسلام ضد المسلمين، حتى لو كان من أولادي». LA Kahwaji; Anas, Osmanlı Devleti ve İslam Halifeliğinin Şartları, Universal Journal Of Theology (UJTE), Volune; V, Issue,1,2020, s89. وقد استفاض المؤرخون في قضية تولية الحكم وشبهة قتل السلاطين العثمانيين لأخوانهم وأولادهم وبيان جوانبها الاجتماعية والتاريخية والفقهية، للمزيد من التفاصيل عن ذلك يمكن مراجعة الآتي قلائد العقيان في فضائل آل عثمان ص 150-134، أو منهل الظمان لإنصاف دولة آل عثمان، ج 2، ص 458-446.

(4) Uzunçarşılı; Ismail Hakki, Osmanlı Tarihi, cilt.2, Ankara,1949,p 161.

الكثير من الأحيان، ويظهر ذلك في الصراع الذي بين إبنَي السلطان محمد الفاتح الأمير بايزيد الثاني⁽¹⁾ حاكم أماسية وأخوه الأصغر الأمير جم⁽²⁾ حاكم قونية، وقد تمكن الأمير بايزيد من الوصول إلى العاصمة استانبول قبل أخيه الأمير جم فضبط الأمور بها واعتلى عرش السلطنة بعد عدة أيام من وفاة والده سنة 1481م،⁽³⁾ فكان أوفر حظاً وأكثر تأهيلاً من أخيه في النواحي السياسية والإدارية والعسكرية، علاوةً على حب اليكيجريه⁽⁴⁾ له وارتباطهم به ودعم جُل كبار رجال الدولة وأعيانها له في توليه السلطة،⁽⁵⁾ فلما علم الأمير جم بذلك

(1) ولد في عام 1447م، وقد عُرف ببايزيد الولي والصوفي لكثرة عبادته وزهده وتقواه وحبهِ للصالحاء والفقراء وتشبهه بهم في بساطة الملبس في الخلوات، كان كثير الصمت والتفكير، حليماً هادئ الطبع حسن الخلق، مُسالماً لا يميل إلى القتال والصراع، توفي سنة 1512م. حضرة عزتلوا يوسف بك أصف: تاريخ سلاطين بني عثمان منذ نشأتهم حتى الآن، ترجمة: محمد زينهم محمد غرب، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995م، ص 66.

(2) الأمير جم بن السلطان محمد الفاتح، ولد في عام 1459م تولى حكم ولاية قرمان ومركزها مدينة قونية في عهد والده الفاتح، وبعد هزيمته أمام أخيه السلطان بايزيد، هرب إلى مصر وعاش بقية حياته كلاجئ سياسي ثم تحول إلى أسير بيد البابا وملوك أوروبا وظل محتجزاً عندهم حتى وافته المنية بمدينة نابولي سنة 1495م، ثم نقل جثمانه فيما بعد إلى مدينة بورسنة العثمانية. ابن أبي السرور: محمد بن محمد بن أبي السرور البكري الصديقي، المنح الرحمانية في الدولة العثمانية، تحقيق وتقديم ليلي الصباغ، دار البشائر، بيروت، 1995م، ص 56.

(3) حيث تمردت بعض فرق اليكيجريه الذين استغلوا الفراغ والاضطراب السياسي بمجرد وفاة السلطان الفاتح، فعاثوا الفساد بإستانبول ومارسوا أعمال السرقة والنهب وقتلوا الصدر الأعظم محمد باشا القرماني الذي كان متواطئاً مع الأمير جم، وعينوا مكانه اسحاق باشا كما نصبوا الأمير قورقود على رأس الدولة حتى وصول ولده الأمير بايزيد الثاني من أماسيا، حيث تمكن من ضبط الأمور واخذتمرد اليكيجريه بمجرد وصوله إلى استانبول. يوسف: عماد عبدالعزيز، تمردات الانكشارية في الدولة العثمانية «1481-1648م»، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية/ جامعة الموصل، مج 9، ع 2009، ص 4، ص 301.

(4) اليكيجريه أو الإنكشارية: وهي كلمة تركية عثمانية والمراد بها طائفة الجنود الجدد من المشاة النظامية وهي القوة العظمى في الجيش العثماني، وقد تم تأسيسها في أواسط القرن الرابع عشر الميلادي إبان عهد السلطان أورخان الأول بن عثمان. صباغ: تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية، مرجع سابق، ص 264. والصحيح يكيجيري كما هي مكتوبة في اللغة العثمانية وفي التركية الحديثة Yeniceri.

(5) حيث كان جُل موظفوا البلاط السلطاني وكبار رجال الدولة يؤيدون الأمير بايزيد ويدعمونه في أمر توليته للزمّام أمور الحكم والجلوس على عرش السلطنة، كما قيل أن والده قد أوصى له بالحكم من بعده، علاوةً على أن أمه كانت تُلقب بالسلطنة الوالدة أي السيدة الأولى في السلطنة، بينما كانت والدته الأمير جم من إحدى الجوارح المحظيات من أصولٍ صربية. عبد الجبوري وصالح: أحمد حسين ومخلف عبدالله، الصراع على وراثة العرش العثماني وأثره على إمارة دليغادر التركمانية «1481-1522م»، مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية، المجلد 8، العدد 2018، ص 211-212.

وهو في الطريق إلى استانبول احجم وانثنى نحو مدينة بروسه التي اتخذ منها قاعدةً له،⁽¹⁾ حيث عرض على أخيه السلطان بايزيد الثاني أن يقتسما أراضي الدولة والسلطة فيكون هو حاكم على الأناضول وبايزيد على الجزء الروم ايلي⁽²⁾، إلا أن بايزيد لم يقبل بذلك لما فيه من شتاتٍ لشمل الأمة وضياع لهيبة دولتهم المجاهدة والمرابطة في ثغور بلاد المسلمين المتاخمة لديار الروم،⁽³⁾ وبعد فشل المفاوضات والمراسلات بين الأخوين، اجتمع عدد من الجهال والمفسدين حول الأمير جم فأوغروا صدره على أخيه السلطان وأغروه بالخروج عليه وشق عصا الطاعة ومنازعته على السلطة بالسيف، فوقع الأمير جم في حبالهم حيث كان قليل الخبرة والمعرفة بالشؤون السياسية والعسكرية وقتئذ،⁽⁴⁾ فأعلن عصيانه وثورته على أخيه السلطان بايزيد ودارت بينهما رحى الحرب ردحاً من الزمان وانتهى الأمر بانتصار بايزيد وهروب الأمير جم إلى قونية ثم أدنه،⁽⁵⁾ وقد تأثر مجتمع الأناضول بهذه الأحداث سلباً حيث استغل بعض الأوباش فرصة اضطراب الأوضاع الداخلية والخلافات السياسية في البلاط العثماني، فعاثوا الفساد في المجتمع وقاموا ببعض الأعمال اللا أخلاقية من سرقة ونهب وسلب ولم يقتصروا في ذلك على الرعية فقط بل إنهم تجرأوا على الأمير جم نفسه أثناء فراره نحو قونية فجردوه من جميع متاعه وأمواله، إلا أن السلطان بايزيد الثاني قد تمكن من ضبط هؤلاء المتفلتين والانتهازيين وعاقبهم بأشد العقوبات حتى يتعظ ويعتبر بهم كل

(1) ولكسب المؤيدين ومسح الصفة الشرعية على مطالبته بالحكم إدعى بأنه الإبن الأكبر والوريث الشرعي لوالده السلطان الفاتح، وأعلن نفسه سلطاناً على الأناضول واتخذ من مدينة بروسه مقراً لحكمه، وأمر بالدعاء له على المنابر وضرب النقود بإسمه، فالتف حول جمع من الناس. رفيق: أحمد، سلطان جم، اورخانيه مطبعة سي، استانبول، 1924م، ص 2-19.

(2) الروم ايلي: مصطلح أطلقه العثمانيون على الأراضي التي فتحوها من ديار النصارى بالقارة الأوروبية، والتي تشمل إقليم البحر الأسود وبحر مرمرة وبحر إيجه والمناطق الشمالية لتاقيا ومقدونيا، وبلاد البلقان. الخوند: مسعود، الموسوعة التاريخية الجغرافية، ج 5، دار رواد النهضة، بيروت، 1996م، ص 293-291.

(3) طوباش: عثمان نوري، العثمانيون رجالهم العظام ومؤسستهم الشاخحة، ترجمة محمد حرب، مطبعة دار الأرقم، إستانبول، 2016م، ص 159-158.

(4) صولاق زاده: محمد أفندي، صولاق زاده تاريخي، مطبعة محمود بك، إستانبول، 1297هـ، ص 273.

(5) الرمال: غسان بن علي، جامع الدول لمنجم باشي أحمد ده ده « قسم سلاطين آل عثمان إلى سنة 1083هـ» دراسة وتحقيق، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة أم القرى/ كلية الشريعة والدراسات الإسلامية/ قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، 1997م، ص

من تسول له نفسه الإفساد في المجتمع والتعدى على حقوق وحرمان الناس،⁽¹⁾ وكما أنه قد عفى عن أهالي مدينة بورسه الذين ساندوا الأمير جم في تمرده وحربه ضده، ومنع اليكيجريه من التعرض لهم حفاظاً على سلامتهم وسلامة مدينتهم من الخراب والدمار الذي سوف يجل بها إذا ما أذن لليكيجريه بدخولها واستباحتها،⁽²⁾ أما الأمير جم فقد تحرك من أدنه متوجهاً نحو حلب بعد مرسلاته للسلطان قايتباي المملوكي يستأذنه في الدخول إلى أرضه طلباً للجوء إليه والاحتماء بظله،⁽³⁾ فرحب السلطان بطلبه واستدعاه إلى القاهرة،⁽⁴⁾ فوصلها برفقة أفراد عائلته مع نفر قليل من رجاله وحرصه، فأكرمه السلطان قايتباي غاية الكرم وجمع لاستقباله الأمراء وكبار رجال الدولة،⁽⁵⁾ وعامله معاملة الابن وخصص لإقامته قصرًا سلطانيًا يليق بمقامه مع أسرته،⁽⁶⁾ فمكث الأمير جم بالقاهرة قرابة أربعة أشهر ثم استأذن السلطان في زيارة الأراضي المقدسة وأداء فريضة الحج، فأذن له وكان ذلك في عام 1481م،⁽⁷⁾ وبعد عودته من رحلة الحج بدأت المرسلات والوفود تتهافت عليه سرًا

(1) Müneccimbaşı; Ahmed Dede Lütfullah Efendi oğlu, Camiü'd-Düvel, II.cilt İnsan yayınları, İstanbul, 1995, s 537.

(2) Mustafa Cezar ve Midhat Sertoğlu; Mufassal Osmanlı Tarihi, c.2, İstanbul, 1958, s 619.

(3) وقد حاول السلطان بايزيد إعاقة القبض عليه في الطريق، عن طريق الأمير علاء الدولة بن دلغادر حيث ارسل إليه مكتوباً يطلب منه عدم السماح للأمير جم في الوصول إلى الشام ومصر، إلا أنه لم يفلح في ذلك. Baysun; M.Cavit, "Cem" IA, (MEB), C.III, İstanbul, 1979, s72.

(4) وقيل أن السلطان قايتباي لم يقبل بطلب لجوء الأمير جم إليه إلا من أجل استخدامهم في المساومة أو الضغط على أخيه السلطان بايزيد الثاني إذا ما أضطر لذلك، ولهذا السبب وبعد إلحاح شديد من الأمير جم قبل السلطان قايتباي بأن يتوسط للصلح بينه وبين أخيه السلطان بايزيد، إلا أنه لم يوفق في ذلك حيث رفض السلطان بايزيد تلك الوساطة. بن الذيب: قمر، العلاقات المملوكية العثمانية «923-857هـ / 1517-1453م»، جامعة محمد بوضياف - المسيلة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، / قسم التاريخ، رسالة ماجستير غير منشورة، 2019م، ص 44.

(5) وفي نفس السنة فرَّ أحد أمراء المهاليك ويدعى اينال الحكيم إلى الديار العثمانية ملتجئاً إلى السلطان بايزيد الثاني الذي تشفّع له عند السلطان قايتباي فقبل شفاعته، وذلك مما خفف حدة توتر العلاقات قليلاً بين الدولتين. ابن إياس: مصدر سابق، ج 3، ص 86.

(6) Müneccimbaşı; g.a.e, II.cilt, s 710.

(7) شاكر: رابعة مزهر، المنتخب من تاريخ الجنابي «اختصار أحمد بن محمد الملا» القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي تحقيق ودراسة، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، كلية الدراسات العليا، 2010م، ص 115.

من قبل الأمراء والقادة وزعماء العشائر الناقمين على السلطان بايزيد الثاني،⁽¹⁾ محرضين له على الخروج مرة أخرى والمطالبة بحقه في السلطة ومتعهدين له بالدعم والوقوف إلى جانبه في حال عودته إلى الأناضول ودخوله الأراضي العثمانية، فتحمس الأمير جم لذلك وعزم على العودة إلى الأناضول حتى من دون أن يتحقق من الرسائل الواردة وصحة مصادرها، أملاً في النصر وإعادة حقه في السلطة والتغلب على أخيه السلطان بايزيد الثاني،⁽²⁾ فاستأذن السلطان قايتباي في الخروج إلى الأناضول لاستئناف حربه مع أخيه السلطان وطلب منه أن يمدّه بالمال والعسكر،⁽³⁾ فاتاه السلطان قايتباي سؤله من المال فقط وكل ذلك على مضمض ومن دون إجماع وموافقة من كافة أمراء المماليك،⁽⁴⁾ وفي أواسط سنة 1482م غادر الأمير جم القاهرة برفقة جمع من المواليين له من الزعماء والقادة متجهين نحو حلب، حيث كان ينتظره القائد محمد بك الطرابزوني الذي رافقه إلى أدنه حيث استقبلهما حليفهما الأمير قاسم بك بن قرمان، الذي وعده الأمير جم بإعادة إمارة أجداده وأراضيهم إذا ما ساعده في حربه ضد أخيه السلطان بايزيد الثاني،⁽⁵⁾ وقد اجتمع حول الأمير جم جمع من أمراء

(1) وكان على رأسهم القائد محمد بك الطرابزوني حاكم سنجق أنقره والأمير قاسم بك القرمانى الذي ورد في نص رسالته إلى الأمير جم: «.. إن الكثير من قادة الدولة ينتظرون قدومكم المبارك وهم في غاية السرور، وذلك بعد أن صرفوا أنظارهم عن السلطان بايزيد،...». سعد الدين أفندي: سعد الدين خواجه بن حسن جان، تاج التواريخ، ج2، عامره مطبعة سي، إستانبول، 1280هـ، ص19.

(2) قره جلبي زاده: عبدالعزيز أفندي، روضة الأبرار الميين بحقائق الأخبار، بولاق مطبعة سي، القاهرة، 1248هـ، ص389.

(3) وذكر أن السلطان قايتباي قد أمده بعشرين ألف قطعة من السلاح وأربعين ألف دينار من الذهب، علاوة على المساعدات والدعم الذي قدمه له حكام حلب ودمشق التابعين للسلطنة المماليك. Chai, York, 1995, p 110. وقيل أن السلطان الغوري قد استمهله لكي يجهز له عسكرياً يساعده ويقاتلون في صفه ضد أخيه السلطان بايزيد الثاني، إلا أن أمراء المماليك لم يقبلوا بذلك وعارضوه معارضةً شديدة، ولو قدر للسلطان وألزم الأمير جم بالإقامة في مصر لكان في ذلك خيراً وحقق لدماء المسلمين وحفظاً لأرواحهم وأموالهم، حيث وقع من جراء ذلك الكثير من الحوادث والفتن وتلف في الأنفس والأموال. السخاوي: الوضوء اللامع، مصدر سابق، ج11، ص147-148.

(4) Cenabi; Mustafa Efendi, El-'Aylemü'z-Zahir Fi Ahvali'l-Evail Ve'l-Evahir, Nuru Osmaniye Ktp, Arap yazm, 3100, 2, p 87.

(5) شيمشغيل: أحمد، سلسلة تاريخ بني عثمان «سلطان في خدمة الحرمين»، ج3، ترجمة: عبدالقادر عبداللي ومهتاب محمد، مركز ثقافة للنشر والتوزيع، بيروت، 2017م، ص18.

التركان وزعماء القبائل الناقمين على السلطان بايزيد الثاني، فنشر الأمير قواته بالأناضول وتوجه بنفسه لحصار مدينة قونية، إلا أنه قد فشل في تحقيق إي انتصار على القوات النظامية للدولة العثمانية، وذلك نسبةً إلى قلة خبرته وسوء تنظيمه وضعف قيادته،⁽¹⁾ وعندما سمع الأمير جم بتحريك أخيه السلطان بايزيد بنفسه نحو الأناضول اضطر للانسحاب وشرع في طلب استئناف المفاوضات معه مجدداً لعله يقبل بمقاسمته الحكم وأراضي السلطنة، إلا أن السلطان بايزيد لم يقبل ذلك بيد أنه قد تفرق في جوابه حيث كان بطبعه محباً للسلم ميلاً إليه في حل الخلافات أكثر من ميله للحرب فحاول جاهداً ثني أخيه الأمير جم عن الحرب حقناً لدماء المسلمين، وعرض عليه الإقامة في القدس مع منحه راتباً سنوياً لا يقل عن مليون أفجه، إلا أن الأمير جم قد رفض ذلك وأصرّ على رأيه في المطالبة بالسلطة وتقسيم الدولة،⁽²⁾ وكان اعتماده في ذلك على الدعم الذي سوف يتلقاه من المهاليك وأمراء التركمان الخارجين على السلطان بايزيد وعلى رأسهم الأمير قاسم بك القرمانلي العقل المدبر والمستشار الأول للأمير جم، ولما فشلت المفاوضات بين الأخوين فكر الأمير جم في التوجه نحو بلاد فارس أو العودة إلى الشام واللجوء إلى المهاليك وطلب حمايتهم مرةً أخرى،⁽³⁾ إلا أن الأمير قاسم بك قد أشار عليه بالتوجه نحو جزيرة رودس واللجوء إلى فرسان القديس يوحنا⁽⁴⁾ والاستعانة بهم في حربه مع أخيه السلطان بايزيد،⁽⁵⁾ ولعله أراد بمشورته تلك أن يسعر نار الحرب بين الأخوين ويوسع نطاقها في الطرف الروماني، حتى تتسنى له الفرصة

(1) هاممه ر: جوزيف فون، دولت عثمانية تاريخي، جلد ثالث، ترجمة محمد عطا، إستانبول، 1330هـ، ص 251.

(2) Feridun Bey; Mecmua-yı münşeat üs-Selâtin, Darüttıbbatıl'âmire, Istanbul, 1857, s 291.

(3) Cavit Baysun; Mehmet, Cem Sultan Hayatı Ve Şiirleri, Ahmet Halit Kitabevi, İstanbul, 1946, S 13-15.

(4) وهم جماعة من المقاتلين النصاري الذين يمارسون أعمال السلب والنهب والقرصنة على السفن الإسلامية في البحر الأبيض المتوسط، ويتخذون من جزيرة رودس مقراً لهم كما أنهم يتمتعون بالحماية المباشرة من البابوية في روما. إيفانوف: نيقولا، الفتح العثماني للأقطار العربية (1516-1574م)، ترجمة: يوسف عطا الله، دار الفارابي، بيروت، 1988م، ص 33.

(5) رضا نور: تورك تاريخي، جلد ثالث، عامره مطبوعه سي، إستانبول، 1924م، ص 187.

لاستعادة سلطنة أجداده وأراضيهم في الأناضول، إلا أنه لم يوفق في ذلك وطلب العفو من السلطان بايزيد فعفى عنه وأقطعه بعض الأراضي التي ظل يحكمها باسم العثمانيين حتى وفاته 1483م،⁽¹⁾ أما الأمير جم فقد انساق وراء أطماعه واحلامهم الزائفه فألقى بنفسه في المهالك ولم يتورع في الاستعانة بالنصارى ضد أخيه السلطان المجاهد والمرابط في الثغور الإسلامية المتاخمة لأرض الروم،⁽²⁾ فكاتب فرسان القديس يوحنا الذين اغتتموا الفرصة لاستخدامه في الضغط على السلطان العثماني وقتها احتاجوا إلى ذلك، فأرسلوا إليه يستقدمونه مع ضمان توفير الحماية له وحرية الإقامة والترحال كيفما شاء، إلا أنه قد اكتشف خداعهم له بمجرد وصوله إليهم حيث أصبح أسيراً عندهم ومنعوه من الذهاب إلى مصر وبقي عندهم ردحاً من الزمان ثم نقلوه إلى أوروبا بحجة تأمينه خوفاً من هجوم السلطان بايزيد عليهم لقرب الجزيرة من الأراضي العثمانية،⁽³⁾ كما أنهم أوهموه بأنه سوف يلقي الدعم الذي يحتاج إليه من ملوك أوروبا لإستئناف حربه ضد أخيه السلطان وانتزاع الحكم منه،⁽⁴⁾ أما السلطان قايتباي فسرعان ماندم وشعر بخيبة أمل عندما سمع بفشل الأمير جم في الأناضول ولجؤه إلى فرسان القديس يوحنا بجزيرة رودس،⁽⁵⁾ حيث أقحم نفسه ودولته في عداوة مع العثمانيين هو في غنى عنها، فخلق ذلك جفوةً شديده وتوتراً

(1) علي رشاد: قرون جديدة تاريخي، ج 1، عامره مطبعة سي، إستانبول، 1332هـ، ص 72.

(2) Danişmend İsmail; Hamı, İzahlı Osmanlı Tarihi kronolojisi, clit. 1, İstanbul, 1947, s 374.

(3) Uzunçarşılı; Osmanlı Tarihi, g.a.e, C.2, s 155-164.

(4) وقد ظل الأمير جم محتجزاً بإحدى مدن جنوب فرنسا لمدة سبع سنوات، حيث تم استخدامه كوسيلة ضغط وابتزاز مالي وسياسي على السلطان بايزيد الثاني من قبل البابا وملوك أوروبا، وفي عام 1494م شرع شارل الثامن ملك فرنسا في إعداد حملة صليبية كبرى على المشرق الإسلامي بهدف الاستيلاء على القدس، فاصطحب معه الأمير جمقهوراً وعندما وصلوا إلى مدينة نابولي الإيطالية توفي الأمير جم مسموماً وكان ذلك في سنة 1495م، وقد اتهم السلطان بايزيد بتدبير هذه الحادثة وقيل غير ذلك و اختلفت الآراء وتباينت الرويات في الجهة المدبرة لقتله ودوافعها. عاشق باشا زاده: أحمد درويش، عاشق باشا زاده تاريخي، عامره مطبعة سي، إستانبول، 1332هـ، ص 251.

(5) وقد حاول السلطان قايتباي جاهداً في استعادة الأمير جم من أيدي فرسان القديس يوحنا وملك فرنسا لكي يستخدمه في الضغط على السلطان بايزيد الثاني، فكاتب البابا وملوك أوروبا وقدم لهم الكثير من العروض والهدايا، إلا أنه لم ينتج في استرداده منهم. هايد: ف، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ج 3، ترجمة: أحمد محمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1985م، ص 36.

في العلاقات بين الطرفين، ومما زاد حنق السلطان بايزيد على المماليك أن السلطان قايتباي لم يقيم بتعزيتته في وفاة والده السلطان الفاتح كما أنه لم يبعث لتهنئته بجلوسه على عرش السلطنة،⁽¹⁾ ولم يقف عند ذلك الحد بل إنه بمجرد وصول خبر وفاة السلطان الفاتح وتولى بايزيد الحكم، قام باحتجاز الموفد العثماني وبرفقته موفد سلطان البهانيين الهندي⁽²⁾ وهما بالحجاز في طريقهما إلى الديار العثمانية، كما صادر الهدية الملكية التي يحملها موفد البهانيين إلى السلطان العثماني،⁽³⁾ علاوة على أن السلطان قايتباي قد رفض طلب السلطان بايزيد ولم يسمح له بالقيام ببعض الاصلاحات المعمارية وقنوات المياه بمكة المكرمة،⁽⁴⁾ وقد يُفهم من هذه التصرفات التي قام بها السلطان قايتباي عدم اعترافه باعتلاء السلطان بايزيد الثاني سدة الحكم بعد وفاة أبيه السلطان الفاتح، وكذلك اعتبر السلطان بايزيد أن في ذلك إهانة واضحة له وتعدياً على حرمة وهيبة دولته،⁽⁵⁾ فتأكدت العداوة بين الطرفين وكانت قضية إيواء السلطان قايتباي للأمير جم ثم مساعدته له ودعمه في تمرده ومطالبته بالسلطة القشة التي قصمت ظهر البعير في توتر العلاقات الدبلوماسية بين المماليك والعثمانيين،⁽⁶⁾ حيث تحول هذا التوتر إلى عداوةٍ مُعلنٍ ثم صراعٍ مسلحٍ بين الطرفين فيما بعد.

(1) Tansel; Selahattin, Sultan II. Bayezit'in Siyasi Hayati, TTK Yay, Ankara, 1966, s94.

(2) البهانيون سلاطين مملكة داكان بالهند، وهي المملكة الهندية الوحيدة التي كانت لديها علاقات دبلوماسية وتجارية وتبادل سفارات مع العثمانيين إبان عصر السلطان محمد الفاتح والوزير البهاني عماد الدين محمود غوان. Inalcik; Halil, Bursa and the Commcere of the Ievant, Jesh 3, 1690, p141.

(3) ابن إياس: مصدر سابق، ج3، ص216-215.

(4) طه زاده داغستاني: مراد عمر فاروق بن محمد، تاريخ عثمانيده سياست ومدنيت اعتباريله حكمت اصليله تحريسته تشبت «تاريخ أبو الفاروق»، ايكنجي جلد، مطبعة آمدي، 1328هـ، ص128.

(5) ابن طولون: مفاكهة الخلان، مصدر سابق، ج1، ص47.

(6) بالإضافة إلى أن السلطان قايتباي قد رفض طلب السلطان بايزيد في إرسال وترحيل أسرة الأمير جم ووالدته من القاهرة إلى استانبول، وذلك بعد هزيمة الأمير جم الأخيرة وفراره إلى فرسان القديس يوحنا. أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، ج1، ص189.

4.2.3 تعسر العلاقات الدبلوماسية والحرب الأولى بين المماليك والعثمانيين وآثارها الاجتماعية والأخلاقية 1501-1484م:

وبعد أن تعسرت العلاقات الدبلوماسية واحتدم الخلاف بين الدولتين، وكرده فعل على تصرفات سلطان المماليك قام السلطان بايزيد الثاني بدعم الأمير علاء الدولة بن دلغادر الذي أعلن عصيانه وتغوله على بعض الأراضي التابعة لسلطان المماليك،⁽¹⁾ وتمكن من قتل نائب حلب وأسر نائب عيتاب واستحوذ على بعض القلاع وغيرها من الأراضي المملوكية، إلا أن السلطان قايتباي لم يقف مكتوف الأيدي فسارع بإرسال حملة عسكرية تحت قيادة الأميران أزدمر وتمراز الشمسي لتأديب الأمير علاء الدولة الدلغادري المدعوم من قبل العثمانيين، فتمكن الشمسي من هزيمتهم واسترجع بعضاً من القلاع والأراضي التي تغول عليها علاء الدولة في سنة 1484م وكان ذلك أول صراع عسكري يقع بين الدولتين،⁽²⁾ وعلى الرغم من انتصار المماليك على التحالف العثماني الدلغادري في هذه المعركة، إلا أن السلطان قايتباي قد مال إلى السلم مع العثمانيين نسبةً لسوء أحوال بلاده اقتصادياً وسياسياً، فأرسل معذراً إلى السلطان بايزيد عن تصرفاته تلك وأصبح رسالته ببعض الهدايا ومن ضمنها هدية ملك الهند البهاني الخاصة بالسلطان العثماني التي احتجزها سابقاً،⁽³⁾ بالإضافة إلى تفويض من الخليفة العباسي للسلطان بايزيد الثاني بأن يحكم ماتحت يده وكل الأراضي التي سيفتحها من أراضي الروم بإسم الخلافة وقد منحه لقب سلطان الروم، إلا أن السلطان بايزيد لم يقبل اعتذار السلطان قايتباي حيث شعر بالاهانة والغبن بعد هزيمة عساكره أمام المماليك،⁽⁴⁾ فأعاد الكرة على الأراضي المملوكية المجاورة له بقيادة الأمير عبدالله قراغوز

(1) وقد خرج علاء الدولة بن دلغادر والمعروف بعلي دولت في بعض المصادر العربية والعثمانية من الشام بأهله وولده خوفاً من السلطان المملوكي على خلافٍ وقع بينهما، فلتجأ إلى ابن عثمان ملك الروم مستعيناً به في هذا الأمر، وكان ذلك في سنة 1500م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، مصدر سابق، ج15، ص67-61.

(2) ابن إياس: مصدر سابق، ج3، ص210-206.

(3) Tekindağ; Şehaheddin, II. Bayezid Devrinde Çukurova'da Nüfuz Mücadelesi ve İlk Osmanlı Memluklu Savaşları "1485 - 1491", TTK Belleten, Ankara, 1967, s350.

(4) الحويري: محمود محمد، تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، 2001م، ص195.

والأمير علاء الدولة فحققا انتصاراً ساحقاً على المماليك وتمكنوا من ضم العديد من القلاع والمدن المملوكية، كما قاموا بتأديب بعض العشائر التركمانية المؤيدة للمتمردين في الأناضول،⁽¹⁾ فسير إليهم السلطان قايتباي بدوره عساکراً مصرية بقيادة الأمير أوزبك وقد دارت الدائرة على التحالف الدلغادري العثماني أيضا في هذه المعركة وأسر رهط من كبار قادتهم وفي مقدمتهم القائد أحمد بك بن هرسك وكان ذلك في سنة 1485م،⁽²⁾ وقد زادت هذه الهزيمة التي ألحقها المماليك بالعثمانيين حدة الخصومة بين الدولتين، وأصبح كلا الطرفين في حالة ترقب دائم واستعدادٍ وتقصي لأخبار ونقاط ضعف الطرف الآخر، وقد أرسل أحدهم إلى السلطان بايزيد يخبره بضعف سلطنة المماليك وما بها من فتن واضطرابات داخلية ونقمة الرعية على المماليك وسلطانهم، وأوعز إليه بأن يهاجم الشام ومصر عن طريق البحر،⁽³⁾ وبعد أن تحرى السلطان بايزيد من الأمر قام بإحكام سيطرته على الطرق التجارية المؤدية إلى الموارد الأساسية التي يعتمد عليها المماليك في تعزيز وتقوية دولتهم عسكرياً واقتصادياً، وهي تتمثل في الأخشاب التي تستخدم في صناعة السفن التجارية والحربية، ثم مصادر وأسواق الرقيق بمنطقة البحر الأسود والقوقاز وشبه جزيرة القرم، بذلك يتمكن العثمانيون من إضعاف دولة المماليك اقتصادياً وعسكرياً،⁽⁴⁾ وبعدها قام السلطان بايزيد الثاني بإفاد حملة بحرية وأخرى برية نحو الأراضي المملوكية فتمكنوا من الاستيلاء على العديد من المدن والقلاع وكان ذلك في سنة 1487،⁽⁵⁾ وعندما بلغ السلطان قايتباي الخبر

(1) بغض النظر عن الخلافات السابقة بين الدولتين، قام السلطان بايزيد بإرسال مکتوب إلى سلطان المماليك يوضح فيه سبب دخوله إلى أراضيهم، وقتاله لتلك القبائل التركمانية وبعض الجماعات الأرمنية الذين يهاجمون بلاده ويعيشون في الأرض الفساده بممارستهم السلب والنهب وقطع الطريق والتعرض للقوافل الحجيج العثماني وغير ذلك من المفاسد والأعمال المنافية للدين ومكارم الأخلاق، وعلى الرغم من علم المماليك بذلك بيد أنهم كانوا يغيضون الطرف عن هذه القبائل وممارساتها اللا أخلاقية وانتهاكها لحقوق الرعية بالمجتمع الأناضولي، إلا أن السلطان قايتباي لم يقبل ذلك كما أنه لم يحسن معاملة الموفد العثماني وقابله بقلة احترام. سعد الدين أفندي: مصدر سابق، ج2، ص49.

(2) عاشق باشا زاده: توارخ آل عثمان، مطبعة عامره، استانبول، 1332هـ، ص234-233.

(3) وهو رجل يدعى إياس وقيل أنه كان جاسوساً يعمل لصالح العثمانيين بالأراضي المملوكية. متولي: مصدر سابق، ص48. Topkapı sarayı Müzesi Arşivi, nr.6671.

(4) طقوش: محمد سهيل، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، دار النفائس، بيروت، 1997م، ص488.

(5) سعد الدين أفندي: مصدر سابق، ج2، ص55.

شرع من فوره في حشد عساكره وقيل إنه كان ينوي الخروج بنفسه على رأس العسكر إلا أنه قد أناب عنه الأمير أوزبك في قيادة الحملة،⁽¹⁾ أما العساكر العثمانية فقد وقع خلافٌ وسط قادتهم ذلك مما أحدث اضطراباً في صفوفهم، علاوة على رفض البنادقة الذين كانوا يسيطرون على جزيرة قبرص لطلبهم في السماح لهم بإرساء سفنهم العسكرية للاستراحة وشراء المؤن من أسواق الجزيرة وذلك لأن مصالح البنادقة آنئذ كانت تتوافق مع سياسة المماليك وتوجهاتهم،⁽²⁾ فكان ذلك سبباً في هزيمة العثمانيين مره أخرى أمام العساكر المملوكية حيث تمكن قائدهم الأمير أوزبك من التقدم والتوغل في الأناضول حتى وصل إلى مدينة أدنه فدخلها واستولى عليها⁽³⁾،⁽⁴⁾ ولكن على الرغم من تفوق المماليك على العثمانيين في الكثير من المعارك إلا أن السلطان قايتباي قد مال إلى الصلح مع العثمانيين وذلك بعد أن أنهكت دولته اقتصادياً وضعفت وتفككت داخلياً لأسباب عديدة منها كثرة تمرد طوائف الجلبان الذين ما كادوا يصلون إلى القاهرة بعد نهاية الحرب، فشرعوا في إثارة الفتن وإعلان التمرد مطالبين بنفقاتهم والزيادة فيها مكافأة لهم على انتصاراتهم التي

(1) وقيل أنها وقتئذ كانت أكبر حملة تخرج من الديار المصرية منذ أن اعتلى الجراكسة سُدة الحكم، وقد أفرغت خزينة الدولة جراء إعدادها، وقد ارتكب السلطان قايتباي مظالم شنيعة في سبيل جمع الأموال اللازمة لتجهيز الحملة، وانتهج سبلاً منافية للأخلاق وغير مشروعة في سبيل تحقيق ذلك، فلم يتورع عن مال الأوقاف وأملاك الناس من الأراضي والمحلات التجارية، وفرض ضرائباً استثنائية على اليهود والنصارى وكبار التجار من المسلمين، كما أرغم أولاد الناس وغيرهم على الدخول في الخدمة العسكرية والمشاركة في الحملة قهراً مقابل إقطاعات صغيرة من الأراضي الزراعية وقيل أنه قد استرد منهم الكثير بعد عودتهم من الحرب، وقد ندب العُربان وجماعاتٍ من الزعر للمشاركة في الحملة وكان ذلك في سنة 1486م. ابن إياس: مصدر سابق، ج3، ص 238-236.

(2) ومما زاد الأمر تعقيداً وصعوبةً على الأسطول العثماني، هبوب عاصفةٍ شديدة أغرقت معظم السفن العثمانية بالقرب من شواطئ الإسكندرونة. ابن إياس: مصدر سابق، ج2، ص 261.

(3) وقد عاث الجلبان الفساد في المدن الأناضولية التي دخلوها، فكانوا يهبون ويخربون كل شيء يقع في طريقهم، وكانت مدينة قيسارية من أكثر المدن التي تضررت من معرة الجلبان بالأناضول فقد أحرقوها بعد أن نهبوا كل ما فيها من الأموال والمواشي، بيد أنهم لم يظفروا بقلعتها، وكذلك فعلوا بمدينة نكيدة وقره حصار ولارنده فأتوا بها كل فاحشة وفعل قبيح ثم أحرقوها، ولما رجعوا إلى القاهرة وعلم السلطان قايتباي بأفعالهم القبيحة حنق وغضب عليهم، إلا أنه لم يكن بوسعهم تأديبهم وذلك لشدة ضعف واضطراب الدولة آنئذ وحاجته إليهم، فما كان منه إلا أن خرج لاستقبالهم بوجهٍ طلق استقبال الفاتحين المنتصرين. 600-Müneccimbaşı; g.a.e, II.cilt, s 559.

(4) Tekindağ; g.a.e, s 362.

حققوها للسلطنة على العثمانيين، فتسلطوا على الخلق ونهبوا بيوت الأعيان وأحرقوها وهددوا بقتل جميع أمراء المماليك الموجودين بمصر آنئذ في حال عدم تلبية السلطان لمطالبهم، فضاق بهم السلطان قايتباي ذرعاً وجمع القضاة والأمراء وعقد مجلساً للشورى للنظر في أمر الجلبان وسوء تصرفاتهم وأخلاقهم وعدم مراعاتهم لتدهور الحالة المادية وفراغ خزينة الدولة، وقد أفضى المجلس إلى فرض أتاوات على الأوقاف وأرباب الأملاك والغيطان بجميع أنحاء مصر والقاهرة وأن تجبى مقدماً لمدة شهرين لمساعدة السلطان في النفقة وحل مشكلة الجلبان،⁽¹⁾ وكذلك فعلوا بالشام حتى إن نائبهم قد تسلط على البيمارستانات والمدارس والجوامع الوقفية وقام بمصادرة الصدقات الجارية وقطع رواتب الأيتام والضعفاء وزهاد الصوفية وغير ذلك من المفاسد والمظالم التي أرقّت الرعية،⁽²⁾ ومما زاد الأمر تعقيداً تمرد بعض طوائف العربان وظهر انقسامات داخلية ومكائدات بين الأمراء وبقية طوائف المماليك، علاوة على موجات الغلاء التي تعرضت لها البلاد وانتشار الغش والاحتكار وغير ذلك من مفاسد الأخلاق في المجتمع لاسيما بين التجار والقضاة وكبار رجال الدولة ذلك مما زاد نقمة الرعية على المماليك،⁽³⁾ فتضايق السلطان قايتباي وسئم من هذه الأحوال وهم بخلع نفسه من السلطة، وصرح بذلك مهدداً للأمراء بأنه سوف يخلع نفسه ويحملهم مسؤولية السلطنة ويعتزل بمكة المكرمة، فاجتمعوا عليه واحضروا إليه القضاة وكبار رجال الدين فسكنوه وتمنوا عليه البقاء في منصبه حتى لاينفرط الأمر وتضطرب أحوال المجتمع والسلطنة أكثر مما هي عليه فاستجاب لهم وانشئ عن رأيه،⁽⁴⁾

(1) السخاوي: وجيز الكلام، مصدر سابق، ج3، ص1089-1078.

(2) وقد ضاق الحال بأهل الشام ذرعاً من ظلم المماليك وحكامهم، حيث كانوا يفرضون عليهم الضرائب أضعافاً مضاعفة ويسلبون وينهبون أموالهم بغير وجه حق كلما أرادوا تسير تجريدة أو حملة على عدو لهم، علاوة على تعرض الجلبان لأموالهم وأعراضهم وأرواحهم ومدنهم لاسيما مدينتي حلب ودمشق عند أوبتهم من الأناضول إبان حملة الأمير أوزبك بك الأخيرة، فعاثوا الفساد فيها وخرّبوا وسرقوا ونهبوا وارتكبوا الفواحش وكل صنوف مفاسد الأخلاق، حتى اضطر الأهالي إلى الهرب من المدن خوفاً على الأرواح وأعراضهم وأموالهم من معرة العساكر المملوكية. ابن طولون: مفاكهة الخلان، مصدر سابق، ج1، ص130-121.

(3) ابن أجا: مصدر سابق، ص189-187.

(4) ابن إياس: مصدر سابق، ج3، ص270.

وللتمهيد لأمر الصلح مع العثمانيين وتمهدة الأوضاع قام السلطان قايتباي باطلاق سراح الأسرى العثمانيين وفي مقدمتهم القائد أحمد بن هرسك الذي طلب منه التوسط في حل الأزمة والخلاف الذي وقع بينه وبين السلطان بايزيد، وقد أرسلهم إلى بلادهم بصحبة وفد دبلوماسي ذلك بعد أن جهزهم وأعدهم للسفر وحملهم بالهدايا القيمة،⁽¹⁾ على أمل أن يتم الصلح بينه وبين العثمانيين،⁽²⁾ بيد أنه لم يتوقف عن إعداد قواته العسكرية وتدعيمها، علاوة على اجتهاده في تكوين أحلاف عسكرية جديدة حيث أرسل إلى يعقوب بن أوزون حسن سلطان دولة الآق قوينلو وفداً دبلوماسياً محملاً بالهدايا يعرض عليه التحالف ضد العثمانيين، فكان رد السلطان يعقوب دبلوماسياً حيث لم يكن يريد دخول الصراع أو كسب عداوة أحد الطرفين، فتودد للسلطان قايتباي في رده وعرض عليه إيقاف الحرب، ووعده بأنه سوف يعمل على إحلال السلام في المنطقة والإصلاح بين الطرفين وكان ذلك في سنة 1487م،⁽³⁾ ولم يترك السلطان قايتباي شيئاً من التدابير اللازمة لتأمين بلاده وسلطانه إلا وقد أتاها حتى وإن كان ذلك بطرق منافية للدين والأخلاق، فلم يتوانى في سعيه عن طلب استرجاع الأمير جم من فرسان القديس يوحنا وبذل لهم الغالي والنفيس في سبيل ذلك من أجل استخدامه في الضغط على السلطان بايزيد إذا ما فشلت المفاوضات والوساطات الدبلوماسية في حل الأزمة والخلاف،⁽⁴⁾ ولكن على الرغم من ذلك إلا أن الحرب لم تضع أوزارها وظلت سجلاً بين الطرفين ففي سنة 1488م تمكن العثمانيون بقيادة علي باشا من الاستيلاء على مدينتي طرسوس وأدنه وكامل منطقة جوقوروا بالأناضول، ولكن سرعان

(1) عاشق باشا زاده: مصدر سابق، ص 234-233.

(2) وقد حاول السلطان قايتباي توسط أمير مدينة نابولي الإيطالية للصلح بينه وبين العثمانيين إلا أن السلطان بايزيد لم يقبل تلك الوساطة. Harb; Harb; Muhammed Abdülhamid, I. Selim'in Suriye ve Mısır seferi hakkında İbn İlyas'da mevcut haberlerin Selimnamelerle mukayesesi (XVI. asır Osmanlı-Memlûk kaynakları hakkında bir tetkik), Doktora tezi, İstanbul Üniversitesi, Edebiyet Fakültesi, Tarihi Bölümü, 1980, s 25.

(3) ابن إياس: مصدر سابق، ج 3، ص 233.

(4) وقد زعم البعض أنه قد أظهر استعاده لتلبية جميع طلباتهم بما ذلك التنازل عن بيت المقدس للبابوية أو ملك فرنسا إذا ما اضطر لذلك. موير: السير وليم، تاريخ دولة المماليك بمصر، ترجمة: محمود عابدين وسليم حسن، مكتبة مدبولي، القاهرة، ص 73.

ما هب المماليك بقيادة الأمير أوزبك فاستعادوا مدينة أذنه وهزموا علي باشا العثماني في معركة آغا جايري بالأناضول سنة 1489م،⁽¹⁾ وفي العام التالي حاصر الأمير أوزبك قلعة قيصري وأسر عدداً من القادة العثمانيين وأرسلهم إلى القاهرة،⁽²⁾ وبعد هذه الانتصارات المملوكية المتتابة على العثمانيين أدرك الأمير علاء الدولة بن دلغادر بأنه لن يسلم من انتقام المماليك إذا ما استمر الحال على هذا النحو، وأن ماتقتضيه المصلحة السياسية في الوقت الراهن هو العمل على التودد إلى السلطان قايتباي وأمراء المماليك، فقام بتزوج ابنته من الأمير القائد أوزبك وأطلق جميع الأسرى الذين بحوزته من عساكر المماليك، وقد أثارت تصرفاته هذه غضب السلطان بايزيد إذ اعتبرها خيانة، وذلك مما دفعه لدعم أخ علاء الدولة ومنافسه شاه بداق بن لغادر الذي هرب من سجن المماليك بالشام وقد تمكن من القبض على أخيه علاء الدولة وأولاده بمنطقة البستان سنة 1490م، إلا أن قوات المماليك سرعان ما هبت لدعم علاء الدولة وتمكنوا من هزيمة شاه بداق المدعوم من قبل العثمانيين،⁽³⁾ ولما بلغت الأخبار السلطان بايزيد شرع في تجهيز حملة عسكرية ضخمة وهم بالخروج عليها بنفسه، وفي تلك الأثناء وصل إلى استانبول القاضي محمد الحلفاوي موفد المتوكل على الله عثمان الحفصي⁽⁴⁾ سلطان تونس بغرض التفاوض مع السلطان بايزيد ومحاولة ثنيه عن الحرب، وكان ذلك بطلب من السلطان قايتباي للتوسط في الصلح بينه وبين العثمانيين،⁽⁵⁾ فرحب السلطان بايزيد بالموفد وأكرمه غاية الكرم، فتقدم إليه الموفد بهدية صاحبه أولاً وهي عبارة عن مصحف وبعض كتب الحديث النبوي الشريف، ثم قرأ عليه رسالة موفده، والتي تناول فيها سلطان تونس حال الأمة الإسلامية وما تعانيه من تشتت وضياع، لاسيما

(1) Tekindağ; g.a.e, s 55.

(2) Uzunçarşılı ;Osmanlı Tarihi, g.a.e, II. cilt, s194.

(3) سعد الدين خوجه: مصدر سابق، ج2، ص64-62.

(4) السلطان المولى أبو عمر عثمان بن أبي عبدالله محمد المنصور الحفصي، وهو من أعظم سلاطين الدولة الحفصية بتونس وأطولهم عهداً حيث امتدت فتره حكمه إلى مايزيد على نصف قرن من الزمان (1435م - 1488م)، وقد عُرف بشدة ورعه وعدله وحيه للخير وعطفه على الرعية وشدة حبه لهم له. ابن أبي دينار: أبو عبدالله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، المكتبة العتيقة، تونس، 1967م، ص159-156.

(5) ابن الحمصي: مصدر سابق، ج1، ص327.

حالة مسلمي الأندلس الذين ضُيق عليهم من قبل ملوك النصارى الأسبان الذين اتحدوا⁽¹⁾ من أجل القضاء على الاسلام والمسلمين بالأندلس التي لم يبقَ بها للمسلمين دار إلاً بقرناطة وهي على شفا حفرةٍ من السقوط، وهاهم أهلها وسلطانها يستغيثون بأخوانهم المسلمين في كل مكان من ظلم الأسبان،⁽²⁾ وكذلك حثه في رسالته ورجاه بأن يتراجع عن محاربة المماليك ويحقن دماء المسلمين وتوحيد كلمة الأمة ونصرة إخوانهم الأندلسيين وإنقاذهم من تسلط محاكم التفتيش الأسبانية،⁽³⁾ وكذلك فعل جمع من الوجهاء والعلماء الذين ساءهم حال الأمة بتعطل مصالح المسلمين وخراب بلادهم وانتشار القلق والذعر في نفوس الرعية

(1) حيث عُقدت اتفاقية فيلا فرنكا بين أسبانيا والبرتغال سنة 1509م، لتقسيم مناطق النفوذ والتوسع فيما بينهم، وقد شملت منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط وبلاد شمال إفريقيا، وتم بموجبها منح الحق في احتلال مناطق الجزائر وتونس وطرابلس لأسبانيا، بينما تستأثر البرتغال ببلاد المغرب. دراج: محمد، الدخول العثماني للجزائر دور الإخوة بربروس»، رسالة دكتوراة منشوره، جامعة مرمرة، ترجمة محمد دراج، دار الأصاله، الجزائر، 2012م، ص 99-100.

(2) فعلياً قد أرسل سلطان بنو الأحمر صاحب قرناطة إلى القاهرة مستغيثاً بالسلطان قايتباي من تغول النصارى على الديار الإسلامية بالأندلس ومضايقتهم واضطهادهم للمسلمين، وقد بكى السلطان قايتباي لما سمع بأحوال المسلمين هناك ورأى ضعفه وقلة حيلته، فما كان منه إلا أن كتب إلى قساوسة كنيسة القيامة يطلب منهم أن يتدخلوا ويرسلوا إلى ملوك الفرنج ليفرجوا عن المسلمين بالأندلس، وإلا فإنه سيهدم كنيستهم ويضيق على رعاياهم بمصر والشام ويمنع جميع نصارى أوروبا من الحج إلى فلسطين ومزاولة التجارة البحرية في الديار الإسلامية، وكذلك أرسل ملك بني الأحمر إلى السلطان بايزيد الثاني مستنجداً به، وعلى الرغم من تشتت قوات العثمانيين وكثرة مشاكلهم الداخلية وفتنة الأمير جم وتمرد بعض أمراء وزعماء العشائر التركمانية وظهور المد الشيعي في الأناضول، علاوةً على خلافاتهم وتوتر علاقاتهم مع المماليك بالإضافة إلى الخطر والصراع الدائم مع ملوك أوروبا النصرانية، قام السلطان بايزيد بإرسال أسطول بحري بقيادة كمال رئيس لمساعدة مسلمي الأندلس، الذي استتمت في الدفاع عن المسلمين في سواحل وجزر البحر الأبيض المتوسط، وبعد سقوط قرناطة ساعد ذلك الأسطول في إجلاء المسلمين بل وحتى المضطهدين من يهود الأندلس إلى دول شمال إفريقيا والأراضي العثمانية، وكان ذلك في عام 1487م. أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، ج 1، ص 194-196. Seyfi; Ali Rıza, Büyük Osmanlı Denizcileri- Kemal Reis ve Baba Oruç, Çamlıca Basım Yayın, İstanbul, 2012, s123. Akgündüz ve Öztürk; Ahmed ve Said, Bilnmeyen Osmanlı, 129-Osmanlı Araştırmaları Vakfı, İstanbul, 2000, 128.

(3) محاكم التفتيش هي عبارة عن مؤسسات كنسية متعصبه، تعمل على مراقبة أصحاب الأفكار المخالفة للتعاليم الكنسية ومعاقبة المخالفين بأشد صنوف التعذيب، وقد أسست في القرن الثالث عشر الميلادي وطبقت في بداياتها في إيطاليا وفرنسا وألمانيا، ثم انتقلت إلى أسبانيا بعد سقوط قرناطة، حيث مارست أشنع أنواع القهر والتعذيب والاضطهاد على مسلمي الأندلس وعملت على تصيرهم قهراً. دراج: محمد، مرجع سابق، ص 46.

وتعطل قوافل الحجيج، بسبب تصارع أكبر دولتين إسلاميتين آنئذ، في حين اتحاد ملوك أوروبا وتسلطهم على المسلمين وتغولهم على الديار الإسلامية بين الفينة والأخرى،⁽¹⁾ وقد أرسل العالم العثماني الكبير علاء الدين علي المعروف بالشيخ مُلا عرب موفد إلى السلطان قايتباي يدعوه إلى الصلح والسلم وحقن دماء المسلمين وكذلك فعل من قبل مع السلطان بايزيد،⁽²⁾ وقد وُفق الشيخ مُلا عرب وموفد السلطان التونسي في اقناع السلطان بايزيد بالجنوح إلى السلم وحقن دماء المسلمين وكان ذلك في عام 1491م، وتم الإتفاق بين الطرفين على أن تثبت الحدود الجغرافية بين الدولتين على ماكانت عليه قبل الحرب، وأن تبقى الأراضي المتنازع عليه في أدنه وطرسوس موقوفةً لصالح الحرمين الشريفين وفقراء مكة والمدينة، وأن تعود إمارة دلغادر تحت رعاية العثمانيين، وكذلك إمارة بنو رمضان للسيادة المملوكية،⁽³⁾ وفعلياً قام السلطان بايزيد من فوره بإطلاق سراح القائد المملوكي ماماي الخاصكي الذي كان محتجزاً عنده، وأرسله إلى القاهرة مكرماً محملاً بالهدايا وبصحبته موفداً عثمانياً يحمل معه مفاتيح القلاع المملوكية التي استحوذ عليها العثمانيون إبان الحرب، فسُرَّ السلطان قايتباي بذلك وبالغ في إكرام موفد السلطان العثماني،⁽⁴⁾ وقام بدوره بإطلاق الأسرى من القادة والأمراء العثمانيين والذين كانوا بحوزته، وأحسن إليهم وكساهم ثم أرسلهم مع موفده إلى السلطان العثماني مكرمين محملين بالهدايا إلى ديارهم، وأجاب السلطان بايزيد موفد السلطان قايتباي إلى كل المصالح التي سأله إياها، وكذلك فعل علاء الدولة بن دلغادر مؤكداً للصلح مع المماليك فأرسل ابنه محملاً بالهدايا إلى القاهرة، فأكرمه السلطان قايتباي وأتاه سؤله من المصالح وأرجعه محملاً بالهدايا إلى والده،⁽⁵⁾ وبعد إتمام الصلح بين الدولتين تبادل الطرفان الهدايا والمراسلات وتم تزويج الأمير الناصر محمد بن

(1) شيمشير غيل: مرجع سابق، ج3، ص 41-40.

(2) البصري: مصدر سابق، ص 141-140.

(3) Tekindağ; a.g.e, s 371.

(4) عاشق باشا زاده: مصدر سابق، مج3، ص 240.

(5) Müneccimbaşı; a.g.e. II.cilt, s 600-601.

السلطان قايتباي من الأميره جوهر ملك سلطان ابنة الأمير جم أخ السلطان بايزيد الثاني،⁽¹⁾ كما استؤنفت حركة التبادل التجاري بين البلدين، حيث كان المماليك يعتمدون على استيراد خام الحديد والبارود والأخشاب وغيرها من أطراف الأراضي العثمانية وماجاورها من البلدان، بالإضافة إلى استجلاب الغلمان من أسواق الرقيق بمنطقة البحر الأسود وبلاد القوقاز حيث يتم ترحيلهم إلى مصر عبر الأراضي العثمانية،⁽²⁾ وقد ظلت العلاقات طيبة بين الدولتين حتى وفاة السلطان قايتباي سنة 1496م، وبوفاته كانت بداية النهاية لدولة المماليك حيث ازداد ضعفها وكثر اضطرابها داخلياً وتوالت عليها الأزمات والفتن،⁽³⁾ وقد خلف محمد الناصر بن السلطان قايتباي أباه على الحكم، ولم يكن ذا خبرة وكفاية تؤهله لإدارة البلاد في تلك المرحلة الحرجة آنئذ،⁽⁴⁾ بيد أنه قد حافظ على حُسن العلاقة مع العثمانيين فمجرد اعتقاله عرش السلطنة بعث إلى السلطان بايزيد يخبره بذلك مؤكداً على حفظ المودة وطيب العلاقة بين الدولتين، وبسبب جهله وطمعانه وفساد أخلاقه، علاوةً على شدة تصارع الأمراء على السلطنة وكثرة الفتن والاضطرابات لم يتمكن الناصر من الاستقرار في الحكم كثيراً وانتهى الأمر بقتله، وتعاقب على السلطة في فترة وجيزة لاتتجاوز الخمس سنوات أكثر من أربعة سلاطين وكانت نهايتهم بالقتل أو العزل ولم تشهد البلاد ظلماً وفساداً وتعسفاً واستبداداً وضياعاً لحقوق الناس وأكلاً لأموالهم بالباطل مثل ما وقع من المماليك في تلك الحقبة، ولم يستقر الأمر إلا على يد السلطان قانصوه الغوري⁽⁵⁾ الذي

(1) ابن إياس: مصدر سابق، ج3، ص119.

(2) إيفانوف: مرجع سابق، ص55.

(3) وعلاوةً على الاضطراب والفساد السياسي والاقتصادي، فقد حل بالبلاد طاعون فتاك في أواخر عهد السلطان قايتباي حتى قيل إنه قد مات بالقاهرة في يوم واحد قرابة اثني عشر ألف شخص ومن بينهم زوجة السلطان وابنته، وقد فنى ثلث المماليك جراء هذا الوباء. موير: مرجع سابق، ص175.

(4) وكان حدثاً لايتجاوز سنه أربعة عشر عاماً عند توليه السلطنة، وقد عُرف بفساد أخلاقه وجهله وضعف شخصيته وطيّشه وعدم تورعه عن دماء الناس وأموالهم وحرمانهم، ويرجع ذلك إلى سوء تربيته حيث عاش طوال فترة طفولته شبه محبوس في القلعة ولم ير البحر قط، وكان أول نزول له من القلعة لحضور حفل أتاك العسكر السلطاني بالأوزبكية، وقد حاول أبوه التعديل في سلوكه وأخلاقه فأرسله إلى طباق الجلّبان حتى يتأدب وقد أوصى الطواشي والمشرفين بالغلظة عليه ومعاملته مثل الجلّبان إلا أن ذلك لم يجد فيه نفعاً، وظل الناصر على فساد أخلاقه غير محبوب لدى الجميع حتى أبوه وقيل إنه لم يمنحه لقب الإمارة حتى وفاته. ابن إياس: مصدر سابق، ج3، ص308-305.

(5) هو أبو النصر سيف الدين الملك الأسرف قانصوه الغوري، وهو من المماليك الاشرافية التابعين للسلطان

اعتلى سُدة الحكم في عام 1501م،⁽¹⁾ وقد عمل على توطيد العلاقات ومظاهر الصلات الطبية مع العثمانيين، حيث بعث إليه السلطان بايزيد مهنتاً له على جلوسه على العرش، ثم تبادل الطرفان المراسلات والهدايا،⁽²⁾ وقد وصف السلطان الغوري السلطان بايزيد بالغازي أي المجاهد وأثنى على جهوده في الدفاع عن المسلمين وحركته الجهادية في بلاد الروم، ولكي يبين له مدى احترامه وتقديره له أرسل إليه يبلغه بوصول ابنه الأمير قورقود إلى مصر اثناء مسيره إلى الأراضي المقدسة بالحجاز،⁽³⁾ ويستأذنه في السماح له بدخول مصر وزيارتها، فسرَّ السلطان بايزيد بذلك وشكر السلطان الغوري على احترامه له ولقبه بالأخ، وبناءً على ذلك سُمح للأمير قورقود بالدخول إلى الديار المصرية وقد بالغ السلطان الغوري في إكرامه واستقبله وعامله معاملة الملوك، واتحفه بالهدايا الثمينة حين عودته إلى دياره ووجه معه عسكرياً للحماية وستة وعشرين مركباً لمرافقته وحمل متاعه،⁽⁴⁾ وأيضاً من مظاهر التعاون بين الدولتين إبان الحملات الصليبية البرتغالية على العالم الإسلامي بغرض

قايتباي، أُحضر إلى القاهرة من بلاد الجركس وهو شاب، فأُنزل بطباق الغور وتلقى تعليمه وتدريبها به، كان مجيداً للتركية فصيحاً بها، شجاعاً مقداماً لبيباً صاحب رأي ومكيدة، وبمجرد اعتلائه عرش السلطنة اتخذ من الجلبان مماليكاً له يؤمن بهم نفسه وسلطانه، إلا أنهم مالبثوا يظلمون الناس ويظهرون مفاسد الأخلاق ويهلكون العباد وهو يتغافل عنهم، ومالبت أن صار مثلهم لايتورع عن أموال الناس وانتهاك حقوقهم وحرمانهم بغير وجه حق، فجمع ثروة ضخمة بهذه الطريقة، وقد ضاق الناس بهم ذرعا وابتهلوا إلى الله تعالى بالدعاء عليهم حتى سلط الله عليهم ابن عثمان، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، وكانت وفاته بمرج دابق تحت سنابك الخيل سنة 1517م ولم يعثر له على جثة. منجم باشي، أحمد بن لطف الله السلانيكي الرومي، كتاب جامع الدول: قسم سلاطين آل عثمان إلى سنة 1083هـ، ج2، دراسة وتحقيق: غسان بن علي الرمّال، دار الشفق للطباعة والنشر، بيروت، 2009م، ص 613-614.

(1) ابن أجا: مصدر سابق، ص 203-204.

(2) Feridun Bey; a.g.e, I.cilt, s 347.

(3) وقد ذكر ابن إياس غير ذلك في سبب قدوم الأمير قورقود، فقال: أنه قد وقع بينه وبين أبيه السلطان جفوه، فقدم الأمير إلى السلطان الغوري ليصلح بينهما، وأن السلطان الغوري قد وفق في الإصلاح بينهما، وأكرم الأمير غاية الكرم وأعادته إلى دياره وأبيه محملاً بالهدايا النفيسة. مصدر سابق، ج4، ص 152-167. وقيل أن سبب الجفوه هو أن الوزراء كانوا يضيقون على الأمير قورقود ويعيقون قضاء حوائجه وطلباته عند والده السلطان، فتضايق من ذلك وكذلك رعيته في الأقليم الذي يحكمه حيث تعطلت مصالحهم حتى أنفوا ذلك وضجروا منه، فضجر الأمير قورقود لضجرهم وخرج مغاضباً أبيه إلى مصر، وكذلك كان الوزراء يفعلون مع الأمير ياووز سليم. بن علي: مرجع سابق، ص 102.

(4) متولي: مرجع سابق، ص 309-319.

السيطرة على طرق التجارة العالمية البحرية والقضاء على هبية المسلمين، حيث تمكنت قواتهم من اجتياح بعض الأراضي والموانئ الإسلامية في الهند، ثم توجهت نحو البحر الأحمر لفرض سيطرتها عليه وانتزاعه من أيدي المماليك وتهديد الأراضي المقدسة والحرمين الشريفين بالحجاز⁽¹⁾،⁽²⁾ وقد مارس البرتغاليون صنوفاً من أساليب الإرهاب وانتهاك حقوق الإنسان فأحرقوا ونهبوا وسلبوا واستعبدوا الكثير من المسلمين، واستولوا على الكثير من السفن المملوكية ودمروا بعضها، بل إنهم صادروا بعض سفن الحجاج المسلمين وأحرقوها بمن عليها، ومن نجا منهم كان يقع في الأسر أو يروح ضحية في غارات البدو والعربان، وهذه الأسباب تعطلت رحلات وقوافل الحجيج الشامي لمدة سبع سنوات، وقد تكررت هذه الأعمال في السنوات ما بين 1506-1502م فأرهبوا دولة المماليك وكبدوها خسائر فادحة في الأرواح والأموال ودمروا جُل سفن اسطولها البحري،⁽³⁾ ونسبةً للأزمات والفتن والاضطرابات التي كانت تعيشها دولة المماليك داخلياً، فقد كانوا بحاجة إلى دعم خارجي لاسيما في مجال التصنيع الحربي والأخشاب لإعداد السفن، فاستغاث السلطان الغوري بالعثمانيين الذين لبوا نداءه وهبوا لنصرته بكل ما أوتوا من قوة وفي عام 1507م وصل أمير البحار العثماني كمال رئيس إلى موانئ الاسكندرية محملاً بالمواد الخام لتصنيع السفن الحربية بالإضافة إلى خمسين مدفعاً مكتملة بذخائرها الحربية،⁽⁴⁾ ثم توالى الإمدادات العثمانية بعد ذلك إلى الديار المصرية حيث لم يعتبروا تلك الحرب خاصةً بالمماليك وإنما هي حربٌ صليبية إسلامية على السيادة العالمية والبقاء فيها للأقوى،⁽⁵⁾ وفي عام

(1) وقد هدد البرتغاليون بالاستيلاء على قبلة المسلمين وأراضيهم المقدسة واستباحة مكة والمدينة، ونش قبر الرسول ﷺ وإخراج جسده الطاهر الشريف. Inalcik; Halil, Osmanlı Tarihine Toplu Bir. 92-Bakış, Ankara Yeni Türkiye Yayınları, 1999, vol.1, p91

(2) الشناوي: عبدالعزيز، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج2، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1987م، 901-899.

(3) إيفانوف: مرجع سابق، ص 40-33-17.

(4) Brummett, Palmira; Ottoman sea power and Levantine diplomacy in the age of discovery, Suny, 1994, p 369.

(5) وقيل أن السلطان الغوري قد بعث إلى السلطان بايزيد مالا ليشتري له به المزيد من الحديد والبارود والأخشاب وغير ذلك من المواد الخام التي تستخدم في تصنيع السفن الحربية، إلا أن السلطان بايزيد قد =

1510م أرسل السلطان بايزيد سفناً محملة بالأخشاب والمواد الخام تكفي لتصنيع ثلاثين سفينة حربية وثلاثين ألف سهم بالإضافة إلى ثلاثمائة مدفع وبارود مقاذف خشبية وغير ذلك من الأسلحة والمعدات الحربية،⁽¹⁾ وقد استمرت الصلات الطيبة والتعاونية بين الدولتين حتى نهاية عهد السلطان بايزيد الثاني وتنازله عن السلطنة لابنه الأمير ياووز سليم⁽²⁾ الأول وكان ذلك عام 1512م،⁽³⁾ أما حال دولة المماليك فقد كانت في تراجع مستمر وراح نجمها يخبو شيئاً فشيئاً، بينما كانت قوة العثمانيين والصفويين في تصاعد متوالى وتنافس على ريادة العالم الإسلامي.

4.3 ظهور التيار الشيعي الصفوي في الأناضول وآثاره الأخلاقية الاجتماعية في العلاقات العثمانية المملوكية

1517-1501م:

في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي حدثت تغيرات وأحداث سياسية واجتماعية

رد المال إليه عندما علم بسوء الأوضاع الاقتصادية التي تمر بها دولة المماليك آنذ، وتكفل بشراء كل ما يحتاجه المماليك من مواد لتصنيع الحربي، على نفقته. ابن إياس: مصدر سابق، ج4، ص169. وفي ذلك تأكيد على كريم أخلاق السلطان بايزيد وعلو همته في استشعار المسؤولية الجماعية تجاه الأمة الإسلامية بدعمه لأخوانه للمماليك والوقوف إلى جانبهم في الدفاع عن المسلمين وحماية الديار الإسلامية من المد البرتغالي الصليبي.

(1) İnalçık; Halil, Osmanlı İmparatorluğu, II.cilt, Kronik Kitap, İstanbul, 2018, p 317.

(2) وهو صاحب الهيبة والمهابة القاهر أول خلفاء بني عثمان السلطان سليم الملقب بياووز أي الشديد القاطع، عُرف بالشجاعة وحدة الطبع والشهامة والبعد عن اللهو والترف، وكان كثير التفحص والتفكر ومطالعة كتب التاريخ وأخبار الملوك والأدب والشعر بالعربية والتركية والفارسية. العبيدي: إبراهيم بن عامر علي المالكي، قلائد العقبان في مفاخر دولة آل عثمان، طبعه الفقير محمد أمين صاحب جريدة شمس الحقيقة ومحورها، القاهرة، 1317هـ، ص33.

(3) لم يُعمر السلطان بايزيد الثاني بعد تنازله عن السلطنة لابنه الأمير سليم الأول كثيراً، وما هي إلا أيام معدودات حتى عاجلته المنية وهو في الطريق ما بين استانبول وأدرنه حيث أراد الإنقطاع للعبادة عن عمر ناهز 67 عاماً وكان ذلك في سنة 1512م، ولما بلغ خبر وفاته القاهرة حزن عليه السلطان الغوري حزناً شديداً وأمر بأن يصل عليه صلاة الغائب في جميع جوامع القاهرة، وقد أبدى جميع المسلمين حزنهم عليه لما عُرف به من علو همّة في الجهاد وشدة على أعداء الإسلام والمسلمين. ابن إياس: مصدر سابق، ج4، ص270-269.

واقتصادية كبيرة غيرت مجرى التاريخ على المستوى العالمي آنئذ، وذلك بعد حركة الكشوف الجغرافية وظهور دول وقوى عالمية جديدة ودخولها في الميدان السياسي والاقتصادي والاجتماعي ونموها وتوسعها بشكل سريع على حساب دول أخرى سابقة تهاوت وضعفت وشاخت نتيجة لعوامل مختلفة، ومن هذه الدول والقوى العالمية الجديدة التي ظهرت في منطقة الشرق الأوسط وبدأت بالتوسع والانتشار دولة الشيعة الصفوية التي قامت على أنقاض دولة الآق قوينلو وذلك بعد أن ضعفت وتفككت بعد وفاة السلطان أوزون حسن سنة 1477م وتنازع أبنائه وأحفاده من بعده على السلطة، حيث عمّت الفوضى وكثرت الفتن في كافة أرجاء السلطنة، ولم تستقر إلا على يد الشاه إسماعيل الصفوي⁽¹⁾ الذي تمكن فرض سيطرته على المنطقة وقام بتوحيد إقليم إيران وأذربيجان تحت سلطانه وأعلن قيام دولته الجديدة متبنيًا المذهب الشيعي الاثني عشري كمنهج رسمي للدولة واتخذ من تبريز عاصمة لها، وكان ذلك في 1502م بعد انتصاره على آخر زعماء الآق قوينلو ألوند ميرزا بن يوسف بن أورزن حسن،⁽²⁾ ثم شرع الشاه في نشر دعوته ومذهبه الشيعي الفاسد بالقوة بين قبائل التركمان وعمل على تحويلهم عن جادة الحق وطريق أهل الجماعة والسنة إلى مذهبه الشيعي المنحرف،⁽³⁾ مع العلم بأن أهل تلك البلاد لا سيما أهل إيران قد كانوا من أهل السنة على المذهب الشافعي والحنفي، وكانت ديارهم قبلاً لطلبة علوم الدين ومركزاً لكبار علماء أهل السنة حتى إن العثمانيين كانوا يرسلون إليها طلاب العلم ويستقدمون العلماء منها،⁽⁴⁾ واستمر الحال على هذا النهج حتى جاء الصفويون

(1) وهو إسماعيل بن حيدر بن جنيد الأردبيلي الصفوي الشيعي، ويرتبط نسبة من جهة الأم بالآق قوينلو فأمه الأميرة حليلة علم شاه بغيمة ابنة السلطان أوزون حسن، وقد ارتبطت هذه الأسرة الأردبيلية بالفرق الصوفية الضالة والمذاهب الشيعية خصوصاً الإثني عشرية، وقد اتخذوا من القلانس والعمائم الحمراء شعاراً لهم وجعلوا لها اثنتا عشرة ذؤابه للإشارة إلى تبنيهم للمذهب الاثني عشري، فغرفوا بالقرنل باشي أي أصحاب الرؤوس الحمراء. ابن أبي السرور: مصدر سابق، ص 58-57.

(2) Akgündüz ve Öztürk; a.g.e, s131.

(3) وقد أباح لاتباعه في سبيل نشر دعوته ومذهبه الرافضي، قتل كل من يعارضهم من عوام الناس وعلماء أهل السنة، فأسرفوا في ذلك حتى قيل أن عدد من قتل في هذه المحنة قد تجاوز ألف شخص، كما أنهم قد قاموا بحرق كتب علماء السنة ومصاحفهم، حتى الموتى منهم لم يسلموا حيث أمر بنبش قبورهم وحرق رفاتهم. ابن العماد: مصدر سابق، ج8، ص144.

(4) وقد كان لسلطين آل عثمان صلوات طيبة مع علماء بلاد فارس وبينهم مراسلات وزيارات من قبل =

فترضوا على أهلها مذهبهم الرفض الشيعي قهراً وحظروا الوجود السني بها،⁽¹⁾ حيث أمر الشاه إسماعيل بأن يُضاف إلى الأذان جملة (أشهد أن علياً ولي الله) وهي صيغة الأذان الخاصة بالشيعة، وكذلك أمر الخطباء والأئمة بأن يستهلوا خطبهم بأسماء الأئمة الأثنى عشر والدعاء لهم وله من بعدهم وسب الثلاثة الأوائل من الخلفاء الراشدين المهديين رضوان الله عليهم،⁽²⁾ وكان يمتحن العلماء والعوام من الناس في ذلك فمن رفض أو اعترض يقتل فوراً، ومن شدة حنقه على أهل السنة وفساد أخلاقه كان يأمر بنش قبور العلماء والأولياء والصالحين فيحرق جثثهم،⁽³⁾ ولم يتورع عن استخدام كافة الأساليب والطرق القمعية وغير الأخلاقية في نشر مذهبه المنحرف المشبع بالبدع والضلالات ومفاسد الأخلاق، فأرغم الناس على اتباعه بالقوة والعنف واستباح دماءهم وأعراضهم ولم يستثنى أحداً من ذلك حتى الأطفال والنساء نكل بهم وأزهق أرواح الآلاف منهم بلا رحمة ولا شفقه،⁽⁴⁾ وكذلك فعل بالعلماء وأحرق كتبهم ومصاحفهم، وقد بلغ من طغيانه وجبروته أنه كاد يدعى الألوهية وقد اعتقد فيه ذلك البعض من أتباعه،⁽⁵⁾ وبعد أن كثر أتباعه وقويت شوكته سعى للتوسع ومد نفوذ دعوته ودولته الناشئة في المناطق المجاورة، وكانت له فلسفة خاصة ونظرة بعيدة المدى في التخطيط السياسي والاجتماعي ونشر مذهبه

= العلماء للديار العثمانية، كما أن السلاطين كانوا يرونهم ويعثون إليهم بالعطايا والهدايا والهبات، وكان جُل سلاطين بني عثمان متقنين للغة الفارسية وآدابها ومنهم من يقرض الشعر بالفارسية وهم دواوين في ذلك. عبدالمؤمن: محمد السيد، العلاقات الأدبية بين الصفويين والعثمانيين قى القرن العاشر الهجري، حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف، 1987م، ص 15-16.

(1) عطا: جمال إبراهيم محمد، الدعوات الهدامة في العصر العثماني، دار البشير للثقافة والعلوم، القاهرة، 2020م، ص 117-122.

(2) مطراقي زاده: نصوح بن عبدالله أفندي السلاحي، رحلة مطراقي زاده، ترجمة صبحي ناظم توفيق، المجمع الثقافي دار الكتب الوطنية، أبوظبي، 2003م، ص 19-20.

(3) الشافعي: عبدالعزيز بن صالح المحمود، عودة الصفويين، مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع، القاهرة، 2007م، ص 10-13.

(4) حتى قيل أنه قد أمر بقتل والدته عندما رفضت الدخول في مذهبه الرفض الشيعي، وتمسكت بمذهب أهل السنة والجماعة، كذلك قيل أنه قد أرسل بنات أهل السنة إلى دور البيغي بعد أن رفض أولياؤهن قبول مذهبه وفكره الفاسد. أوزتونا: يلماز، موسوعة تاريخ الأمبراطورية العثمانية السياسي والعسكري والحضاري، ج 1، ترجمة عدنان محمود سلمان، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2010م، ص 202.

(5) الشوكاني: مصدر سابق، ج 1، ص 271-270.

وحركته التوسعية، حيث كان يترصد بعض الأعراق والقبائل الكبرى التي تعتبر من المقومات الأساسية في مجتمع الأناضول وبلاد العراق وأذربيجان والتي يعتبرها جزءاً وامتداداً طبيعياً لجغرافية مجتمعه القديم ودولته الحديثة الناشئة، فكان يتدرس طبيعتهم الاجتماعية والأخلاقية والدينية وكل ما يتعلق أنماط حياتهم، ثم يتخذ من ذلك مدخلاً إليهم في ضمهم وكسبهم إلى جانبه، ومن أهم هذه العرقيات والقبائل التي تقطن في هذه المنطقة عرقية الأكراد وقد كان ولاؤهم وتبعتهم مقسمة ما بين الصفويين والعثمانيين حسب مكان إقامتهم حيث يعتمدون على الرعي كحرفة أساسية في حياتهم فكانوا ينتقلون طلباً للكلاً والمرعى بين حدود الدولتين، وهم يتمركزون في العراق وإيران والأناضول وأطراف الشام، بالإضافة إلى الشيعة من عرب العراق والأهواز، ومن العوامل التي عززت من اهتمام الشاه بمنطقة العراق وجود الكثير من الأماكن المقدسة بالنسبة للشيعة بها وأضرحة الأئمة من آل البيت وغيرهم من الأولياء والصالحين،⁽¹⁾ وفي سنة 1509م هجم الشاه على العراق حتى دخل بغداد فملكها، وارتكب الفواحش والمذابح في أهلها وعمل على بسط مذهبه الشيعي الرافضي بينهم بالقوة، فخطب له على المنابر وضربت العملة باسمه،⁽²⁾ فاستغاث أهلها وأميرها بالسلطان المملوكي إلا أن الظروف السياسية والاقتصادية العصبية التي تمر بها دولة المماليك حالت دون تقديم المساعدة لأهل العراق، بيد أن السلطان الغوري قد تنبه لخطر الشاه الصفوي، فشرع في إعداد عساكره للدفاع إذا ما دخلت قوات الشاه إلى حدود سلطنته، بيد أنه كان يفضل عدم الدخول في حرب مباشرة مع الشاه وقتئذ، وذلك مما يسر على الشاه اجتياح بلاد العراق وماحولها،⁽³⁾ أما السلطان بايزيد فقد أرسل إلى الشاه يحثه على الكف عن الفتك بالمسلمين والإفساد في البلاد، كما أرسل أيضاً إلى ملوك التركمان والسلطان الغوري يعرض عليهم التحالف ضد الشاه في حال عدم تراجعهم عن تلك الإجراءات،⁽⁴⁾ وكان من اليسير على المماليك والعثمانيين القضاء

(1) صباغ: تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية، مرجع سابق، ص 120-118.

(2) القرمانى: مصدر سابق، ج 3، ص 117.

(3) ابن إياس: مصدر سابق، ج 4، ص 143.

(4) فأرسل إلى يعقوب بيك خان الأوزبك وإلى السلطان الغوري، يحثهم على التصدي للقرل باشي =

على الصفوي إذا ما اتحدوا ضده، إلا أن موقف الماليك كان سلبياً تجاه عرض السلطان بايزيد للتحالف ضد الشاه، على الرغم من أن العدو مشترك وأن الماليك يصفونه بالرافضي والصوفي الفاسد الضال المضل إلا أنهم لم يحركوا ساكناً، بل إنهم استقبلوا قاصد الشاه وأحسنوا إليه عند وصوله القاهرة في سنة 1511م،⁽¹⁾ أما الشاه فقد واصل في مخططه التوسعي وأولى اهتمامه وتركيزه على القبائل التركمانية وهي تمثل العرق الأقوى والأهم في المنطقة حيث تنحدر منها معظم سلالات الأسر الحاكمة هناك آنئذ،⁽²⁾ وهم يتمركزون في الأناضول وأذربيجان وأطراف العراق، وكانوا بطبيعتهم يميلون إلى التصوف وحب آل البيت⁽³⁾، والتصوف سمة متأصلة في نفوس التركمان ومجتمعهم وحياتهم العامة بشكل كبير، وقد استغل الصفويون تلك السمة في نشر مذهبهم بين قبائل التركمان حيث جعلوا دعواتهم واتباعهم يتدثرون بدثار التصوف والزهد حتى يتمكنوا من بث أفكارهم

= وعساكر الشاه الذين عاثوا الفساد في البلاد الشرقية وانتهكوا حرمت المسلمين وهتكوا أعراضهم، إلا أن ذلك لم يجد نفعاً. عبدالمؤمن: مرجع سابق، ص 15-16.

(1) نافع: مرجع سابق، ص 171. وما ذلك التصرف بغريب على سلاطين الماليك الجراكسة فقد فعل أسلافهم ذلك سابقاً مع السلطان العثماني بايزيد الصاعقة عندما عرض عليهم التحالف ضد عدوهم المشترك تيمورلنك، الذي شرع في اجتياح العالم الإسلامي آنئذ، وكان نتيجة ذلك أن سقطت الدولة العثمانية الأولى وجُل بلاد الشام المملوكية.

(2) حيث كان لجدّه الشيخ جنيد بن إبراهيم الأدريلي جهود سابقه في نشر المذهب الشيعي بين قبائل التركمان إبان إقامته بالأناضول بعد طرده من أربيل من قبل حُكام القرّة قوينلو، فارتحل إلى جنوب الأناضول وأقام بمدينة حلب فتضايق منه مشايخها وأهلها بعد أن تبين لهم فساد معتقده وأخلاقه وأفكاره التي كان يحاول بثها بين الناس، فاجتمع فقهاؤها وأفتوا بقتله واتهموه بالمغلاة في التشيع ونشر الضلال بين الناس، فهرب إلى أنطاكية ثم إلى ديار بكر التي يحكمها الآق قوينلو فالتجأ إليهم فمنحوه الحماية حتى يستفيدوا منه ومن أتباعه في القضاء على عدوهم المشترك حكام القرّة قوينلو وقد وثقوا العلاقة بينهم بتزويج الشيخ جنيد من أخت أميرهم أوزون حسن فأنجب منها حيدر والد الشاه إسماعيل وكان ذلك في النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي. الأسترآبادي: سيد حسن بن مرتضى حسني، أز شيخ صفي تا شاه صفاء، انتشارات علمي، تهران، 1358هـ ش، ص 25.

(3) وقد ادعى الصفويون النسب إلى آل البيت وقالوا بأنهم من ذرية إمام موسى الكاظم سابع أئمة الشيعة الاثني عشرية، وحرروا ذلك في سلسلة نسبهم وأعلنوا عنه حتى يكسبهم الشرعية في دعوتهم وتأسيس دولتهم الناشئة، وقد اختلف النسابة والمؤرخون في قضية صحة نسب الصفويين واتصاله بالنسب الشريف بيد أن جُلهم قد ضعف ذلك، وقد نسبهم البعض إلى الجنس الآري وأكدوا ذلك بنشاط الحركات القومية والعنصرية التي ظهرت في إيران إبان فترة حكمهم ودعمهم لها كان لهم. الخولي: أحمد وبديع جمعه، تاريخ الصفويين وحضارتهم، ج 1، دار الرائد العربي، القاهرة، 1976م، ص 29.

ومعتقداتهم الفاسدة في المجتمع الأناضولي،⁽¹⁾ فأرسلوا مئات الدعاة إلى الأناضول لنشر مذهبهم ودعوتهم بين قبائل التركمان التابعة للسيادة العثمانية⁽²⁾،⁽³⁾ وأما العثمانيون ومجتمع دولتهم بصفة عامة فقد تميزوا بالوسطية والمرونة في العقيدة وذلك بحكم الجغرافية والتركيب السكانية التي قامت عليها دولتهم وهي مزيج بين عناصر إسلامية أناضولية محلية وقبائل تركمانية مهاجرة بالإضافة إلى العنصر النصراني الرومي، علاوة على الإرث الاجتماعي والثقافي للمنطقة والذي يتميز بالميل إلى الإسلام التقليدي وحب التصوف وإجلال المتصوفة،⁽⁴⁾ وقد كان العثمانيون شديدي الارتباط بالتصوف والمتصوفة، بيد أنهم كانوا أحناف على مذهب أهل السنة والجماعة، وهم من حماة الأمة الإسلامية وحملة راية الجهاد والفتح، ولم يُنقل عن أحدهم سوء اعتقاد أو زيغ وإلحاد، بخلاف أقرانهم من ملوك وسلاطين ذلك الزمان الذين عُرف جلهم بالوهن والضعف والتشكك وقلة الإيمان وظلم العباد،⁽⁵⁾ وبحكم البيئة الجغرافية للأناضول وقربه من مهد التصوف الأول ببلاد ماوراء

(1) وقد عُرفت بعض القبائل التركمانية الأناضولية بميلها إلى التشيع، وهي ذات صلوات تقديمة وإرتباط قوي بالأسرة الصفوية، فكانوا نواة للدعوة والوجود الشيعي الصفوي بالأناضول وقد تمثلوا بطبائع وأخلاق مريدي الشيخ الصفوي فلبسوا القلانس والعمامم الحمراء حتى نالوا لقب القزل باشي الذي عُرف به أتباع الشاه الصفوي، ومن أهم هذه القبائل وأكبرها قبيلة استاجلو، تكه لو، أفشار، ذو القدر، قاجار، ورساق، روملو، شاملو، وصوفية قره باغ. فلسفي: نصر الله، تاريخ زندكاني شاه عباس عباس أول، ج1، تهران، خانه دانشاه، 1332هـ، ص 166-163.

(2) وقد كان معظم الدعاة من زعماء وأفراد العشائر التركمانية من شذاذ المتصوفة والمنحرفين أو الشيعة الذين يفدون إلى الشيخ حيدر ثم من بعده إلى خليفته وابنه اسماعيل فيلقنهم مبادئ وأصول المذهب الشيعي الاثنى عشري، ثم يدرهم على فنون القتال وبعد أن يطمئن لولائهم يأمرهم بالعودة إلى الأناضول لنشر ماتعلموه بين القبائل والعشائر التركمانية، ولما تنبه العثمانيون لخطورة هذه الرحلات وأثرها في إفساد المجتمع، قام السلطان بايزيد الثاني بمنع هذه الرحلات الصوفية المنحرفة إلى أردبيل، فكتب إليه الشاه إسماعيل يستمحه في إعادة الرحلات إلى سابق عهدها فسمح لهم بذلك. Feridun Bey; Mecmua-yı. 339-münşeat üs-Selâtin, g.a.e, s 338.

(3) مصطفى: مرجع سابق، ص 77-78.

(4) الشيبني: كامل مصطفى، الصلة بين التصوف والتشيع (النزعات الصوفية في التشيع)، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، 1982م، ص 340-339.

(5) أما أخلاق سلاطين آل عثمان على وجه العموم فقد كانوا من أهل المروءة والفضل والخلق الرفيع والسؤدد، ملتزمين بالشرع والدين محبين للعلم مجلبن لأهله، وقد عُرفوا بحبهم للقراءة والإطلاع لاسيما في كتب الدين والأدب، عفيفي اللسان طاهري الذليل عزيزي النفس مترفعين عن الصغائر والزلات، والكمال لله وحده فهم بشر وليسوا بأصحاب عصمة فلهم ما لهم وعليهم ما عليهم، بيد أنهم كانوا من خيرة =

النهر والعراق فقد تأثر أهله بكبار علماء ومشايخ المتصوفة واتبعوا نهجهم في طريقة تربيتهم وتكوينهم الديني، فكانوا يعظمونهم ويوقرونهم ويجلون قدرهم ويمجدونهم على نطاق المجتمع والدولة حيث تتم رعايتهم وتقبل شفاعتهم عند السلاطين وكبار رجال الدولة⁽¹⁾، وذلك مما حفز الصفويين على التغلغل في مجتمع الأناضول استغلال نفوذ المناوئين للدولة العثمانية من زعماء القبائل التركمانية في نشر مذهبهم وأفكارهم الفاسدة⁽³⁾، والسعي لكسبهم كحلفاء وأعوان لهم في المنطقة بالإضافة إلى الاستفادة من الموقع الجغرافي المميز للأناضول وموارده الاقتصادية والزراعية في دعم دعوتهم ودولتهم الناشئة⁽⁴⁾، وفعلياً في سنة 1511م قام أحد دعاة الشيعة الصفوية ويدعى شاه قولي⁽⁵⁾ بحركة ثورية

= حكام زمانهم. الكرمي: زين الدين مرعي بن يوسف الحنبلي المقدسي، قلائد العقيان في فضائل آل عثمان، تحقيق إبراهيم فاعور الشرعة، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، الأردن، 2009م، ص 154-163.

(1) وقد عُرف سلاطين آل عثمان منذ قيام دولتهم بحبهم للعلماء ومشايخ المتصوفة والتلمذ والتربي على أيديهم فكان لكل سلطان شيخ ومرابي منهم، وعلى رأسهم المؤسس عثمان بن أرطغرل الذي نشأ وتربى على يدي العالم الكبير ذائع الصيت الشيخ أدبالي الذي عُرف بعلمه وعرفانه وورعه، وقد وثق عثمان علاقته بشيخه بأن تزوج ابنته، ثم ولاه القضاء وصدارة الفتوى بعد قيام دولته الناشئة آنئذ. طاش كوبري زاده: مصدر سابق، ص 6-7.

(2) المعبدي: حنان عطية الله ضيف الله، التصوف وآثاره في تركيا إبان العصر العثماني (عرض ونقد)، رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة أم القرى / كلية التربية، 1429هـ، ص 49.

(3) ومن أسباب عدائهم للدولة العثمانية، وهو عدم تأقلمهم مع النظام المركزي الذي يتبناه العثمانيون في إدارة المنطقة لتأمين المجتمع وحماية مقومات اقتصاد الدولة، أما هؤلاء الزعماء فكانوا يميلون إلى نمط الحياة المتقلة والقانون العشائري والخلط في المعتقد بين مفاهيم الدين الإسلامي والتصوف المنحرف الذي تشوبه بعض الأفكار والمعتقدات الشامانية القديمة، وذلك بخلاف ماتتبناه الدولة من منهج أهل السنة والجماعة في الإسلام. إينالجيك: خليل، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الإنحدار، ترجمة محمد الأرناؤوط، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2002م، ص 52.

(4) وكان من أهداف الشاه إسماعيل الصفوي السيطرة على الطرق التجارية العالمية التي تمر عبر الأناضول بالإضافة إلى الموانئ البحرية، حيث أن أراضي الأناضول تمثل حلقة الوصل بين بلاد المشرق والقارة الأوروبية التي كان يسعى الشاه للاتصال بملوكها وعقد اتفاقيات وتحالفات معهم ضد العثمانيين والماليك، حتى يتمكن من التفرد بالمنطقة ويتولى قيادة العالم الإسلامي. هريدي: مرجع سابق، ص 44-45.

(5) شاه قولي وتعني خادم الشاه، واسمه نور حسن خليفه أوغلو وهو من كبار دعاة الشيعة الصفويين بالأناضول، وقد عمل ضابطاً في السباهي العثماني رداً من الزمان، وقيل أنه في بداية حياته كان ينقطع للعبادة والتحنث مع أبيه الشيخ حسن في إحدى المغارات بجبال أنطاليا، ولما ذاع صيتهم وعرفوا بين الناس =

شيعة داخل المجتمع العثماني بالأناضول، فشرع بإثارة الفتن والقلائل ونشر المفاهيم والمعتقدات الفسادة بين الناس، وكانت بدايته بمنطقة تكه في الجنوب الغربي من الأناضول، فكثرت أتباعه واجتمع حوله المارقون من عقيدة أهل السنة والجماعة فاسدوا الأخلاق من العوام حتى عظم شأنه وبلغت قوته أن تمكنه من الاستيلاء على مدينة كوتاهيه وقتل حاكمها من قبل العثمانيين، ثم حاصر مدينة أنطاليا،⁽¹⁾ فأرسل السلطان بايزيد الثاني عسكرياً للقضاء عليه بقيادة قره كوز باشا، إلا أنه قد هُزم أمام شاه قولى واتباعه الذين تقدموا نحو مدينة توقات فاستولوا عليها وقرأوا الخطبة فيها بإسم الشاه إسماعيل، عندها تبين للسلطان العثماني استفحال أمر هذه الطائفة الشيعية ومدى خطورتها على المجتمع والدولة بالأناضول، فأرسل جيشاً بقيادة الصدر الأعظم علي باشا الخادم وبمساعدة من الأمير أحمد بن السلطان تمكن الخادم من دحر القزل باشى أي شاه قولى واتباعه فهزمهم وشتت شملهم، فهرب من نجا منهم إلى إيران، بيد أن فلولهم قد تمكنوا من قتله بعد انتهاء المعركة الكبرى، ولم يتمكن الأمير أحمد من ضبطهم والقضاء عليهم بشكل حاسم بعد مقتل الصدر الأعظم،⁽²⁾ وقد ازداد نشاط دُعاة الشيعة الصفوية بالأناضول مستغلين تسامح السلطان بايزيد الثاني وضعف رقابة الدولة في أواخر عهده بعد أن شاخ وأقعده المرض،⁽³⁾

= بالزهد والورع، سمع بهم السلطان بايزيد الثاني فأحسن الظن بهم وأغدق عليهم بالعطايا والأموال ورتب لهم راتباً سنوياً، إلا أنهم في حقيقة الأمر كانوا عملاء ومنافقين يعملون في الخفاء لخدمة الشاه إسماعيل ونشر المذهب الشيعي بالأناضول، وبعد وفاة الشيخ خليفة تولى ابنه الشيخ حسن أمر الدعوة، ولما اكتشف الناس أمره وعرفوا فساد معتقده وأخلاقه لقبوه بشيطان قولى أي خادم الشيطان. Uzunçarşılı; a.g.e. Topkapı sarayı Müzesi Arşivi, nr 6636.231-c.II, s225.

- (1) رافق: عبدالكريم، العرب والعثمانيون 1916-1516م، مكتبة أطلس، دمشق، 1993م، ص56.
- (2) شيباني: نظام الدين مجير، سياست صلح ودوستي شاه إسماعيل صفوي با إمبراطوري عثماني، مجلة برسياهي تاريخي، شماره 5 سال سوم، ص240-239.
- (3) حيث اكتفى السلطان بايزيد الثاني بإرسال مكتوب إلى الشاه إسماعيل معاتباً وناصحاً أيها قائلاً: «.. أيها الشاب قليل التجربة، اسمع نصيحتي لك،... ووصن دماء المسلمين من أجل قبول مذهبك الجديد، والتزم بالعقل في تصرفاتك ومعاملتك لأهل السنة أمواتاً وأحياء،... ولا تذهب بخيالك بعيداً والتزم بنهج أجدادك أنار الله برهانهم..». Feridun Bey; a.g.e, I.cilt, s347. «.. وقد كان أجداد الشاه من متصوفة أهل السنة على المذهب الشافعي، إلا أن أبناءهم وأحفادهم قد حرفوا وانحرفوا عن جادة الحق بعد ذلك.

حيث أوكل شؤون الحكم والإدارة إلى وزرائه وكبار رجال دولته،⁽¹⁾ فهجم الشاه إسماعيل على أطراف الأراضي العثمانية والمملوكية بالأناضول، كما أغار على إمارة ذي القادر بعد أن رفض حاكمها الأمير علاء الدولة تزويج الشاه من إحدى بناته، فأخذ الشاه من ذلك الرافض ذريعةً لإعلان العدواة والحرب على الدلغاديين فهجم عليهم وخرب بلادهم وقتل نفراً من أبناء أمرائهم وساداتهم وأحرق قبور كبراء أمرائهم،⁽²⁾ وقد اغتاز الأمير سليم من جرأة الشاه وتعدياته المستمرة على بلادهم وديار أهل السنة، كما فطن إلى نواياه وأدرك مدى خطورتها على الدولة والأمة الإسلامية بشكل عام، فقام بالعديد من الغارات على أملاك وأراضي الصفويين المجاورة لإمارته في البحر الأسود، واستطاع أن يستولي على العديد من حصونهم وقلاعهم وأملاكهم، فأرسل الشاه جيشاً بقيادة أخيه الأمير إبراهيم لتأديب الأمير سليم واستعادة تلك الأملاك منه، إلا أن الأمير سليم قد تمكن من سحق جيشهم وهزيمته وأسر قائدهم شقيق الشاه وكان ذلك في سنة 1507م،⁽³⁾ وعلى إثر ذلك أرسل الشاه وفدين دبلوماسيين الأول إلى قانصوه الغوري سلطان المماليك بمصر،⁽⁴⁾ والآخر إلى السلطان بايزيد الثاني باستانبول، شاكياً له من غارات ابنه الأمير سليم وتعديه على حدود بلاده، وداعياً لإقامة علاقات طيبة بين البلدين، ومن شدة إفراط السلطان بايزيد في التسامح أمر ابنه الأمير سليم بالإنسحاب من أملاك الشاه التي استولى عليها

(1) وقد اضطربت الأحوال نسبةً لقلّة الرقابة واختلاف أهواء رجال الدولة وظهور الفساد في أعمالهم، ذلك مما شوش على الرعية في أمور معاشهم فشق عليهم وأعياهم الحال، حيث كثر الظلم وظهر التعامل بالرشوة، وانتهز عديمي الأخلاق تلك الفرصة فمارسوا السرقة والقرصنة البحرية، ولما تنبه السلطان بايزيد إلى ذلك استقدم علي باشا من منطقة المورة وكان رجلاً قوياً حسن السيرة والخلق، فجعله على صدارة الوزراء وفوض إليه أمور السلطنة وأطلق يده فيها، فتمكن من ضبط الأمور ودفع المظالم وتطهير البلاد من فساد المفسدين. Müneccimbaş; a.g.e, II.cilt, s595.

(2) عطا: مرجع سابق، ص 146-147.

(3) Akgündüz ve Öztürk; a.g.e, s193.

(4) حيث أعد السلطان الغوري العدة لإرسال تجريدة للتصدي لقوات الشاه الصوفي التي هجمت على ملاطيه وعانت فيها الفساد، إلا أن الأمير علي دولات قد تمكن من دحرهم وهزيمتهم بمفرده وأرسل إلى السلطان يبشره بذلك، فسر بالخبر وأبطل تسيير التجريدة، وفي تلك الأثناء وصل قاصد الشاه إلى القاهرة ليبلغ السلطان اعتذار الشاه عما حصل وأن دخول قواتهم إلى أطراف الأراضي المملوكية لم يكن بعلمه ولا بإذن منه، فقبل منهم السلطان الغوري ذلك وأكرم الوفد وأقام لهم موكباً بحوش القلعة. ابن إياس: مصدر سابق، ج4، ص 119-123.

وإطلاق سراح شقيقه الأمير إبراهيم على الفور،⁽¹⁾ فغضب الأمير سليم من تساهل والده الزائد وتسامحه الذي قد يذهب هببة الدولة ويطمع الأعداء فيها،⁽²⁾ وقد وافقه اليكيجريه على ذلك،⁽³⁾ أما الشاه فقد استمر في سياسته التوسعية والانفتاح على العالم الخارجي، فسعى إلى خلق علاقات وتكوين تحالفات مع ملوك أوروبا لاسيما المعادين منهم للدولتين العثمانية والمملوكية، في الفترة ما بين 1509-1515م قام الشاه إسماعيل بإبرام اتفاقية ثم معاهدة صداقة مع البرتغاليين تعهد لهم فيها بأن يساعدهم في إدارة ممتلكاتهم في الخليج وجزيرة هرمز، على أن يكونوا عوناً له في حربه مع العثمانيين،⁽⁴⁾ وكذلك فعل مع البنادقة في سنة 1511م، حيث قبض على أحد رجاله بصحبة رجل قبرصي يحملان خطابه إلى قناصل البنادقة في الشام، يدعوهم فيه للتحالف ضد المالك وأن يهجموا على مصر بحرًا ويكبس عليها هو برًا في آن واحد، كما حثهم على مساندته للقضاء على العثمانيين أيضاً،⁽⁵⁾ وفي هذه الأثناء كان المرض قد اشتد على السلطان بايزيد الثاني وبلغ من الضعف ذورته، لاسيما بعد أن بلغه خبر وفاة ابنه الأمير شهنشاه صاحب قونيا فحزن عليه حزناً شديداً، ولم يبق من ولده إلا ثلاثة أكبرهم الأمير أحمد صاحب أماسيا، ويليهِ الأمير قرقود صاحب صاروخان، ثم أصغرهم الأمير سليم صاحب طرابزون، وكان السلطان بايزيد يميل إلى تولية الأمر من بعده إلى ابنه الأكبر والمقرب إليه الأمير أحمد،⁽⁶⁾ إلا أن الأوضاع الداخلية والخارجية

(1) متولي: مرجع سابق، ص 180-96

(2) وقد أرسل إلى والده السلطان رسالة يوضح فيها خطورة أمر الشاه وتدهور حالة دولتهم وتسلب الوزراء عليها أنشد فقال: «...» ولقد خرجت السلطنة بالكلية من الأيدي، وأوشكت على الخراب، ولا يجوز إهمال هذه القضية والتساهل فيه « أي قضية الشاه وانتشار مذهبه الفاسد»، فيها قضية تهم كافة المسلمين، ويجب علينا دفعها والتصدي لها، وإن في تأجيلها خطورة على مصلحة الدولة والأمة، وإن في تداركها خير ومثوبة للسلطان في الدنيا والآخرة،... «. إلا أن الوزراء كان يحولون دون وصول هذه الرسائل إلى السلطان حرصاً على مناصبهم ومصالحهم الشخصية.. / E6185Topakpi sarayı / Müzesi Arşivi, N nr 13

(3) Altındağ; Şinasi, I.Selim, IA, C.10, İstanbul, 1966, s 424.

(4) فلسفي: نصر الله، إيران وعلاقتها الخارجية في العصر الصفوي، ترجمة وتقديم: محمد فتحي الرئيس، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1989م، ص 15-13.

(5) ابن إياس: مصدر سابق، ج 4، ص 191.

(6) وقد كان الأمير أحمد هادئ الطبع صاحب علم ومعرفة بالشؤون الإدارية، وذلك مما حجب فيه =

ولاسيما خطر الشاه الصفوي الذي يتربص بدولتهم بين الفينة والأخرى كان يستوجب تولي سلطان قوي صارم مثل الأمير ياووز سليم، بيد أن والده السلطان لم يكن يود تسليمه السلطة في بادئ الأمر وكذلك كان كبار الوزراء الذين كانوا يميلون إلى الراحة وسياسية السلم في كل الأحوال ويتوافق هواءهم مع الأمير أحمد،⁽¹⁾ وقد سعى هؤلاء الوزراء للإيقاع بين السلطان بايزيد وابنه الأمير سليم وحالوا دون الاتفاق أو حتى اللقاء بينهما، ذلك مما جعل الأمير سليم يقدم على فعل ذلك بالقوة بدعم وتأييد ومساعدة من اليكيجري وكبار القادة العسكريين،⁽²⁾ حيث تقدم نحو استانبول على رأس عساكره وقد أصر على أن لا يرجع حتى يقابل والده السلطان،⁽³⁾ ولما رأى والده السلطان إصراره على ذلك وأمر توليه

= الأمر والوزراء وكبار رجال الدولة، أما فرقود فقد عُرف بحبه للشعر والأدب والموسيقى وله العديد من المؤلفات في علم الكلام والأخلاق والتصوف، وكان محبوباً لدى العلماء وقادة وضباط البحرية، وأما سليم فقد كان رجل حرب وقاتل فارساً مغواراً وذو خبرة سياسية وعسكرية عالية وذلك مما حجب فيه اليكيجري وجعلهم يميلون إليه. الجليلي: العربي، السلطان سليم الأول وعصره 1520-1470م، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة مصطفى اسطنبولي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 2020م، ص 31.

(1) وقد كان السلطان بايزيد في غاية الضعف بسبب تعاقب الأمراض عليه وكبر سنه، فصار الوزراء يقلبونه كيفما شاؤوا ويحبونه في الأمير أحمد ويوغرون صدره على الأمير سليم، ويتهمون به بسوء الخلق وتجاوزه صلاحيته وتعديه على دول الجوار وجر البلاد إلى المشاكل والحروب، وما زالوا به حتى كتب إليه ينهائه عن قتال القزل باشي ويأمره بأن لا يتعدى حدود سنجقه، فظن سليم لكيد الوزراء له، وعزم على المسير بنفسه إلى والده السلطان لتوضيح الأمر له وتبرئة ذمته، ولكي يكون قريباً من والده طلب منه أن يحوله عن سنجق طرابزون إلى الروم إيلي، إلا أن الوزراء قد فطنوا لما يرنو إليه الأمير فعملوا على عرقلة رسائله وتضليل السلطان وحضه على عدم الموافقة على طلبه، فأعاد ياووز طلبه مراراً وتكراراً على والده السلطان ولكن من دون جدوى، حيث كان الوزراء له بالمرصاد، فما كان له إلا أن يفعل ذلك بالقوة حتى يبلغ مبتغاه وقد كان. Söylemez; – 605-Müneccimbaşı: a.g.e, II. Cilt, s599. Faruk, Yavuz Sultan Selim'in Taht Mücadelesi, Kahramanmaraş Sütçü İmam Üniversitesi, Sosyal Bilimler Enstitüsü Dergisi, Sayı; 33, 2012, s81.

(2) حيث أبدوا عدم قبولهم عندما عزم السلطان بايزيد على تولية العهد من بعده إلى ابنه الأمير أحمد، لعدم كفاءته العسكرية، وقالوا له: أنه ضعيف عاكف على المذات محب للراحة، وقد تبين ضعفه وعدم كفاية بعد فشله في دفع القزل باشي بالأناضول، ولذلك فإنه لا يصلح للسلطنة ولا يمكن تقديمه على الأمير سليم أبداً، وقد تحالفوا على أن يقبلوا بولي للعهد غير الأمير ياووز سليم. Uğur; Ahmet, Yavuz Sultan Selim, 36-Sultan selim, Erziyes Üniversitesi Yayınları, Kayseri, 1989, S19

(3) وقيل أن الوزراء كانوا يخشون من لقاء الأمير سليم بوالده السلطان، لما في ذلك من خطورته عليهم وعلى مناصبهم ومصالحهم إذا مانح سليم في إقناع والده السلطان بأن يجعل الأمر إليه من بعده، كما أنهم يخافون من حدة طبع الأمير سليم ولا يضمنون عواقب الأمور إذا تحقق لقائه بوالده السلطان، وتحسباً لذلك قاموا بتعبئة العساكر وتجهيز المراكب وآلات الحرب، أما الأمير سليم فقد كان على علم بما فعله =

السلطة وذلك بعد أن يئس الوزراء وكبار رجال الدولة من تولية الأمير أحمد وتيقنوا بأن الأمير ياووز سليم هو رجل المرحلة نصحوه بالتنازل له عن السلطة، فافتتح السلطان بايزيد بذلك وتنازل لابنه الأمير سليم عن السلطنة وسلمه زمام الأمور وكان ذلك في عام 1512م،⁽¹⁾ ولم يُعمر بعدها طويلاً حيث توفي في نفس السنة هو في طريقة إلى مدينة أدرنة بعد أن أعتزل العمل السياسي.⁽²⁾

وباعتلاء السلطان سليم الأول سدة الحكم تغيرت الموازين السياسية والتوجهات العسكرية للدولة العثمانية، حيث توسع المد الشيعي الصفوي في المشرق الإسلامي وتنامت دولتهم وتغلغت دعوتهم الفاسدة في المجتمع آنئذ،⁽³⁾ علاوة على تغول الأسباب على بعض المدن والجزر الإسلامية في البحر الأبيض المتوسط وتنكيلهم بمسلمي الأندلس، بالإضافة إلى خطر الزحف الأوروبي البرتغالي الذي أضحى الذي أضحى يجوب البحار

= الوزراء فاحتاط لنفسه وعزز من عدد عساكره، ثم أرسل إلى والده يخبره بأن الأمر ليس كما يزعم الوزراء، وأن قديمه للإصلاح وتوضيح الأمر وجبر الخواطر وإثبات الولاء والطاعة، فرق له والده السلطان وحن إليه، إلا أن الوزراء عندما شعروا بميل السلطان إلى كلام ابنه، أو عزوا إليه بأن الأمير سليم ما تقدم نحو استانبول إلا لعزله وانتزاع السلطة منه قهراً، فوافقهم السلطان على ذلك، ووقع القتال بين الطرفين، إلا أن الأمير سليم قد فضل الفرار على قتال والده السلطان، وبعد أن تبين للسلطان حسن نوايا ابنه الأمير سليم ندم على سوء معاملته له وتغيرت نظرتة تجاهه. بن علي: مرجع سابق، ص 108-103. آق كوندز: مرجع سابق، ص 196.

(1) وقد مال السلطان بايزيد إلى تولية ابنه الأمير سليم عن طيب نفس، بل واعتذر له عما وقع بينهما من سوء فهم واستقدمه إلى دار السلطنة، وذلك بعد أن تبين له ضعف الأمير أحمد عن دفع فتنة القزل باشي الثانية في الأناضول بزعامة نور علي خليفة، بالإضافة إلى انسحابه ورجوعه من أطراف استانبول إلى الأناضول بعد أن سمع بأن اليكيجري تؤيد أخيه الأمير ياووز سليم وتنادي به للسلطنة، حيث توجه نحو قونية وحاصرها ابن أخيه الأمير محمد بن شهنشاه الذي كان أميراً عليها، وفعل كل ذلك من دون إذن والده السلطان ذلك مما جعله يسخط ويغضب عليه ويعتبر ذلك منه بمثابة العصيان والتمرد، أما الأمير قورقود فلم يكن يصلح للحكم وكان مشغولاً بطلب العلم، ميالاً إلى حياة الترف والراحة. 616-Müneccimbaşı: a.g.e, II.Cilt, s 614.

(2) Altındağ; a.g.e, s 424.

(3) وقد وصل إلى السلطان سليم تقريراً عن أحوال المجتمع بالأناضول في مطلع عهده وكان مفاده، أن الروافض الشيعة المبتدعين قد استفحل أمرهم في البلاد وتضاعفت أعدادهم وأشدت خطرهم على الناس حيث أصبحوا يهجمون على القرى ويبارسون السلب والنهب ولا يتورعون عن انتهاك الحرمات والأعراض فيقتلون الرجال ويسبون النساء ويأتون على الأخضر واليابس من أموال وأملاك الناس. Uzunçarşılı; a.g.e, II.cilt, s 256.

ويهدد الديار الإسلامية بما فيها الحرمين الشريفين وبيت الرعب في نفوس أهلها، وقد تبين عجز المماليك حُماة الأمة ممثلي دولة الخلافة العباسية عن صدّهم، بل وتواطؤهم أحياناً مع الشيعة الصفويين وتارةً مع الأوروبيين ضد العثمانيين،⁽¹⁾ وذلك مما جعل العثمانيون يتصدرون لحماية الأمة الإسلامية ومذهب أهل السنة والجماعة، وأنه من باب أولى يجب عليهم ترسيخ الأمن والاستقرار الداخلي في المجتمع الإسلامي بدلاً من التوسع ومتابعة حركة الجهاد والفتوحات في الجانب الأوروبي، فارتأى السلطان سليم الأول تغيير سياسة الدولة وتحويل نشاطها وأنظارها عن الغرب الأوروبي إلى المشرق الإسلامي وبلاد العجم والعرب الأناضول،⁽²⁾ وقد استهل عهده بالعمل على ضبط الأحوال الداخلية للدولة وتثبيت دعائم حكمه، لاسيما بعد أن قام أخوه الأمير أحمد وابنيه بثورةٍ ضده في الأناضول مطالباً ومدعياً بأحقّيته في السلطنة، وكذلك بلغه خبر تجمع أبناء أخوته الأمراء في مدينة بورس، فما كان منه إلا أن خرج إليهم بنفسه إلى الأناضول لحسم تلك التمردات، فبدأ بالذين في بورس فتغلب عليهم وأفناهم على بكرة أبيهم،⁽³⁾ ولحق بالأمير قورقود الذي فرّ إلى جبال صاروخان فتمكن منه وقتله،⁽⁴⁾

(1) أما على صعيد العلاقات بين الدولتين فإنها كانت تحمل شيئاً من الود الظاهري مبطناً بالشك والحذر، وعلى الرغم من عدم إرسال السلطان الغوري لتهنئة السلطان سليم إبان اعتلائه سُدة الحكم، إلا أنه قد حدث تبادل مراسلات بين الطرفين حول العديد من الأمور الرسمية، بيد أن العلاقة بين السلطان سليم والأمير خاير بك نائب السلطان المملوكي على حلب قد اتسمت بالود والصدقة والصفاء. متولي: مرجع سابق، ص 107. طقوش: محمد سهيل، تاريخ الدولة الصفوية في إيران، دار النفائس، بيروت، 2009م، ص 76.

(2) ياغي: إسماعيل أحمد، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي، مكتبة العبيكان، الرياض، 1996م، ص 27-26.

(3) أوليا جلبي: سياحتهما مصر، ترجمة محمد علي عوني، مطبعة ادار الكتب المصرية، القاهرة، 2016م، ص 157.

(4) أما الأمير قورقود فقد اجتمع حوله نفرٌ من المنحرفين الذين يخافون من شدته الأمير ياووز وبطشه بهم إذا ثبت واستقر له الحكم، فأوعزوا إليه بالخروج إلى استانبول واستلام السلطنة قبل وصول الأمير ياووز، وأشاروا عليه بأن يقدم في نفر قليل من أتباعه وأن يدخل إلى العاصمة متنكراً ويذهب أولاً إلى البيكيجرية لاستمالتهم، وفعلاً قام بذلك إلا أنه قد فشل في استمالة البيكيجرية، فعلم أبوه السلطان بخبره فغضب عليه ووبخه على فعله وقدمه من دون إذن، إلا أنه قد عفا عنه فيما بعد، وأبقاه حتى يبايع أخوه الأمير سليم على السلطنة، إلا أنه قد خان وبدل بعد وفاة أبيه السلطان الذي لم يُعمر طويلاً، فبدأ يستميل رجال الدولة إلى جانبه، فعلم به أخوه السلطان ياووز وتمكن منهم بعد أن حاول الهرب وقتله. Münecimbaş: 636-a.g.e, II. Cilt, s 616.

وكذلك فعل بأخيه الأمير أحمد،⁽¹⁾ ولم ينجو من الأمراء المتمردين إلا أربعة وهم أبناء الأمير أحمد الأمير مراد الذي هرب إلى تبريز ملتجئاً إلى الشاه الصفوي، والأميران علاء الدين وسليمان اللذان توجهوا نحو مصر ملتجئين إلى السلطان الغوري، ثم لحق بهم فيما بعد أخوهم الأصغر الأمير قاسم،⁽²⁾ وقد أرسل السلطان سليم إلى الشاه يطلب منه تسليم ابن أخيه الأمير مراد إلا أن الشاه قد رفض ذلك وقام بقتل الرُّسل، فغضب السلطان سليم وازداد حنقاً على الشاه وأضمر ذلك في نفسه، ثم شرع مباشرة في تطهير بلاده من الوجود الشيعي الصفوي، وبث رجاله وعيونه في جميع أنحاء الأناضول لكي يتبعوا دعاة الصفوية وأعاونهم ويحصون عدد جنودهم وأتباعهم المعروفين بالقرل باشي وكل من يميل إليهم ويدعمهم من أهالي الأناضول، وأوكل أمر تصفيتهم والقضاء عليهم إلى صدره الأعظم يونس باشا، الذي اتبع سياسةً شديدة وحاسمة في التعامل معهم، فقتل عليهم وقتل الكثير منهم وشتت شملهم حتى هربت فلولهم إلى إيران، حيث آواهم الشاه واستقبلهم وكل من معهم من الناقمين على العثمانيين من زعماء وأفراد قبائل التركمان الذين يميلون إلى الإلحاد والرافضة فهياً لهم المساكن وأسباب العيش حتى يتمكن من إعدادهم وتأليبهم ثم يدعهم ويعيدهم إلى الأناضول بغرض إشعال الفتن والقيام بالثورات ضد العثمانيين،⁽³⁾ أما السلطان سليم فبعد أن استتب له الأمور وهدأت الأحوال داخلياً عاد إلى

(1) وقيل أن قتال السلطان سليم وملاحقته لأخيه الأمير أحمد، لم يكن بدافع التنزع على السلطة فقط، بل أنه قد ثبت تورط الأمير أحمد وذهابه إلى الشاه إسماعيل وتحالفه معه ضده أخيه السلطان سليم، الذي اعتبر ذلك التحالف خيانة عظمى تستوجب القتل، فعندما علم بعودته من بلاد الشاه تمكن من القبض عليه وقتله. أحسن التواريخ. Mürsel Öztürk, çeviren; Hasan, Ahsenü't-Tevarih, Rumlu; Türk tarih kurumu, Ankara, 2020, s135.

(2) وقد استقبلها السلطان الغوري على مضض خشية أن يتسبب ذلك في خلق مشكلة دبلوماسية بين الدولتين، وقد مات الأمير سليمان ومالبت أن لحق به أخوه الأمير علاء الدين بالقاهرة إبان الطاعون الذي حل بها في سنة 1513م، أما الأمير قاسم فقد كان أصغرهم سناً حيث هربه مربيه إلى حلب خفية، وذلك بعد مقتل أبيه الأمير أحمد وموت أخويه بالطاعون، وكان عمره لا يتجاوز ثلاثة عشر عاماً وقتئذ، ولما علم به السلطان الغوري أحضره إلى مصر سرّاً لعله ينتفع به في الضغط على عمه السلطان سليم فيما بعد. متولي: مرجع سابق، ص 71. ولا شك أن استقبال السلطان الغوري للأمراء الفارين قد أثار حفيظة السلطان سليم، لكنه لم يبد ذلك حيث مات الأميرين سليمان وعلاء الدين بالطاعون، علاوة على عدم علمه بأمر الأمير قاسم، بالإضافة إلى انشغاله بحربه مع الشاه ورغبته في كسب المال إلى جانبه في تلك الحرب. ابن أجا: مصدر سابق، ص 230.

(3) طاهري: أبو القاسم، تاريخ سياسي واجتماعي إيران از مارك تيمور تا مارك شاه عباس، أول تهران، 1349هـ، ص 162-161.

مقر حكمه ودار سلطانه بإستانبول حيث شرع في عقد معاهدات سلام وهدنه مع ملوك أوروبا،⁽¹⁾ لكي يتفرغ للشاه الصفوي ويبحث شأفته ويستأصل دعوته ومذهبه الفاسد من جذوره،⁽²⁾ وكذلك الخطر البرتغالي الذي مازال يجوب البحار ويحرق بالديار الإسلامية، وبعد أن استفتى العلماء ورجال الدين في جواز قتال القزل باشي فأفتوا له بالإتفاق على أن قتالهم ومجاهدتهم أولى من جهاد أهل الكفر،⁽³⁾ استناداً عليه ندب السلطان سليم جميع أمراءه ووزرائه وشرع مباشرةً في إعداد العتاد والعدة وحشد الجيش للتحرك نحو إيران،⁽⁴⁾ ولكسر شوكة الشاه وتشتيت قواه قام بمراسلة عبيد الله خان الأوزبك يعلمه بنواياه في التحرك نحو إيران للقضاء على الشاه، وطلب منه العون في ذلك ومحاصرة الشاه ومهاجمته من جهة الشرق، بينما يهجم هو من الغرب، فقبل الخان بذلك وشرع في إعداد العدة ومهاجمة الأراضي الشرقية من أملاك الشاه وكان ذلك في عام 1514م،⁽⁵⁾ كما أعلن الكثير من أمراء

(1) حيث تغيرت نظرة الأوروبيين نحو العثمانيين آنئذ، ولم يعودوا يعاملونهم كبرابرة أجلاف غير متحضرين، بل أصبحوا ينظرون إليهم نظرة إجلال واحترام وتقدير، ويعملون على كسب ودهم ودعوتهم إلى بلادهم وعقد الإتفاقيات معهم، وذلك بعد أن لمسوا فيهم ترسخ القيم الإنسانية والحضارية والأخلاق الحميدة، علاوة القوة والنشاط والوحدة والتواضع وغيرها من الصفات الإيجابية التي كانوا يتميزون بها عن المجتمع الأوروبي آنذاك. Eliot; Charles, Turkey in Europe, London, 1965, p54.

(2) وذلك بعد أن أرسل إليه أهل السنة من سكان تلك الديار وما جاورها يستغيثون بهم من بطش وظلم الشاه إسماعيل، وكان على رأس الذين راسلوه أعيان ومشايخ العشائر الكردية التي تقطن المناطق المجاورة لبلاد الشاه، يشكون له فساد القزل باش وتعديهم على حرمتهم وأموالهم وأعراضهم بسبب انتمائهم لأهل السنة ومحبتهم لسلطان المسلمين وموالاتهم له. الملياري: أبو يحيى زين الدين أحمد بن محمد الغزالي المعبري، تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين، تحقيق: محمد سعيد الطريحي، مؤسسة الوفاء، بيروت، 1985م، ص 31-25.

(3) ولم يكن من اليسير على العثمانيون وعلماء الدولة الإفتاء بمحاربة دولة مسلمة وإعلان الحرب عليها بشكل رسمي وتعبئة كاملة، إلا بعد التثبت من فساد الشاه ومذهبه الباطل وغلوه في الدين حتى أن البعض أفتى بكفرهم، فأصدر شيخ الإسلام ابن كمال كبير علماء الدولة العثمانية آنئذ قراراً مدعوماً بأدلة من الكتاب والسنة بجواز قتال أهل الفتنة والضلال المارقين عن أهل السنة، وأن قتالهم يعد جهاداً في سبيل الله وفي ذلك منفعة وصلاح لأمر المسلمين، وكانت تلك الفتوى بالإجماع من علماء الدولة العثمانية. Banarlı; Nihad Sami, Resimli Türk Edebiyatı Tarihi, Milili Eğitim Basımevi, İstanbul, 1971, s605.

(4) Celalzâde; Mustafa, Selimnâme, Hazırlayan; Ahmet Uğur ve Mustafa Çuhadar, Kültür Bakanlığı Yayınları, İstanbul, 1990, s 395.

(5) Haydar Çelebi; Haydar Çelebi Ruznâmesi, Kervan Kitapçılık, İstanbul, s 40-41.

وزعماء الأكراد تبعيتهم وانضمامهم إلى السلطان العثماني ومساندتهم له في القضاء على الصفويين،⁽¹⁾ حيث كانوا من أشد الناس رفضاً للمذهب الشيعي وقد وجدوا في الانضمام إلى العثمانيين خلاصهم من استبداد الشاه وتطهير البلاد وتحرير العباد من معتقداته وأفكاره الضلالية التي كان يفرضها على الناس،⁽²⁾ أما الشاه فقد شرع بإرسال سفرائه إلى ملوك أوروبا خصوصاً أمراء البندقية ليخبرهم بعزمه على مهاجمة الدولة العثمانية والقضاء عليها، ويطلب منهم العون بمهاجمة الطرف الروم إيلي من الديار العثمانية مرغباً إياهم في المكاسب المادية التي سوف يجنونها من ذلك، إلا أنهم لم يستجيبوا له،⁽³⁾ فحاول اكتساب المماليك إلى جانبه وأرسل إلى السلطان الغوري والأمير علاء الدولة بن دلغادر مستغلاً موقفهم المناوئ للعثمانيين فطلب منهم المساعدة والوقوف إلى جانبه ضدهم،⁽⁴⁾ وقد أثر السلطان الغوري جانب الحياد في هذا الصراع على الرغم من إدراكه لانحراف وفساد فكر الشاه وأخلاقه ومذهبه الشيعي الذي يتبناه ويسعى لفرضه على المسلمين قهراً، إلا أنه قد رجح المكاسب السياسية وجعلها فوق كل شيء بما في ذلك مصلحة الأمة والجماعة من أهل السنة الذين لم يبرح الشاه ينكل بهم بكل ما أوتي من قوة،⁽⁵⁾ وأراد بموقفه ذلك أن يصطدم الطرفان

(1) ويرجع الفضل في ذلك إلى السياسية الدبلوماسية التي اتبعها السلطان سليم في استمالة أمراء الأكراد إلى جانبه، وذلك عن طريق مستشاره الكردي إدريس البديسي صاحب الصيت الذائع والسمعة الحسنة والمعرف بالتدين وعلو كعبه في العلم والأدب وقربه من الزعماء والأمراء في تلك المنطقة، فكان له القدر المعلا في ضم قبائل الأكراد تحت لواء الدولة العثمانية بطريقة سلمية مع حفظ نوع من الاستقلالية الداخلية في إدارة شؤون بلادهم وسياسية رعاياهم وفق أعرافهم وتقاليدهم المحلية. Alsaedi: Bushra Naser. Hashim, Political Diplomacy and its Impact in Establishing Ottoman Powers in North Iraq (Idreas Albadlisi as a sample), Route Educational and Science Journal, Volume 5,13, December 2018, p 1309

(2) شرف خان البديسي: شرف الدين بن شمس الدين، شرف نامه، ج2، ترجمة: محمد علي عوني ويحيى الخشاب، دار الزمان، دمشق، 2006م، ص367-374

(3) أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، ج1، ص204.

(4) شيباني: مجير الدين شيباني، تشكيل شاهنشاهي صفويه، انتشارات داشكاه، تهران، 1967م، ص133.

(5) وفي الوقت نفسه أرسل السلطان سليم إلى السلطان الغوري يعرض عليه توحيد صفوفهم وجمع كلمتهم بصفتهم أكبر دولتين سنيتين في المنطقة، للتصدي للمد الصفوي الشيعي، إلا أن السلطان الغوري قد رفض ذلك واكتفى بالحياد، وقيل أنه قد تواصل سراً مع الشاه لعقد تحالف ضد العثمانيين، وقد بلغ خبرهم السلطان سليم فأغتم لذلك بيد أنه قد كظم غيظه لكي لا يفتح على نفسه باباً للعداء الصريح مع المماليك في تلك الآونة. ابن أجا: مصدر سابق، ص231.

بعضهما البعض فيقضي أحدهما على الآخر ويخرج المنتصر منهكاً فيكون لقمة سائغة له إذا ما تجرأ على مناكفته في ريادة العالم الإسلامي،⁽¹⁾ ثم بعد ذلك يتقدم هو بصفته ممثل دولة الخلافة وزعيم الأمة الإسلامية ليصلح بين الطرفين ويعلب دور المنقذ وحامي حمى أهل السنة والأمة الإسلامية جمعاء، فيعلو شأنه في أنظار المسلمين والعالم أجمعين،⁽²⁾ أما الأمير علاء الدولة بن دلغادر فقد كان أشد تواطؤاً من السلطان الغوري، حيث أرسل إليه السلطان سليم يندبه لدعمه والمشاركة معه في حربه ضد الشاه الراضي، إلا أنه قد تلمص متعللاً بتقدم سنه وضعفه وعدم قدرته على تحمّل مشاق السفر والحرب، كما أنه لا يستطيع تقديم أي دعم عسكري وذلك وفقاً لما أعلنته دولة المماليك التي يتبع لسيادتها موقفها الحيادي من هذه الحرب العثمانية الصفوية.⁽³⁾

وفي أواخر شهر مارس من سنة 1514م حشد السلطان ياوز سليم عساكره وخطب فيهم خطبة عصماء شاحداً لهممهم رافعاً لروحهم المعنوية ومذكراً إياهم بدوافعهم

(1) وقد ذُكر أن السلطان عندما علم بمسير السلطان سليم نحو إيران، أمر بإرسال بعض التعزيزات العسكرية إلى حلب تحسباً لما سيقع بعد انتهاء الحرب التي بين الصوفي وابن عثمان وكما ورد على لسانه، «فإن المنتصر منها لا بد أن يزحف على بلادنا». ابن إياس: مصدر سابق، ج4، ص22.

(2) طقوش: تاريخ الدولة الصفوية، مرجع سابق، ص76.

(3) وكان ذلك بتدبير وإيعاز من السلطان الغوري الذي كانت بينه وبين الشاه محبة ومصافة فقام لأجلها بأمر عامله على مرعش وألبستان علاء الدولة بن دلغادر بأن يمنع الميرة عن عساكر ابن عثمان. ابن إبي السرور: مصدر سابق، ص73. وذكر ابن إياس أن السلطان الغوري قد أرسل نديمه العجمي الشنقجي إلى الشاه الصوفي خفية في أمر سر بينه وبين الشاه. مصدر سابق، ج5، ص35. وقد ذهب ابن دحلان إلى أبعد من ذلك حيث قال: كانت هنالك صداقة ومحبة ومكاتبة ومؤاذرة بين السلطان الغوري والشاه، حتى أن البعض قد ذكروا أن السلطان الغوري من الراضية. أحمد بن زيني: الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية، ج3، المكتبة الملكية، الرباط، رقم 2578/3، نسخة مصورة من مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، عمان، رقم 669، ج3، ص283. أما أولياء جلبي فقد تفرد بذكر ذلك بشكل صريح حيث قال: إن السلطان الغوري قد اتصل بالشاه الصفوي إبان حربه مع السلطان سليم العثماني وأمدّه باثني عشرة ألف مقاتل، فلما علم السلطان سليم بذلك عزم على محاربه بعد انتصاره على الشاه وعلاء الدولة بن دلغادر، حيث أرسل إلى السلطان الغوري يخبره بذلك قائلاً: «.. وإن معاونتك للقرل باشي عمل لا يلبق بمسلم، وقد قامت عليكم الحجة بالمذاهب الأربعة، ولدينا الفتوى بذلك وسوف ندخل مصر محاربين في فصل الربيع إن شاء الله...». الرحلة إلى مصر والسودان والحبشة، ج2، تحقيق: محمد حرب، ترجمة: حسين مجيب المصري، دار الآفاق العربية، القاهرة، دت، ص244.

ومبتغاهم من قتال الشاه الصفوي، ثم شرع بالتحرك نحو إيران،⁽¹⁾ أما الشاه فقد كان يتماهى في الاستهزاء بالسلطان سليم حيث بلغه خبر مسيره نحو بلاده، فأرسل إليه خطاباً يهدده ويستهزئ به فيه، وأرفق معه حُقة من معجون الأفيون، ويريد بذلك أن يستفز السلطان سليم ويتهمه بالضعف والجن وبأنه لا يملك الشجاعة الكافية لاتخاذ قرار محاربتهم والتوجه نحو بلادهم إلا وهو مخمور العقل، وذلك لما عُرفوا به من قوة وشجاعة وشدة بأس، فرد عليه السلطان سليم بخطاب شديد اللهجة وأرسل له بمعجر وهو نوع من لباس الحرير، واصفاً إياه بالجن والخور ليستفزه حتى يخرج لملاقاته، وذلك بعد أن أخبره بعض جواسيسه بأن الشاه لا يريد مواجهته بل يسعى لاستدراجهم للتوغل في أرضه وانهاك جيشهم وإفناؤه،⁽²⁾ وعندما وصلت العساكر العثمانية إلى أطراف الأراضي الدلغادرية أمر أميرها علاء الدولة أهالي مرعش وماحولها بأن لا يبيعوا للعساكر العثمانية شيئاً من المؤن والأعلاف ولاغير ذلك مما يعينهم في شأن حربهم ضد الصفويين،⁽³⁾ فشق ذلك على العساكر العثمانية وأشدت الحاجة والغلاء بهم ونفقت الكثير من الدواب وهلك جمعُ العسكر وكاد الجيش يهلك على بكرة أبيه،⁽⁴⁾ ولم يكتفي الأمير على الدولة بذلك بل

(1) ومما ورد في خطبة السلطان سليم أنه قال: بينما يتربص العالم النصراني بنا من الخارج، نرى أن هذا الشيعي يعمل على تقسيم الأمة وتفريقها إلى مذاهب وطوائف من الداخل، وأنه قد أضل الكثير من أهالي الأناضول وقبائل التركان ومن المؤسف أن الكثير منهم يجمعون الأموال والمتاع ويعدون العدة وللأسفر إلى هذا الملعون ومحسبون مقامه كالكعبة، يحجون إليه كأنهم يحجون إلى بيت الله الحرام، وقد وصل الأمر ببعضهم لدرجة السجود له كلما سمعوا اسمه أو ذكروه، بيد أن هذا الرجل من أهل الضلال والظلم فهو الذي يستبيح دماء أهل السنة ويستحل أموالهم بغير وجه حق ويتتهك حرمتهم وأعراضهم. Namik Kemal; Osmanlı Tarihi, III. Cilt, Bilge Kültür Sanat, İstanbul, 2005, s 27

(2) Münecimbaşı: g.a.e, II.Cilt, s 643-644.

(3) وهو هنالك بعض المصادر تقول بأن الأمير علي دولات هو جد السلطان سليم لأمه الأميرة عائشة خاتون الدلغادرية، والبعض يقول بأن والدته الأميرة قولبهار بنت عبدالصمد، إلا أن القول الأول هو الأرجح. -Kays; Rümıysa, Yavuz Sultan Selim'in Gavri ile Eylediği Cenk 1516, 1517, Gazi Kitabevi, Ankara, 2021, s11. ولكن الرغم من قوة صلة الرحم نجد أن الأمير علي دولات لم يراع ذلك وقدم مصلحته الشخصية وتواطأ مع المماليك على حفيده العثماني، وكما قيل أن لا أرحام بين الملوك والملك عقيم.

(4) بيد أن العثمانيون لما يتعرضوا لهم بسوء ولم ينهبوا أو يأخذوا شيئاً غضباً وإنما كانوا يريدون شراء المؤن بأموالهم، وذلك مما يؤكد حرصهم على الحفاظ على سلمية العلاقات مع المماليك. ابن زنبيل: الشيخ أحمد =

قام بمهاجمة ساقية ومؤخرة الجيش العثماني وقيل إن كل فعله هذا كان بإيعاز من السلطان الغوري،⁽¹⁾ فأغتم السلطان سليم وغضب من تصرف الأمير علاء الدولة وأضمرها في نفسه، ثم أرسل إلى السلطان الغوري معاتباً وشاكياً من تصرف نائبه الدلغادري،⁽²⁾ وفي هذا الموقف الذي لا يُحسد عليه اضطر العثمانيون إلى جلب المؤن وطلب الإمدادات من إستانبول حيث تم إرسالها عبر البحر إلى طرابزون ثم انتقلها براً بالإبل والبغال حتى تصل معسكراتهم بالقرب من أرض العدو، ومما زاد عليهم المشقة أن أتباع الشاه من قبائل الأستاجلوا التركمانية قد قاموا بحرق الأخضر واليابس وكل ما ينتفع به في طريق العساكر العثمانية، بل إنهم قاموا بإخلاء قرى كاملة وتهجير أهلها حتى لا يمدوهم بالمؤن والعلف للدواب،⁽³⁾ وكان في ذلك مجازفة ومهلكة عظيمة لم يستطع السلطان سليم وجيشه التغلب عليها إلا بشق الأنفس، وفي أواخر شهر آب 1514م التقى الجيشان العثماني والصفوي في سهل جالديران بالقرب من تبريز عاصمة الصفويين، وكانت الغلبة للجيش العثماني التي كانت تفوق خصمها في العدد والعدة واستخدام السلاح الناري، فتشتت فلول الصفويين إلا أن الشاه قد تمكن من الهروب بعد أن أثقل بالجرأح وكاد يقع في الأسر⁽⁴⁾،⁽⁵⁾ وقد سقط

= بن أبي الحسن بن علي الرمال، آخرة المالك «واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني»، تحقيق: عبدالمنعم عامر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1998م، ص 13.

(1) V. Parry; History of Ottoman Empire to 1730, Cambridge, P 70.

(2) فأجابه السلطان الغوري بأن علاء الدولة رجلٌ عاصي، فإن ظفرت به فاقتله، وفي الوقت نفسه كتب إلى علاء الدولة خفيةً يشكره ويشن على فعله ويحثه على قتال العثمانيين. ابن زنبل: مصدر سابق، ص 13

(3) سرور: غلام، تاريخ شاه إسماعيل صفوي، ترجمة: محمد باقر آرام وعباسقلي غفاري فرد، تهران، 1995م، ص 96-95.

(4) ومن العوامل التي أدت إلى إنتصار العثمانيين، علاوةً على تفوقهم في العدد والعدة واستخدامهم للسلاح الناري، هو سوء تدبير الشاه ووشدة إعتاده بنفسه وتضليل بعض الأمراء والقادة له في اتخاذ الكثير من القرارات الحاسمة وهم تحت تأثير الخمر، حتى قيل أنهم قد باتوا عاكفين على شرب الخمر طوال ليلة المعركة حتى الصباح. خودش: تذكره شاه طهماسب « شرح وقائع واحوالات زاندكانيا شاه طهماسب صفوي»، برلين، 1924م، ص 29.

(5) وقد تسببت هذه الهزيمة النكراء التي تعرض لها الصفويون بجالديران في كسر نفس الشاه إسماعيل واهتزاز ثقة أتباعه به، فتبدل كبرياؤه واعتداده بنفسه إلى ضعف وفتور وخنوع، وذلك مما جعله يبتعد عن ساحات القتال وقيل أنه لم يخض بنفسه أي معركة حاسمة بعد جالديران، سوى بعض المحاولات الضعيفة والفاشلة في العودة إلى الميدان السياسي، وقضى بقية حياته منشغلاً باللهو والصيد وشرب الخمر =

الآلاف القتلى من الطرفين في هذه الحرب فأمر السلطان سليم الأول بدفنهم جميعاً، وقد أعجب بمشاركة النساء المحاربات في الجيش الصفوي حيث عُثر على جثثهن وهن يرتدين لامة الحرب مثل الرجال، فأمر بدفنهن بشكل خاص يليق بهن،⁽¹⁾ وبعد ذلك واصل العثمانيون تقدمهم في الأراضي الصفوية حتى دخلوا عاصمتهم تبريز فسر أهلها بذلك واستقبلوهم استقبال الفاتحين، حيث كان أغلبهم من أهل السنة على المذهب الحنفي، إلا أنهم أجبروا على التظاهر بالتشيع حتى يدرأوا عن أنفسهم وأهليهم العذاب ونقمة وتسلط الرافضة الصفويين، وبمجرد دخول العثمانيين إلى المدينة هب أهلها لإقامة الجمع والجماعات والدعاء للسلطان سليم على المنابر، من بعد ذكر اسم النبي الكريم عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم وخلفائه الراشدين المهديين والدعاء لهم لأول مرة بعد غياب طويل منذ تسلط الشاه إسماعيل على حكم إقليم إيران⁽²⁾،⁽³⁾ وبعد إن اكتمل النصر أرسل السلطان سليم الأول إلى السلطان الغوري مبشراً له بالفتح والنصر وكسر شوكة القزل باشي، فرد عليه السلطان الغوري عن طريق نائبه على حلب الأمير خاير بك برسالة أعرب فيها عن فرح السلطان بذلك النصر وأنه قد أمر بدق البشائر وأعلنت الأفراح في القاهرة لمدة ثلاثة أيام وأكرم القاصد العثماني غاية الكرم،⁽⁴⁾ أما الأمير علاء الدولة فلم ينسى له السلطان سليم

= حتى وفاته، حيث تحولت سياسة الدولة من صفتها الدينية إلى الطابع الدنيوي والسياسي المعلوم. فوران: جان، مقاومة شكنته، تاريخ تحولات اجتماعي دار ايران، ترجمة: أحمد تدين، جاب بنجيم، تهران، 2005م، ص 45.

(1) فلسفي: جنك جالدران، دانشكده ادبيات مجله، تهران، شماره 2، سال اول، دى ماه 1964م، ص 66.
(2) وقد أراد السلطان سليم التقدم ومتابعة المسير في الأراضي الإيرانية، إلا أنه قد لقي معارضة شديدة من قبل بعض عساكر وأمراء اليكيجري، وذلك بسبب قساوة الظروف وحلول فصل الشتاء وقلة المؤن وعدم توفر الملابس الشتوية للجند، وتذمرهم على سوء الأوضاع، فخشى السلطان سليم من حدوث انشقاق وتمرد في صفوف الجيش ورجح العودة والإكتفاء بما حققه من انتصارات حاسمة وكاسرة للصفويين وقتئذ. Karaçelebi-Zâde; Abdülazîz Eefendi, Ravzatü'l-Ebrar, Hüsrev. Paşa kitaplığı, Nr.397 Süleymaniye Ktb, İstanbul, 1238, s 403.

(3) Namık Kemal; a.g.e, III. Cilt, s 49.

(4) متولي: مرجع سابق، ص 113-114. ولكن في الحقيقة يبدو أن ذلك لم يكن سوى مجاملة ومداراة سياسية ودبلوماسية من السلطان الغوري، حيث ذكر ابن إياس خلاف ذلك وقال: إن السلطان الغوري وأمراء لم يفرحوا بانتصار ابن عثمان في غرارة أنفسهم، ولم يؤمر بدق البشائر ولم يحتفلوا بذلك، بل إنهم قد توجسوا منه وأخذوا حذرهم خشية من سطوة ابن عثمان وشدة بأسه التي عُرف بها، وظلوا في حالة ترقب لما سيحدث منه بعد ذلك ونواياه تجاه بلادهم. مصدر سابق، ج 4، ص 398.

غدره بهم وتواطأه عليهم، فأرسل صدره الأعظم سنان باشا الخادم للتنكيل به والقضاء عليه، وقد تمكن بالفعل سنان باشا من هزيمة علاء الدولة والظفر به وقتله، ثم تعيين ابن أخيه علي بك بن شاه سوار مكانه على رأس الدولة⁽¹⁾، وبذلك تم ضم إمارة دلغادرة تحت سلطان العثمانيين وقُرئت الخطبة وصُربت العملة باسم السلطان سليم⁽³⁾، وبعد الفراغ من ذلك مكث السلطان سليم بالأناضول حتى انقضى فصل الشتاء⁽⁴⁾، ومع بداية فصل الربيع عقد العزم على استكمال مشروعه في توحيد الأمة وإعلاء كلمة التوحيد وفتح ماتبقى من البلاد الشرقية فتوجه نحو مدينة آق شهر⁽⁵⁾، حيث بلغه خبر تحركات الصفويين بمنطقة ديار بكر ومحاولاتهم لاستعادة الأراضي التي انتزعت منهم ومناوشاتهم المتكررة على الأراضي الحدودية، فأرسل جيشاً للقضاء عليهم بقيادة محمد باشا البيقلي الذي تمكن منهم وقتل قائدهم صهر الشاه إسماعيل الأمير ويراش خان القراخاني صاحب ماردين⁽⁶⁾، وقد أرسل السلطان سليم قاصده إلى السلطان الغوري مبشراً إياه بالفتح والنصر المبين لأهل السنة على الرافضة المفسدين المضلين، ويخبره بأن مايقوم به من فتوحات وحملات في بلاد القزل باشى ليس طمعاً في أرضهم وممتلكاتهم، وإنما غايته تطهير البلاد وتخليص العباد من ظلم أهل البدع والضلال وإعلاء كلمة الحق، ويرجو منه طلب الدعاء له من الفقراء

(1) بيد أن الأمير علي بن شاه سوار قد ذهب بعد ذلك إلى السلطان الغوري متودداً إليه بالهدايا وحُسن ورقة الخطاب. ابن إياس: مصدر سابق، ج5، ص8.

(2) Göyünç; Nejat, XVI.Yüzyılda Mardin Sancağı, TTK Yay, Ankara, 1992, s14-17.

(3) Yinanç; Refet, Dulkadir Beyliği, TTK Yay, 1989, s 90.

(4) وقد أصطحب معه أثناء عودته من تبريز جملاً غفير من العمال المهرة والصناع وأرباب الحرف والخطاطين والشعراء والأدباء والعلماء الذين أرسلهم إلى إستانبول لنقل خبراتهم ومهاراتهم وعلومهم وفنونهم والاستفادة منها في تطوير بلاده. أبوغنيمة: زياد، جوانب مضيئة من تاريخ العثمانيين الأتراك، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الأردن/عمان، 1983م، ص254.

(5) حيدر جليبي: روزنامه «سلطان سليمك إيران سفرنيه دائرة مخبرات»، مخطوط رقم R1955، مكتبة طوبقبو سرايي، إستانبول، ص135.

(6) فون هامر: دولت عثمانية تاريخي، ج4، ترجمة محمد عطار، مطبعة دار الخلافة العليا، إستانبول، 1335هـ، ص167-156.

والزهاد الصالحين بأن يزيد الله دينه الحق منعاً وقوة ويجمع كلمة المسلمين،⁽¹⁾ وقد أكرم السلطان الغوري الوافد العثماني ورده بهدية إلى صاحبه ورسالة يُعرب فيها عن سروره وفرحه بالنصر العثماني، ويطلب منهم شراء بعض الأخشاب وإرسال نفر من أهل الصنعة إلى القاهرة،⁽²⁾ بيد أن السلطان الغوري كان في غرارة نفسه غير مطمئن لنوايا العثمانيين وما يدور من أحداث في منطقة الأناضول وإمارة دلغادر الحدودية التابعة للسيادة المملوكية لآسيا بعد أن قتل السلطان سليم عاملهم عليها الأمير علي دولات وولى مكانه ابن أخيه شاه سوار، ذلك مما جعل السلطان الغوري يعزم على الخروج إلى حلب بنفسه للتحقق من الأوضاع ومجريات الأحداث عن كثب وتدخل بالقوة إذا ما تطلب الأمر ذلك،⁽³⁾ فأعلن النفير العام للعسكر وأمر بالتهيؤ للمسير وكان ذلك في أواسط شعبان من سنة 921هـ/ 1515م،⁽⁴⁾ أما السلطان سليم فقد رجع إلى إستانبول وأخذ يعمل على ترتيب شؤون دولته داخلياً، كما قام بعمل محاكمة عسكرية لكل من أظهر التخاذل أو العصيان من القادة والجند الذين كانوا معه في حملته على الصفويين.⁽⁵⁾

* * *

(1) بن علي: حسين خوجه، بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ميكروفيلم رقم 13486.

(2) ولم يفصح السلطان الغوري في رسالته عن سبب حاجته للأخشاب، ولو كان يريد بها إعداد العدة لمحاربة البرتغاليين لكان قد أفصح عن سببه وذلك من دواعي سرور العثمانيين، ولكن قيل أنه كان يريد أن يصنع بها سفناً لمجابهة العثمانيين أنفسهم إذا ما بدأوهم بسوء، حيث كان في حالة توجس وقلق دائم منهم منذ أن اعتلى السلطان سليم الأول سدة الحكم. نفسه: ص 119-120.

(3) وقد أعاب العساكر على السلطان هذا التهويل للأمر، فهو لا يستحق كله هذا القلق ولا خروج السلطان بنفسه إلى الشام، فإن ابن عثمان لم يتحرك نحو حلب ولم تأت أخبار تشير إلى ذلك. ابن إياس: مصدر سابق، ج 5، ص 26-27.

(4) لآسيا بعد أن حضر إليه أبناء الأمير علي دولات فأوغروا صدره على ابن عثمان، وأبلغه البعض بأنه قال: أن ما أخذناه بالسيف من هذه القلاع أي الأراضي المملوكية لا يؤخذ منا إلا بالسيف، وأنه ليس براجع عن التوجه نحو حلب والشام وأن نفسه تحدته بأخذ مصر نفسها، فتأكد السلطان الغوري وغضب لذلك وأمرهم بأن يسبقوه إلى بلادهم لإعداد العدة وجمع عساكرهم من التركمان، حتى يلحق بهم مع عساكره السلطانية. ابن أجا: مصدر سابق، ص 234.

(5) Karaçelebi-Zâde; a.g.e. s 458.

الفصل الخامس

دور الأخلاق فيه الصراع العثماني المملوكي ونتائجه وآثاره فيه مجتمع الأمة الإسلامية 1516-1517م

5.1 أزمة الأمة ودواعي الوحدة وضم البلاد العربية تحت لواء الدولة العثمانية:

5.1.1 السلطان ياووز سليم وفكرة الوحدة الإسلامية «اتحاد اسلام وسياستي»:

في نهايات القرن الخامس عشر وبدايات القرن السادس عشر الميلادي، بدأت الدول الأوروبية تتكالب وتشرع في السيطرة على الكثير من الجزر والبلدان الإسلامية المطلة على سواحل البحر الأبيض المتوسط، ثم توسع نشاطها في ذلك فتجرات البرتغال على البلدان الإسلامية بشبه القارة الهندية والخليج العربي وسواحل البحر الأحمر، ومارسوا على أهلها أشد صنوف السياسات القمعية لاسيما على مسلمي الهند حتى إنهم قد منعوهم من تأدية فريضة الحج ونهبوا سفنهم واسترقوا أبناءهم بل إنهم عملوا على تنصيرهم قهراً⁽⁶⁾ وقد توالى تلك الحملات الصليبية على البلدان الإسلامية لاسيما بعد حالة الضعف والفتور والتفكك الداخلي التي انتابت الأمة الإسلامية بعد سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين بالأندلس في يد الأسبان، الذين لم يكتفوا بذلك فبدؤوا بالتعرض لسواحل شمال إفريقيا وبلدانها الإسلامية، بالإضافة إلى فرسان القديس يوحنا بجزيرة رودس الذين يارسون

(6) ابن طولون: مفاكهة الخلان، مصدر سابق، ص 279.

القرصنة البحرية على السفن الإسلامية،⁽¹⁾ علاوة على الاضطراب والفتن الداخلية التي كان يفتعلها حلفاؤهم الصفويون الروافض حيث كانوا أشد ضراوةً على الأمة الإسلامية من العدوان الأوروبي الصليبي آنذ، ولم يكن للمسلمين من أهل الجماعة والسنة خيار سوى جمع كلمتهم وتوحيد صفوفهم تحت لواء جامع موحد لمجابهة هذه التحديات والأخطار، وبعد أن تبين فشل المماليك في ذلك بعد هزيمتهم أمام البرتغاليين في البحر الأحمر تحولت أنظار الأمة نحو العثمانيين أصحاب الدولة المجاهدة الفتية،⁽²⁾ الذين يتبنون قضية الدافع والمرابطة في الثغور وفكرة الوحدة الإسلامية التي تُعد من أهم القيم والمبادئ التي قامت عليها دولتهم منذ الوهلة الأولى، وقد بلغت هذه الفكرة ذروتها في عهد السلطان ياووز سليم الذي كان يسعى إلى توحيد جغرافية العالم الإسلامي سياسياً واجتماعياً تحت مظلة إسلامية موحدة كبرى وشاملة فكان ذلك شغله الشاغل حتى وفاته⁽³⁾،⁽⁴⁾ وقد ترسخت هذه الفكرة في نفسه من قبل اعتلائه سُدة الحكم والسلطنة، حيث كان شديد التأثير والشغف بجده السلطان محمد الفاتح في نمط تفكيره وعلو همته في الجهاد وإعزاز الدين وحماية المسلمين،⁽⁵⁾ وبعد أن اتسع نفوذهم وامتد سلطانهم في قارات العالم الثلاثة الكبرى وكثر اتباعهم وأنصارهم، تباينت التركيبة السكانية في دولتهم واختلفت سماتها الاجتماعية

(1) خير الله أفندي: دولت عليه عثمانية تاريخك، اوننجي جلد، Kütüphan ve Müzeler Müdürlüğü, İstanbul، ص 91-89.

(2) جودت باشا: أحمد، تاريخ جودت، مطبعة جريدة، بيروت، 1309هـ، ج 1، ص 40-39.

(3) وقد عبر عن ذلك قولاً وفعلاً وشعراً حيث قال:

إن خشيتي من الاختلاف والفرقة ستظل تقلقني حتى وأنا في القبر
 إن اتحدنا فصوله الدولة تستطيع دفع الأعداء وإن لم تتحد الأمة فلا راحة لي
 آق كوندوز وأوزتورك: أحمد وسعيد، الدولة العثمانية المجهولة، وقف البحوث العثمانية، استانبول، 2008م، ص 218.

(4) Haluk Öner; Yavuz Sultan Selim ve İttihâd-ı İslam Siyaseti, Türk Kültürü Dergisi, 40, İstanbul, 2019, s 553.

(5) وكذلك كانت أمه والده سلطان واساتذته وكبار رجال دولته أمثال سنان باشا وحلمي أفندي يرسخون في نفسه قضية توحيد الأمة الإسلامية وحماية المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها. مجهول: ياووز سلطان سليم واتحاد اسلام سياستى، مدحت باشا صنايع مكتبى مطبعة سى، استانبول، د.ت، ص 11-6.

وذلك نسبةً لكثرة الأعراق والقوميات التي انضوت تحت لوائها إبان حركة الفتوحات الكبرى التي حققها العثمانيون بعد فتح القسطنطينية، حتى أصبح العرق التركي وهو الذي يمثل نواة الدولة أشبه بأقلية مقارنة مع الأعراق والعناصر السكانية الأخرى التي دخلت في مجتمع الدولة العثمانية،⁽¹⁾ بيد أن العثمانيين لم يوفقوا في صهر هذه العناصر السكانية المتباينة والأعراق والثقافات والعادات والأديان المختلفة في مجتمع موحد بادئ الأمر، حتى تنبه السلطان ياووز سليم لهذه النقطة فسعى لمعالجتها بخلق هوية اجتماعية وسمّة دينية جامعة تمثل كيان الدولة العثمانية في العالم الإسلامي خاصة والمجتمع الدولي بشكل عام، ولم يرَ في القسم الروملي أي الأوروبي من الدولة بيئةً صالحةً لتحقيق هذا المشروع وذلك لأنه لم يكن يثق بحكامه المحليين وطبيعة مجتمعاتها وتركيبها السكانية التي تميل إلى الثقافة الغربية بحكم موقعها الجغرافي وأصولهم العرقية واختلاف أديانهم وحدائهم عهدهم بالإسلام آنئذ،⁽²⁾ وقد تشدد السلطان سليم في تنفيذ فكرة الوحدة الإسلامية حتى قيل إنه أراد أن يفرض الإسلام قهراً على النصارى من رعايا الدولة العثمانية، فتصدى له شيخ الإسلام علي أفندي الزنبلي ومنعه من ذلك،⁽³⁾ ثم اهتدى السلطان سليم إلى فكرة تحويل أنظاره وجهوده في مشروع توحيد الأمة الإسلامية إلى منطقة الشرق الأوسط وبلاد العرب التي تمثل حجر الزاوية ونواة المجتمع الإسلامي،⁽⁴⁾ وقد شرع في ذلك وخطى خطوات

(1) كيرك: جورج: موجز تاريخ الشرق الأوسط من ظهور الإسلام إلى الوقت الحاضر، ترجمة عمر الاسكندري وسليم حسن، مركز كتب الشرق الأوسط، القاهرة، د.ت، ص 90.

(2) بيد أن العثمانيين لم يهملوا قضية الاستفادة من بعض الجوانب والتقنيات الصناعية والعسكرية والإدارية التي كان الأوروبيون يتفوقون فيها على بقية دول العالم، ومن أهم هذه الجوانب الصناعات والتقنيات الحربية من مدافع وبارود وغيرها من الأسلحة النارية، بالإضافة إلى اقتباس بعض النظم العسكرية الأوروبية وتطبيقها في الجيش العثماني. الخادم: سمير، السلاح الناري وأثره في الشرق في القرنين السادس عشر والسابع عشر، دار النهار للنشر، بيروت، 1980م، ص 117.

(3) وقد أصدر في فتواه قائلاً في حق نصارى الدولة العثمانية: أنه يجب علينا أن نحفظ لهم أنفسهم وأعراضهم وأمواهم بالقدر الذي نحرص به على الحفاظ على أنفسنا وأعراضنا وأمواننا ما بقوا في ذمتنا، ولا يجلب لنا أن نكرههم على اعتناق ديننا ففي ذلك مخالفة للشرع والدين. آق كوندوز وأوزتورك: الدولة العثمانية المجهولة، مرجع سابق، ص 497.

(4) الوائلي: طالب محييس حسن، إيران في عهد الشاه إسماعيل الأول (1524-1501 / 930-906م)، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة بغداد/ كلية الآداب، 2007م، ص 214.

واسعه في العمل على تحويل هوية الدولة بتوحيد جميع الأمصار والمجتمعات الإسلامية من حدود الصين حتى غرب البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي تحت لوائها، وتوثيق الصلات بينها وربطها بمركز السلطنة، واعتماد اللغة العربية كلغة رسمية للدولة بدلاً من اللغة التركية المحلية التي لا تتناسب مع متطلبات المرحلة وقتئذ،⁽¹⁾ وبذلك يتمكن من خلق دولة إسلامية جامعة يجابه بها ممالك الغرب الأوروبي المتحدة، وقد تمكن السلطان ياوز سليم من تحقيق جزء كبير من تلك الغايات التي ظل ينشدها طوال فترة حكمه، وذلك بتطهير مجتمع الأناضول من الحركات المذهبية والطائفية الفاسدة والهدامة بالتغلب على داعمها ومؤسسها الأول الشاه إسماعيل الصفوي في جالديران، ثم فتح العراق وأرمينيا وضم بلاد الشام ومصر والحجاز واليمن، إلا أن المنية قد عاجلته فحالت دون استكمال مشروعه حيث اختلفت سياسة خلفه وابنه السلطان سليمان القانوني الذي لم يشاطره تلك التوجهات وحركة التجديد.⁽²⁾

5.1.2 انتكاسة الأمة وأزماتها الأخلاقية والاجتماعية والاستغاثات العربية

بالعثمانيين وأثرها في زوال دولة المماليك:

وبعد ازدياد هجمات الأسطول البرتغالي على البلدان الإسلامية لاسيما المطللة منها على سواحل البحر الأحمر وباتوا يهددون حرمة الأراضي المقدسة والحرمين الشريفين، حيث تبين ضعف المماليك وعجزهم أمام البرتغاليين،⁽³⁾ عقد المسلمون من أهالي البلدان العربية

(1) وقد كان السلطان ياوز سليم محباً للغة العربية مجيداً لها، علاوة على الفارسية والتركية، وكان ينظم بها الأشعار، حتى قيل إنه عندما كان بمصر كتب على أحد جدران القصر الذي كان يقيم فيه قائلاً:
الملك لله من يظفر بنيل منى يردده قسراً ويضمن بعده الدركا
ولو كان لي أو لغيري قيد أنملة فوق التراب لكان الأمر مشتركاً
وكتب تحتها خادم الفقراء سليم. القرماني: أخبار الدول، مصدر سابق، ج 3، ص 48.

(2) حيث كان يرجح استأنف الفتوح وسياسة التقدم في الأراضي الأوروبية ونظام اللامركزية في إدارة الدولة، كما أنه قد رجح الاحتفاظ باللغة التركية كلغة رسمية للدولة ولم يؤيد فكرة تعريبها. بيهم: محمد جميل، فلسفة التاريخ العثماني، دار صادر، بيروت، 1935م، ص 67-66.

(3) وقد أورد ابن إياس في ذكره لأحداث سنة 912هـ/ 1506م، أن البرتغاليين قد دخلوا بحر الحجاز أي الأحمر ومنعوا سفن التجار المسلمين من الأبحار فيه، كما ذكر في أحداث سنة 920هـ/ 1514م أن حركة التجارة البحرية تابعة للمسلمين قد تعطلت منذ ست سنوات بين الموانئ الهندية وجدة، وذلك مما تسبب تفشي الغلاء وكثرة المظالم بين الناس. مصدر سابق، ج 4، ص 109/359.

آمالهم من بعد الله سبحانه وتعالى على السلطان ياووز سليم في تخليصهم من هذا العدو الغاشم، لاسيما بعد أن بلغتهم أنباء انتصارات السلطان ياووز سليم على الرافضي الشاه اسماعيل الصفوي، فاقترح شريف مكة الأمير بركات بإرسال وفد إلى السلطان العثماني يستنجدون به من العدوان البرتغالي وكان ذلك في عام 1516م،⁽¹⁾ إلا أن السلطان الغوري قد منعهم وحال دون ذلك، ويستدل بهذا الموقف على تقبل المنطقة العربية للدخول تحت مظلة الحكم العثماني رغبة لا رهبة، ففي ذلك خلاصهم من خطر البرتغاليين وظلم المماليك واستبدادهم،⁽²⁾ بل إنه قد ورد أن علماء ووجهاء مصر كانوا يتشاورون فيما بينهم ويتحسسون سرّ لقاء كل قاصدٍ عثماني يأتي إلى مصر، فيقصون عليه خبرهم وشكواهم وضيق الناس من ظلم المماليك وفساد أخلاقهم وجور سلطانهم الغوري الذي لا يراعي فيهم ذمة ولا ديناً، وأنهم يستنجدون بالسلطان العثماني ويستنهضونه لتحقيق العدالة وتخليص الناس بأخذ مصر من أيدي هؤلاء الظلمة،⁽³⁾ أما أهل الشام فقد اجتمع علماءهم وأعيانهم وقضاتهم وأهل الرأي من العوام وبعثوا إلى السلطان ياووز سليم العثماني متقدمين إليه بعهود الولاء والطاعة، ويستقدمونه لنصرتهم وتخليصهم من ظلم واستبداد المماليك الجراكسة وفساد أخلاقهم وتعليقهم على حقوق الناس وحرمانهم وأعراضهم،⁽⁴⁾ وكذلك خطر المد البرتغالي والصفوي الذي يحدق ببلادهم من كل صوب، وطلبوا منه أن يرسل إليهم وزيراً ثقةً من طرفه يلتقي بهم سرّاً لأخذ الموائيق والعهود وتأمينهم على أنفسهم وأعراضهم وعيالهم وأموالهم حتى تطمئن قلوبهم، وأنه إذا ما قرر الزحف بنفسه على سلطنة المماليك فإنهم سوف

(1) حيث ذكر أن الرحالة (القرصان) فاسكو دي جاما البرتغالي قد ألغى القبض على العديد من السفن الإسلامية غي المسلحة وهي في الطريق العودة من مكة المكرمة إلى الهند وغيرها من الأمصار الإسلامية، فأمر بإفراغها من البضائع ثم أحرقها بما فيها من المسلمين، وكذلك كان يفعل ألبوكيرك قائد البحرية البرتغالية حيث بعث برسالة إلى ملك البرتغال يخبره فيها مفتخراً بأنه، كان يملأ المساجد من المسلمين لاسيما العرب ويضرم فيها النيران، ولا يكاد يتجوا أحد منهم إذا ما وقع في يدها حيثما ثقفه. بانيكار: ك.م، آسيا والسيطرة الغربية، ترجمة: عبدالعزيز توفيق جاويد، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص 46-40.

(2) إنجاليك: مرجع سابق، ص 54.

(3) رضوان باشا زاده: عبدالله، تاريخ مصر، مخطوط بمكتبة بايزيد، إستانبول، برقم 4971.

(4) وقد ذكر ابن إياس أن أمراء المماليك قد عتبا على السلطان قايتباي لعدم اكترائه لتزايد نفوذ بني عثمان في أطراف بلاد الشام حتى أنهم قد بنوا بها الحصون وضربوا العملة باسمهم، وكان أهالي حلب يميلون إليهم ويحبونهم لما رأوه فيهم من عدل وإحسان إلى رعاياهم. مصدر سابق، ج 4، ص 463.

يخرجون لاستقباله قبل دخوله حدود الشام بمدينة عينتاب تعبيراً عن فرحهم وترحيبهم به،⁽¹⁾ ومما عزز رغبة العثمانيين في محاربة المماليك وتخليص الناس من ظلمهم وفسادهم، هروب الأمير المملوكي خوشقدم شاد الشون⁽²⁾ من بطش السلطان الغوري الذي جرده من أمواله ظلماً وطلق منه زوجته غصباً،⁽³⁾ فالتجأ إلى السلطان ياووز سليم العثماني الذي أكرمه وأحسن استقباله، فأخذ الأمير خوشقدم يبين له مدى الظلم الذي يعانيه الناس من السلطان المملوكي وحاشيته وفداحة الضرائب التي يفرضونها عليهم بغير وجه حق وزغل العملة وفساد القضاة وتعاملهم بالرشوة وغير ذلك من مفاسد أخلاقية،⁽⁴⁾ كما أطلعه بالتفصيل على أحوال الداخلية لسلطنة المماليك ومدى ضعفها وتفككها، وأخذ يحرّضه على السلطان الغوري، وحسّن له أمر المسير نحو مصر وهون عليه أخذها، ويسر له عملية الاتصال ببعض النواب وأمراء المماليك الناقمين على السلطان الغوري واستبداده، أمثال خاير بك نائب حلب وجان بردي الغزالي نائب حماة وغيرهم،⁽⁵⁾ وقد كان لذلك دور كبير

(1) حرب: العثمانيين في التاريخ والحضارة، مرجع سابق، ص 140. Topkapı sarayı Müzesi، Arşivi، nr- 11634.

(2) شاد الشون: أي قائد الأسطول، وهي لفظة استعملت في العصر المملوكي بمعنى المدير أو الناظر والقائم على العمل، مثل شاد الأوقاف وشاد الدواوين، أما الشون فالمراد بها الأمور المتعلقة بالأساطيل البحرية وخدماتها. ابن أجا: مصدر سابق، ص 232.

(3) حيث كان السلطان الغوري شديد الطمع، ظلوماً متعسفاً حتى أنه صار إذا مات أحد الناس أمر بمصادرة جميع أمواله، حارماً بذلك ورثته من حقهم الشرعي في الميراث، فافتقر الكثير من الناس بسبب هذه المظالم واشتد غضب الرعية وسخطهم عليه، لاسيما في السنين الأخير من حكمه. القرماني: مصدر سابق، ج 2، ص 324.

(4) وفي ذلك يقول ابن إياس: ولما تسلطن الغوري، تزايدت فداحة الضرائب وتعددت أنواعها، ومنها ما كان مألوف ومنها ما كان غير مألوف مثل الضريبة التي فرضت على الناس كافة حتى الخليفة لم يُعفى منها، وضريبة الموجب التي صاروا يفرضون بموجبها على كل أردب من الغلال يباع ثلاثة أنصاف يأخذونها من البائع والمشتري، ولم يكتفوا بذلك بل فرضوا ضريبة أخرى على البطيخ أيضاً والخضروات وكل ما يبتاع به الناس، بل حتى البرسيم وعلف الحيوانات، علاوة على ما يدفعه التجار من ضرائب ومنها ضريبة المشاهدة والمجامعة وقد بلغت أكثر من ألفي دينار يدفعونها شهرياً للمحتسب، وذلك مما أدى إلى ارتفاع الأسعار وانتشار الغلاء ففشى الفساد وعمت الفوضى في جميع أنحاء البلاد وكثرت حوادث السرقة والنهب وغيرها من مفاسد الأخلاق، ذلك مما زاد من نقمة الرعية على المماليك والثوران عليهم، وقد بلغ الأمر بأهل الشام من شدة ضيقهم وبغضهم للمماليك أن قاموا بطرد نائب السلطان عليهم. مصدر سابق، ج 5، ص 14، ج 3، ص 281.

(5) نفسه: ج 4، ص 471 - ج 3، ص 233-232.

في نجاح حملة السلطان ياوز سليم على الشام ومصر، حيث عمل خاير بك نائب حلب على تثبيت السلطان الغوري وإقناعه بعدم الخروج إلى الشام وأنهم سيكفونهم إذا تحرك العدو تجاههم، كما أنه شكى له من قلة المؤن وشدة الغلاء الذي حل بالشام، وكذلك فعل نائب الشام الأمير سيباي بيد أنه قد كان صادقاً في نصحه وولائه للسلطان الغوري، وقد حذر من الأمير خاير بك وأخبره بخيانتته لهم وميله إلى العثمانيين إلا أن السلطان الغوري لم يكثرث إلى ذلك، وكان يشك في ولاء ومصداقية الأمير سيباي،⁽¹⁾ بل إنه كان كثير الشك في كل من حوله، كثير الإعتداد برأيه في كل الأمور،⁽²⁾ وعلى الرغم من كل جهود أمراء الشام في إقناع السلطان الغوري بعدم التحرك إلى الشام، بالإضافة إلى تحاذل العساكر المملوكية بمصر وإبداؤهم عدم الرغبة في الخروج وتملصهم من القتال وذلك بعد أن ألقوا حياة الترف التي أفسدت أخلاقهم وثبّطت همهم فصاروا يعيشون على أجداد أسلافهم البحرية الذين دحروا المغول والصليبيين، إلا أن السلطان الغوري كان مُصرّاً على قراره في الخروج إلى الشام، فعمل على كسب ودهم وولائهم وإرضائهم بالمال لإقناعهم بالخروج معه في حملته إلى بلاد الشام.⁽³⁾

وفي أواسط ربيع الثاني من سنة 1516م، خرج السلطان قنصوة الغوري من القاهرة على

(1) وقد كان للسلطان الغوري رمالاً حاذقاً يتردد عليه كثيراً يؤمن بكلامه وتنبؤاته، ومن تنبؤاته التي كان يؤمن بها السلطان الغوري ويخاف منها أن قد أخبره بأن نهاية ملكه سوف تكون على يد رجل أول اسمه حرف السين، ولم يظن السلطان الغوري بأن ذلك الرجل قد يكون السلطان سليم بن عثمان ولم يفكر فيه قط، لأنه لم يكن يتوقع أن يتجرأ العثمانيون على محاربتة بصورة مباشرة، وأنهم لن يتمكنوا من دخول بلاده أبداً، وإنما كان شكه الدائم في الأمير سيباي بيد أنه كان رجلاً صادقاً موالٍ له وللسلطنة بشكل عام، إلا أن السلطان الغوري لم يكن يقبل منه الرأي ولا النصيحة ولا يصدق في أي شيء يقوله لاعتقاده الشديد وإيما به بتنبؤات الرمال. ابن زنبيل: مصدر سابق، ص 14.

(2) ابن إياس: مصدر سابق، ج 5، ص 37-26.

(3) وقد تخلف جمٌّ غفير من أولاد الناس عن المسير مع السلطان، وذلك لعدم مقدرته على توفير النفقة الكاملة لهم، بل أنه استرد منهم مقدراً مما أعطاهم أياها مقدماً، أما طوائف الجلبان والقراصة فقد أُلزم البعض منهم بالخروج بلا نفقه ذلك مما جعلهم يثورون عليه ويعوثون الفساد في البلاد حيث اضطربت أحوالهم عندما نادى فيهم السلطان بالسفر، فأخذوا يهجمون على الأسواق والطواحين وينهبون الخبز والخيول والبغال والقماش، فخاف التجار وغلقت الأسواق ووقع القحط وصارت مصر مثل يوم القيام وكل الناس يهرعون نفسي نفسي خوفاً من معرفة المماليك، فضج العوام من تلك المظالم والمفاسد التي يرتكبها المماليك وكثر الدعاء على السلطان وحاشيته. ابن إياس: مصدر سابق، ج 5، ص 31-28.

رأس عساكره السلطانية التي بلغ تعدادها قرابة خمسة آلاف جندي، بالإضافة إلى نحو ألف من مماليك الأمراء، وقد اصطحب معه الخليفة المتوكل على الله محمد العباسي وقضاة المذاهب الأربعة والأمير قاسم بن أحمد العثماني⁽¹⁾،⁽²⁾ وفي تلك الأثناء وقبيل تحركه بقليل وصلته رسالة من نائبه على حلب الأمير خاير بك، ومعها كتاب من السلطان العثماني ياووز سليم يعتذر فيه للسلطان الغوري بخطاب حسن ورقيق عن تعديه على أراضيهم إبان صراعه مع الأمير علي دولات، فلما عرض السلطان ذلك على أمراء المماليك انشرفت صدورهم للصلح، بيد أنه لم يرتاح إلى ذلك واعتبرها خدعة وحيلة من حيل السلطان العثماني، وواصل في تجهيزاته ثم تحرك نحو الشام بعد يومين من ذلك،⁽³⁾ أما السلطان سليم فقد شرع في تسيير طلائع جيشه بقيادة صدره الأعظم سنان باشا للقضاء على الشاه الصفوي وأتباعه بعد أن تكررت هجماتهم على الحاميات العثمانية محاولين بذلك استرجاع سلطنتهم وأجدادهم التي سلبها منهم العثمانيون بعد انتصارهم عليهم في جالديران، ولما وصل سنان باشا إلى أطراف الأراضي المملوكية قاصداً العبور نحو بلاد الشاه، أرسل إلى أمراء المماليك في تلك المنطقة يستأذنهم في العبور، إلا أنهم قد أهانوا رسوله ولم يحسنوا إليه في الرد ومنعوه من العبور، بعد أن أظهروا له بغضهم وحقنهم وعداءهم الدفين الذي كانوا يبطنونه للعثمانيين،⁽⁴⁾ في تلك الأثناء علم الصدر الأعظم سنان باشا بأن الشاه إسماعيل قد أرسل إلى السلطان الغوري يستنجد به ويطلب منه العون، موعزاً

(1) هو الأمير العثماني الفار من عمه السلطان ياووز سليم، وقد أراد الغوري بذلك استغلال الصبي ضد عمه السلطان باظهاره للعساكر العثمانية واستمالتهم إليه وتجديد فتنة الصراع على العرش بين أفراد أسرة آل عثمان، وبذلك يتمكن من إشغالهم وتشيت شملهم وإبعادهم عن سلطنته وبلادهم. ابن إياس: مصدر سابق، ج5، ص49.

(2) نفسه: ص 44-24-18.

(3) ومما جاء في خطاب السلطان ياووز سليم الذي يبين فيه حُسن نيته وفائق احترامه للسلطان الغوري وفحواها: «... وأنت والدي، وأسألكم الدعاء، وإني ما زحفت على بلاد علي دولات إلا بإذنكم، بعد أن بغى علينا، وهو الذي أثاره الفتن بين والدي السلطان بايزيد والسلطان قايتباي في السابق حتى أوقع بينهما، وبذلك وجب قتاله وقتله، وأما ابن سور الذي ولي مكانه... فإن حُسن ببالكم إبقاؤه أو أن تولوا غيره فأمره راجع إليكم، كما أنني أنعهد بإرجاع الأراضي التي أخذتها من علي دولات إليكم، وكل ما يريد السلطان فعلناه...». نفسه، ص45.

(4) Keşfi; Mehmed Çelebi, Selimnâme, Süleymaniye kütüphanesi, Ayasofya nr. 4188, 68a.

إليه بأن سلطنته حتماً سوف ستكون الوجهة التالية للعثمانيين في حال لم يسانده في القضاء عليهم، ذلك مما حفز السلطان الغوري على التعاون مع الشاه والتحالف معه ضد العثمانيين،⁽¹⁾ فأرسل سنان باشا من فوره يُعلم السلطان سليم بذلك ويخبره بتحريك السلطان الغوري على رأس جيشه من القاهرة نحو الشام، وفي مطلع جمادي الآخرة سنة 922هـ/1516م وصل السلطان الغوري بجيشه إلى حلب⁽²⁾، وللتأكد من نواياها وتهدة الأحوال وتجنب الدخول في حرب مباشرة مع المماليك أرسل السلطان ياووز سليم إليه هدية فاخرة مع موفدين دبلوماسيين رفيعي المستوى وهما قاضي العسكر ركن الدين بن زيزك والأمير قرجا باشا أحد كبار القادة العسكريين لعلهما يقنعانه بعدم التدخل في قضية الحرب مع الشاه الصفوي، ويؤكدان له حسن نوايا سيدهما تجاهه وحرصه على رضاه، إلا أن السلطان الغوري مابرح يعاتبهما على فعل سيدهما السلطان ياووز سليم وتعديه على الأراضي المملوكية وأخذه أملاك علاء الدولة بن دلغادر المستظل بحمايتهم، فأجاباه بأن أستاذنا أي السلطان ياووز قد فوض الأمر لنا ومنحنا كامل الصلاحيات، وأمرنا بأن ننفذ ماترضونه وتختارونه دون الرجوع إليه أو مشاورته في ذلك،⁽⁴⁾ بيد أنه يطلب منكم عدم التدخل في أمر الخلاف الذي بينه وبين الشاه

(1) وقد وصل في تلك الأثناء إلى الأبواب الشريفة رجل يدعى العجمي الشنقجي أحد ندماء السلطان الغوري، بعد أن اشيع بين الناس بأنه قد مات حيث أرسله السلطان بأفيال إلى نوابه على الشام وحلب، ثم تبين فيما بعد أن السلطان الغوري قد أرسله إلى الشاه الصفوي خفية في أمر سر بينه وبين الشاه. ابن إبّاس: مصدر سابق، ج 5، ص 35. وهذا ما استدل به البعض على تواطؤ السلطان الغوري مع الشاه الصفوي ضد العثمانيين.

(2) وعندما نزلت العساكر السلطانية بحلب تضايق الأهالي منهم غاية الضيق، وذلك لفساد أخلاقهم وارتكابهم الفواحش والمنكرات وغيرها من الأفعال الشنيعة، لكنهم لم يستطيعوا ردعهم، بيد أنهم لم ينسوا لهم صنيعهم السيئ هذا، وتعديهم على حرمتهم وحقوقهم، حيث كانت لتلك الأفعال أثر سلبي كبير على العساكر السلطانية فيما بعد. ابن أجا: مصدر سابق، ص 45.

(3) طه زاده داغستاني: مصدر سابق، ص 296-294.

(4) وقد ظن السلطان الغوري أن قدومه إلى حلب سيخيف السلطان سليم فيرضخ لجميع مطالبه، حيث طلب منهم إعادة جميع الأراضي التي أخذها العثمانيون إبان صراعهم مع علي دولات، كما طلب منهم عزل علي بك بن شاه سوار، علاوة على إصراره على التوسط للصلح بين العثمانيين والصفويين، على الرغم من توضيح السلطان سليم من خلال رسالته عدم رغبته في الصلح وتدخل السلطان الغوري في هذه المسألة، وقد عزز ذلك بعدد من الفتاوى الشرعية التي افتى بها علماء الدولة العثمانية على وجوب قتال الشاه الراضي الشيعي، حيث عرضها عليه القاضي ابن زيزك، إلا أن السلطان الغوري لم يحسن تقدير الأمور فكان ذلك سبباً في إعلان الحرب بين الطرفين بعدئذ. متولي: مرجع سابق، ص 158.

الصفوي بأي شكل من الأشكال، فهو قد أعد العدة وحدد الوجهة وعزم المسير تجاه بلاد الصفوي مرة أخرى للقضاء عليه واجتثاث دعوته الفاسدة من جذورها،⁽¹⁾ لكن السلطان الغوري لم يطمئن لنوايا السلطان ياووز سليم وكان متوجساً منه ولا يأمّن جانبه، فجمع كافة أمرائه بميدان قلعة حيث كان يتخوف من غدرهم أو انقلابهم عليه كما هي عادة المماليك، فأخذ منهم المواثيق المغلظة وحلفهم جميعاً على ألا يغدروا به ولا يخونوه عند الشدة وحمى الوطيس فأجابوه إلى ذلك،⁽²⁾ وهذا مما يشكك في نوايا السلطان الغوري وعدم رغبته في التوسط للصلح بين العثمانيين والصفويين، وإنما كان يموه بذلك لشيء في نفسه، فإن عملية الصلح لا تحتاج لهذا الجيش الضخم الذي حضر به إلى حلب، كما أنه لا يوجد تبرير لاصطحابه للأمير قاسم بن أحمد العثماني ابن أخ السلطان ياووز سليم والمطالب بعرش السلطنة، وكذلك الأمراء الدلغاديين أبناء علاء الدولة المعادين للعثمانيين.⁽³⁾

أما السلطان ياووز سليم وهو المعروف بشدة حذره ودقته وعلى الرغم من تأكيده لحسن نواياه تجاه المماليك، إلا أنه أيضاً لم يكن يثق في نواياهم لاسيما بعد تثبته من علاقة السلطان الغوري بالشاه الصفوي واحتمالية تعاونه معه، فقام بأخذ التدابير اللازمة في تحصين القلاع القريبة من الحدود المملوكية والصفوية تحسباً لأي هجوم مشترك أو فردي من أحد الطرفين، كما قام ببث عيون في الشام وحلب لجمع المعلومات والتحقق من نوايا السلطان

(1) وقد علق ابن إياس على ذلك (ولا ننسى أنه أحد أولاد الناس الذين ينتسبون إلى المماليك الجراكسة)، حيث كان يظن بل يعتقد بأن السلطان العثماني غير صادق فيما يقول وما هو إلا رجل حرب مخادع، فقال: أن كل هذه من حيل ابن عثمان التي يريد بها ثني عزيمة وهمة السلطان الغوري وخداعه حيث كانت غايته بلاد الشام ومصر لا محاربة الصفوي. مصدر سابق، ج 5، ص 61-60. بيد أنه من الصعب إثبات ذلك، بل على العكس فإننا نجد السلطان سليم قد صرح لأكثر من مرة بأنه لا يريد التعرض للمماليك وإنما وجهته وغاية الأساسية القضاء على الشاه الصفوي، ومما يؤكد حسن نوايا السلطان العثماني تجاه المماليك أنه قد وافق على طلب السلطان الغوري في إرسال الأخشاب اللازمة لصناعة السفن الحربية، كما أن مساعداتهم ودعمهم للمماليك لم ينقطع منذ بداية التغول البرتغالي على البحار والأراضي الإسلامية. نافع: مرجع سابق، ص 197-196.

(2) وكان ذلك بعد أن صرح نواب مدينتي قيصره وعينتاب بعزمهم على الانضمام إلى العثمانيين، حيث قام أهالي المدينتين بإغلاق أبوابهم في وجه العساكر المملوكية، وذلك بعد أن بلغهم خبر ما فعلوه بأهل حلب من نهب وسلب وهتك للأعراض وغير ذلك من مفاسد الأخلاق. ابن زنبل: مصدر سابق، ص 96-94.

(3) ابن الحمصي: مصدر سابق، ج 3، ص 284-283.

الغوري،⁽¹⁾ وقد حرص السلطان ياووز سليم إبان مسيرته نحو بلاد الشاه على سلوك طريق ملطية المتجه نحو الشرق على الرغم من طوله بدلاً من طريق مرعش المختصر الذي يمر بحلب حتى لا يستثير المماليك تجنباً لحدوث أي صراع ثنائي أو مشترك في آن واحد مع المماليك والصفويين، كما أنه حرص على أن لا يدخل مدينة ملطية التابعة لهم احتراماً لقرار السلطان الغوري الذي ينص على عدم السماح لأي أحد بالمرور بتلك المنطقة من أراضي السلطنة حتى يحسم أمر التفاوض والصلح الذي عزم على تنفيذه⁽²⁾،⁽³⁾ ومن العوامل التي جعلت السلطان سليم يتثبت من شكوكه في سوء نوايا السلطان الغوري إلقاؤهم القبض على جواسيس من المماليك يحملون رسالة من السلطان الغوري إلى الشاه الصفوي يحثه فيها على قتال العثمانيين،⁽⁴⁾ بالإضافة إلى مراسلات أخرى بين الشاه والسلطان الغوري تم ضبطها في يد رجل يقال له البهلوان أحد جماعة السلطان الغوري، يستعين فيها الشاه الصفوي بالسلطان الغوري على سلطان ياووز سليم العثماني،⁽⁵⁾ كما أن وفده الذي أرسله إلى السلطان الغوري عندما عادوا أخبروه بأن السلطان الغوري قد عوقبهم أي عرقلهم في حلب لفترة طويلة كما أنه لم يحسن استقبالهم بادئ الأمر، وكذلك فعل أمراؤه حيث قاموا بإهانتهم وتوبيخهم وأرادوا بهم شراً لولا أن منعهم السلطان الغوري من ذلك، بيد أنه قد أصر على التدخل بالصلح في مسألة الخلاف القائم بين العثمانيين والصفويين،⁽⁶⁾ ولكن على الرغم من كل ذلك إلا أن السلطان ياووز سليم لم يكن يرغب في الدخول في حربٍ

(1) نافع: مرجع سابق، ص 199-198.

(2) وقيل أن ذلك كان بإيعاز من الشاه الصفوي حيث أرسل إلى السلطان الغوري بعد هزيمته في جالديران، يطلب منه التوسط في الصلح بينه وبين العثمانيين، ويلتمس منه عدم السماح لهم بالمرور عبر أراضيه بالأناضول، فأجابه السلطان الغوري إلى ذلك، وأصدر قراراً بمنع القوات العثمانية من العبور عبر أراضي السلطنة في الأناضول. منجم باشي: مصدر سابق، ج 2، ص 664.

(3) Stripling; George.W.F. The Ottoman Tuks, amd the Arabs, "1511-1574", Urgania- Illinois, 1978, p 43.

(4) ابن سباط: حمزه بن أحمد بن عمر المغربي، صدق الأخبار تاريخ « ابن سباط »، ج 2، جروس برس، طرابلس، 1993م، ص 935.

(5) ابن طولون: مفاكهة الخلان، مصدر سابق، ص 333.

(6) حلیم: إبراهيم بك، تاريخ العثمانية العلية « التحفة الحليمية »، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1988م، ص 83. بن علي: مصدر سابق، ص 132.

مباشرةً مع دولة المماليك السنية، لكنه اضطر إلى ذلك بعد أن تبين له تواطؤهم مع الرافضة الصفويين وعلاوةً على إيوائهم ومساندتهم للأمرء والمارقين عن طاعة سلطان العثمانيين، كما أنه قد استشرى الظلم والقهر والاستبداد في بلادهم وذلك بعد أن ساءت أخلاق سلاطينهم الأواخر وحواشيهم، علاوةً على بيان ضعفهم في التصدي للعدوان الصليبي البرتغالي الذي ظل يهدد الديار الإسلامية ردهاً من الزمان، وعلى الرغم من المساعدات والدعم العثماني الذي لم ينقطع عن المماليك في حربهم مع البرتغاليين، إلا أن الطبع غلاب حيث خانوا وغدروا ولم يحفظوا للعثمانيين جميلاً؛ بل كانوا يتقصدون طعنهم من الخلف في الكثير من الأحيان، وظلوا على هذه الحالة حتى باتوا يشكلون عائقاً في سبيل تحقيق وحدة الأمة الإسلامية التي كان يجب عليهم أن يكونوا قادة لها بحكم ما ورثوه من أمجاد سابقة لأسلافهم الأوائل الذين عرفوا بغيرتهم على الدين وحمائتهم للأمة الإسلامية والحرص على وحدتها، وباجتماع هذه الأسباب لم يكن أمام السلطان سليم مفر من محاربة المماليك أولاً لتقويم الإعوجاج السياسي والاجتماعي والأخلاقي الذي أحدثوه في الأمة، ثم يتفرغ من بعد للقضاء على الرافضي الشاه إسماعيل الصفوي، وبذلك يتسنى له تحقيق الوحدة الإسلامية التي كان يسعى من أجلها، حتى يستكمل مسيرته الجهادية في بلاد الروم، وكانت رداءة أسلوب السلطان الغوري في الرد على وفد السلطان سليم القشة التي قصمت ظهر البعير، فبدلاً من أن يرسل وفداً من العلماء والحكماء للنظر في مسألة الصلح كما هو متعارف عليه في مثل هذه المسائل آنئذ، قام بإرسال وفدٍ عسكري قوامه من عشرة رجل في كامل زيمهم وعتادهم العسكري وعلى رأسهم الأمير مغلبي لكي يرهب بهم العساكر العثمانية ويستطلع خبرهم وأحوالهم الداخلية، فغضب السلطان سليم من ذلك غاية الغضب،⁽¹⁾ ولم يحسن استقبالهم وأمر بضرب أعناق العساكر العشرة وأغلظ على الأمير مغلبي وكاد

(1) وقد اعتبر السلطان سليم ذلك التصرف المخالف لأعراف الوفادة وسفارات إصلاح ذات البين، تهديداً صريحاً واستعراضاً عسكرياً واضحاً من السلطان الغوري لقواته حتى يفرع بها العساكر العثمانية، وذلك مما يُعد تهديداً وتحدياً علناً في أعراف السلاطين والملوك وقتئذ، فقد كان من المفترض أن يرسل السلطان الغوري في هذا الموقف وفداً من المعممين من أهل العلم والدين مثلما أرسل إليه السلطان سليم ثاني أكبر قائمة علمية ودينية في دولته وهو قاضي عسكر الروملي ابن زيزك، فالموضع موضع إصلاح وحكمة وروية لا موضع استعراض عسكري. زيد: مرجع سابق، ج2، ص280-279.

يقتله لولا أن تشفع فيه أحد الوزراء وذكره بحرمة الرسول، فرده إلى السلطان الغوري غير مُكرم وحمله رسالة تهديد ووعيد مصرحاً فيها بتحديه لهم وأنه لا يهاب لقاءهم في ميادين القتال⁽¹⁾، وكان ذلك بمثابة إعلان رسمي للحرب بين الطرفين⁽²⁾، وذلك بعد أن استفتى السلطان سليم علماء بلاده في جواز قتال المماليك لاسيما أنهم مسلمين ومن أهل السنة، بيد أنهم فاسدي الأخلاق يتعاونون مع الأعداء ويظلمون الرعية، فأفتى له شيخ الإسلام الشيخ زنبيلي علي أفندي القرماني بجواز قتلهم⁽³⁾.

5.2 العوامل الأخلاقية والاجتماعية وأثرها فيه الصراع المسلح بين المماليك والعثمانيين:

5.2.1 العوامل الأخلاقية والاجتماعية إبان واقعة مرج دابق وأثرها في مجرى الأحداث 922 هـ / 1516 م:

في الخامس والعشرين من شهر رجب سنة 922 هجرية الموافق 24 آب 1516 م، التقى الجمعان بسهل مرج دابق بالقرب من حلب في أول صراع مسلح وبشكل رسمي وحاسم بتعبئة كاملة وقيادة سلطانية بين الدولتين، وقد كانت الغلبة في بادئ الأمر للعساكر

(1) وقد سعى السلطان الغوري إلى كسب الرأي العام للأمة الإسلامية في صفه، حيث أذاع بين الناس أن ملك الروم إي السلطان العثماني ياووز سليم قد حشد عساکراً كثيرة جُل قوامها من نصارى أوروبا والأرمن لكي يضرب بهم جند الله المجاهدين والمدافعين عن الحرمين الشريفين وجميع البلدان الإسلامية من خطر الغزو البرتغالي، إلا أن هذه الطريقة لم تؤتي أكلها آنئذ حيث كان عموم المسلمين مدركين لطبيعة الدولة العثمانية الجهادية ودور سلاطينها في الدفاع عن الإسلام والمسلمين ومساندتهم ودعمهم المستمر للمماليك أنفسهم في صد الهجمات البرتغالية على الديار الإسلامية، كما أنهم مدركين تماماً لظلم وفساد أخلاق المماليك، لاسيما أهل مصر والشام الذين ذاقوا الويلات من استبداد وقهر المماليك وهضمهم لحقوقهم وتعديمهم على حرمتهم. ابن كنان: محمد بن عيسى، حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين، تحقيق عباس صباغ، دار النفائس، بيروت، 1991 م، ص 194.

(2) ابن زنبيل: مصدر سابق، ص 26-27. وكذلك ذكر ابن إياس هذا الخبر، بيد أنه قد زاد عليه بقوله على لسان السلطان سليم للأمير مغلباي عندما رده إلى السلطان الغوري: «... قل لأستاذك يلاقينا على مرج دابق». ابن إياس: مصدر سابق، ج 5، ص 67.

(3) مستنداً في ذلك على الرأي الذي يقول بأن قتال من يعاون أهل البغي والضلال أولى من قتال الكفار. يوسف: عماد عبدالعزيز، دور شيوخ الإسلام في اتخاذ القرار في الدولة العثمانية، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، جامعة الموصل، مج 6، ع 2007، 2، ص 329.

المملوكية، حتى حدث انشقاق في صفوفهم عندما بلغ المماليك القرانصة أن السلطان الغوري قد جعلهم كباش فداء في مقدمة الصفوف يقاتلون وحدهم لكي يتخلص منهم، بينما أمر مماليكه الجلبان بعدم المشاركة في القتال معهم، وذلك مما جعلهم يشعرون بالغدر والاحتقار فانتشروا عن القتال،⁽¹⁾ كما امتنع الأمير فخر الدين المعني الأول صاحب جبل لبنان ورجاله عن القتال،⁽²⁾ ذلك مما أدى إلى انكسار ميمنة الجيش المملوكي وقتل جم غفير من العساكر والأمراء وعلى رأسهم الأمير سيباي نائب دمشق والأمير سودون الأتابكي، ثم انكسرت الميسرة بعد هزيمة وانسحاب خاير بك نائب حلب وجان بردي الغزالي نائب حماة المواليان للعثمانيين، ذلك مما أدى إلى اضطراب العساكر المملوكية فشرعوا بالهروب والانسحاب من حول السلطان الغوري حتى ظل في نفر قليل من مماليكه،⁽³⁾ فصاح فيهم

(1) وكان هدف السلطان الغوري التخلص منهم، حيث كانوا يشكلون خطراً وتهديداً دائماً على سلطنته ولم يكن ولاؤهم له قط، وإنما كانوا يشعرون بالحنين إلى أساتذتهم من السلاطين السابقين، علاوة على كرههم وحقدهم وصراعهم الدائم مع طائفة الجلبان حيث كانوا يشعرون بأنهم قد أخذوا مواضعهم في الدولة بيد أنهم أقل خبرة منهم وأحدث سناً، فقالوا للسلطان: «نحن نقاتل ونُلقي بأنفسنا أمام النار، وأنت ومماليكك واقفين تنظرون إلينا كالعين الشامته، ولم تأمر أحداً منهم بالخروج إلى الميدان...»، وقد كان العسكر بصفة عامة مفسودة النية، وعلى اختلاف دائم وليس لديهم تدبير ولا صاحب فكر أو رأي سديد يرجعون إليه. ابن زنبل: مصدر سابق، ص 100 / 46.

(2) وقد انحاز إلى العثمانيين فيما بعد حيث ذهب إلى السلطان ياووز سليم في دمشق مع وفد من أمراء الدوزر وأهل البر، فأعلنوا ولاءهم وتبعتهم له، على أن يحفظ لهم حق الحكم الذاتي، فأقرهم السلطان على ذلك. الشهابي: الأمير حيدر أحمد، لبنان من بداية الدولة العثمانية إلى مطلع عهد الأمير بشير الشهابي الثاني، ج 3، دار نظير عبود، بيروت، 1993م، ص 738.

(3) وعندما بلغ أهالي حلب خبر هزيمة المماليك قاموا بشبه ثورة أو انتفاضة شعبية ضد فلول العساكر المملوكية الذين هرعوا من ميدان المعركة نحو مدينة حلب يحموا بها، فوثب عليهم الأهالي بعد أن أغلقوا أبواب المدينة في وجوههم فأوقعوا بهم ما لم يوقعه بهم عسكر ابن عثمان، فقتلوا جماعة منهم ونهبوا سلاحهم وعتادهم وخيلهم وكل ودائعهم التي كانت بحلب، انتقاماً منهم لما فعلوه بهم قبيل المعركة حين نزلوا ببيوتهم غصباً واستباحوا أموالهم وأعراضهم وفسقوا بنسائهم وأولادهم وماتركوا شيئاً من مفاصد الأخلاق إلا وقد أتوها فيهم، ولما رأت فلول المماليك ما فعل بأصحابهم من قبل أهالي حلب، هرعوا إلى دمشق وهم في أسوأ حال فكان بعضهم يسير على قدمية وبعضهم على ظهور الحمير والجمال حتى قيل أن البعض منهم قد وصلها وهو شبه عارٍ من شدة الهلع، ففعل بهم أهل دمشق مثلما فعل بهم أهل حلب، حتى أنهم لم يجدوا ما يستظلوا به من حر الشمس فصنعوا لأنفسهم عرايش من أفرع الأشجار يجتمعون تحتها بالنهار، ذلك مما جعلهم يضطرون إلى أن يشقوا طريقهم نحو مصر فرادى وزرافات وهم على أعس حال. ابن إياس: مصدر سابق، مصدر سابق، ج 5، ص 106-74-73.

بأن يثبتوا وعليّ رضاكم أي بالمال، فلم يسمعوا له على الرغم من أنه قد أخذ منهم العهود والمواثيق والأيمان المغلظة قبيل المعركة بأن لا يخونوه ولا يغدروا به، إلا أنّ الطبع غلاب، وعندما تيقن أمراء المماليك من الهزيمة نصح أحدهم السلطان الغوري بالهرب والنجاة بنفسه والرجوع إلى حلب، وما إن تحرك السلطان الغوري بضع خطوات حتى سقط ميتاً من على فرسه، قيل إنه لم يتحمل صدمة الهزيمة فأصيب بفالج ففقعت مرارته من شدة قهره، وقال آخرون بأنه قد ابتلع فصاً من الماس فمات منتحراً، وبموته انفرط أمر العسكر فكانوا ما بين متقهقر نحو حلب أو متحيز إلى العثمانيين، وقد لعب استخدام السلاح الناري دوراً كبيراً في سرعة وحسم المعركة لصالح العثمانيين،⁽¹⁾ وقد نظم ابن إياس بعض الأبيات مصوراً بها مشهد تحاذل الجلبان وجبنهم فقال:

لما التقى الجيشان مع سلطاننا	في مرج دابق قال: هل من مُسعفٍ
فله أجاب لسان حال قائلاً	عرّضت نفسك للبلا فاستهدف
و اشتدّ بالجلبان رُعب قلوبهم	و غدّوا يقولوا أي أرض نختفي
والنهب أطمعهم لذل نفوسهم	حتى أتاهم بالقضاء المتلف

وقد تحدث عن نهاية السلطان الغوري وأمرائه ساخرًا ومتهكماً من سرعة زوال سلطانهم، بعد أن تجبروا على الخلق وأضنكوا معيشتهم، حيث قال: وأنهم لم ينظروا في مصالح المسلمين قط بعين العدل والإنصاف، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، وسلط عليهم ابن عثمان فكسرهم وأفنى سلطانهم، ثم أنشد قائلاً:

أعجبوا للأشرف الغوري الذي مُد تزايد ظلّمه في القاهرة

(1) حيث كان العثمانيون يمتلكون أفضل وأحدث الأسلحة النارية في ذلك الزمان ويحسنون استخدامها منذ فتح القسطنطينية، أما المماليك فقد أنفوا ذلك وأعتبروه نوع من الجبن وأن في استخدامها مخالفة لأعراف الفروسية، بل أن السلطان الغوري قد قال في ذلك عندما عرض عليه أحد التجار المغاربة البندقية الأوروبية مقترحاً عليه شرائها وتدريب عساكره على استخدامها حتى يلحقوا بركب التطور العسكري المتسارع الذي انتشر في أوروبا والديار العثمانية، لم يُرحب السلطان الغوري بالفكرة ورفض ذلك قائلاً: «...نحن لانترك سنة نبينا وتبع سنة النصارى...»، كما قال بعض الأمراء بأنه لا يجوز استخدامها ولايجل أن ترفع في وجه مسلم. ابن زنبيل: مصدر سابق، ص 57-56. والغريب في الأمر أنهم يقولون ذلك، ومازالت أيادهم تبطش بالمسلمين وتسفك دمائهم وتستبيح وأموالهم وأعراضهم بغير وجه حق!

زال عنه مُلْكُهُ فِي سَاعَةٍ خسر الدنيا إذا والآخرة

ثم استشهد بهذه الآيات:

أين الملوك الذين في الأرض قد ظلموا فاستغنٍ بالسمع عن مرآهم عِظَةً
والله منهم لقد أخلى أماكنهم فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم⁽¹⁾

وبعد انتهاء المعركة بانتصار العثمانيين توجه السلطان سليم نحو مدينة حلب حيث هرب نائبها قانصوه الأشرفي إلى دمشق، فخرج أهالي المدينة بعلمائهم وصلحائهم يحملون المصاحف لاستقباله وتهنئته بالنصر وتسليمه المدينة بالأمان، وطلبوا منه الصفح والترفق بهم، فأحسن إليهم ورفق بهم ولم يمسه بسوء، ثم دخل المدينة وخطب باسمه على منابرها،⁽²⁾ وارتفعت الأصوات بالدعاء له، وزينت المدينة وأشعلت الشموع على أبواب الدكاكين والمحلات التجارية احتفالاً بذلك،⁽³⁾ وكان فيها من الأعيان وأكابر رجال الدولة الكثير وفي مقدمتهم الخليفة المتوكل على الله العباسي وقضاة المذاهب الأربعة إلا قاضي الحنفية فإنه كان قد هرب مع فلول العساكر المملوكية إلى دمشق، ولما أدخل الخليفة على السلطان سليم قام له وعظمه وأجله وأحسن إليه وأكرمه غاية الإكرام، ثم خلع وأنعم عليه بالوفير من المال والهدايا، أما قضاة المذاهب الثلاثة فقد وبخهم على فسادهم وسوء أخلاقهم وتعاملهم بالرشوة وسعيهم لنيل المناصب بالبذل والبراطيل، وسكوتهم عن المظالم التي كان يتركبها المماليك في حق الرعية، وغير ذلك من مفاسد الأخلاق، ثم فرض عليهم الإقامة الجبرية بحلب على ألا يخرجوا منها إلا بإذن منه شخصياً،⁽⁴⁾ أما الأمير محمد نجل السلطان الغوري الذي كان قد خلفه والده بحلب ولم يصحبه إلى ميدان المعركة فقد هرب نحو الشام ومنها إلى القاهرة

(1) ابن إياس: مصدر سابق، ج5، ص 69-71.

(2) وقيل أن الخطيب حين دعا له ذكر اسمه مُلحقاً به لقب ملك الحرمين الشريفين، فبكى السلطان سليم وخر ساجداً، وقال: ومن أنا حتى أكون ملك الحرمين، بل خادم الحرمين الشريفين. مُدرس زاده: علي كمال بن السيد محمد أمين، كمال الإنسان في معرفة آل عثمان، مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية المصرية، ميكروفيلم برقم 18898، ورقه 114.

(3) القرماني: مصدر سابق، ج3، ص 46-45.

(4) ابن إياس: مصدر سابق، ج5، ص 74.

وبرفقته جمعٌ من أكابر الأعيان والأمراء،⁽¹⁾ وكان ذلك قبيل دخول السلطان ياووز سليم إلى مدينة حلب،⁽²⁾ وبعد أن تمكن من ضبطها قام بتعيين والٍ عليها من قبله، ثم شرع في استكمال مسيرته لضم بقية مدن الشام فدخل حماة ثم حمص، وذكر أنه عندما وصل إلى أطراف دمشق أرسل إلى أهلها وأعيانها يطلب منهم تسليم المدينة بالأمان، فوافقه على ذلك كبار علمائها ومشايخ حاراتها ورحبوا بقدومه، نظراً لحالة الاضطراب والخوف والهلع الذي شاع بين الناس بعد استيلاء طائفة من الأوباش والزعر على السلطة بالمدينة، بعد هروب كبار أعيانها بنسائهم وأولادهم مع فلول عساكر وأمراء المماليك إلى مصر، تاركين الأهالي يواجهون مصيرهم، حيث كانوا يخافون من غضبهم وانتفاضهم عليهم كما فعلوا مع فلول العساكر السلطانية الفارة من حلب، وقد خرج الأهالي لاستقبال السلطان سليم والترحيب به محتفلين بقدومه، فأكرمهم بالإحسان بالإحسان، فأنعم عليهم بالمال الوفير حتى قيل إنه قد ناب البعض منهم مائة درهم، وقد استمر في تفريق الأموال عليهم لمدة ثلاثة أيام،⁽³⁾ وبعد دخوله إلى دمشق توجه إلى الجامع الأموي وحضر به صلاة الجمعة حيث قرئت الخطبة باسمه ودُعي له على المنابر، ثم توافد عليه أعيان وزعماء المدن والبلدان الشامية من طرابلس وبيروت والباق وصيدا وجبل لبنان وغيرها لتقديم فروض الولاء والطاعة

(1) وقد تفرد ابن زنبيل بذكر خبر قتل السلطان سليم للعلماء وأرباب ومشايخ الصوفية الذين حضروا مع السلطان الغوري من مصر إبان دخوله إلى حلب، حيث خافوا من سطوته فشرعوا في الهروب إلى حلب، لكنه قد تمكن منهم أجمعين وكانوا قرابة ألف شخص. مصدر سابق، ص 50. وهذا خبر غريب حيث أن ابن طولون وابن الحمصي وهما من مؤرخي أهل الشام المعاصرين لهذه الأحداث لم يذكروا ذلك، كما أن ابن إياس أيضاً لم يذكر هذه الحادثة وإنما قال: «... وبعد موت السلطان الغوري انقطع خبر الأحداث بالشام عن مصر قرابة أربعين يوماً، ولم يرد خبرٌ صحيح وكثر الأقاويل حول ذلك...». مصدر سابق، ج 5، ص 67-79. ولا يفوتنا أيضاً أن ابن زنبيل كان من أتباع المماليك ويعمل عند أمرائهم بالعرفاء وقرائة الطالع والفال والضرب على الرمل والتنبؤ بأخبار المستقبل وما شابه ذلك من أمور منهي عنها الشرع، ولعل ذلك مما يقدح في أخلاقه وطريقته في النظر إلى الأحداث والوقائع وتحليلها بشكلٍ مختلف قد يبعد عن الواقعية أحياناً أو يربطها بمجال عمله البعيد المنطق والعقلانية.

(2) ابن طولون: مفاكهة الخلان، مصدر سابق، ج 2، ص 337-336.

(3) نفسه: ج 2، ص 28 / 343. وقد تحدث ابن الحمصي عن ذلك وهو شاهد عيان فقال: وكادت الناس تأكل بعضها بعضاً، حيث كثر الخراب والدمار والقتل، فما صدقوا بوصول العثمانيين ففتحو لهم الأبواب وسلموهم المدينة طوعاً، وقد نودي بالأمان ورفع المظالم ولم ير الناس من السلطان سليم إلا الخير. حوادث الزمان، مصدر سابق، ج 2، ص 524-525.

له، فقبل منهم ذلك وأبقاهم على مناصبهم،⁽¹⁾ وكذلك فعل مع أهل فلسطين عندما دخلها وزار بيت المقدس، فأنعى عليهم وأحسن معاملتهم،⁽²⁾ وهكذا كان نهج العثمانيين آنئذ في معاملتهم لجميع أهالي وشعوب البلدان الإسلامية التي يدخلونها، حيث تتم معاملتهم وكأنهم من رعايا الدولة العثمانية منذ الوهلة الأولى وهم في مأمن حتى من معرة الجيش أثناء دخوله المدن، حيث كانت سياسة السلطان سليم قائمة على مبدأ الوحدة للأمة والبلدان الإسلامية وحفظ حقوق المواطنة للجميع على حد سواء،⁽³⁾ حيث قام بسن العديد من القوانين والإصلاحات الإدارية الخاصة بالشؤون المالية والقضائية لغرض تنظيم وإصلاح المجتمع، كما أمر بإلغاء القوانين والقيود المذلة التي فرضها المماليك على الرعايا لاسيما اليهود والنصارى، حيث سمح لهم بممارسة طقوسهم الدينية وكذلك الأنشطة التجارية بحرية تامة داخل أوساطهم ومجتمعاتهم التي يعيشون فيها.⁽⁴⁾

وقد لعب عنصر الخيانة وهي ضرب من ضروب الفساد التربوي والأخلاقي دوراً كبيراً في هزيمة المماليك في مرج دابق وتشتيت شملهم وزوال سلطانهم بالشام ثم مصر، لاسيما خيانة كبار الأمراء والأعيان المقربين من السلطان الغوري، أمثال إبراهيم السمرقندي الذي قيل إن أصوله من المدينة المنورة وكان مجيداً للغة التركية حيث كثر تجواله في بلاد العجم والروم أي الديار العثمانية، ثم دخل مصر وتقرب من السلطان الغوري حتى أصبح من خواصه، إلا أنه قد تحول إلى جانب العثمانيين وأصبح يعمل لصالحهم بعد أن تقين من انكسار المماليك وحتمية زوال دولتهم بعد مرج دابق، فأطلعهم بكل ما يعرف من ثغرات ومواقع ضعف في دولة المماليك وجيشهم،⁽⁵⁾ وكذلك كان يونس العادلي وهو من أحد رجال المهمات الخاصة عند السلطان الغوري ومن أقرب المقربين له، إلا أنه أيضاً قد انحاز

(1) صولاق زاده: مصدر سابق، ص 391.

(2) القرمانى: مصدر سابق، ج 3، ص 45-46.

(3) أوزتونا: تاريخ الأمبراطورية العثمانية، مرجع سابق، ج 1، ص 223.

(4) نافع: مرجع سابق، ص 210-210.

(5) وقد انتهى أمره حيث وقع في يد أحد العُربان قبيل معركة الريدانية أثناء قيامه بعملية تجسس عسكري بالأراضي المملوكية لصالح العثمانيين، فقتله الأعرابي وقدم رأسه إلى السلطان طومان باي فأجزل له العطاء. نافع: مرجع سابق، ص 84.

إلى العثمانيين بمجرد دخولهم إلى حلب وأمدهم بالكثير من المعلومات عن دولة المماليك، بل إنه حرض السلطاني ياووز سليم على أخذ بقية بلاد الشام والتقدم نحو مصر،⁽¹⁾ وكذلك فعل العجمي الشنقجي وهو من ندماء السلطان الغوري ومضحكيه، وهو صاحب المهيات السرية وأهمها المراسلات التي كانت تحدث بين السلطان الغوري والشاه إسماعيل، قيل إنه كان يُطلع السلطان ياووز سليم بخبر هذه المراسلات السرية،⁽²⁾ ومن النواب يأتي خاير بك في مقدمة الأمراء الذين خانوا السلطان الغوري، وقد كان على صلة وثيقة وعلاقة قديمة بالعثمانيين، حيث كان يخذل أمراء المماليك والسلطان الغوري نفسه عن الخروج لقتال العثمانيين، وفي أثناء معركة مرج دابق أشاع بين المماليك خبر مقتل السلطان الغوري قبل وقوعه، لكي يثبط من همة العسكر حتى سادت الفوضى في كافة أطراف الجيش المملوكي، عندها انسحب بقواته ثم أعلن انضمامه إلى العثمانيين، وصار من جملة أمرائهم وتزياً بزيتهم، وكذلك فعل الأمير جان بردي الغزالي نائب حماة، حيث انسحب بعساكره من ميدان المعركة يوم مرج دابق متظاهراً بالهزيمة ومروجاً لها قبل وقوعها، ثم غادر إلى دمشق ومنها إلى مصر وكان له دور كبير في مساعدة العثمانيين وانتصارهم في معركة الريدانية ودخولهم إلى مصر،⁽³⁾ ومما يجب إيضاحه هو اختلاف المقاييس ووجهات النظر لمفهوم الخيانة أو الإنحياز للحق، حيث كان المماليك ومن يوالهم من المؤرخين والعلماء يتهمون فعل هؤلاء الأمراء بالخيانة العظمى، أما العثمانيون وأنصارهم فيستحسنون ذلك ويرون فيه انحيازاً للحق ونصرةً للمستضعفين والمظلومين وعزةً للإسلام والمسلمين، أما الأمراء أنفسهم فقد اختلفت نواياها فمنهم من أراد بذلك عرض الدنيا وطلب المال والسلطة وخدمة المصالح الشخصية والأغراض السياسية، وكانت هذه السمة والطبع الغالب على المماليك، ومنهم من أراد بذلك وحدة الأمة الإسلامية وتخليص المسلمين من فساد واستبداد المماليك، وإنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى.

(1) ابن أجا: مصدر سابق، ص 261.

(2) ابن طولون: مفاكهة الخلان، مصدر سابق، ج 23، ص 2.

(3) ابن أجا: مصدر سابق، ص 262-263.

5.2.2 العوامل الأخلاقية والاجتماعية قبيل وبعد واقعة الريدانية وأثرها في

مجرى الأحداث 923هـ / 1517م:

وفي خضم هذه الأوضاع المضطربة استغل العُربان الفرصة فعاثوا الفساد في النواحي الشرقية من البلاد، وأكثروا من الغارات على قطعان الماشية والمحاصيل الزراعية ولم يتورعوا حتى عن زينة النساء وحُليهن، وقد أسرفوا في سفك الدماء لاسيما دماء الفلاحين والتجار والمسافرين حيث كانوا يمارسون عليهم عادة قطع الطريق، كما أنهم فعلوا بعساكر المماليك ما لم يفعله بهم العثمانيون، فقتلوا منهم جمًّا غفيراً أثناء تقهقرهم من الشام إلى مصر ونهبوا أمتعتهم وأموالهم، وكذلك فعل المماليك الجلبان بالناس في القاهرة ففتكوا بهم ونهبوا ممتلكاتهم وأحرقوا الكثير منها، لاسيما دور ومحلات التجار الوافدين من بلاد الروم حيث اتهموهم بالتواطؤ مع العثمانيين ومساعدتهم من الداخل، ولولا أن قام بعض الصلحاء من الأمراء فحبسوهم بالطباق ومنعوهم من الخروج لخربت مصر عن آخرها في هذه الفتنة،⁽¹⁾ ولتدارك الموقف اجتمع قادة وأمراء المماليك بمصر بعد أن وصلت فلول الفارين من الشام لاختيار سلطان جديد يجتمعون تحت إمرته لكي يتمكنوا من تسيير شؤون البلاد وضبطها، وباشروا استعداداتهم للتصدي للعساكر العثمانية، وقد وقع اختيارهم على الأمير طومان باي الذي رفض ذلك في بادئ الأمر لخطورة الموقف وشدة ضعف الدولة واضطرابها داخلياً بسبب الانقسامات وتفشي الخيانة والغدر بين صفوف المماليك وكبار قادتهم آنئذ،⁽²⁾ علاوة على سوء الأوضاع الاقتصادية وفراغ خزائن الدولة تماماً حتى أنهم قد عجزوا عن صرف نفقات وجوامك الجند، وتحت الضغط الشديد من أمراء القرانصة اضطُر الأمير طومان باي على قبول الجلوس على عرش السلطنة في رمضان 922 / 1516م،⁽³⁾ وفي هذه

(1) ابن إياس: مصدر سابق، ج5، ص82-79.

(2) وكان أشد ما يجيشه الأمير طومان خيانة المماليك ومخامرتهم عليه وغدرهم به كما هي عادتهم في معاملتهم مع السلاطين وولائهم له القائم على مصالحهم الشخصية، ولم يوافقهم على ذلك حتى حلفوا له على المصحف الشريف بأن لا يخونونه ولا يغدروا به وأن ينتهوا عن إثارة الفتن وظلم الناس، ومن محاسنه أنه قد اجتهد في رفع المظالم عن الناس، كما أنه لم يقبل الرشوة في تولية قضاة المذاهب الأربعة، وأمرهم بأن لا يتعاملوا بالرشوة ولا يقضوا بها أبداً. ابن أجا: مصدر سابق، ص272-271.

(3) بيد أن طائفة المماليك الجلبان لم تكن راضية عن ذلك، حيث كانوا ينادون بتولية ابن استاذهم الأمير محمد بن السلطان الغوري على الرغم صغر سنه وقلة خبرته. ابن أجا: مصدر سابق، ص103-85.

الأثناء وصل القاهرة قاصد السلطان العثماني يعرض على السلطان طومان باي مقترح أستاذه السلطان ياووز سليم، حيث تعهد له بأنه سوف يقره على حكم مصر نيابةً عنه، على أن تُضرب السكة ويخطب باسمه على المنابر، وتدفع له الضريبة السنوية،⁽¹⁾ فمال السلطان طومان باي إلى القبول بعرض السلطان العثماني وحقن دماء المسلمين، وذلك لإدراكه التام بعدم قدرتهم على مجابهة العثمانيين لاسيما بعد أن كسروهم في مرج دابق، بالإضافة إلى الأزمة الاقتصادية التي تمر بها السلطنة، علاوةً على الخلافات والنزاعات الحادة بين طوائف المماليك، وقد اختلف أمراء المماليك مابين مؤيدٍ للصالح ومناذٍ بالحرب، إلى أن قام الأمير إعلان بقتل رُسل السلطان العثماني، ووضع الجميع أمام الأمر الواقع ولم يترك لهم خياراً سوى الحرب، وقد ساندته على ذلك الأمير كرتباي الدالي،⁽²⁾ فاجتمع أمرهم على قتال العثمانيين، ونادى السلطان طومان باي في العساكر المملوكي لتوزيع النفقة والجوامك عليهم، إلا أنهم قد استقلوا المبلغ الذي أعطاهم آياه وكانوا في غاية الاستهتار والاستخفاف به فرموه في وجهه ثم نزلوا من القلعة ساخطين غير مكترثين ولا مقدرين للأزمة السياسية والضائقة الاقتصادية والخطر الذي يحقق بدولتهم، فغضب السلطان طومان باي لذلك واغتم لعدم مبالاتهم وتحاذلهم، وأخبرهم بفراغ خزائن السلطنة وأنه لا يستطيع أن يدفع لهم أكثر من ذلك، وإن لم يقبلوا فإنه سوف يتنحى عن السلطنة ويعتزلهم ويذهب إلى مكة أو غيرها من البلدان، إلا أنهم لم يكثرثوا لذلك بل سبوه علناً،⁽³⁾ فلما سمع منهم ذلك غضب غضباً شديداً، ووبخهم على ذلك وذكرهم بتخاذلهم وخيانتهم للسلطان الغوري الذي مات كمدماً بسبب ذلك، على الرغم من أنه قد أعطاهم نفقتهم وجوامكهم مقدماً، وقد وقعت فتنة شديده بين طوائف المماليك حيث عزم الجلبان على القتال من دون نفقة للأخذ بثأر أستاذهم الغوري من العثمانيين، أما القرانصة فقد رفضوا ذلك وصمموا على أخذ نفقتهم وجوامكهم مقدماً وفق الأعراف السابقة في ذلك، أما عوام الناس فقد بلغ بهم

(1) ابن إياس: مصدر سابق، ج5، ص125-124.

(2) ابن زنبيل: مصدر سابق، ص 121-120.

(3) وقالوا له: «... إن كنت تعمل سلطاناً فامش على نهج من تقدمك من السلاطين، وإن رحمت فلعنة الله عليك، ويحي غيرك ويعمل سلطاناً...». ابن إياس: مصدر سابق، ج5، ص127.

الفساد الأخلاقي ذروته حتى نادى فيهم السلطان بأن لا أحد يجاهر بشيء من المعاصي، وأن لا يبيع نصراني ولا يهودي ولا غيرهم شيئاً من الخمر والبوزة أو الحشيش، وأن من يفعل ذلك فجزائه الشنق، فلم يسمع له أحد واستمروا في أفعالهم من ارتكاب الفواخش ومفاسد الأخلاق،⁽¹⁾ وقد عمل السلطان طومان باي على الاستعداد لحرب طويلة الأمد حتى ينهك الجيوش العثمانية، فأرسل في طلب شراء عددٍ من المدافع والأسلحة الحديثة من البنادقة، إلا أنهم قد رأوا في ذلك ما يضر بمصالحهم مع العثمانيين وهم أصحاب الكفة الراجحة في الحرب، فرفضوا مساعدة المماليك ولم يمدوهم بالأسلحة،⁽²⁾ وذلك مما جعل السلطان طومان باي يلجأ إلى الشاه إسماعيل الصفوي ويحثه على مهاجمة حلب لضرب العثمانيين من الخلف،⁽³⁾ وقد أمر بتحريك قسم من العساكر المصرية نحو غزة بقيادة جان بردي الغزالي حيث التقى بالقوات العثمانية التي كانت تحت إمرة الصدر الأعظم سنان باشا، وقد انتهت المعركة بهزيمة المماليك وأسر قائدهم جان بردي الغزالي إلا أنه قد تمكن من الهرب لاحقاً،⁽⁴⁾ وكان ذلك بسبب خيانة جُلبان السلطان الغوري وهروبهم من أرض المعركة،⁽⁵⁾ أما السلطان سليم فقيل إنه لم يكن ينوي التوجه نحو مصر، وقد اكتفى بكسر شوكة المماليك وفرض سيطرته على بلاد الشام، وكان يفكر في الرجوع إلى بلاده، إلا أن الأمير خاير بك ومن معه من أمراء المماليك الذين انحازوا إلى العثمانيين، كانوا يخافون على أنفسهم من انتقام الجراكسة بعد خيانتهم لهم وانحيازهم إلى العثمانيين، فشجعوا السلطان سليم على أخذ

(1) ابن إياس: مصدر سابق، ج5، ص 126-128

(2) برجايوي: سعيد أحمد، الأمبراطورية العثمانية تاريخها السياسي والعسكري، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1993م، ص 97-98.

(3) Stripling; ibid, p52.

(4) وقد اشيع بين أهل غزة أن المماليك قد انتصروا على العثمانيين، فهجموا على الحامية العثمانية بزعامة دودار نائب غزة وأجناده من المماليك، فنهبوا وأحرقوا وقتلوا كل من كان بمعسكر الحامية العثمانية وكان من بينهم شيوخ وصبيان ومرضى، فلما علم سنان باشا العثماني بذلك غضب وجمع أهل المدينة ولا مهم على فعلهم ومعاونتهم للمماليك، وذكرهم بأنهم لما دخلوا المدينة لم يمسوهم بسوء، بل أنهم أحسنوا إليهم، إلا أنهم لم يحفظوا المعروف، ثم أمر جنوده بتأديبهم فقتلوا منهم الكثير وأحرقوا دورهم ونكلوا بهم جزاءً لغدرهم وخيانتهم للعثمانيين. ابن أجا: مصدر سابق، ص 276-277.

(5) Haydar Çelebi Ruznâmesi, Kervan Kitapçılık, İstanbul, 1973, S195.

مصر ويسروا له ذلك،⁽¹⁾ فلما سمع السلطان طومان باي بذلك شرع في الاستعداد للقاء العثمانيين عند أطراف صحراء سيناء بمنطقة الصالحية إلا أن المماليك قد رفضوا رأيه وسفهوه، وعزموا على أن لا يقاتلوا إلا في منطقة الريدانية بضواحي القاهرة، وقد اضطر السلطان طومان باي على أن يستعين بجياعات الزعر والشطار والحرافيش وغيرهم من الأوباش والمجرمين بعد أن أمنهم وأصدر عفواً عاماً لكل من كان عليه دم، وأمر لهم بجوامك ودواب يركبونها مقابل أن يشاركوا معه في القتال،⁽²⁾ وذلك مما أضعف الروح المعنوية لدى الجيش المملوكي الذي لم يكن متجانساً وفي حالة خلاف دائم، أما العثمانيون فقد شقوا طريقهم عبر صحراء سيناء نحو مصر بعد أن جمعوا المعلومات الكافية عن طبيعتها الإدارية والاجتماعية والعسكرية، ثم وضعوا خططهم وفق ذلك،⁽³⁾ وبمساعدة العُربان وأهل البادية لهم تمكنوا من عبور الصحراء وضم العديد من المناطق الواقعة على الطريق وتأمين المؤن حتى وصلوا إلى سهل الريدانية في 29 من ذي الحجة 922هـ/ 1516م،⁽⁴⁾ حيث دارت المعركة بين الطرفين وحمي وطيسها فسقط مالا يحصى من القتلى من

(1) ابن زنبيل: مصدر سابق، ص 118-119.

(2) وقد حرف بعض المؤرخون والباحثون المعاصرون المتعصبون لطائفة المماليك الكلم عن موضعه، حيث أطلقوا على مشاركة هذه الطوائف المنحلة والمنحطة أخلاقياً، بأنها مقاومة أو انتفاضة شعبية مصرية ضد الغزو العثماني، بيد أنها لم تكن سوى طوائف مرتزقة تعمل مقابل المال والعمو واسقاط بعد الجرائم التي ارتكبوها سابقاً. للمزيد من المعلومات، زيد: محمد أسامة: منهل الظمان لإنصاف دولة آل عثمان، ج2، دار الفوائد، القاهرة، 2012م، ص 305-304. وقد كان لهذه الفئات والطوائف المجرمة والساقطة أخلاقياً دور كبير في انتشار الفوضى وحالات النهب والسرقة والقتل وافتعال الأزمات في المجتمع المصري آنئذ.

(3) حتى قيل إن السلطان قد أمر المرافقين له من العلماء والمؤرخين بأن يقوموا بترجمة بعض المصادر التاريخية التي دُونت في أيام المماليك حتى يتمكنوا من دراسة وتحليل الواقع الاجتماعي والسياسي بشكل جلي في دولة المماليك والديار المصرية بصفة عامة، فقام المؤرخ والعالم قاضي العسكر كمال باشا زاده بترجمة أحد كتب المؤرخ ابن تغري بردي عن دولة المماليك من اللغة العربية إلى التركية.

Franz Babinger; Osmanlı Tarih Yazıları ve Eserleri, Çeviren. Coşkun Üçak, Kültür Bakanlığı, Ankara, 1992, s 69.

(4) وقد تمكن العثمانيون من ضم العديد من المناطق الواقعة على الطريق أثناء مسيرهم نحو القاهرة بالأمان، حتى وصلوا بلبليس فأشيع أنهم قد أخذوها بالأمان ولم يتعرضوا لأحد من الأهالي بلبليس وماجاورها من قرى. ابن أجا: مصدر سابق، ص 281-280. وقد أورد ابن اياس ذلك قائلاً: بأن السلطان سليم قد أخذ بالأمان إبان تحركه نحو مصر الكثير من المدن والقرى، فتسلم طرابلس وصند =

الفريقين، وكان من بينهم الصدر الأعظم سنان باشا العثماني، بيد أن المعركة قد حُسمت لصالح العثمانيين، الذين تقدموا نحو القاهرة ودخلوها في اليوم التالي من المعركة حيث قُرئت الخطبة باسم السلطان ياووز سليم على منابرها،⁽¹⁾ وبعد أن تمكنوا من ضبطها نوذي فيها بالأمان،⁽²⁾ أما السلطان طومان باي فقد هرب نحو الصعيد في نفرٍ قليلٍ من رجاله، بيد أنه قد عاود الكرة على القاهرة فباغت العساكر العثمانية فيها، ودارت بينهم حرب شوارع استمرت لمدة ثلاثة أيام،⁽³⁾ وقتل فيها خلقٌ كثير من الطرفين، ولم يحسم الأمر إلا بعد تدخل

= وبيت القدس وغزة ونابلس وماحولها، وتم كل ذلك بالأمان بلا حرب ولا امتناع، وهذا مما لم يكن لأحد من الملوك والسلاطين قبله. ابن إياس: مصدر سابق، ج 5، ص 152.

(1) ابن أبي السرور البكري: المنح الرحمانية، مصدر سابق، ص 88-87.

(2) وقد تحدث ابن إياس في ذلك واصفاً السلطان سليم ورجاله بالظلم والتعسف وأخذ أموال الناس بغير حق، وشبه دخولهم إلى مصر بدخول هولاءكو التتري إلى بغداد وحملات نبوخذ نصر البابلي من قبلهم في الشدة والوحشية، كما اتهمهم سوء الأدب وقلة الحشمة وبالمجاهرة بارتكاب المناكر والمحرمات ونصب خيام للعاقرة الخمر والحشيش ومجالسة المردان والفطر في نهار رمضان وعدم الصلاة في المساجد وصلاة الجمعة، ووصفهم بالهمجية كأنهم كالبهائم جياع النفوس قدرى الأخلاق والطباع، وقد اتهمهم بنهب الغلال حتى تسبوا في وقوع الغلاء بالقاهرة، ثم استدرك قائلاً: بأن الأخبار قد ترادفت بأن السلطان طومان باي قد ظهر بالصعيد وهو الذي أعاق حركة مراكب الغلال ومنع وصولها إلى القاهرة، فكان ذلك سبباً في حدوث الغلاء بمصر. مصدر سابق، ج 5، ص 208-203-162-145-136. وهنا يظهر تناقض كلام ابن إياس وتحامله على العثمانيين بشكل جلي، حيث لم يستطع اخفاء عدائه الصريح لهم، وذلك بعد أن أزالوا سلطان بني جنسه الجراكسة فهو من صلب المماليك حيث كان أباه أحد أمرائهم، وهو من طبقة أولاد الناس المقربين والموالين لطبقة المماليك الجراكسة، وله اقطاع لعله ورثه عن والده الأمير، ومن القرائن التي تشكك صحة مقالته وموقفه المتشدد ضد العثمانيين، أنه كان يثني خيراً على العثمانيين قبل ظهور بوادر الخلاف والصراع بينهم وبين المماليك، كما أنه لم يرد عنده ولا عند غيره من مؤرخي الشام أن العثمانيين قد ارتكبوا مثل هذه الأفعال اللاأخلاقية ببلاد الشام التي دخلوها بالأمان قبل وصولهم إلى مصر، وإنما كانت جُل رواياته عن ذلك تأتي بصيغة (أشيع بين الناس، وقيل، وكثر القول والقيل في ذلك والله أعلم بصحته، ولم تتأكد صحته، وغيرها من العبارة الغير مؤكدة)، وقد أوردنا هذا ليس من باب الدفاع عن العثمانيين ولا التحامل على المماليك، فكلاهما له ماله وعليه وماعليه، وإنما من باب الإنصاف التاريخي وتسليط الضوء على بعض الحقائق والمعلومات التي قد تخفي بين السطور، حيث يتناقل الكثير من الباحثين كلام ابن إياس كله على منوال واحد وكأنه حقيقة مثبتة ومطلقة، غير مكترثين لميول وانتفاء المؤلف، ويسري هذا أيضاً على ابن زنبل الرمال فهو صنو ابن إياس، وكذلك غيرهم من المؤرخين الباحثين السابقين والمعاصرين الذين يتبعون أهوائهم وميولهم الشخص في كتابة وتحرير الواقع والأحداث التاريخية، فينتج عن ذلك الكثير من الدليس للحقائق التاريخية التي تأثر بدورها على الواقع السياسي والعلاقات الدبلوماسية والصلات الاجتماعية بين الشعوب والدول.

(3) وقد وقع دمار كبير في المدينة حيث هُدمت وأحرقت الكثير من المباني والبيوت بسبب استخدام المدافع والمترايس، والخنادق التي حفرها المماليك. ابن طولون: مفاكهة الخلان، مصدر سابق، ج 2، ص 47-46 =

السلطان ياووز سليم بنفسه حيث تمكن من هزيمة فلول المالك، إلا أن السلطان طومان باي قد تمكن من الهرب مرةً أخرى واختبأ في بلاد الصعيد، أما الأمير جان بردي الغزالي فقد هرب نحو الصالحية، ثم طلب من السلطان سليم الأمان فأمنه وأكرمه وخلع عليه،⁽¹⁾ ولتحقيق استتباب الأمن أصدر السلطان سليم للمرة الثانية فرماناً يعلن فيه بإنهاء عهد الظلم وبداية عهد العدل ويأمن فيه الناس على أنفسهم وأعراضهم وممتلكاتهم وتجارهم، كما أنه أمر عساكره بعدم التعرض للرعية،⁽²⁾ إلا من ثبت تعاونه مع المالك أو وجد عنده مملوك جركسي ولم يسلمه أو يبلغ عنه فإنه سوف يعرض نفسه لعقوبة الإعدام، فارتفعت الأصوات بالدعاء للسلطان المظفر ياووز سليم خان،⁽³⁾ الذي كان يميل إلى السلم مع السلطان طومان باي ويرقب في كسبه إلى جانبه حقناً لدماء المسلمين،⁽⁴⁾ فأرسل إليه يعرض عليه الأمان للمرة الثانية ويخبره بأن لا حاجة له ببلادهم، وأنه قد رضي منه بالاسم فقط أي ذكر اسمه والدعاء له على المنابر وسكه على العملة، على أن يمنحه حكم مصر مدى الحياة، وقد وصل قاصده إلى بلاد الصعيد حيث مقام السلطان طومان باي، وكان رجلاً أديباً عالماً فصيح اللسان فعرض عليه كتابه، ويبدو أن السلطان طومان باي قد مال إلى أمر الصلح إلا أن أمراء المالك قد أنفوا ذلك وفضلوا القتال، واجتمع أمرهم على أن يقتلوا الرسول ومن

= وإنما كان ذلك بسبب حرب الشوراع التي وقعت بين العثمانيين وفلول المالك التقهقرة من الريدانية، وذلك لأن القاهرة كانت آخر معاقل المالك وقصبة ملكهم وسلطانهم، ولولا ذلك لدخل العثمانيون القاهرة بالأمان مثلما دخلوا المدن والبلاد السابقة في الشام وسيناء. زيد: مرجع سابق، ج2، ص307.

- (1) منجم باشي: مصدر سابق، ج2، ص678-657.
- (2) وكان صارماً في ذلك، وقد ورد أنه قبض على أحد العساكر العثمانية، وقيل إنه قد اختطف امرأة من السوق فزنى بها، فلما بلغ خبره السلطان سليم أمر بقطع رأسه فوراً والطواف به في شوارع القاهرة، حتى يكون عظةً وعبرةً لغيره. ابن إياس: مصدر سابق، ج5، ص162.
- (3) إلا أن بعض العساكر العثمانية قد استغلوا قضية التفتيش والبحث عن فلول المالك الجراكسة، فأخذوا ينهبون بيوت الأمراء والأعيان واستمر ذلك لمدة ثلاثة أيام حتى علم السلطان سليم بالأمر فأرسل جماعة من البينجكري وأمرهم بالوقوف عند أبواب المدينة لمنع النهاية من التعدي على حقوق الناس. نفسه: 149-147.
- (4) وقيل أن السلطان سليم كان يسعى إلى تسوية الأمور وحسمها بسرعة مع المالك، وذلك بعد أن بلغته أخبار وصول الشاه إسماعيل إلى منطقة الرها وأمد وماجاورها وطرده لممثلي السيادة العثمانية بها. ابن طولون: مفكحة الخلان، مصدر سابق، ج2، ص58.

معهم كما فعلوا من قبل، فرضخ لهم السلطان طومان باي وشرعوا في المسير نحو القاهرة لاستئناف قتالهم مع العثمانيين، فلما علم السلطان سليم بذلك اغتاض وغضب غضباً شديداً فأمر بضرب أعناق الأسرى من أمراء المماليك المحبوسين في القلعة، وفي هذه الأثناء باغت السلطان طومان باي معسكر العثمانيين بهجوم خاطف فوق وقع بينهم قتال شديد راح ضحيته الكثير من الطرفين، وعُرفت تلك الواقعة بمعركة الصليبية، وفي بداية الأمر كانت الغلبة للمماليك ثم دارت عليهم الدائرة وتمكن العثمانيون منهم وشتتوا شملهم بفضل سلاحهم الناري،⁽¹⁾ ثم دخلت جماعة من فرسان عرب غزاة بين الفريقين، حيث كانوا يمتقون المماليك ونظام حكمهم الجائر، فبادروا بالسب والشتم والتهديد بالقتل للسلطان طومان باي وأمراء المماليك إذا لم يكفوا محاربة العثمانيين لما رأوا فيهم من عدل وعزة، فهاهم المماليك وخشوا من اندماجهم مع العساكر العثمانية فانسحبوا وتراجعوا نحو قرى الجيزة، وقد انسلك منهم جمع من الأمراء بعد أن تيقنوا من زوال سلطانهم واستحالة تغلبهم على العثمانيين، فقصدوا السلطان سليم طالبيين منه الأمان، فأجابهم إلى ذلك ورحب بهم وأكرمهم وخلع عليهم، وجعلهم من ضمن عساكره وقواده، وكذلك فعل من قبلهم الأمير محمد بن السلطان الغوري حيث بكر بالقدوم إلى السلطان سليم بمجرد دخوله إلى مصر، وكان ذلك بعد أن منحة الأمان وقد أحسن إليه وأكرمه غاية الكرم وخلع عليه خلعة ملكية، فاطمأن له وصار يصحبه معه في جميع تحركاته إبان إقامته بمصر،⁽²⁾ أما السلطان طومان باي فقد قام بمحاولة فاشلة لجمع العُربان الاستعانة بهم في الحرب، إلا أنه قد تيقن بعد ذلك باستحالة التغلب على العثمانيين، فقام بمراسلة السلطان سليم طالباً الصلح والتفاوض، فأجابه السلطان سليم إلى ذلك وأرسل إليه وفداً من الأعيان والعلماء على رأسهم قضاة المذاهب الأربعة⁽³⁾ وقاضي عسكر الروملي ودودار الخليفة للإتفاق على

(1) ابن إياس: مصدر سابق، ج5، ص171-129.

(2) ابن زنبيل: مصدر سابق، ص186-158.

(3) وهم نفس القضاة الذين قبض عليهم السلطان سليم مع السلطان الغوري في مرج دابق، حيث اصطحبهم معه إلى القاهرة ثم عفا عنهم وخلع عليهم وأعادهم إلى مناصبهم مكرمين كما كانوا في سابق عهدهم، بيد أن أحوال القضاء لم تكن مستقره آنئذ ووقعت اضطرابات ومشقة شديدة على الناس. ابن إياس: مرجع سابق، ج5، ص165.

شروط الصلح، وقد فرح طومان باي فرحاً شديداً بهذه الفرصة التي منحها إياه السلطان العثماني، والشروط التي فرضها عليه وهي نفس الشروط الأولى التي عرضها عليه قبل معركة الريدانية، وكاد يقبل بها ويوافق عليه إلا أنه لم يفعل، حيث تدخل أمراء المماليك وبعض العُربان بصورة همجية فهجموا على أعضاء الوفد العثماني فقتلوهم جميعاً ولم ينجوا منهم إلا دوادار الخليفة الذي تمكن من الهرب بعد أن سلبوه وعروّه من ثيابه، ولما وصل الخبر إلى مسامع السلطان سليم غضب غضباً غاية الغضب وشرع فوراً في ترتيب عساكره لمواجهة المماليك، حيث تبين له عدم مصداقية المماليك وسلطانهم الذي أبى الصلح بعد أن أرسل يطلب الأمان، وما لبثوا أن جمعوا أنصارهم وتحركوا نحو القاهرة لقتال العثمانيين مرةً أخرى، وفي أثناء هذه الأوضاع المضطربة استغل العُربان الفرصة فعاثوا الفساد في النواحي الشرقية من البلاد، حيث كانوا يمارسون عادة قطع الطريق على العثمانيين ويقتلونهم وينهبون خيولهم وأمتعتهم وسلاحهم، بالإضافة إلى هجماتهم المتكررة على القرى والمناطق المجاورة لهم والتعدي على حرمت وحقوق أهلها بالنهب والحرق والقتل، فلما استفحل أمرهم أرسل إليهم السلطان سليم تجريدة تأديبية ففر العُربان إلى الجبال خوفاً من مواجهة العساكر العثمانية، أما السلطان طومان باي فقد وصل بقواته إلى الجيزة حيث كان ينتظرهم العثمانيون ف وقعت بينهم معركة حامية الوطيس عُرفت بكوم الحمام، وانتهت بهزيمة المماليك وهروب سلطانهم طومان باي في نفرٍ قليل من رجاله إلى النواحي الغربية حيث أختبأ بمنطقة تسمى البوطة⁽¹⁾ ونزل عند صديقه أمير العرب وزعيم تلك المنطقة حسن مرعي وكان صاحب فضلٍ عليه، حيث قدم له الكثير من المساعدات المالية وفكّه من الحبس بعد موت السلطان الغوري، فطلب منه العون والحماية فتكفل لهم الأمير حسن بذلك وأعطاهم الموائق والأيمان المغلظة على أن لا يخونهم ولا يدل عليهم لأي سببٍ من الأسباب، إلا أنه بمجرد وصول جحافل العساكر العثمانية التي كانت تتقفي أثر السلطان طومان باي خاف

(1) وكذلك فعل الأمير جان بردي الغزالي وأقبردي الدوادار حيث كبسوا على أهالي المنطقة الشرقية وعرب الأحامد فنهبوا وسلبوا وأسروا نساء الفلاحين وأطفالهم وجلبوهم إلى أسواق الرقيق بالقاهرة وشرعوا في بيعهم بأبخس الأثمان، فلما علم يونس باشا العثماني بذلك لام جان بردي الغزالي على فعله، وأمر بأن يُنادى في القاهرة بأن يرد كل من اشترى شيئاً من نهب وأسرى الديار الشرقية إلى أصحابه. ابن إياس: مصدر سابق، ج 5، ص 166-175.

على نفسه وطمع في الخطوة عند السلطان العثماني وقد رغبه الأمراء والقادة العثمانيون في ذلك، فدهم على مكان السلطان طومان باي فقبضوا عليه وأخذوه ليمثل بين يدي السلطان سليم،⁽¹⁾ ولما دخلوا به على السلطان سليم قام له أجله وسلم عليه بسلام الملوك، وقد أعجب بحديثه وشجاعته قليلة النظر، ثم عتب عليه في عدم تسليمه للبلاد بالسلم وقتله الرسل، فأقسم له طومان باي بأنه لم يحدث شئ من ذلك برغبته وعلمه، وإنما هم الأمراء من فعلوا ذلك دون مشورته والرجوع إليه في اتخاذ تلك القرارات، أما هو فقد كان يريد الصلح ويرغب في تسليم البلاد بالسلم ليس جنباً إنما لأجل حقن دماء المسلمين، فزاد إعجاب السلطان سليم به،⁽²⁾ حتى صارت طائفة من الناس تنكر ذلك وتكذب خبر الإمساك بالسلطان طومان باي، وأخرى تقول بأن ابن عثمان أي السلطان سليم لن يقتله ولكنه سوف يرسله ليقيم في مكة، ولما كثرت الأقاويل حول ذلك أخرج السلطان طومان باي وطيف به في شوارع القاهرة على ظهر فرس حتى تتأكد الناس من القبض عليه، ثم شنق بباب زويلة وبوفاته طويت صفحة سلطنة المماليك الجراكسة وأفل نجمها، وأشرقت شمس الحكم العثماني على الديار العربية، وكان ذلك في أواخر ربيع الأول من سنة 923هـ/ 1517م.⁽³⁾

(1) وفي أثناء الطريق كان السلطان طومان باي يتحدث مع العساكر العثمانية عن أحوالهم، فسألهم عن جوامعهم، فلما أخبروه وجزدها زهيدة مقارنة مع جوامع العساكر المملوكية، فقال: لهم مستعجباً والله أن جامكية أحدكم أقل من جامكية سائس الخيل عندنا، بارك الله فيكم بأمثالكم غلبنا سلطانكم رجال أوفياء ومطيعين. ابن زنبيل: مصدر سابق، ص 239-225. وهنا يظهر الفرق بين أخلاق وطباع العساكر المملوكية والعثمانية في الشعور بالإنتماء والولاء للسلطان والدولة، بيد أن اليكيجرية العثمانية قد انحرفوا وغيروا وبدلوا بعد ذلك، ولكل شئ إذا ماتم نقصان.

(2) من شدة إعجابه به قال: والله أن مثل هذا الرجل لا يقتل، لما رآه فيه من صدق ومروءة وشجاعة وصلاح وتدين، وقيل أنه كان يريد أن يصحبه معه إلى استانبول ويجعله من ضمن رجاله، ولم يكن في نيته قتله أبداً، إلا أن خاير بك وجان بردي الغزالي خشياً من أن يتصافا السلطانين ويتحداه فتدور عليهم الدائرة وينتقم منهم السلطان طومان بعد ذلك، فما زالوا يحرضان السلطان سليم ويرغبانه في التخلص منه حتى أمر بشنقه على باب زويلة، ليعلم الجميع بموته ونهاية سلطنة المماليك الجراكسة، وكان ذلك في الخامس عشر من شهر ربيع الأول سنة 923هـ، وقيل أن السلطان سليم قد صلى عليه وشهد جنازته وتصدق عنه ببعض المال. نفسه: ص 256-241.

(3) ابن إياس: مصدر سابق، ج 5، ص 178-175.

5.3 العثمانيون وإنجازاتهم بعد ضم الديار العربية وآثارها الأخلاقية والاجتماعية في الأمة الإسلامية:

على الرغم من دخول العثمانيين إلى الديار المصرية وبعض المدن الشامية بالقوة، إلا أنهم كانوا يؤثرون سياسة التسامح والسلم ومنح أهالي تلك الأقاليم أمان نامه أي عهد الأمان مالم يظهروا التمرد أو الغدر والخيانة، وكانت تلك سنة متبعة عند سلاطين آل عثمان منذ قيام دولتهم حيث كانوا شديدي الحرص على تطبيق الشريعة الإسلامية في كافة شؤون دولتهم الداخلية والخارجية بما في ذلك الجهاد والفتوحات،⁽¹⁾ وقد ورث العثمانيون جميع الحقوق والصلاحيات التي كان يتمتع بها المماليك ببلاد الشام ومصر الحجاز والأناضول وغيرها من الأراضي التي كانت تحت نفوذهم بصورة مباشرة أو غير مباشرة في تلك المنطقة، حيث أخذت وفود حكام وأمراء وأعيان تلك الأقاليم والبلدان تترى على السلطان سليم لتقديم فروض الولاء والطاعة والدخول في تبعيته،⁽²⁾ وكان في مقدمتهم كبار زعماء وأعيان بلاد الصعيد ودمياط وكافة شيوخ العشائر من مختلف أنحاء الديار المصرية، حيث وفدوا عليه مهنتين له بالنصر ومعلنين له الولاء والطاعة، فأكرمهم السلطان سليم وأقرهم على أماكنهم ومقاماتهم التي كانوا عليها إبان سلطنة المماليك،⁽³⁾ وكذلك فعل مع من وفد عليه من أمراء وقادة المماليك والقضاة وغيرهم ممن كان يعمل مع المماليك فأكرمهم وأدجهم في سلك الخدمة الإدارية والعسكرية، وذلك بعد أن أخذ منهم العهود والمواثيق المغلظة بأن لا يخون العهد ولا يظلموا الناس وألا يعتدوا على الأوقاف وأن لا يحدثوا البدع والضلالات ومفاسد الأخلاق في البلاد،⁽⁴⁾ وأصدر فرماناً بعدم التعرض

(1) شريف أوغلو: متين، جدلية الدين والسياسة في الدولة العثمانية وانعكاساتها على تجربتها الدستورية، *Doğu Anadolu Sosyal Bilimlerde Eğilimler Dergisi*, sayı 5/1,2021, s84.

(2) Stripling, George. W.F; *Rhe Ottoman Turks, And The Arabs, (1511-1474)*, Urgan- Illinois, 1942, p56.

(3) بيات: البلاد العربية في الوثائق العثمانية، مج1، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، إستانبول، 2010م ص402.

(4) ابن أجا: مصدر سابق، ص288-284. أنيس: مرجع سابق، ص114.

لحقوق الناس وأعمالهم وإقطاعاتهم بأي شكل من الأشكال، وأمر بتدوينها وتثبيتها في السجلات الخاصة بذلك،⁽¹⁾ ثم أمر بإعادة تقسيم مصر إلى أربعة وعشرين سنجقاً أي مديرية وجعل كل حكامها من أمراء المماليك،⁽²⁾ كما أمر بترحيل البعض من أمراء المماليك وأبناء السلاطين الجراكسة والموالين لهم من الأعيان والمعممين الذين كانوا يشكلون خطراً على استقرار الأوضاع بمصر إلى استانبول، خشية أن يقوموا بتنظيم انقلاب على الحكم العثماني بمصر ومحاولة إحياء سلطنة المماليك من جديد،⁽³⁾ وقد عهد السلطان سليم إلى صدره الأعظم يونس باشا بالإنبابة عنه في حكم مصر، إلا أنه قد عزله بعد أيام قليلة حيث تبين له عدم أمانته وكفاءته للمنصب،⁽⁴⁾ فاستبدله بالأمير خاير بك المملوكي الجركسي وذلك لخبرته ومعرفته بنظم الحكم والإدارة في البلاد وطبيعة أهلها ومجتمعها، وقد حثه على قبول وتأمين كل من يفد عليه من أمراء المماليك والاستعانة بهم والاستفادة من خبراتهم في إدارة البلاد وتسيير شؤونها،⁽⁵⁾ وقد أبقى السلطان سليم على الكثير من النظم الإدارية التي كانت سائدة في عصر المماليك الجراكسة باستثناء نظام القضاء وتأمين قوافل

(1) صولاق زاده: مصدر سابق، ص 409.

(2) الاسكندراني: عمر والحسن سليم، تاريخ الفتح العثماني للشام إلى قبل الوقت الحاضر، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1996م، ص 64.

(3) Faruk Sümer; Yavuz Sultan Selim Halifeliği Devri Aldı mı? , Belleten, Vol. 56, no, 217, 1992, s 691.

(4) وقد تبين للسلطان سليم عدم كفاءة يونس باشا في القدرة على تسيير شؤون الديار المصرية، وإقامة العدل بين الرعية فقرر عزله فوراً، وذلك بعد أن تحقق من عدم استقامة أخلاقه حيث أبدى طمعه وقلة تورعه عن التغول على أموال الناس بغير حق، كما بلغه أنه قد قام بمصادرة أموال من أرامل الأمراء الجراكسة الذين قتلوا في المعارك السابقة، وكذلك فعله مع مشايخ العُربان وبتزازهم ومطالبهم بدفع الكثير من الأموال بتهمة أنهم كانوا يساندون المماليك الجراكسة ويدعمونهم في حربهم ضد العثمانيين، وقيل أن السلطان سليم قد أمر بإعدامه أثناء طريق عودتهم إلى استانبول لهذا الأسباب، وقيل غير ذلك. منجم باشي: مصدر سابق، ج2، ص 68-682.

(5) وقد أوصى السلطان سليم نائبه على مصر الأمير خاير بك بأن يقبل ويحتوي كل من جاءه من أمراء المماليك الهاربين وأن يأمنهم ويقرهم على مناصبهم رتبهم العسكرية، كما أوصاه وأكد عليه بالاجتهاد والسعي على استقرار البلاد وضبطها والحكم بالعدل والانصاف بين الرعية. ابن زنبل: مصدر سابق، ص 184. وقيل أنه قد التزم بذلك في البدء، ثم انحرف عنه لاحقاً بعد أن فسدت أخلاقه وصار من أشر وأسوأ من ولي مصر في العصر العثماني. منجم باشي: مصدر سابق، ج2، ص 696-681.

الحجيج،⁽¹⁾ ومن أهم الخطوات التي قام بها العثمانيون في سبيل تحقيق الأمن والسلامة المجتمعية بمصر والشام، تعزيز تأمين قوافل الحجيج التي كانت قد تعطلت لثلاثة وأربعة أعوام في زمن المماليك الجراكسة لاسيما في عهد السلطان الغوري نسبةً لكثرة الاضطرابات وعجز الدولة عن تأمين قوافل الحجيج من غارات العُربان وغيرهم من قطاع الطرق، إلا أن الحال قد تغير بعد تولي العثمانيين لزام الأمور بمصر والشام والحجاز،⁽²⁾ حيث أورد ابن إياس في حديثه عن مواسم الحج خلال الأعوام الثلاثة الخامس والعشرين والسادس والعشرين والسابع والعشرين من القرن العاشر الهجري، فذكر أن الحجاج المصريين قد أثنوا على أمرائهم المكلفين من قبل السلطات العثمانية بحمايتهم لهم من غارات العُربان ورعايتهم والقيام بشؤونهم أثناء الطريق إلى الحجاز ذهاباً وإياباً، كما أنهم قد أشادوا بتوفر الأمن والرخاء والسلامة وغير ذلك من صنوف البر والمعروف،⁽³⁾ وكذلك فعل الحجاج الشاميون في سنة أربع وعشرين وتسعمائة للهجرة أثناء مرورهم بأراضي تبوك في شمال الجزيرة حيث هجم عليهم بعض الأعراب إلا أن قافلة الحجاج والطاقم المكلف بحراستها قد تمكنوا من ردعهم وأسر قادتهم، وذلك بفضل رماة البنادق الحاذقين الذين معهم، فدقت البشائر بدمشق احتفالاً وفرحاً بذلك،⁽⁴⁾ وأيضاً من أهم انجازات العثمانيين في حوض البحر الأحمر والمحيط الهندي إبان عهد السلطان ياووز سليم، الذي جعل من الذب عن الديار الإسلامية والحرمين الشريفين وحمايتهما من الخطر البرتغالي دافعاً أساسياً لتقدمه نحو الديار العربية الإسلامية،⁽⁵⁾ حيث قام بتأسيس إمارةٍ خاصة ببحر القلزم

(1) ابن إياس: مصدر سابق، ج5، ص 303.

(2) وقد أورد الشيخ مرعي الكرمي في ذكره لفضائل آل عثمان فقال: وقد سخرهم الله لخدمة وتأمين العباد، فقهر بهم المفسدين من العُربان الذين يمارسون عادة قطع الطريق على حجيج بيت الله الحرام، فدحروهم وطردوهم من البلاد، وعمروا القلاع بالبراري والقفار التي تمر من خلالها قوافل الحجيج، وهيئوها لهم ووفروا لهم الرعاية والأمان. قلائد العقيان في فضائل آل عثمان، مصدر سابق، ص 132.

(3) ابن إياس: مصدر سابق، ج5، ص 324-379-431.

(4) ابن طولون: مفاكهة الخلان، مصدر سابق، ص 387.

(5) وذكر أن البرتغاليون قد شرعوا في التواصل مع مملكة الحبشة النصرانية لعقد تحالف صليبي للاستيلاء على البلدان الإسلامية. أنيس: مرجع سابق، ص 125. وقيل أن السلطان سليم قد سعى في ضم بلاد النوبة والسودان، من أجل تأمين الحدود الجنوبية لمصر وسواحل البحر الأحمر من خطر التحالف البرتغالي الحبشي، وكتب إلى ملك سنار عمارة دنقس يدعو للدخول في طاعته كما قام بتوطین بعض القبائل

عُرفت بإمارة السويس البحرية وعيّن عليها سلمان ريس أميراً ومنحه لقبه قبطان السويس، وكلفه بحماية وتأمين المنطقة ومراقبة حركة الملاحة ومنع أي سفن لاثمّل البيارق العثمانية من الإبحار في بحر القلزم أو العبور من مضيق باب المندب، ومنحه صلاحيات واسعة من أجل تحقيق ذلك وجعله متسقلاً عن الإدارة المصرية حيث كان ارتباطه بالصدر الأعظم مباشرة باستانبول،⁽¹⁾ وقد تمكن القائد سلمان ريس من دحر إحدى القوات البرتغالية وهزيمتها في حوض البحر الأحمر وأخذ منهم العديد من الأسرى وأرسلهم إلى مدينة جدة ومصر، فتقهقرت قواتهم من جزيرة كمران جنوب البحر الأحمر إلى منطقة كوه بالهند بعد فشلهم في الصمود أمام البحرية العثمانية،⁽²⁾ ولتحقيق وحدة الأمة الإسلامية وجمعها تحت نظام اجتماعي وقضائي موحد، أعلن السلطان سليم المذهب الحنفي مذهباً رسمياً لدولة الخلافة بما في ذلك مصر والشام، وذلك لما رآه من فساد أخلاقي واجتماعي في نظام قضاة المذاهب الأربعة الذي ابتدعه المالكي،⁽³⁾ ومما لاشك فيه أن في تباين الآراء فائدة وتوسعة على الناس، بيد أنها تجر إلى الفرقة وتشتت كلمة المسلمين وتعزيز الشقة والخلاف بينهم وإفساد الرأي في كثيرٍ من الأحيان، إذا لم تتم إدراتها وضبطها بالشكل الصحيح الذين

والمجموعات التركية في بلاد النوبة فاندجوا معهم وتزوجوا منهم، وهم الذين يُعرفون الآن بقبائل البرابرة في شمال السودان. متولي: مرجع سابق، ص 258.

(1) وقيل أن السلطان سليم الأول كان يفكر في شق قناة تربط بين بحر القلزم والبحر الأبيض المتوسط لتيسير حركة الملاحة وإنعاش التجارة البحرية في المنطقة من جديد. محمود: جمال كمال، البحر الأحمر في الاستراتيجية العثمانية (1801-1517)، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2019م، ص. 86 و88

(2) المليباري: مصدر سابق، ص 31.

(3) والأصل في مصر منذ دخول الإسلام وحدة نظام القضاء بإشراف قاض واحد يستنيب عنه في الأقاليم قضاة من قبله، وظل الأمر على ذلك حتى جاء الظاهر بيبرس فجعل لكل مذهبٍ من المذاهب الأربعة قاضياً، وقد استنكر كبار علماء المالكية والحنابلة بالشام هذه المناصب التي ألزمهم بها السلطان، وردوا الجوامك التي فرضت لهم، فقام السلطان بفرض ذلك عليهم قهراً وهددهم بأخذ مآب أيديهم من صلاحيات ووظائف في حال إصرارهم وعدم استجابتهم له، فأجابوه مكرهين ولما لبثوا أن استقالوا من مناصب القضاء ووظائف الدولة وامتنعوا من قبول الرواتب التي فرضت لهم على القضاء. وقد ذكر أن أحدهم قد رأى في منامه السلطان الظاهر بيبرس بعد موته، فقال له: ما فعل الله بك؟ فأجاب قائلاً: ما رأيت شيئاً أشد علي من ولاة القضاء الأربعة، حيث قيل لي فرقت بهم الكلمة أي كلمة المسلمين ووحدهم. المقرئزي: السلوك، مصدر سابق، ج 2، ص 107-31-28.

يضمن سلامة وحدة الأمة والبعد عن التشدد والمغالاة وما شابه ذلك، مثل الذي حدث بين قضاة المذاهب الأربعة في حلب إبان عهد السلطان الظاهر بيبرس، حيث وقع فيما بينهم خلاف كبير حتى أصبحوا يكيدون لبعضهم البعض عند السلطان فيرسل إليه كل واحد منهم محضراً يؤكد فيه على فسق الآخرين وفساد أخلاقهم، وقد استمروا على ذلك حتى اضطر السلطان إلى عزلهم جميعاً⁽¹⁾ وقد استنكر جُل علماء ومؤرخي ذلك العصر هذا النظام لما رأوا من فساد في أخلاق القضاة وتنازعهم حول المناصب بالرشوة والبرطلة فضاعت هيبة الدولة والقضاء، وفسد المجتمع وكثرت المظالم والمجاهرة بالمعاصي بين العوام وقتئذ،⁽²⁾ ذلك مما جعل السلطان سليم يأمر بتوحيد نظام القضاء بمصر وجمع زمام شؤونه تحت يد أحد القضاة العثمانيين يتم تعيينه من قبل الخليفة مباشرة، بيد أنه لم يقصي جميع القضاة المصريين بالكلية، حيث جعل منهم نواباً للقاضي العثماني، وممثلين للمذاهب الأربعة، وحصر قضايا الأوقاف والوصايا والأنكحة بيد القاضي العثماني، وذلك بعد أن ضبط أحد نواب القضاة المصريين وهو يياش عقداً زواجا أرملة قبل انقضاء عدتها، فتمت معاقبته وشُهر به في شوارع القاهرة، وكان ذلك بحضور السلطان سليم إبان فترة إقامته بمصر بعد الفتح سنة 1517م،⁽³⁾ وقد باشر قاضي العسكر العثماني مهامه بمصر وكان من أول المهام التي ركز عليها بالقاهرة هي علمية ضبط المجتمع والحد من مظاهر الفساد الأخلاقي التي كانت رائجة به آنذ، لاسيما سُفور النساء واختلاطهن بالرجال في الأسواق والمنتزهات وغيرها من الأماكن العامة، وذلك بعد أن رأى رهطاً من النسوة يتحدثن مع جماعة من عساكر السباهية العثمانية في السوق، فغضب لذلك وخشي من فساد العسكر إذا ما استمر الحال على هذه الشاكلة، فتشاور مع الوالي في ذلك وأمروا بأن ينادى في شوارع القاهرة بأن لا تخرج إمراة من بيتها ولا تتركب على حمار مكاري مطلقاً، ثم تحدث

(1) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، مصدر سابق، ج2، ص107.

(2) وقد علق ابن كثير على ذلك مستنكراً، فقال: «...» وقد فرض الملك الظاهر بيبرس ذلك على أهل الشام، وكان هذا الصنيع الذي لم يسبقه إلى مثله أحد في العام الأول بمصر أي سنة 663هـ، ثم استقرت الأحوال فيما بعد على هذا المنوال «البدائية والنهاية، مصدر سابق، ج13، ص664.

(3) ابن إياس: مصدر سابق، ج184-165، ص5.

الناس مع القاضي في ذلك وطلبوا منه التخفيف على النساء، فأذن لهن بالخروج وركوب الخيل والبغال بشرط أن لا يكون ذلك إلا برفقة أزواجهن، كما استثنى العجائز في دخول الأسواق بلا محارم لقضاء حوائجهن،⁽¹⁾ قيل إن من شدة حرص السلطان سليم على سلامة الرعية بمصر أنه عندما عزم على الرجوع إلى مقر سلطانه باستانبول أمر بأن ينادى في القاهرة بأن لا أحد يخرج إلى السوق حتى تخرج العساكر العثمانية خوفاً عليهم من معرفة الجيش،⁽²⁾ وظل السلطان سليم يتعهد أهل مصر وبقايا المماليك الجراكسة وأبناءهم بالخير والرحمة حتى وفاته، ولم يتعرض لأوقاف السلاطين قط، بل إنه عمل على رعاية الأوقاف العامة وأوقاف الحرمين الشريفين ورواتب الأيتام والمقعدين والمشايخ من أهل مصر، كما أبطل المكوس والمغارم التي كانت تفرض على الناس من غير وجه حق من قبل المماليك.⁽³⁾

أما فيما يتعلق ببلاد الحجاز فقد أوفد الشريف بركات الهاشمي أمير مكة ورأس دولة الأشراف بالحجاز ابنه أبو نمى محمد إلى القاهرة لمقابلة السلطان سليم، وإعلان الولاء والطاعة له وتسليمه مفاتيح مكة والمدينة سلماً، وبذلك يُعد أشراف الحجاز من أوائل المعترفين بسيادة العثمانيين على المنطقة وحماتهم للحرمين الشريفين، وبدوره قام السلطان سليم بإكرام الوفد الحجازي غاية الإكرام،⁽⁴⁾ وأقر الشريف بركات على إمارة مكة المكرمة

(1) وقيل أن النساء قد تضعرن من ذلك، لاسيما البغايا وساقطات الأخلاق منهن، حيث كُن يرقصن ويغنين فرحاً بذهاب قاضي العسكر إلى مكة المكرمة، ويرددن ويقولن: «قوموا بنا نقحب ونسكر فقد خرج عنا قاضي العسكر». ابن إياس: مصدر سابق، ج5، ص469-461.

(2) ابن أبي السرور البكري: التحفة البهية في تملك آل عثمان الديار المصرية، تحقيق عبدالرحيم عبدالرحمن، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2005م، ص98.

(3) الجبرتي: عبدالرحمن بن حسن، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج1، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2003م، ص36.

(4) وكان الوفد بزعامة ابنه وولي عهده أبو نمى محمد بن الشريف بركات، وقد قدم على السلطان سليم محملاً بالهدايا الفاخرة من والده الشريف بركات ومهنئاً له بالنصر ومقرأً له بسيادته وسلطانه على البلاد، حيث قام بتسليمه مفاتيح الأماكن والأمانات المقدسة والآثار النبوية الشريفة التي كانت موجودة بمكة المكرمة والمدينة المنورة وقتئذ. الطرابلسي: نوفل بن نعمة الله بن جريس، كشف اللثام عن مجيا الحكومة والأحكام في إقليم مصر وبر الشام منذ افتتاحها الدولة العلية إلى أن امتازت مصر بالحكومة الوراثية وانتظمت بر الشام في سلك التنظيمات الخير، مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية، عمان، مخطوط رقم 717، نسخة مصورة، ص8.

وأصدر فرماناً بتعيينه عوضاً عن نائب المهالك عليها، ووسع من صلاحياته وجعل له حق التصرف في جميع شؤون مكة المكرمة وأضاف إليه نظارة الحسبة وذلك مما زاد قدر الشريف بركات وأعلى مقامه بين الناس،⁽¹⁾ وبذلك ضمن الشريف بركات استقرار سلطانه وتأمين بلاده من الخطر الصليبي البرتغالي الذي كاد أن يدخلها لولا تصدي القوات العثمانية لهم في حوض البحر الأحمر،⁽²⁾ ولكن على الرغم من انضمام بلاد الحجاز رسمياً للسيادة العثمانية وقرأت الخطبة باسم الخليفة العثماني، إلا أن الرايات العثمانية لم ترفع فوق قلعتي مكة المكرمة والمدينة المنورة، وذلك لأن الدولة العثمانية لم تعتبر الأراضي المقدسة مجرد مناطق تابعة للسيادة العثمانية فقط، وإنما هي أماكن ترجع ملكيتها إلى الأمة كافة وجميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها،⁽³⁾ وقد بالغ السلطان سليم في إكرام فقراء مكة والمدينة، حيث أمر بكتابة أسماء طائفة من فقراء مكة المكرمة وجمع من فقهاءها وعلماؤها، وعيّن لكل فرد منهم ثلاثة دنانير ذهبية وساهم بأهل البيوت، وأضاف إليهم طائفة من فقراء العوام وأمر لكل فرد منهم بدينارين وساهم بالعامّة، وألحق أسماءهم جميعاً بدفتر اليومية الخاص بمكة المكرمة، وكذلك فعل مع أهل المدينة المنورة حيث أمر بإرسال الغلال والصدقات السلطانية إليهم،⁽⁴⁾ وأمر قاضي القضاة وشيخ الإسلام بالإشراف على توزيعها بأنفسهم،⁽⁵⁾ كما قام بشراء الكثير من الأراضي والضياع بمصر

(1) ابن إياس: مصدر سابق، ج 5، ص 193-190.

(2) اوزتونا: تاريخ الأمبراطورية العثمانية، مرجع سابق، ج 1، ص 97-95.

(3) وقد استمر الوضع على ذلك حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حيث بدأت حركة الاحتلال الأوروبي للبلاد الإسلامية، عندها شعر العثمانيون بأهمية رفع أعلامهم على قلعتي مكة والمدينة كرمز للتبعية والسيادة العثمانية على تلك المناطق حمايتها من تغول الاحتلال الأوروبي.

Zekeriya Kurşun; Osmanlı Devleti İdaresinde Hicaz, TDV İslâm Ansiklopedisi, 30, vols, İstanbul, 1988, vol.17, s 437.

(4) وكان ذلك إبان إرسال المحمل أو الصرة الرومية أي العثمانية التي أرسلها السلطان سليم قبيل مغادرته للديار المصرية، وجعل على رأسها الأمير خاير بك والي مصر، وقد اشتمل المحمل على كسوة فاخرة للكعبة المشرفة ومقام سيدنا إبراهيم عليه السلام كتب عليها اسم السلطان سليم، بالإضافة إلى الكثير من الغلال والمساعدة لأهالي الحرمين الشريفين. ابن إياس: مصدر سابق، ج 5، ص 205.

(5) النهروالي: قطب الدين محمد بن أحمد الحنفي، الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، تحقيق هشام عبدالعزيز عطا، المكتبة التجارية مصطفى أحمد الباز، مكة المكرمة، 1996م، ص 287.

والشام وأوقف أموالها لصالح أهالي الحرمين الشريفين،⁽¹⁾ وقد اهتم بتوفير سبل الرحالة لقوافل حجيج بيت الله الحرام فأمر ببناء الحمامات وعمارات الأسواق وغيرها من المرافق العامة،⁽²⁾ وهكذا استمر نظام الحكم العثماني في عهده الأول بمنطقة الحجاز والبلدان العربية بصفة عامة حيث كان يتسم بنمط الحماية ومنح الحكام المحليين حق الحكم الذاتي أو شبه المستقل في نظام الإدارة الداخلية بيد أنهم يكونون على ارتباط وثيق بالسلطة المركزية باستانبول في الشؤون العامة، وتتلخص وظائف الدولة بالأليات في مسألة الدفاع إذا ما كان هنالك عدو خارجي وفي ضبط المجتمع داخلياً إذا ما وقعت فتن أو نزاعات داخلية، بالإضافة إلى الوقوف على تحصيل الضرائب وتوزيعها في وجوهها والفصل في الخصومات والنزاعات الكبرى وفق ما تحكم به المؤسسة القضائية، علاوةً على الاهتمام بمسألة تأمين الخدمات العامة كالصحة والتعليم وغيرها.⁽³⁾

أما بلاد اليمن فقد أراد العثمانيون بسط سلطانهم عليها بإرسال قوات عسكرية للمساعدة في تهدئة الاضطرابات والنزاعات الداخلية بين الطوائف المتصارعة على حكم البلاد، والعمل على توحيدها واتخاذها قاعدة عسكرية لصد هجمات التحالف البرتغالي الحبشي وإبعادهم عن منطقة الأراضي المقدسة بالحجاز، وذلك بعد أن أعلن الأمير اسكندر الجركسي المكلف من قبل السلطنة المملوكية بضبط الأوضاع في اليمن وخضوعه للعثمانيين بعد أن بلغه خبر انتصاراتهم بالشام ومصر، فأقره السلطان سليم على ما كان بين يديه من البلاد، بيد أن الأوضاع بها لم تستتب للعثمانيين في اليمن إلا بعد عناء شديد وكان ذلك على يد سليمان باشا الخادم،⁽⁴⁾ وفي أثناء إقامة السلطان سليم بمصر تمكن الأخوان أوروغ وخير الدين بربروس من دخول الجزائر وضمها تحت لواء الدولة العثمانية، حيث أمدهم

(1) شافعي: لمياء أحمد عبدالله، الصرة العثمانية الموجهة إلى مكة والمدينة «974-791هـ/1566-1389م»، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد 54، مكة المكرمة، 1433هـ، ص 429.

(2) كشمري: بتسام بنت محمد صالح بن عبدالرحمان، مكة المكرمة من بداية الحكم العثماني إلى نهاية القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي «1566-1299م»، رسالة دكتوراه غير منشوره، جامعة نكرت، كلية التربية، 2013م، ص 168-168.

(3) أنيس: مرجع سابق، ص 143-142.

(4) النهروالي: قطب الدين محمد بن أحمد، البرق اليماني في الفتح العثماني، تحقيق حمد الجاسر، دار اليمامة للبحث والدراسات والنشر، الرياض، 1967م، ص 40-29.

السلطان سليم الأول بالسفن وذخائر والعتاد الحربي وكلفها بتعزيز جهودهما في الذب والدفاع عن البلاد الإسلامية المطلة على حوض البحر الأبيض المتوسط وحمايتها من المد الصليبي الأوروبي،⁽¹⁾ وذلك بعد أن سمع بكفاحهما حركتهما الجهادية لإنقاذ مسلمي الأندلس من قهر الأسبان واستبدادهم، وعندما أرسل خير الدين بربروس إلى السلطان سليم يبلغه بأخبار انتصاراتهم في الجزائر، سُر السلطان بذلك وأمدهم بالعديد من المدافع والعتاد الحربي ومنحها رتبة سنجق بك أي أمير لواء،⁽²⁾ وبذلك أصبحت الجزائر أول الأقطار المغربية دخولاً تحت لواء الدولة العثمانية، وتم ذلك وبشكل رسمي في عام 1518 وقيل 1519م أي بعد عودة السلطان سليم من مصر إلى استانبول.⁽³⁾

أما الشام فقد أوكل السلطان سليم أمر ولايتها بجميع لواحقها حتى غزة إلى الأمير جان بردي الغزالي⁽⁴⁾،⁽⁵⁾ وفي أثناء إقامته بالشام إبان رحلة عودته إلى استانبول قام بإصدار

(1) وقد كادت حركة الجهاد التي يتبناها الأخوين بربروس أن تتوقف في سواحل الجزائر، وذلك بسبب تواطؤ أمير تلمسان الزياني مع الأسبان ضد المجاهدين المسلمين من أجل حماية ملكه وسلطانه، وكذلك كان صاحب تونس الحفصي الذي تقاعس عن مدهم بالسلاح والبارود، فأصيب القائد المجاهد خير الدين بربروس بخيبة أمل وطلب من أهل الجزائر وأعيانها التواصل مع السلطان سليم أقوى سلاطين المسلمين وأغبرهم على الدين وحماية أهل السنة من المسلمين، لعله يغيبهم بالقوة والسلاح. مؤلف مجهول: غزوات عروج وخير الدين، تحقيق نوالدين عبدالقادر، مطبعة الثعالبية، الجزائر، 1934م، ص 42.

(2) وبعد استشهد أوروغ في إحدى المعارك ضد الأسبان بمدينة تلمسان الجزائرية، قام أعيان الجزائر وعلماؤها وفقهائها وتجارها وكافة أهلها بإرسال وفد إلى السلطان سليم يستجدون به ويطلبون منه دعمهم عسكرياً لدحر الغزو الأسباني الصليبي، وأن يُعين خير الدين بربروس والياً عليهم، فاستجاب لهم السلطان ومنح خير الدين لقب باشا، ورفع الجزائر من مقام لواء إلى إيالة عثمانية كبرى في شمال إفريقيا، وكان ذلك في عام 1519م. سرهنك: الميرالاي إسمايل، حقائق الأخبار عن دول البحار، ج 1، المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة، 1896م، ص 360-359.

(3) التميمي: عبدالجليل، أول رسالة من أهالي الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة 1519، المجلة التاريخية المغربية، ع 6، تونس، 1976م، ص 120.

(4) إلا أنه بمجرد سماعه لخبر وفاة السلطان سليم، أعلن تمرده وعصيانه على الدولة العثمانية، ونصب نفسه سلطاناً على الشام ولقب نفسه بالأشرف وسك العملة باسمه، فتسبب ذلك في خلق فتنة عظيمة واضطراب بالبلاد الشامية، فكثر القتل والنهب والفساد، حتى أرسل السلطان سليمان القانوني جيشاً لحسم الفوضى والقضاء على تلك الفتنة بقيادة فرهاد باشا الذي تمكن إخمادها وقتل جان بردي الغزالي وكان ذلك في سنة 1520م. ابن الحمصي: حوادث الزمان، مصدر سابق، ص 544-542.

(5) ابن سويدان: موسى بن يوسف، توراخي ملوك الروم ومدة تملكهم من السنين، مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية، عمان، نسخة مصورة، مخطوط رقم 787، ورقة 277.

فرمان خاص بطوائف نصارى الشام ليؤكد على ضمان حفظ حقوقهم الاجتماعية في العيش الكريم تحت ظل الدولة العثمانية، فترك لهم حرية التصرف بكنائس الروم وغيرها من الأماكن المخصصة للعبادة،⁽¹⁾ كما أثبتت لهم ملكية الأراضي الزراعية التي كانوا يملكونها في القدس وحرية التصرف فيها، وتم إعفاؤهم من الضرائب التي كانت تفرض عليهم من قبل المماليك، وكذلك فعل مع رعايا الدولة من طوائف الأرمن في حفظ الحقوق والرعاية الاجتماعية،⁽²⁾ كما أنه قد ولى عناية خاصة بالمسجد الأقصى حيث أمر بترميمه وإعادة إعمار أسواره الخارجية وتزيينه و إضاءته بحوالي اثني عشر ألف قنديل، كما أنه قد أتاح للنصارى الحج إليه و جدد معهم العهود والمواثيق حول ذلك،⁽³⁾ وقبيل استئناف مسيره نحو الأناضول واستانبول وصلته رسالة من الشاه إسماعيل الصفوي مصحوبة ببعض الهدايا، يتودد إليه فيها وطالباً الصلح وفقاً للشروط التي يقررها السلطان سليم، إلا أن السلطان سليم لم يطمئن لنوايا الشاه، فأرسل صدره الأعظم بيري محمد باشا على رأس قوة عسكرية لمراقبة تحركات الشاه على أرض الحدود والتثبت من نواياه والاطمئنان على سلامة الرعية هناك، أما هو فقد واصل مسيره عبر الأناضول قاصداً مقر حكمه بإستانبول،⁽⁴⁾ وفي تلك الأثناء وصلته أخبار من مصر بأنه قد تم القبض على خمسة أفراد من العساكر العثمانية بالقاهرة بتهمة التعرض للناس في الطرقات والتعدي على حرمتهم ونسائهم وغلماهم، وقد حُكم عليهم بالإعدام شنقاً على الملأ حتى يكونوا عظة وعبرة لغيرهم، فشنق منهم أثنان وعلقوا على باب زويلة، وواحد على باب الشعرية، وشفع في الآخرين من الشنق وزج بهم في السجن إلى حين، وقد عُرف السلطان سليم بشدة حرصه على ضبط المجتمع ومحاربة الظواهر السلبية والأفعال اللا أخلاقية المخالفة للعرف والدين، فأرسل من فوره إلى نائبه بمصر الأمير خاير بك يأمره بالتشديد في معاقبة كل من يخالف ويسئ الأدب من العسكر،

(1) رضوان باشا زاده: عبدالله، تاريخ مصر، مكتبة السليمانية، استانبول، مجموعة الفاتح، مخطوط رقم 4362-1121.

(2) Uzunçarşılı ve Arkadaşları; Topkapı Sarayı Müzesi Osmanlı Saray Arşivi Kataloğu, Fermanlar, Ankara: TTK, s7.

(3) بيات: مرجع سابق مج 1، ص 64-63.

(4) Uzunçarşılı; a.g.e, cit 2, s295-296.

فنودي بأن لا أحد من اليكجيرية ولا السباهية يشوش على الرعية، وأن من فعل ذلك يُمسك من طوقه ويسلم إلى الأمير خاير بك نفسه أو نائبه لكي يلقي عقابه، وكان البعض منهم يُرسل إلى إستانبول مباشرة،⁽¹⁾ وأيضاً من المواقف التي تُبين حرص السلطان سليم على إقامة العدل في المجتمع المصري ومسح آثار الظلم والاستبداد الطبقي الذي كان يمارس على الرعية إبان فترة سلطنة الجراكسة، أنه قد بلغه أن الخليفة المتوكل على الله آخر خلفاء بني العباس قام بحرمان أبناء عمه خليل من نصيبهم في إقطاع الخلافة بمصر، وذلك بعد أن غادرها وارتحل معه إلى استانبول، فغضب السلطان سليم من تصرف الخليفة وحنق عليه، ثم أمر بإرسال مندوب خاص إلى مصر ليقوم بمعاينة الإقطاع وترسيم حدوده وحصره مع عمال الخليفة الذين تلوؤوا عليه في البدء فضيق عليهم حتى انتصف منهم لأولاد خليل وسلمهم نصيبهم بلا نقصان من الميراث،⁽²⁾ ولكن على الرغم من حصر السلطان سليم الشديد على إقامة العدل بين الناس وترسيخ القيم والمبادئ الأخلاقية التي تعزز من قوة الوازع الديني في نفوس الناس ووحدة الأمة الإسلامية التي كان يسعى إلى تحقيقها، إلا أن ذلك لم يتحقق بالصورة المثلى والكاملة في عهده حيث لم تمهله الأقدار لرؤية ذلك، وإنما كان عهده أشبه بالفترة الإنتقالية في الحكم حيث لم تستقر الأحوال بمصر والشام بشكل تام إلا في عهد خَلْفَه وابنه السلطان سليمان القانوني.

5.4 قضية تحول الخلافة إلى العثمانيين وأثرها فيه مجتمع الأمة الإسلامية:

بعد انتهاء عهد الرعيل الأول من أولي العزم من خلفاء بني العباس، الذين عُرفوا بالقوة وعلو الهمة حيث كانت دولة الخلافة في أيامهم ذات شموخ ومهابة وسلطان نافذ وقيادة مركزية موحدة، فخلفهم خلف ضعاف الشخصية والعزيمة فاسدي الأخلاق لا يكثرثون لشؤون الرعية وقضايا الأمة، فكان ذلك سبباً في تدهور دولة الخلافة وظهور بوادر الضعف والاضحلال عليها، ثم تمخض عن ذلك تفكك المجتمع الإسلامي ووحدة

(1) ابن إياس: مصدر سابق، ج5، ص338-329-219.

(2) نفسه: ص318-317.

الأمة حيث قُسمت رقعة دولة الخلافة إلى أقاليم وسلطنات شبه مستقلة، فأصبحت بلاد المغرب الأقصى سلطنة قائمة بذاتها وكذلك تونس ومن بعدها مصر ثم الحجاز، بل إنَّ بعض المدن قد أصبحت بمثابة إمارة مستقلة عن الأقاليم الكبرى التابعة لها مثل إمارة حلب وإمارة دمشق وغيرها من إمارات المدن بإقليمي الشام والأناضول،⁽¹⁾ لم يكن للخلافة العباسية وجود حقيقي ولا حكم فعلي بعد سقوطها في بغداد على يد المغول سنة 1258م، وإنما كان إحياءها بمصر من قبل المماليك مجرد إحياء اسمي فقط حتى ينال بها سلاطينهم شرعية الحكم والقبول لدي الرعية والعالم الإسلامي بشكل عام،⁽²⁾ حيث قام السلطان الظاهر بيبرس بإيواء بقايا الأمراء العباسيين الفارين من بطش المغول ببغداد، وكان من ضمنهم الأمير أبو القاسم أحمد العباسي، فاستقل السلطان الظاهر بيبرس الفرصة لتسكين الأمور وجمع المسلمين تحت لواء واحد حتى يتمكنوا من التصدي للغزو المغولي والحملات الصليبية التي كانت ومازالت تترا على الديار الإسلامية، كما أنه قد أراد تثبيت دعائم حكمهم وسلطتهم الناشئة، وإكسابها الشرعية الدينية لدى المسلمين والصفة الرسمية العالمية بشكل عام، فقام بمبايعة الأمير أحمد وتنصيبه خليفة للمسلمين حيث لُقّب بالخليفة المستنصر بالله وكان ذلك في عام 1261م، إلاَّ أنَّه قد قُتل في نفس العام فأحل السلطان الظاهر بيبرس محله الأمير أبو العباس أحمد الذي لُقّب بالحاكم بأمر الله وبايعه بالخلافة عام 1264م، فوقع خلاف بينهما فحبسه السلطان الظاهر بيبرس بأحد أبراج القلعة فظل به حتى وفاة السلطان الظاهر وولاية السلطان المنصور قلاوون كاملة ولم يفرج عنه إلاَّ في عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون عام 1291م، ثم رده إلى الحبس مرة أخرى ولم يفرج عنه إلاَّ بعد سلطنة المنصور لاجين سنة 1297م، ولم يُعمر بعد ذلك كثيراً، وبعد وفاته بُويع ابنه أبو الربيع سليمان المستكفي بالله سنة 1306م، وقد تعرض هو أيضاً للسجن وقطع الراتب عدة مرات،⁽³⁾ وهكذا استمر حال خلفاء بني العباس على هذه الشاكلة من

(1) وهكذا بقية الأمة في حالة من التفكك والضعف والهوان، بل وتنازع داخلي بين السلاطين وأبنائهم على العرش، حتى سخر الله العثمانيين فجمع بهم شمل الأمة من جديد ورفع بها شأنها في مشارق الأرض ومغاربها. الكرمني: قلايد العقيان، مصدر سابق، ص 10-9.

(2) أوزتونا: تاريخ الأمبراطورية العثمانية، مرجع سابق، ج 1، ص 223.

(3) وقد علق المقرئزي على حالة الخليفة أبو العباس الحاكم بأمر الله قائلاً: « وكانت مدة خلافته أربعين سنة، ولم يكن له فيها من الأمر شيء قط، سوى أن يقال له أمير المؤمنين... ». الخطط، مصدر سابق، ج 3، ص 423.

الضعف والعجز والتهميش والإقصاء والسجن والقتل أحياناً حتى سقوط دولة المماليك على يد العثمانيين في مطلع القرن السادس عشر الميلادي.

وبعد هزيمة المماليك في مرج دابق وموت سلطانهم الغوري في أرض المعركة، وقد كان الخليفة المتوكل على الله العباسي على رأس الوفد المرافق له بحلب فوقع في أيدي العثمانيين،⁽¹⁾ فأراد المماليك بمصر تنصيب طومان باي سلطاناً عليهم خلفاً للغوري، وقد جرت العادة على أن يتم ذلك بتفويض رسمي من الخليفة حتى يظفي على ذلك الشرعية الدينية والقبول في نفوس المسلمين، فقام طومان باي من فوره بتنصيب المستمسك بالله بن المتوكل خليفةً مكان والده، لكي يمنحه الشرعية في الحكم، وقد تم له ذلك، أما الخليفة المتوكل فعندما حضر إلى مصر برفقة السلطان سليم وقد رأى فيه عدم الإستقامة سوءاً في أخلاقه و استعماله لنفوذه بحكم منصبه،⁽²⁾ فقرر اصطحابه معه وبرفقته جمع من الأمراء والأعيان الموالين لسلطنة المماليك إلى استانبول لكي يأمن شرهم،⁽³⁾ كما اصطحب معه الكثير من العلماء والكتّاب والأطباء والصناع وأصحاب الحرف والمهن وبعض كبار التجار وأعيان اليهود لكي يستفاد منهم في نقل علومهم وخبراتهم إلى عاصمة دولة الخلافة الجديدة وبقية أطرافها،⁽⁴⁾ وما لبثوا أن عاد فريق منهم إلى مصر ومنهم من طاب له المقام بدار الخلافة

(1) وقد أورد ابن إياس في خبره أثناء التأهب للسفر إلى الشام أنه عندما أمره السلطان الغوري بأن يجهز نفسه للخروج معه إلى حلب لم يعطه نفقة للسفر، ولم يكن لديه مال فاضطر لأن يقترض من الأمراء بفائدة أي بالربا فتراكمت عليه الديون وتضاعفت. مصدر سابق، ج5، ص30-23.

(2) وقيل أن فترة إقامته بإستانبول كانت مملؤه بالترف والمجون والحرص على جمع المال، فاضطر السلطان سليم إلى سجنه وظل على تلك الحالة حتى وفاة السلطان سليم، وعندما تولى سليمان القانوني الحكم أفرج عنه وأعادته إلى مصر فعاش بها حتى مات. أنيس: مرجع سابق، ص116-115 وقد ألحق المؤلف ذلك بتعليقه قائلاً: «ولم يتطرق المؤرخون البتة عن حدوث تنازل عن الخلافة من الخليفة المتوكل للسلطان سليم أو ابنه سليمان القانوني». وهنالك رواية أخرى أوردتها أوزتونا تقول: أن الخليفة المتوكل قد تنازل عن الخلافة للسلطان سليم إبان إقامته بإستانبول وكان ذلك في مراسم رسمية بدأت بمسجد آياصوفيا، ثم قام بتقليده السيف والخلعة بجامعة أيوب سلطان، وقد أشرت في ذلك الحدث الكبير وفد من علماء الأزهر وغيرهم من علماء الدولة العثمانية. تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، ج1، ص224.

(3) Danişmend; a.g.e, 2.cilt, s 61.

(4) ومن أشهرهم الطبيب الشيخ القوصوني الذي أصبح في زمرة الأطباء السلطانية بإستانبول، وبقي بها حتى وفاة السلطان سليم وكان ممن شارك في غسله وتكفينه، وقد توفي هو بعد ذلك في مطلع عهد السلطان لسليمان القانوني بعد أن أورث مهنة الطب إلى ابنه الطبيب محمود الذي عُين رئيساً للأطباء في =

باستانبول فمكثوا بها،⁽¹⁾ وبنجاح حملة السلطان ياووز سليم على الشام ومصر وانضمام الحجاز سلماً، أصبحت جُل البلاد الإسلامية تحت سلطانه بما فيها الأراضي المقدسة والحرمين الشريفين بمكة والمدينة والمسجد الأقصى بفلسطين، وذلك مما أضفى على الدولة العثمانية صفة الزعامة الدينية على العالم الإسلامي، فلقّب السلطان سليم بحامي وخادم الحرمين الشريفين، ولم يكن توليه للصدارة والزعامة على العالم الإسلامي رغم أنوف المسلمين من عرب أو عجم؛ بل تم ذلك بتهلل ووافق تام بين كافة الشعوب والمجتمعات الإسلامية، حيث كانوا يرون في العثمانيين القوة الإسلامية الفتية التي تذب وتدافع عن الديار الإسلامية من الأخطار الأوروبية الصليبية والصفوية الشيعية التي كانت تحرق بها من كل حدب وصوب، لذلك كان يُطلق العرب على القوات العثمانية الموجودة في بلادهم اسم «الحامية العثمانية» لارتباطها في أذهانهم بالحماية من الأخطار الخارجية، وبشكل عام لم يكن المسلمون آنئذ شديدي الارتباط قضية الوطنية كما هم الآن في زماننا الحالي، وذلك لأن هذه الحدود الجغرافية لم تكن موجودة أصلاً بين البلدان الإسلامية وقتئذ، وإنما كان الولاء والارتباط الشديد المتأصل في نفوس المسلمين هو الولاء الديني والعاطفة الإسلامية، ولم يستنكف المسلمون آنئذ عرباً كانوا أو عجم من جنس أو عرق معين في أن يحكمهم، طالما أنه يقيم فيهم شرع الله وسنة رسوله الكريم عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم،⁽²⁾ وبناءً عليه

= الدولة العثمانية وطبيباً خاصاً للسلطان سليمان القانوني، وظل في خدمته حتى وفاته وكان من ضمن مغسلي جثمانه ومكفنيه. عاشق جلبي: أحمد بن علي زين العابدين بن محمد الرضوي، ذيل الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، تحقيق عبدالرازق بركات، دار الهداية، القاهرة، 2007م، ص 94-92.

(1) قد ساهم ابن إياس بالأسرى ولاغرابية في ذلك فالرجل منذ البدء وهو يعتبر العثمانيين غزاة مغتصبين لحكم آبائه الجراكسة، حيث أورد ذكرهم في أحداث سنة 923هـ قائلاً: ومن أعظم مساوئ ابن عثمان أي السلطان سليم إخراج أعيان ورؤساء الديار المصرية ونفيهم إلى إستانبول، وزعموا أنه يريد أن ينشئ مدرسة بإستانبول على غرار مدرسة السلطان الغوري بمصر أي مدرسة لتعليم الحرف والصنائع، ثم أورد في ذكره لأحداث سنة 927هـ، أنه قد آب جماعة من الذين أسره السلطان سليم وأخذهم من مصر إلى إستانبول، وكذلك فعل من بعده ابنه السلطان سليمان الذي رأف بالأسرى وأظهر العدل فيهم، حيث أمر بعودة الأسرى من أهل مصر إلى بلادهم، فعادت جماعة منهم وبقي بعضهم بإستانبول ولم يعد. مصدر سابق، ج 5، ص 397-394-232-229.

(2) وعلى سبيل المثال لا الحصر، نجد أن أهل مصر قد رضوا بحكم الدين الأيوبي الكردي ومن بعده المماليك وكان جلهم من الترك والجركس، بيد أنهم سخطوا من حكم الروافض الشيعة الفاطميين على الرغم من أصولهم العربية، إلا أنهم قد ظلموا وأفسدوا وتجبروا على الخلق وتعدوا على حقوقهم =

فإن جُل العلماء والمؤرخين المعاصرين لتلك الفترة كانوا يؤيدون زعامة العثمانيين وتوليهم للخلافة وشؤون الأمة الإسلامية،⁽¹⁾ وقد استفاضوا في مدحهم والثناء عليهم لما رأوه فيهم من عدل وكرم أخلاق وعزة للأمة الإسلامية بعد أن أصابتها فترة من الضعف والوهن الشديد.⁽²⁾ وقد تباينت الآراء حول كيفية انتقال الخلافة من العباسيين إلى بني عثمان،⁽³⁾ فهمنم من قال بأنها انتقلت بشكل تلقائي عندما انتصر السلطان ياووز سليم على المماليك في

= وحرماهم، أما قضية العصبية الوطنية هذه فلم تكن موجودة أصلاً، ولم يكن الانتساب إلى بلد من البلدان وقتئذ يدل على انتفاء عرقي أو قومي، وإنما كان يستخدم للدلالة على مكان الإقامة فقط لا غير، ويستدل على ذلك بأن أغلب مشاهير ذلك الزمان من علماء وفقهاء وغيرهم يذيلون أسائهم بمحل الإقامة، فيقال فلان الاشبيلي الطنجي أو الدمشقي الحلبي وغير ذلك. زيد: مرجع سابق، ج 2، ص 306-305.

(1) وقيل أن فقهاء الحنفية قد أجازوا خلافة بني عثمان وأيدوها بعد أن آسوا الكفاءة في السلطان ياووز سليم وقتئذ، وتحققوا من توفر الشروط الموجبة لها عنده وعند من خلفه من سلاطين بني عثمان، وهي تتمثل في الأتي بالنسبة لهم: حق السيف أي القوة وحق الانتخاب بمجلس العلماء، ثم الوصاية وحماية الحرمين الشريفين والاحتفاظ بالأمانات المقدسة. الخربوطلي: علي حسني، عُروة الخلافة الإسلامية، مؤسسة المطبوعات الحديثة، القاهرة، د.ت، ص 180-179. وقد أجازها فقهاء آخرون من الشافعية الذين عاصروا خلافة السلطان ياووز سليم، بناءً على تحقق الشروط الآتية: «... ويشترط أن يكون الإمام مسلماً، ذكراً، بالغاً، عاقلاً، حراً، عدلاً، مجتهداً، شجاعاً ذا رأي وكفاية، قرشياً فإن لم يُوجد قرشي اجتمعت فيه الشروط فكناني فإن لم يُوجد غيره...». الشعراي: أبو المواهب عبدالوهاب بن أحمد بن علي الأنصاري، اليواقيت والجواهر في بيان الأكابر، مخطوطات جامعة الملك سعود، الرياض، مخطوط رقم 1652، ص 274.

(2) أمثال قطب الدين النهروالي المؤرخ المكي الذي عبر فرحه بذلك قائلاً: (... ولما أراد الله تعالى بأهل الأرض خيراً وإحساناً، وإظهار العدل بينهم وإخماد الفتن ومظاهر الظلم والفساد، سخر لذلك بني عثمان الذين أيد بهم إقامة الشرع الحنيف بين الناس ودعم بهم أهل السنة ودين الإسلام، فأعزهم بمقام الخلافة التي بلغت أمجادها عنان السماء ومشارك الأرض ومغارها وقتئذ). الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، مصدر سابق، ص 226. وبذلك أيضاً قال الإشبيلي في الثناء على السلطان سليم الأول، حيث قال: «... وهو ملك الزمان على الإطلاق، المرتقى على كرسي الخلافة بالاستحقاق... فله خلافتك السعيدة...». الدر المصان في سيرة المظفر سليم خان، مصدر سابق، ص 6-2.

(3) وقد تباينت الآراء أيضاً في نسبهم عند ذكر قضية الخلافة وحصرها في قريش، وقد استند البعض في ذلك على ما أورده الحافظ ابن حجر العسقلاني عن أصل العثمانيين، حيث ذكر أن أصلهم من العرب الحجاز وكان أول من نبه منهم جدهم سليمان، الذي عُرف فيما بعد بسليمان شاه. إنباء الغمر، مصدر سابق، ج 1، ص 484. وقد أورد ذلك أيضاً ابن العماد الحنبلي حيث قال: أن جدهم الأكبر عثمان أصله من عرب الحجاز، وقيل من المدينة المنورة تحديداً، وقد هاجر منها بسبب الغلاء ونزل ببلاد القرمانيين وتزوج من قونيا وأنجب ابنه سليمان الذي أصبح زعيماً مشهوراً من بين الزعماء التابعين للسلاجقة، ثم خلفه ابنه عثمان الأصغر وهو مؤسس دولة بني عثمان وأول سلاطينهم. شذرات الذهب، مصدر سابق، ج 8، ص 122.

مرج دابق،⁽¹⁾ حيث دُعي باسمه على المنابر بحلب في أول جمعة له بعد النصر ولُقّب بخادم الحرمين الشريفين، وتسلم الأمانات المقدسة أي الآثار النبوية وشارات الخلافة التي كانت بالقاهرة ومكة المكرمة، ثم نقلها إلى إستانبول حيث تم وضعها بقصر طوبقو سراي الذي ظلت محفوظةً به حتى الآن،⁽²⁾ وأيدوا رأيهم بالإستناد إلى موقف جُل علماء وفقهاء ذلك الزمان الداعم والمؤيد لريادة العثمانيين للأمة الإسلامية، وذكر أسماء سلاطينهم مقرون بلقب الخلافة والدعاء لهم على المنابر بالحرمين الشريفين وكافة الأمصار الإسلامية منذ عهد السلطان ياووز سليم وابنه السلطان القانوني،⁽³⁾ ووصفهم بحماة الإسلام وورثة الخلافة الكبرى والإمامة العظمى،⁽⁴⁾ أما الطرف الآخر وهم الذين يشككون في صحة خلافة العثمانيين، وقد ظهوروا إبان فترة ضعف وتقهقر الدولة العثمانية خلال القرنين السابقين، حيث برزت طائفة من المؤرخين والباحثين الذين يروجون لتشتيت شمل الأمة وتعزيز مبادئ القومية والعرقية التي بلغت أوج انتشارها آنئذ، مدعين بأن حكم العثمانيين للديار الإسلامية العربية، لم يكن فتحاً وإنما كان احتلالاً مُغلغاً باسم الدين،⁽⁵⁾ جاهلين أو متجاهلين

(1) ولعل مما يؤيد ذلك الرأي، ما أورده ابن إياس في حديثه عن خطاب السلطان ياووز سليم إلى السلطان طومان باي بعد معركة مرج دابق، عندما طلب منه التسليم والدخول في طاعته مسلماً، حيث قال له: «...، أي قد أخذت المملكة بحد السيف وبحكم الوفاة عن السلطان الغوري، فأحمل إلينا خراج مصر في كل سنة كما كان يُحمل إلى خلفاء بغداد، فإني خليفة الله في أرضه وأنا أولى منك بخدمة الحرمين الشريفين،...». مصدر سابق، ج 5، ص 124-125. ولعل في ترجمة ابن إياس ركافة في النص، لأنه قد ذكر أن أصل النص كان باللغة التركية، وهنا نلاحظ وبشكل جلي أن السلطان سليم قد أعلن نفسه خليفة للمسلمين وكان ذلك قبيل دخوله إلى مصر.

(2) Akgündüz; Ahmed, Osmanlı Kanunnameleri ve Hukuki Tahlilleri, C.III, Osmanlı Araştırmaları Vakfı Yayınları, İstanbul, 2016, s 502-503.

(3) بيد أن إبراهيم أفندي المؤرخ المعاصر لعهد السلطان سليمان القانوني، قد استخدم لفظ الخلفية في كتاباته، ومنها على سبيل المثال لا الحصر، «...، عاد حضرة حامي الخلافة في يوم كذا،... كما ورد في إحدى رسائل الشاه طهاسب الصفوي إلى السلطان القانوني حيث خاطبه بلقب الخلافة قائلاً: خاقان البحرين وخادم الحرمين الشريفين، مؤيد أركان السلطنة الكبرى مهمد بنيان الخلافة العظمى،...». بجوي، تاريخ بجوي، ج 1، ترجمة ناصر عبدالرحيم حسين، المركز القومي للترجمة والنشر بالعربية، القاهرة، 2015م، ص 183 / 311.

(4) العاصمي: عبدالملك بن حسين بن عبدالملك الشافعي المكي، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، ج 4، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م، ص 361.

(5) وفي مثل ذلك قال ابن قدامة: «...، إنه لو خرج رجل على إمام فقهره وتغلب عليه ونزع منه الإمامة =

بذلك اختلاف المعايير الزمانية والمكانية والحالة الدينية والسياسية والاجتماعية التي كانت عليها الأمة الإسلامية وقتئذ،⁽¹⁾ ومُسقطين عليها المعايير المعاصرة وإصدار الحكم عليها وفق ذلك وهذا مالا يستوي لعاقل،⁽²⁾ وقد استمرت الخلافة متوارثة في آل عثمان خلف عن سلف حتى مطلع القرن العشرين حيث بلغ الضعف فيها والوهن ذروته وكان سقوطها وإلغائها بالكلية في سنة 1923م، وقيام جمهورية تركيا الحديثة على أنقاضها.⁽³⁾

وبعد أن رجع السلطان سليم إلى دار سلطنته بإستانبول، أصيب بمرض شديد وتقرح ما بين كتفيه، إلا أن ذلك لم يثنى عزيمة عن الجهاد فما برح أن شرع في الاستعداد للمسير نحو إيران لاستكمال حربه مع الرافضة الصفويين والقضاء على دعوتهم الفاسدة والمضلة التي أرقت البلاد والعباد وقتئذ،⁽⁴⁾ ونسبة لطول المسافة ومشقة المسير على الجيش الذي لم يرتح

= بحد السيف، وأدعن له الناس وأقروا له بالطاعة وبايعوه على ذلك، صار إماماً يحرم قتاله والخروج عليه، وقد ضرب مثلاً بعد بخبر عبد الملك بن مروان عندما خرج على عبدالله بن الزبير وقتله وقتله، فاستولى على البلاد واذعنت له العباد، وبايعوه طوعاً وكرهاً بالإمامة، فصار إماماً يحرم الخروج عليه، وذلك لما في الخروج من تشيت لوحدة المسلمين، وإراقة لدمائهم وإضاعة أموالهم وغير ذلك من المهالك، وذلك بناءً على ماورد في السنة النبوية الشريفة، أن من خرج على الأمة وهم جميع، فاضربوا عنقه بالسيف كائناً من كان». أبو الفرج عبدالرحمن بن محمد المقدسي، الشرح الكبير على متن المقنع، ج 10، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، بيروت، 1983م، ص 53.

(1) وقد أورد جُلهم نفسه الرواية، التي ذكرها محمد أنيس والتي تقول بأنه لم يشار إلى السلاطين العثمانيين قط بلقب الخلافة ولم يُخاطبوا بها بشكل رسمي، إلا في معاهدة كوجوك كاينارجا سنة 1774م، والتي استولت بمقتضاها روسيا على بلاد القرم، بيد أنها قد حفظت للخليفة العثماني السيادة المعنوية على مسلمي القرم وامنحته حق تعيين القضاة ومفتي البلاد. مرجع سابق، ص 74/117.

(2) الشناوي: مرجع سابق، ج 1، ص 26-25. ولعله لم يكن فتحاً بالمفهوم التاريخي بيد أنه لم يكن احتلالاً كما يزعم الكثير من أشباه المثقفين وأصحاب النزاعات القومية، لاسيما أن بلاد الشام ومصر دُور إسلام منذ وقت مبكر، بيد أن حُكامها من المماليك آنئذ قد طغوا وتجبروا وأفسدوا في البلاد وظلموا العباد حتى ضيق بهم ذرعاً فاستنجدوا بالعثمانيين، فأغاثوهم وضموا تلك البلاد تحت لوائهم لإقامة العدل بين الناس وتحقيق وحدة الأمة الإسلامية، ولكن لكل شيء إذا ماتم نقصان، فالدولة العثمانية مثل بقية الدولة بدأت قويةً فتيه ثم دخلت في حالة من الاستقرار والرفاه، ثم شاخت واعتلتها حالة من الضعف والوهن، وهنا ظهرت تلك الحركات القومية والنزعات العنصرية التي فشت في المجتمعات الإسلامية داخل الدولة العثمانية آنئذ، أمثال الطورنية والعروبية والكردية وغيرها، وكان ذلك نتيجة لضعف الوازع الديني في نفوس الناس والتمسك بالقومية المنتنة التي كانت سبباً في شتات شمل الأمة وسقوط دولة الخلافة من بعد.

(3) Akgündüz ve Öztürk; g.a.e, s143.

(4) فريد بك: مرجع سابق، ص 196-197.

منذ سنوات عرض عليه كبار القادة والأمراء تأجيل المسير إلى إيران وفتح جزيرة رودس عوضاً عن ذلك، حيث كان فرسان القديس يوحنا وعساكر الأسبان قد اتخذوا منها قاعدة عسكرية يمارسون من خلالها القرصنة البحرية على سفن المسلمين، وأنهم قد قتلوا ونهبوا وأسروا جمًّا غفيراً من الحُجاج والتجار المسلمين وكان ذلك في سنة 1519م، فلما علم السلطان ياووز سليم بذلك أمر بإعداد العدة والعتاد وتحامل على نفسه وخرج على رأس الجيش بنفسه وفي أثناء الطريق أشد عليه المرض حتى عجز عن مواصلة المسير،⁽¹⁾ فألغيت الحملة ومكث لعدة أيام يتداوى في معسكره حتى فاضت روحه إلى بارئها في التاسع من شهر شوال 926هـ الموافق للثاني والعشرين من شهر أيلول من سنة 1520م،⁽²⁾ بعد حكم دام لثمانية أعوام وبضع شهور،⁽³⁾ وعلى الرغم من قصر مدة حكمه إلا أنه قد تمكن خلالها من إنجاز الكثير من الأعمال التي كان يسعى وراءها والتي كان على رأسها جمع شتات الأمة الإسلامية وتحقيق وحدتها والقضاء على الدعوات الهدامة وغيرها من الفتن والبدع، حيث عقد المسلمون عليه آمالهم من بعد الله سبحانه وتعالى في نصرهم وإنقاذهم من طغيان المفسدين من حكام المسلمين وخطر العدوان الصليبي الأسباني والبرتغالي، حيث استغاث به أهل السنة بإيران وكردستان من ظلم الرافضة الصفويين، وكذلك أهل الشام ومصر من استبداد وتعسف المماليك، وأهل الأندلس من اضطهاد الأسبان وحملات التنصير القسري، وكذلك فعل أهل الجزائر وغيرهم، فلم يتوانى السلطان ياووز سليم عن إغايتهم ومد يد العون إليهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وقد وفق بشكل كبير في تحقيق مشروعه الذي تبناه منذ أن تولى السلطنة وهو توحيد الأمة الإسلامية، حيث تمكن من جمع السواد الأعظم من البلدان الإسلامية تحت لواء دولته وبذلك أصبح أول خليفة على المسلمين من سلاطين بني

(1) وقد اختلف في وجهته وقيل أنه كان متجه نحو بلاد المجر، أما جزيرة رودس فلم يتم فتحها إلا في عهد خلفه وابنه السلطان القانوني. منجم باشي: مصدر سابق، ج2، ص696-681.

(2) وعندما بلغ خبر وفاته إلى خاير بك وإلى مصر، حزن حزناً شديداً وأمر الجميع بلبس السواد وأداء صلاة الغائب عليه في جميع جوامع القاهرة، أما بقية المماليك فقد صرحوا بفرحهم وسعادتهم وسرورهم لخبر وفاة السلطان سليم الذي أفنى سلطنتهم. ابن إياس: مصدر سابق، ج5، ص363-362.

(3) الوديناني: خلف بن دبلان بن خضر، الفتح العثماني لجزيرة رودس 1523 / 929م، سلسلة بحوث والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، 1997م، ص35.

عثمان، وبذلك تحولت دولتهم من سلطنة إسلامية فنية إلى خلافة إسلامية ودولة قوية امتد حكمها لأكثر من أربعة قرون من الزمان، وقد خلفه على السلطنة والخلافة من بعده ابنه الخليفة السلطان سليمان الملقب بالقانوني، الذي يُعد من أعظم وأقوى سلاطين المسلمين وخلافائهم على مر التاريخ.

* * *

الخاتمة

وفي ختام هذه الدراسة التي سلطت الضوء على الجوانب الأخلاقية والاجتماعية وأثرها في إضعاف وسقوط دولة المماليك الجراكسة إبان أواخر القرن الخامس عشر، نلاحظ أن ما رافق تلك الفترة من أزمات اقتصادية وسياسية وفتن دينية واجتماعية داخلية أثقلت كاهل الأمة الاسلامية وزلزلت أركانها زلزلاً شديداً، وأفقدتها الكثير من مكانتها في الريادة العالمية التي كانت تصدرها لقرون طويلة، ترجع إلى قصور في عنصر الأخلاق وهو بحر واسع ليس كما حصره البعض فيما يتعلق بمسألة العلاقات الجنسية غير المشروعة أو ما شابه ذلك، وإنما لكل نشاط أخلاقيات وضوابط لا يستقيم بدونها، في السلم والحرب وكل ضروب الحياة ومجالاتها، كما أن مبدأ العصبية والنزعات الطائفية والعرقية والقومية هو سلاح ذو حدين في قيام الدول وسقوطها، حيث يكون في البدء مصدر قوة ومنعة وما يلبث أن يتحول إلى مصدر استبداد ثم نزاع وإضعاف وهدم، والدول شبيهة بالبشر في دورة حياتها، فهي تشقى كما يشقى الأنام وتساعد، حيث تنشأ وتشب في عنفوان وقوة إبان بداياتها، ثم يحدث لها نوعٌ من الاستقرار والرغد في مراحلها الوسطى، وتليها حالةٌ من الرفاهية والترف عند بلوغها حد الذروة من الكامل، وهنا تظهر بوادر الإنحلال والإضمحلال، التي لا تكاد تخلو من مظاهر الفساد الأخلاقي الذي لا يبرح يفشو في كافة مفاصل الدولة والمجتمع، فتتردى في دركات الضعف والنقصان، ثم السقوط والزوال، والتاريخ الإسلامي زاخر بالأمثلة والنماذج التي فيها العبر فهل من مُدكر؟!.

ويمكننا إجمالاً ذكر أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة بشكل عام في الآتي، فعلى الرغم من تمكن الرعيل الأول من سلاطين المماليك البحرية من إحداث صحوة في الأمة الإسلامية وإحياء اسم الخلافة العباسية ونقل مركزيتها إلى القاهرة، إلا أن تلك الصحوة لم تدم طويلاً وذلك لأسباب عديدة أهمها انحراف اللاحقين منهم عن قيم ومبادئ أسلافهم، لاسيما بعد أن استشرى الفساد الأخلاقي في الطبقة الحاكمة والعلماء والقضاة فضلاً عن عوام الناس، علاوة على انعزال السلاطين؛ بل طبقة المماليك بأكملها، واستنكافهم وعدم

اندماجهم مع الرعية، بالإضافة إلى حاجز اللغة حيث كان السواد الأعظم من سلاطينهم لا يجيدون العربية، فضلاً عن تخلف دولتهم عسكرياً بسبب استكبارهم واستنكافهم عن مواكبة التطورات العالمية في المجال العسكري، وتمسكهم بمبادئ الفروسية القديمة واستخدام الأسلحة البيضاء التقليدية، وذلك مما أحدث حالة ضعف وتفكك في دولة المماليك الجراكسة بشكل خاص، وانتكاسة عامة وفتور في الأمة الإسلامية، فبينما كان هذا حال المسلمين في المشرق كان الغرب الأوروبي آنئذ في حالة من النشاط والسعي وراء التوسع والانفتاح المعرفي والاقتصادي، لاسيما بعد استيلائهم على آخر معاقل المسلمين بالأندلس والتنكيل بهم وتنصير بعضهم قهراً وتهجير الآخرين والاستيلاء على ثرواتهم واستخدامهما في تمويل حملات الكشوف الجغرافية واجتياح البلاد الإسلامية الساحلية من المغرب وحتى الهند بل وتهديد الحرمين الشريفين نفسها لأكثر من مرة، بيد أن العالم الإسلامي لم يكن في حالة ضعف وقتئذ، إنما هو وهن النفوس وفساد أخلاق الحكام وتصارعهم على السلطة، لاسيما المماليك والصفويين وحكام دويلات المغرب الإسلامي التي كانت عاجزة عن حماية نفسها أمام المد البرتغالي الإسباني، أما العثمانيين فعلى الرغم من أن دولتهم كانت في أوج قوتها وهمتها في الجهاد، بيد أنها كانت محاطة بالأعداء من كل جانب كما أنها لم تخلوا من الفتن والمؤامرات الداخلية علاوة على تواطؤ المماليك والصفويين ضدهم، ولكن على الرغم من كل ذلك قد سعى العثمانيون وعملوا بجهد في مساعدة أهل الأندلس وإنقاذهم من بطش الإسبان وترحيلهم إلى شمال أفريقيا وأراضي الدولة العثمانية بالرومي والأناضول، عن طريق القوات البحرية العثمانية.

وكان لتلك الأحداث دور كبير في تحول أنظار الأمة من المماليك إلى العثمانيين، خصوصاً بعد أن تبنى السلطان سليم الأول فكرة الجامعة والوحدة الإسلامية، حيث كان خلفاء بني العباس لا يملكون من الخلافة سوى اللقب، بل إنهم لا يملكون الحرية في اتخاذ قراراتهم الشخصية خلال حياتهم اليومية، أما قضية تحول الخلافة منهم إلى العثمانيين فقد تباينت الآراء وكثرت الأقاويل في ذلك مؤخراً، بيد أن ذلك ليس له أثر كبير في الحقائق التاريخية، حيث أن المتوكل على الله آخر خلفاء بني العباسي لم يكن يملك أمر نفسه، فضلاً عن أن

يملك الحق في تقليد الخلافة أو منحها ونزعها كيفما شاء، وإن كان السلطان سليم الأول قد أخذها بحد السيف فهو لم يبتدع شيئاً فقد سبقه إلى ذلك العباسيون أنفسهم ومن قبل بني أمية في تولي الخلافة وإمامة المسلمين بحد السيف، وخلاصة القول أن لكل دولة من الدول الإسلامية الكبرى التي وليت أمر الخلافة وشؤون الأمة الإسلامية، لها ما لها وعليها ما عليها بما فيهم المماليك والعثمانيين، وإنما لم نُوقِ النقص حتى نطالب بكمال الأولين، وقد يتوهم البعض بأننا من المتعصبين إلى العثمانيين دون المماليك، لكن ما يجب أن يُتنبه إليه هو أن الفترة التاريخية التي تناولناها في دراستنا هذه تمثل فترة اضمحلال دولة المماليك بينما كانت دولة آل عثمان في أوج قوتها وعظمتها وتنسبها لذروة الجهاد والدفاع عن الأمة الإسلامية، وإلاَّ فإنَّ نهايتها لم تكن بأفضل حالٍ من دولة المماليك وإن اختلفت الأسباب، كما لا ننسى أنَّ المهم من دراسة التاريخ أخذ العظة والعبرة، واستنباط الحقائق والمعاني المفيدة التي نستعين بها على استقراء الواقع لبناء مستقبل مشرق ترتقي به الأمة الإسلامية مراتب المجد، وتعود إلى سيرتها الأولى في الريادة العالمية، وما ذلك على الله ببعيد.

* * *

ثبت المصادر والمراجع

القرآن الكريم والسنة النبوية:

المصادر العربية والمعرّبة:

- 1 - الأبشهي: شهاب الدين محمد بن أحمد، المستطرف في كل فن مستظرف، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1992م.
- 2 - ابن أبي الدنيا: أبي بكر عبدالله بن محمد، العقوبات الإلهية للأفراد والجماعات والأمم، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، 1996م.
- 3 - ابن أبي السرور البكري: التحفة البهية في تملك آل عثمان الديار المصرية، تحقيق عبدالرحيم عبدالرحمن، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2005م.
- 4 - المنح الرحمانية في الدولة العثمانية، تحقيق وتقديم ليل الصباغ، دار البشائر، بيروت، 1995م.
- 5 - ابن أبي حاتم: الإمام الحافظ عبدالرحمن بن محمد بن إدريس الرازي، تفسير القرآن العظيم، مكتبة مصطفى نزار الباز، الرياض، 1997م.
- 6 - ابن أبي دينار: أبو عبدالله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، المكتبة العتيقة، تونس، 1967م.
- 7 - ابن آجا: أبو الشفاء محمد بن محمود بن خليل الحلبي، العراك بين الماليك والعثمانيين الأتراك «مع رحلة الأمير يشبك من مهدي الدوادار»، صنعه محمد أحمد دهمان، دار الفكر، دمشق، 1968م.
- 8 - ابن الأخوة: أبو زيد ضياء الدين محمد بن محمد بن أحمد القرشي، معالم القرية في طلب الحسبة، تحقيق محمد محمود شعبات وصديق المطيعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1976م.

- 9 -، معالم القرية في معالم الحسبة، دار الفنون، كمبرج، د.ت.
- 10 - ابن الجوزي: أبو الفرج جمال الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي، صفوة الصفوة، تحقيق أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، 2000م.
- 11 -، المنتظم في تاريخ ملوك الأمم، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992م.
- 12 - ابن الجيعان: أبوزكريا شرف الدين يحيى بن شاكر بن عبدالغني، القول المستظرف في سفر الملك الأشرف قايتباي، تقديم وتحقيق وتعليق محمد زينهم، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، 2006م.
- 13 - ابن الحاج: أبو عبدالله محمد بن محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي، المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على بعض البدع والعوائد، مكتبة دار التراث، القاهرة، د.ت.
- 14 - ابن الحمصي: شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الأنصاري، حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران، تحقيق عبدالعزيز فياض حرفوش، دار النفائس، بيروت، 2000م.
- 15 - ابن الشحنة: أبي الفضل محب الدين محمد الحلبي الحنفي، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تقديم عبدالله محمد الدرويش، دار الكتاب العربي، دمشق، 1984م.
- 16 - ابن العماد: أبو الفلاح عبدالحفي بن أحمد بن محمد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار ابن كثير، دمشق، 1986م.
- 17 - ابن الفرات: ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم بن الحسن، تاريخ ابن الفرات، تحقيق قسطنطين زريق، المطبعة الأميركانية، بيروت، 1909م.
- 18 - ابن القيم: شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن قيم الجوزية الدمشقي، بدائع التفسير الجامع لما فسرہ الإمام ابن قيم الجوزية، دار ابن الجوزي، الدمام، 1427هـ.

- 19 - ابن الوردي: أبي حفص زين الدين عمر بن مظفر بن أبي الفوارس، تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العملية، بيروت، بيروت، 1996م.
- 20 - ابن الوردي: سراج الدين أبو حفص عمر بن المظفر بن الوردي البكري القرشي، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، تحقيق أنور محمود زناقي، مكتبة الثقافة الإسلامية، القاهرة، 2008م.
- 21 - ابن إياس: محمد بن أحمد الحنفي، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، 1975م.
- 22 - ابن أبيك الدواداري: أبو بكر بن عبدالله، كنز الدرر وجامع الغرر، ج8، مكتبة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، 1971م.
- 23 - ابن بطوطة: أبو عبدالله شمس الدين محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار « رحلة ابن بطوطة »، تحقيق وتقديم عبدالمهدي التازي، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1996م.
- 24 - ابن تغري بردي: أبوالمحسن جمال الدين يوسف الأتابكي، حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق محمد كمال الدين، عالم الكتب، بيروت، 1990م.
- 25 -، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، القاهرة، 1963م.
- 26 -، الدليل الشافي على المنهل الصافي، ط2، تحقيق فهيم محمد شلتوت، مطبعة القاهرة، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1998م.
- 27 - ابن تيمية: أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن عبدالله الدمشقي الحنبلي، الإستقامة، مطبعة جامعة الإمام محمد بن سعود، المدينة المنورة، 1403هـ.
- 28 -، مجموعة فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية، ط3، تحقيق عامر الجزائر وأنور الباز، دار الوفاء، القاهرة، 2005م.

- 29 - ابن حبان: أبي حاتم محمد البستي، روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- 30 - ابن حبيب: الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر، درة الأسلاك في دولة الأتراك، تحقيق محمد محمد أمين، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2014م.
- 31 -، تذكرة النبوة في أيام المنصور وبنيه، تحقيق محمد أمين، مراجعة سعيد عبدالفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1982م.
- 32 - ابن حجر: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني، إنباء الغمر بأنباء العصر، ج1، تحقيق وتعليق حسن حبشي، وزارة الأوقاف - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1998م.
- 33 -، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، 1379هـ.
- 34 - ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي، المحلى بالآثار، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م.
- 35 -، الأخلاق والسيرة في مداواة النفوس، دار ابن الجوزي، الرياض، 1434هـ.
- 36 - ابن خلدون: أبو زيد ولي الدين عبدالرحمن بن محمد بن محمد الحضرمي الإشبيلي، مقدمة ابن خلدون، دار بن يعرب، دمشق، 2004م.
- 37 -، تاريخ ابن خلدون العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج5، دار الفكر، بيروت، 2000م.
- 38 -، شفاء السائل وتهذيب المسائل، تحقيق: محمد مطيع الحافظ، دار الفكر، دمشق، 1996م.

- 39 - ابن دانيال: شمس الدين محمد بن دانيال بن يوسف الخزاعي الموصلية، خيال الظل وتمثيلات ابن دانيال، تحقيق: إبراهيم حمادة- المؤسسة المصرية العامة، 1961م، ص 213-212.
- 40 - ابن دقماق: ابن دقماق: صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدير العلائي، نزهة الأنام في تاريخ الإسلام، تحقيق سمير طيارة، المكتبة العصرية، بيروت، 1999م.
- 41 -، الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، تحقيق محمد كمال الدين عزالدين، عالم الكتب، بيروت، 1985م.
- 42 - ابن زنبيل: الشيخ أحمد بن أبي الحسن بن علي الرمال، آخرة الممالك «واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني»، تحقيق: عبدالمنعم عامر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1998م.
- 43 - ابن سباط: حمزه بن أحمد بن عمر المغربي، صدق الأخبار تاريخ «ابن سباط»، جروس برس، طرابلس، 1993م.
- 44 - ابن شاهين: غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، مكتبة المثنى، بغداد، 1963م.
- 45 - ابن صرصري: محمد بن محمد بن أحمد، الدرّة المضيئة في أخبار الدولة الظاهرية، تحقيق عارف أحمد عبدالغني، دار كنان، دمشق، 2014م.
- 46 - ابن طولون: شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الصالحي، أعلام الوري بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى «تاريخ الشام من قيام دولة المماليك في مصر إلى صدر العهد العثماني»، تحقيق عبدالعظيم حامد خطاب، مطبعة عين شمس، القاهرة، 1973م.
- 47 -، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م.
- 48 -، نقد الطالب لزغل المناصب، تحقيق محمد أحمد دهمان وآخرون، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1992م.

- 49 - ابن عبدالحكم: أبي القاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالحكم، فتوح مصر وأخبارها، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2004م.
- 50 - ابن عربشاه: أبو محمد أحمد بنين محمد، عجائب المقدور في أخبار تيمور، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2011م.
- 51 - ابن عساكر: أبو القاسم ثقة الدين علي بن الحسن بن هبة الله، تاريخ مدينة دمشق، دار الفكر، دمشق، 1995م.
- 52 - ابن قاضي شهبة: أبو الفضل تقي الدين أبو بكر بن أحمد بن محمد الأسدي، الإعلام بتاريخ أهل الإسلام، دار الكتب المصرية، القاهرة، د.ت.
- 53 -، تاريخ ابن قاضي شهبة، ج4، تحقيق عدنان درويش، المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق والحفان والجابي للطباعة والنشر، دمشق، 1997م.
- 54 - ابن قتيبة الدينوري: أبو محمد عبدالله بن مسلم، غريب الحديث، مطبعة العاني، بغداد، 1397هـ.
- 55 - ابن قدامة: أبو الفرج عبدالرحمن بن محمد المقدسي، الشرح الكبير على متن المنقح، ج10، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، بيروت، 1983م.
- 56 - ابن قيم الجوزية: شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي، إعلام الموقعين عن رب العالمين، ج3، دار الكتب العلمية، بيروت، 1991م.
- 57 -، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1996م.
- 58 -، إغاثة اللفهان في مصايد الشيطان، تحقيق محمد عزيز ومصطفى بن سعيد إيتيم، مجمع الفقه الإسلامي، جدة، 1432هـ.
- 59 - ابن كثير: أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم «تفسير ابن كثير»، ط2، دار طيبة، الرياض، 1999م.

- 60 -، البداية والنهاية، ج4، مكتبة المعارف، بيروت، 1990م.
- 61 - ابن كنان: محمد بن عيسى، حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين، تحقيق عباس صباغ، دار النفائس، بيروت، 1991م.
- 62 - ابن ماجه: أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د.ت.
- 63 - ابن مسكويه: أبو علي أحمد بن محمد، تهذيب الأخلاق في التربية، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985م.
- 64 - ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي الأنصاري، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 2010م.
- 65 - ابن هشام: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري، السيرة النبوية، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، 1990م.
- 66 - أبو نعيم: أحمد بن عبدالله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني، حلية الأولياء، دار الكتاب العربي، بيروت، 1974م.
- 67 - أبي داود: سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني، سنن أبي داود، دار الرسالة العالمية، بيروت، 2009م.
- 68 - أبي يوسف: يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد الأنصاري، الخراج، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، د.ت.
- 69 - الادفوي: أبو الفضل كمال الدين جعفر بن ثعلب الشافعي، الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد، تحقيق سعد محمد حسن، مطابع سجل العرب، القاهرة، 1966م.
- 70 - الألوسي: شهاب الدين محمود بن عبدالله الحسيني، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار الكتب العلمية، بيروت، 1415هـ.
- 71 - الإمام أحمد: أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، المسند، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2001م.

- 72 - الإمام البخاري: أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن المغيرة ، صحيح البخاري، دار ابن كثير، دمشق، 2002م.
- 73 -، صحيح الأدب المفرد، ط4، دار البشائر الإسلامية، بيروت، 1989م.
- 74 - الإمام مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1980م.
- 75 - الأنصاري: شرف الدين موسى بن يوسف، نزهة الخاطر وبهجة الناظر، تحقيق عدنان محمد إبراهيم، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1991م.
- 76 - أوليا جليبي: سياحتنامه مصر، ترجمة محمد علي عوني، مطبعة ادار الكتب المصرية، القاهرة، 2016م.
- 77 -، الرحلة إلى مصر والسودان والحبشة، تحقيق: محمد حرب، ترجمة: حسين مجيب المصري، دار الآفاق العربية، القاهرة، د.ت.
- 78 - الباباني: إسماعيل بن محمد أمين بن سليم البغدادي، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
- 79 - بجوي: إبراهيم أفندي، تاريخ بجوي، ترجمة ناصر عبدالرحيم حسين، المركز القومي للترجمة والنشر بالعربية، القاهرة، 2015م.
- 80 - البصروي: الشيخ علاء الدين علي بن يوسف بن أحمد الدمشقي، تاريخ البصروي « صفحات مجهولة من تاريخ دمشق في عصر المهاليك»، تحقيق أكرم حسن العلي، دار المأمون للتراث، بيروت، 1988م.
- 81 - البغوي: محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد الفراء الشافعي، معالم التنزيل في تفسير القرآن «تفسير البغوي»، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1420هـ.
- 82 - البهوتي: منصور بن يونس بن صلاح الدين بن حسن الحنبلي، شرح منتهى الإرادات، عالم الكتب، بيروت، 1993م.

- 83 - البيهقي: أبوبكر أحمد بن الحسين بن علي، السنن الكبرى، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م.
- 84 - الترمذي: أبو عيسى محمد بن سورة بن موسى بن الضحاك، سنن الترمذي، ط2، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1395هـ.
- 85 - التيفاشي: شهاب الدين أحمد، نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب، تحقيق جمال جمعة، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، 1992م.
- 86 - الجبرتي: عبدالرحمن بن حسن، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2003م.
- 87 - الجلالين: جلال الدين محمد بن أحمد المحلي و جلال الدين بن أبي بكر السيوطي، تفسير الجلالين، دار المعرفة، القاهرة، 1420هـ.
- 88 - الجوبري: جمال الدين عبدالرحيم بن عمر الدمشقي، المختار في كشف الأسرار، تحقيق مانويلاد نجلر، المكتبة العربية، برلين، 2006م.
- 89 - الحاكم: أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن حمدويه بن نعيم الضبي الطهماني النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002م.
- 90 - الحسيني: حسين بن محمد، نفائس المجالس السلطانية في حقائق الأسرار القرانية، دار الكتب المصرية، القاهرة، د.ت.
- 91 - الخطيب البغدادي: أبوبكر أحمد بن علي بن ثابت، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ط3، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1996م.
- 92 - الذهبي: أبو عبدالله شمس الدين محمد أحمد بن عثمان بن قايماز، تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي، دمشق، 1990م.
- 93 - الرازي: أبو عبدالله زين الدين محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الحنفي، مختار الصحاح، ط5، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت، 1999م.

- 94 - الراغب الاصفهاني: أبو القاسم الحسين محمد بن المفضل، الذريعة إلى مكارم الشريعة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1980م.
- 95 - الزبيدي: أبو الفيض محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2001م.
- 96 - السبكي: تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، معيد النعم ومبيد النقم، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1986م.
- 97 - السخاوي: أبو الخير شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد، التبر المسبوك في ذيل السلوك، تحقيق نجوى مصطفى كامل ولبية إبراهيم مصطفى، مطبعة دار الكتب الوثائقية القومية، القاهرة، 2002م.
- 98 -، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج6، دار الجيل، بيروت، 1992م.
- 99 -، وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، تحقيق معروف بشار عواد وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1995م.
- 100 - سرهنك: الميرالاي إسماعيل، حقائق الأخبار عن دول البحار، ج1، المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة، 1896م.
- 101 - السعدي: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان «تفسير السعدي»، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2000م.
- 102 - السمرقندي: أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم، بحر العلوم «تفسير السمرقندي»، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993م.
- 103 - السيوطي: الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد الخضير، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1986م.

- 104 -، مقامات السيوطي، تحقيق عبدالغفار البنداري ومحمد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، 1986م.
- 105 -، الجامع الكبير، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف، القاهرة، 2005م.
- 106 - الشاطبي: إبراهيم بن موسى اللخمي، الموافقات في أصول الشريعة، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004م.
- 107 - شرف خان البدليسي: شرف الدين بن شمس الدين، شرف نامه، ترجمة: محمد علي عوني ويحيى الخشاب، دار الزمان، دمشق، 2006م.
- 108 - الشرقاوي: الشيخ عبدالله بن حجازي بن إبراهيم الشافعي الأزهرى، تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الملوك والسلاطين، تحقيق وتعليق رحاب عبدالحميد القاري، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1996م.
- 109 - الشعراي: أبو محمد عبدالوهاب بن أحمد بن علي الحنفي، الطبقات الكبرى «لوائح الأنوار في طبقات الأخيار»، تحقيق أحمد عبدالرحيم السايح وتوفيق علي وهبة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2005م.
- 110 -، اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر، المطبعة الأزهرية، القاهرة، 1903م.
- 111 - الشهابي: الأمير حيدر أحمد، لبنان من بداية الدولة العثمانية إلى مطلع عهد الأمير بشير الشهابي الثاني، ج3، دار نظير عبود، بيروت، 1993م.
- 112 - الشوكاني: محمد بن علي بن محمد بن عبدالله، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، تحقيق محمد حسن حلاق، دار ابن كثير، دمشق، 2006م.
- 113 - الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيك بن عبدالله، الوافي بالوفيات، ج 10، تحقيق أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، 2000م.

- 114 - الصيرفي: علي بن داود الجوهري، إنباء الهصر بأنباء العصر، تحقيق وتقديم حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2002م.
- 115 - طاش كوبرى زاده: أبوالخير عصام الدين أحمد بن مصطفى بن خليل، الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، دار الكتاب العربي، بيروت، 1976م
- 116 - الطبراني: أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، المعجم الكبير، دار الصميعي، الرياض، 1994م.
- 117 - الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، جامع البيان في تأويل القرآن «تفسير الطبري»، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2000م.
- 118 - عاشق جلبي: أحمد بن علي زين العابدين بن محمد الرضوي، ذيل الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، تحقيق عبدالرازق بركات، دار الهداية، القاهرة، 2007م.
- 119 - العاصمي: عبد الملك بن حسين بن عبد الملك الشافعي المكي، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، ج4، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م.
- 120 - عبدالباسط الظاهري: زين الدين عبدالباسط بن خليل بن شاهين الظاهري الحنفي، نيل الأمل في ذيل الدول، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، 2002م.
- 121 - العبيدي: إبراهيم بن عامر علي المالكي، قلائد العقيان في مفاخر دولة آل عثمان، طبعه الفقير محمد أمين صاحب جريدة شمس الحقيقة ومحررها، القاهرة، 1317هـ.
- 122 - العز بن عبدالسلام: أبو محمد عز الدين عبدالعزيز بن عبدالسلام بن أبي القاسم بن الحسن الدمشقي، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، دار الكتب العلمية، بيروت، 1991م.
- 123 - العصامي: عبد الملك بن حسين بن عبد الملك المكي، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، تحقيق أحمد عبدالموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م.

- 124 - العمري: شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي، التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988م.
- 125 -، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق كامل الجبوري ومهدي النجم، دار الكتب العلمية، بيروت، 2010م.
- 126 - العيني: بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق محمد أمين، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2009م.
- 127 -، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، ط2، تحقيق فهيم محمد شلتوت، دار الكتب والوثائق العامة، القاهرة، 1998م.
- 128 - الغزالي: أبو حامد محمد بن محمد الطوسي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، 1963م.
- 129 - الغزي: أبي المكارم نجم الدين محمد بن محمد العامري، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، تحقيق خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.
- 130 - الغزي: كامل بن حسين بن محمد بن مصطفى البالي الحلبي، نهر الذهب في تاريخ حلب، دار القلم، حلب، 1419هـ.
- 131 - الفراهيدي: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد، كتاب العين، دار ومكتبة الهلال، القاهرة، د.ت.
- 132 - القرطبي: أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن «تفسير القرطبي»، ط2، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1964م.
- 133 - القرماني: أحمد بن يوسف، أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، تحقيق أحمد خطيط وفهيم سعد، عالم الكتب، بيروت، 1992م.
- 134 - القلقشندي: أبو العباس شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد، صبح الأعشى في كتابة الإنشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1922م.

- 135 - الكتبي: محمد بن شاكر، عيون التواريخ، تحقيق عفيف نايف حاطوم، دار الثقافة للنشر، بيروت، 1996م.
- 136 - الكرمي: زين الدين مرعي بن يوسف الحنبلي المقدسي، قلائد العقيان في فضائل آل عثمان، تحقيق إبراهيم فاعور الشرعة، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، الأردن، 2009م.
- 137 - الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد البصري، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، 1960م.
- 138 -، الحاوي الكبير، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999م.
- 139 - المحاسبي: أبي عبدالله الحارث بن أسد البصري، رسالة المسترشدين، دار السلام للطباعة والنشر، حلب، 1964م.
- 140 - المرادي: أبو الفضل محمد خليل بن علي بن محمد الحسيني، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، ط3، دار البشائر الاسلامية، بيروت، 1988م.
- 141 - مطراقي زاده: نصوح بن عبدالله أفندي السلاحي، رحلة مطراقي زاده، ترجمة صبحي ناظم توفيق، المجمع الثقافي دار الكتب الوطنية، أبوظبي، 2003م.
- 142 - المقرئزي: أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر الحسيني العبيدي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج2، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، 1997م.
- 143 -، الخطط المقرئزية، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م.
- 144 -، إغاثة الأمة بكشف الغمة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2007م.
- 145 - المليباري: زين الدين أحمد المعبري، تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين، تحقيق: محمد سعيد الطريحي، مؤسسة الوفاء، بيروت، 1985م.
- 146 - منجم باشي، أحمد بن لطف الله السلانكي الرومي، كتاب جامع الدول: قسم

- سلاطين آل عثمان إلى سنة ١٠٨٣ هـ، ج2، دراسة وتحقيق: غسان بن علي الرمّال، دار الشفق للطباعة والنشر، بيروت، 2009م.
- 147 - المنذري: أبو محمد زكي الدين عبدالعظيم بن عبد القوي بن عبدالله، الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، دار الكتب العلمية، بيروت، 1417هـ.
- 148 -، مختصر سنن أبي داود، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، 2010م.
- 149 - المنصوري: ركن الدين بيبرس الناصري الخطائي، مختار الأخبار، تحقيق: عبدالحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، د.ت.
- 150 - مؤلف مجهول: غزوات عروج وخير الدين، تحقيق نوالدين عبدالقادر، مطبعة الثعالبية، الجزائر، 1934م.
- 151 - النسفي: أبو البركات عبدالله بن أحمد بن محمود، مدارك التنزيل وحقائق التأويل «تفسير النسفي»، دار النفائس، بيروت، د.ت.
- 152 - النعيمي: عبدالقادر بن محمد الدمشقي، الدارس في تاريخ المدارس، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م.
- 153 - النهروالي: قطب الدين محمد بن أحمد، البرق اليماني في الفتح العثماني، تحقيق حمد الجاسر، دار اليمامة للبحث والدراسات والنشر، الرياض، 1967م.
- 154 -، الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، تحقيق هشام عبدالعزيز عطا، المكتبة التجارية مصطفى أحمد الباز، مكة المكرمة، 1996م.
- 155 - النووي: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ط2، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1392هـ.
- 156 - النويري: شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق مفيد قميحة وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004م.

157 - اليوسفي: عماد الدين موسى بن محمد بن يحيى، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق أحمد حطيط، عالم الكتاب، بيروت، 1986م.

المراجع العربية والمعرية:

1 - ابن حميد وآخرون: صالح بن عبدالله، موسوعة نظرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، د.ت.

2 - ابن عابدين: محمد أمين بن عمر، رد المحتار على الدر المختار، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

3 - ابن عاشور: محمد الطاهر بن محمد الطاهر التونسي، التحرير والتنوير، الدرا التونسية للنشر، تونس، 1984م.

4 - أبوغنيمة: زياد، جوانب مضيئة من تاريخ العثمانيين الأتراك، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الأردن/عمان، 1983م.

5 - أحمد: أحمد عبدالرزاق، البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1979م.

6 - الأسدي: محمد بن محمد بن خليل، التيسير والاعتبار والتحرير والأخبار فيما يجب من حسن التدبير والنصيحة في التصرف والاختيار، تحقيق عبدالقادر محمد عليان، دار الفكر العربي، القاهرة، 1976م.

7 - الاسكندراني: عمر والحسن سليم، تاريخ الفتح العثماني للشام إلى قبل الوقت الحاضر، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1996م.

8 - آشتور: إي، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة عبدالهادي عبلة، دار قتيبة، دمشق، 1985م.

9 - آق كوندوز وأوزتورك: أحمد وسعيد، الدولة العثمانية المجهولة، وقف البحوث العثمانية، استانبول، 2008م، ص218.

- 10 - الألباني: أبو عبدالله محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي الأشقودي، صحيح الجامع الصغير وزيادته «الفتح الكبير»، المكتب الإسلامي، بيروت، 1988م.
- 11 -، مختصر صحيح الإمام البخاري، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، 2002م.
- 12 - أمين: فوزي محمد، أدب العصر المملوكي الأول قضايا المجتمع والفن، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1993م.
- 13 - أمين: محمد محمد، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر «٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م»، دار النهضة العربية، القاهرة، 1980م.
- 14 - أنيس: محمد، الدولة العثمانية والشرق العربي ١٤١٥-١٩١٤م، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ت.
- 15 - أوزتونا: ييلماز، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: عدنان محمود سلمان، مؤسسة فيصل للتموين، إستانبول، 1988م.
- 16 -، موسوعة تاريخ الأمبراطورية العثمانية السياسي والعسكري والحضاري، ج1، ترجمة عدنان محمود سلمان، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2010م، ص202.
- 17 - إيفانوف: نيقولاي، الفتح العثماني للأقطار العربية «١٥١٦-١٥٧٤م»، ترجمة: يوسف عطا الله، دار الفارابي، بيروت، 1988م.
- 18 - إينالجيك: خليل، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ترجمة محمد الأرناؤوط، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2002م.
- 19 - برجايوي: سعيد أحمد، الأمبراطورية العثمانية تاريخها السياسي والعسكري، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1993م.
- 20 - البستاني: المعلم بطرس، محيط المحيط، مطابع تيبو برس، بيروت، 1987م.

- 21 - البطاوي: حسن أحمد، أهل العمارة في مصر عصر سلاطين المماليك، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2007م.
- 22 - بانيكار: ك.م، آسيا والسيطرة الغربية، ترجمة: عبدالعزيز توفيق جاويد، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
- 23 - بولقطيب: الحسين، جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، منشورات الزمن، الرباط، 2002م.
- 24 - بيات: فاضل، البلاد العربية في الوثائق العثمانية، مج 1، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، إستانبول، 2010م.
- 25 - بيهم: محمد جميل، فلسفة التاريخ العثماني، دار صادر، بيروت، 1935م.
- 26 - جابر: هدى، البشر والحجر القاهرة في القرن السادس عشر، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2010م.
- 27 - جاد المولى: محمد أحمد، الخلق الكامل، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004م.
- 28 - جودت باشا: أحمد بن الحاج إسماعيل آغا، تاريخ جودت، ترجمة عبدالقادر أفندي، مطبعة جريدة بيروت، بيروت، 1308هـ.
- 29 - حافظ إبراهيم: محمد، المؤلفات كاملة «الديوان»، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012م.
- 30 - الحجوي: حياة ناصر، أحوال العامة في حكم المماليك دراسة في الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، 1994م.
- 31 -، السلطة والمجتمع في سلطنة المماليك فترة حكم المماليك البحرية، لجنة التأليف والتعريب والنشر، الكويت، 1997م.
- 32 -، صور من الحضارة العربية الإسلامية في سلطنة المماليك، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، 1992م.

- 33 - حسن: علي إبراهيم، مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1947م.
- 34 - حسون: علي، تاريخ الدولة العثمانية، ط3، المكتب الإسلامي، بيروت، 1994م.
- 35 - حضرة عزتلوا يوسف بك آصاف: تاريخ سلاطين بني عثمان منذ نشأتهم حتى الآن، ترجمة: محمد زينهم محمد غرب، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995م.
- 36 - حلاق وصباغ: حسان وعباس، المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية، دار العلم للملايين، بيروت، 1999م.
- 37 - حلیم: إبراهيم بك، تاريخ العثمانية العلية « التحفة الحليمية »، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1988م.
- 38 - الحموي: أبو عبدالله شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الرومي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1995م.
- 39 - الحويري: محمود محمد، تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، 2001م.
- 40 - مصر في العصور والوسطى، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، 2002م.
- 41 - الحويقل: معجب بن معدي، حقوق الإنسان والإجراءات الأمنية، مكتبة جامعة نايف الأمنية، الرياض، 2006م.
- 42 - الخادم: سمير، السلاح الناري وأثره في الشرق في القرنين السادس عشر والسابع عشر، دار النهار للنشر، بيروت، 1980م.
- 43 - الخراز: خالد بن جمعة بن عثمان، موسوعة الأخلاق، مكتبة أهل الأثر للنشر والتوزيع، الكويت، 2009م.
- 44 - الخربوطلي: علي حسني، عروبة الخلافة الإسلامية، مؤسسة المطبوعات الحديثة، القاهرة، د.ت.

- 45 - خضير: عبدالكريم علوان، الوسيط في القانون الدولي العام، الدار العلمية الدولية ودار الثقافة للنشر، الأردن/ عمان، 2002م.
- 46 - خليفة: صلاح أحمد عيد، أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية، دار التيسير للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت.
- 47 - الخولي: أحمد وبديع جمعه، تاريخ الصفيين وحضارتهم، دار الرائد العربي، القاهرة، 1976م.
- 48 - الخوند: مسعود، الموسوعة التاريخية الجغرافية، ج5، دار رواد النهضة، بيروت، 1996م.
- 49 - الدجاني: برهان وهادية، الصراع الاسلامي الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1994م.
- 50 - دهمان: محمد أحمد، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر، دمشق، 1990م.
- 51 -، ولاية دمشق في عهد المماليك، دار الفكر المعاصر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1987م.
- 52 - الدويهي: اسطفان، تاريخ الأزمنة، تحقيق الأباتي بطرس فهد، دار لحد خاطر، بيروت، د.ت.
- 53 - رافق: عبدالكريم، العرب والعثمانيون 1516-1916م، مكتبة أطلس، دمشق، 1993م.
- 54 - رزق: علاء طه، عامة القاهرة في عصر سلاطين المماليك، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2003م.
- 55 - رمزي: محمد، القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة 1945م، القاهرة، الهيئة العامة، 1994م.

- 56 - زقلمة: أنور، المهاليك في مصر، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995م.
- 57 - زيان: حامد، الأزمات الاقتصادية والأوبئة في عصر سلاطين المهاليك، المكتبة العالمية، القاهرة، 1976م.
- 58 - زيد: محمد أسامة: منهل الظمان لإنصاف دولة آل عثمان، ج2، دار الفوائد، القاهرة، 2012م.
- 59 - زيدان: عبدالكريم، الفرد والدولة، مطبعة سلمان الأعظمي، بغداد، 1965م.
- 60 - سعيد: صبحي عبده، الإسلام وحقوق الإنسان، دار النهضة العربية، القاهرة، 1415هـ.
- 61 - سليمان: أحمد عبدالكريم، تيمورلنك ودولة المهاليك الجراكسة، دار النهضة العربية، القاهرة، 1985م.
- 62 - سنيوبوس: شارل، تاريخ حضارات العالم، تعريب: محمد كرد علي، العالمية للكتب والنشر، القاهرة، 2012م.
- 63 - الشافعي: عبدالعزيز بن صالح المحمود، عودة الصفويين، مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع، القاهرة، 2007م.
- 64 - شبارو: عصام محمد، الدولة العربية الإسلامية الأولى (١-٤١هـ / ٦٢٣-٦٦١م)، دار النهضة العربية، القاهرة، 1995م.
- 65 - الشربيني: بيومي إسماعيل، مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية «عصر سلاطين المهاليك»، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1997م.
- 66 - الشمراي: صالح بن علي، أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية، مكتبة المعارف، الرياض، 2010م.
- 67 - الشناوي: عبدالعزيز، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1987م.

- 68 - شوقي: أحمد بن علي بن أحمد شوقي بك، الشوقيات، دار العودة، بيروت، 1988م.
- 69 - الشيبني: كامل مصطفى، الصلة بين التصوف والتشيع (النزعات الصوفية في التشيع)، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، 1982م.
- 70 - الشيشاني: عبدالوهاب عبدالعزيز، حقوق الإنسان وحرياته الأساسية في النظام الإسلامي والنظم المعاصرة، مطابع الجمعية العلمية الملكية، عمان، 1980م.
- 71 - شيمش غيل: أحمد، سلسلة تاريخ بني عثمان «سلطان في خدمة الحرمين»، ترجمة: عبدالقادر عبدالملي ومهتاب محمد، مركز ثقافة للنشر والتوزيع، بيروت، 2017م.
- 72 - صباريني: غازي حسن، الوجيز في حقوق الإنسان وحرياته الأساسية، مكتبة دار الثقافة، عمان، 1997م.
- 73 - الصفدي: صلاح الدين خليل بن أبيك، الغيث المسجم في شرح لامية العجم، المطبع الأزهرية المصرية، القاهرة، د.ت.
- 74 - صليبا: جميل، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982م.
- 75 - صبري: مصطفى موقف العلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، ط2، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1981م.
- 76 - ضومط: أنطوان خليل، الدولة المملوكية، دار الحدائق، بيروت، 1985م.
- 77 - طرخان: إبراهيم علي، النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، مطبعة وزارة الثقافة والإرشاد، القاهرة، 1968م.
- 78 - مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، لجنة التأليف، القاهرة، 1949م.
- 79 - طقوش: محمد سهيل، تاريخ الدولة الصفوية في إيران، دار النفائس، بيروت، 2009م.
- 80 - تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، دار النفائس، بيروت، 1997م.

- 81 - الطنطاوي: علي، تعريف عام بدين الإسلام، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، 1989م.
- 82 - طوباش: عثمان نوري، العثمانيون رجالهم العظام ومؤسستهم الشاخحة، ترجمة محمد حرب، مطبعة دار الأرقم، إستانبول، 2016م.
- 83 - الطيار: علي بن عبدالرحمن، آداب الحرب في الفقه الإسلامي والقانون الدولي، مكتبة التوبة، الرياض، 1424هـ.
- 84 - عاشور: سعيد عبدالفتاح، الظاهر بيبرس، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، د.ت.
- 85 -، العصر المماليكي في مصر والشام، ط2، دار النهضة العربية، القاهرة، 1976م.
- 86 -، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة، 1992م.
- 87 -، مصر في عصر دولة المماليك البحرية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1959م.
- 88 -، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، القاهرة، 1994م.
- 89 - العبادي: أحمد مختار، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية، بيروت، 1986م.
- 90 - عباس إسماعيل، تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية، دار النفائس، بيروت، 1999م.
- 91 - عبدالتواب: عبدالرحمن محمود، قايتباي المحمودي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1987م.

- 92 - عبدالمؤمن: محمد السيد، العلاقات الأدبية بين الصفويين والعثمانيين في القرن العاشر الهجري، حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف، 1987م، ص 15-16.
- 93 - العثيمين: محمد بن صالح، مكارم الأخلاق، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1428هـ.
- 94 - العريني: السيد الباز، الممالك، دار النهضة العربية، بيروت، 1967م.
- 95 - العسيري: أحمد معمور، موجز التاريخ الإسلامي من عهد آدم عليه السلام إلى عصرنا الحاضر، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1996م.
- 96 - عطا: جمال إبراهيم محمد، الدعوات الهدامة في العصر العثماني، دار البشير للثقافة والعلوم، القاهرة، 2020م.
- 97 - العقيد: محمد أسد الله صفا، تمبولنك، دار النفائس، بيروت، 1990م.
- 98 - العليبي: أكرم حسن، دمشق بين الممالك والعثمانيين، الشركة المتحدة للطباعة والنشر، دمشق، 1982م.
- 99 - علي: عبداللطيف إبراهيم، دراسات تاريخية واثرية في وثائق من عصر الغوري، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، 1960م.
- 100 - العليمي: أبو اليمان القاضي مجير الدين بن عبدالرحمن بن محمد الحنبلي، الأئس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج2، المطبعة الحيدرية، النجف، 1968م.
- 101 - عمارة: محمد، الإسلام وحقوق الإنسان ضرورات لا حقوق، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1985م.
- 102 - الغزالي: محمد، حُلق المسلم، دار الريان للتراث، القاهرة، 1987م.
- 103 - غوانمة: يوسف درويش، تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، دار الحياة، الأردن/ عمان، 1982م.

- 104 - قاسم وعلي: قاسم عبده وعلي السيد، الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، د.ت.
- 105 - قاسم: عبده قاسم، النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دارالمعارف، القاهرة، 1978م.
- 106 -، عصر سلاطين المماليك، دار الشروق، القاهرة، 1994م.
- 107 -، أسواق مصر في عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، الزقازيق، 1976م.
- 108 -، عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي، عين للدراسات والبحوث والانسانية والاجتماعية، القاهرة، 1998م.
- 109 - القحطاني: سعيد بن علي بن وهف، الأخلاق في الإسلام في ضوء الكتاب والسنة، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2015م.
- 110 - قنسنك هوتسما وآخرون: موجز دائرة المعارف الإسلامية، نقلها إلى العربية محمد ثابت الفندي وآخرون، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الشارقة، 1998م.
- 111 - القيسي: مروان إبراهيم، موسوعة حقوق الإنسان في الإسلام، وفقية الأمير غازي للفكر القرآني، أربد، 2005م.
- 112 - الكاندهلوي: محمد يوسف بن إلياس بن محمد إسماعيل، حياة الصحابة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1999م.
- 113 - كايد قرعوش وآخرون: الأخلاق في الإسلام، دار المناهج، عمان، 2001م.
- 114 - الكرمي: زين الدين مرعي بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد المقدسي، نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين، دار النوادر، دمشق، د.ت، ص 155.
- 115 - كلوت بك: أنطوان بارتملي، لمحة عامة إلى مصر، ترجمة وتحرير: محمد مسعود، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2011م

- 116 - كيرك: جورج: موجز تاريخ الشرق الأوسط من ظهور الإسلام إلى الوقت الحاضر، ترجمة عمر الاسكندري وسليم حسن، مركز كتب الشرق الأوسط، القاهرة، د.ت.
- 117 - ل.أ.: ماير، الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتي، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1972م.
- 118 - لايدوس: ايرا، مدن الشام في العصر المملوكي، دار حسان، دمشق، 1985م.
- 119 - اللهيبي والحديدي: فتحي سالم حميدي وفائز علي بخيت، جوانب من الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في العصر المملوكي، جامعة الموصل، الموصل، 2014م.
- 120 - لين بول: ستانلي، الدول الإسلامية، ترجمة صبحي فرزات، مكتب الدراسات الإسلامية، دمشق، 1974م.
- 121 - متولي: أحمد فؤاد، الفتح العثماني للشام ومصر، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1995م.
- 122 - مجهول: تاريخ السلاطين المماليك (٦٩٠-٧٤١هـ)، نشر زيتر ستين، ليدن/ هولندا، 1919م.
- 123 - المحامي: محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، دار النفائس، بيروت، 1981م.
- 124 - محمد: نصار حسين، الموسوعة العربية الميسرة، المكتبة العصرية، بيروت، 2009م.
- 125 - محمود: جمال كمال، البحر الأحمر في الاستراتيجية العثمانية (١٥١٧-١٨٠١)، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2019م.
- 126 - مصطفى: أحمد عبدالرحيم، في أصول التاريخ العثماني، دار الشرق، القاهرة، 2003م.

- 127 - المهدي: حسين بن محمد الشوري في الشريعة الإسلامية، مكتبة المحامي، صنعاء، 2006م.
- 128 - مؤلف مجهول: ديوان أبي بكر الصديق وجمهرة خطبة ووصاياه ورسائله، تحقيق وشرح محمد شفيق البيطار، مطبوعات مجمع العربية السعيدة، صنعاء، 2020م.
- 129 - مومني: ماجد أحمد، الإسلام وحرية الرأي، مجلة الوعي الإسلامي، العدد 278، صفر 1408هـ.
- 130 - موير: السير وليم، تاريخ دولة المماليك بمصر، ترجمة: محمود عابدين وسليم حسن، مكتبة مدبولي، القاهرة، د.ت.
- 131 - نراوي: رأفت، أسعار السلع الغذائية والجوامك في مصر عصر سلاطين المماليك الجراكسة، الرياض، 1990م.
- 132 - النجار: محمد رجب، حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي، عالم المعرفة، الكويت، 1981م.
- 133 - هايد: ف، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمة: أحمد محمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1985م.
- 134 - هريدي: محمد عبداللطيف، الحروب العثمانية الفارسية وأثرها في إنحسار المد الإسلامي عن أوروبا، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1987م.
- 135 - الوقاد: محاسن، الطبقات في القاهرة المملوكية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1999م.
- 136 - ياغي: إسماعيل أحمد، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي، مكتبة العبيكان، الرياض، 1996م.
- 137 - يالجن: مقداد، التربية الأخلاقية الإسلامية، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، 1996م.

البحوث والرسائل الجامعية:

- 1 - أبو زيتون: منال أحمد إبراهيم، المجاعات في مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي «٦٤٨-٩٢٢هـ / ١٢٥٠-١٥١٦م»، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، كلية الآداب، 1998م.
- 2 - أبو الفرج: هيام صالح يحيى، مجتمع دمشق ودوره السياسي في عصر الدولة المملوكية الثانية (٧٨٤-٩٢٣هـ / ١٣٨٢م-١٥١٧م)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية- قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، 2000م.
- 3 - بن الذيب: قمر، العلاقات المملوكية العثمانية «٨٥٧-٩٢٣هـ / ١٤٥٣-١٥١٧م»، جامعة محمد بوضياف - المسيلة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، / قسم التاريخ، رسالة ماجستير غير منشورة، 2019م.
- 4 - الجبوري: أحمد ماجد عبدالله، أحوال العامة في مصر في عصر المماليك البرجية «٧٨٤-٩٢٣هـ / ١٣٨٢-١٥١٧م»، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة آل البيت / كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2015م.
- 5 - الجيلالي: العربي، السلطان سليم الأول وعصره ١٤٧٠-١٥٢٠م، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة مصطفى اسطنبولي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 2020م.
- 6 - الحازمي: نوف محمد، أثر الأوضاع الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية على الحياة العلمية في عهد المماليك الجراكسة في مصر «٧٨٤/٩٢٢هـ - ١٣٨٢/١٥١٧م»، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، 2010م.
- 7 - الحسيني: نجلاء مصباح عبدالعال، المكوس في مصر عصر سلاطين المماليك «٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م»، رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة المنصورة/ كلية الآداب، 2017م.

- 8 - خليل: سعيد صالح موسى، التجارة الداخلية في دولة المماليك الثانية «٧٨٤-٩٢٢هـ / ١٣٨٢-١٥١٦م»، رسالة دكتوراه غير منشورة، الجامعة الأردنية، كلية الدراسات العليا قسم العلوم الأنسانية والاجتماعية، 1992م.
- 9 - دارج: محمد، الدخول العثماني للجزائر دور الإخوة بربروس»، رسالة دكتوراه منشورة، جامعة مرمره، ترجمة محمد دراج، دار الأصاله، الجزائر، 2012م.
- 10 - الربيعي: صالح بن محمد، جامع الدول لمنجم باشي القسم الأول من دول القرن السادس وفروعها- دراسةً وتحقيقاً، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة القصيم / كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية/ قسم التاريخ، 2016م.
- 11 - الرمال: غسان بن علي، جامع الدول لمنجم باشي أحمد ده ده « قسم سلاطين آل عثمان إلى سنة ١٠٨٣هـ» دراسةً وتحقيقاً، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة أم القرى / كلية الشريعة والدراسات الإسلامية/ قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، 1997م.
- 12 - الرواشدة: آمنة محمود سليمان، حيوات المرأة في الدولة المملوكية في مصر والشام «٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م»، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، كلية الآداب، 1997م.
- 13 - الشروف: فواز شاكر أحمد، شعر الخمر في العصر المملوكي الأول «٦٤٨-٧٨٤هـ»، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الخليل / كلية الدراسات العليا / برنامج اللغة العربية وآدابها، 2013م.
- 14 - الشطي: بسام خضر، أثر التكافل والضمان الاجتماعي الخيري في الإستقرار الأمني، بحث منشور، جامعة الكويت / كلية الشريعة، د.ت.
- 15 - الشياب: حامد إبراهيم، العلاقات السياسية بين المماليك والجراكسة والعثمانيين في مصر وبلاد الشام «٧٨٤-٩٢٣ / ١٣٨٣-١٥١٧م»، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القديس يوسف / كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1995م.

- 16 - صلاح: محمد حمزه محمد، الكوارث الطبيعية في بلاد الشام ومصر «٤٩١-٩٢٣هـ/ ١٠٩٧-١٥١٧م»، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية غزة، كلية الآداب، 2009م.
- 17 - الطراونة: مبارك محمد سالم، الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في عصر المماليك الجراكسة «٧٨٤-٩٢٢هـ / ١٣٨٢-١٥١٦م»، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الموصل / كلية الآداب، 2003م.
- 18 - عبيد: إياد أحمد، الحرائق في مصر وبلاد الشام منذ بداية الدولة الطولونية حتى نهاية دولة المماليك «٢٤٥-٩٢٣هـ / ٨٦٨-١٥١٧م» رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية بغزة / كلية الآداب، 2015م.
- 19 - عرار: شفيق عواد عبدالكريم، سكان فلسطين في العهد المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بيرزيت، كلية الدراسات العليا برنامج التاريخ العربي الإسلامي، عام 2004م.
- 20 - الغامدي: عبدالعزيز بن صالح، الخلافة العباسية في مصر في عصر المماليك، رسالة دكتوراه غير منشورة، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، كلية الدعوة وأصول الدين، 1415هـ.
- 21 - كشمري: بتسام بنت محمد صالح بن عبدالرحمان، مكة المكرمة من بداية الحكم العثماني إلى نهاية القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي «١٢٩٩-١٥٦٦م»، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة تكريت، كلية التربية، 2013م.
- 22 - الكعبي: رشا فاضل كاظم، الحياة الاجتماعية لمصر في عصر المماليك، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الكوفة / كلية الآداب، 2014م.
- 23 - المسعود: فهد، حقوق غير المسلمين في الدولة الإسلامية وحمايتهم الجزائية وتطبيقاتها، رسالة ماجستير (غير منشورة)، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، 2003م.

- 24 - المعبدي: حنان عطية الله ضيف الله، التصوف وآثاره في تركيا إبان العصر العثماني (عرض ونقد)، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة أم القرى / كلية التربية، 1429هـ.
- 25 - نوري: مروان سالم، نظم الحكم والإدارة في مصر في العصر المملوكي، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة تكريت / كلية التربية للعلوم الإنسانية، 2014م.
- 26 - الهامي: محمد سعيد محمد، تطبيقات حقوق الإنسان في عهد الخلافة الراشدة، رسالة دكتوراه غير منشورة، الجامعة الأردنية، 2006م.
- 27 - الهنداوي: هنادي زعل مسعود، السلطان قانصوه الغوري ونهاية دولة المماليك «٩٠٦-٩٢٣هـ / ١٥٠٠-١٥١٧م»، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك - كلية الآداب، 2002م.
- 28 - الوائلي: طالب محيس حسن، إيران في عهد الشاه إسماعيل الأول «٩٠٦-٩٣٠ / ١٥٠١-١٥٢٤م»، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة بغداد / كلية الآداب، 2007م.
- 29 - المجلات والدوريات:
- 30 - بخيت: فائز علي، العلاقة بين الفقهاء سلاطين الدولة المملوكية، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية / جامعة الموصل، عدد 4، مج 12، 2013م.
- 31 - التميمي: عبد الجليل، أول رسالة من أهالي الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة ١٥١٩، المجلة التاريخية المغربية، ع6، تونس، 1976م.
- 32 - الحجبي: حياة ناصر، الأمير قوصون صورة حية لنظام الحكم في سلطنة المماليك، مجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، مج 8، العدد 32، 1988م.
- 33 - حطيط: أحمد، الكارمية وتجار الكارم في عصر المماليك، مجلة الفكر العربي، العدد 54، دار الانهاء العربي، بيروت، 1988م.
- 34 - دراج: أحمد السيد، الحسبة وأثرها في الحياة الاقتصادية في مصر المملوكية، المجلة التاريخية المصرية، مج 14، 1968م.

- 35- شافعي: لمياء أحمد عبدالله، الصرة العثمانية الموجهة إلى مكة والمدينة «٧٩١-١٣٨٩/١٥٦٦م»، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد 54، مكة المكرمة، 1433هـ.
- 36- شريف أوغلو: متين، جدلية الدين والسياسة في الدولة العثمانية وانعكاساتها على تجربتها الدستورية، *Doğu Anadolu Sosyal Bilimlerde Eğilimler*، Dergisi sayı 5 /12021s84.
- 37- صالح: أسماء جلال، العادات المصاحبة للأوبئة في مصر في عصر المماليك «٦٤٨هـ-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م»، المجلة العلمية بكلية العربية بأسسوط / جامعة الأزهر، العدد 39، ج2، 2020م.
- 38- صالحية: محمد عيسى، ظاهرة الطرح والرمي في الاقتصاد المملوكي، مجلة أبحاث اليرموك، مج9، العدد4، 1993م.
- 39- الطراونة: مبارك محمد، الأوبئة (الطواعين) وآثارها الاجتماعية في بلاد الشام في عصر المماليك الجراكسة «٧٨٤-٩٢٢هـ/١٣٨٢-١٥١٧م»، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، مج4، العدد3، 2010م.
- 40- عبدالجبوري وصالح: أحمد حسين ومخلف عبدالله، الصراع على وراثة العرش العثماني وأثره على إمارة دلغادر التركمانية «١٤٨١-١٥٢٢م»، مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية، المجلد8، العدد4، 2018م.
- 41- عبدالرحيم: رائد، رسالة «النبأ عن الوبا» لزين الدين بن الوردي ت749هـ دراسة نقدية، مجلة جامعة النجاح للأبحاث والعلوم الإنسانية، العدد5، مج24، 2010م.
- 42- عبدالرزاق: أحمد، عقد نكاح من عصر المماليك البحرية، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، العدد22، 1986م.
- 43- فايز: عبدالعزيز، تمردات الجلبان ومدلولاتها السياسية والاقتصادية في عهد

السلطان قايتباي، مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية، جامعة نواكشوط / كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 39، 2019م.

44 - المحيميد: علي بن صالح، إمارة بني قرمان ودورها السياسي في آسيا الصغرى «٦٥٤-٨٨٨هـ / ١٢٥٦-١٤٨٣م»، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة والدراسات الإسلامية، عدد 55، 1433هـ.

45 - مصلحي: سامية علي، البغاء في مصر في العصر المملوكي (٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م)، حوليات آداب عين شمس، كلية الآداب، العدد 33، 2005م.

46 - الوديناني: خلف بن دبلان بن خضر، الفتح العثماني لجزيرة رودس ٩٢٩ / ١٥٢٣م، سلسلة بحوث والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، 1997م، ص 35.

47 - يوسف: عماد عبدالعزيز، تمردات الانكشارية في الدولة العثمانية «١٤٨١-١٦٤٨م»، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية / جامعة الموصل، مج 9، ع 4، 2009م.

48 - يوسف: عماد عبدالعزيز، دور شيوخ الاسلام في اتخاذ القرار في الدولة العثمانية، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، جامعة الموصل، مج 6، ع 2، 2007م.

المخطوطات: EL Yazmaları

1 - Keşfi; Mehmed Çelebi, **Selimnâme**, Süleymaniye kütüphanesi, Ayasofya nr. 4188.

2 - Topkapı sarayı Müzesi Arşivi, nr.66716636/13/.E6185/11634.

3 - ابن سلوم: صالح، مخطوط غاية الإتقان في تدبير بدن الإنسان، نسخة ولي الدين، استانبول 2520.

4 - ابن سويدان: موسى بن يوسف، تواريخ ملوك الروم ومدة تملكهم من السنين، مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية، عمان، نسخة مصورة، مخطوط رقم 787.

- 5 - أحمد بن زيني: الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية، ج3، المكتبة الملكية، الرباط، رقم 2578/3، نسخة مصورة من مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، عمان، رقم 669.
- 6 - البدري: تقي الدين أبي التقى البدري الدمشقي القاهري، راحة الأرواح في الحشيش والراح، تحقيق ودراسة دانييلو مارينو، مخطوط، I. Lozano Un fragmento.
- 7 - برغوت: عبدالودود، جوانب اجتماعية من تاريخ دمشق في القرن الخامس عشر من مخطوطة أحمد بن طوق، المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، 1974م
- 8 - بن علي: حسين خوجه، بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ميكروفيلم رقم 13486.
- 9 - حيدر جلبي: روزنامه «سلطان سليمك إيران سفرنيه دائرة مخبرات»، مخطوط رقم R1955، مكتبة طوبقبو سرايي، استانبول.
- 10 - رضوان باشا زاده: عبدالله، تاريخ مصر، مخطوط بمكتبة بايزيد، استانبول، برقم 4971.
- 11 - الشعراني: أبوالمواهب عبدالوهاب بن أحمد بن علي الأنصاري، اليواقيت والجواهر في بيان الأكابر، مخطوطات جامعة الملك سعود، الرياض، مخطوط رقم 1652.
- 12 - الطرابلسي: نوفل بن نعمة الله بن جريس، كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليم مصر وبر الشام منذ افتتاحها الدولة العلية إلى أن امتازت مصر بالحكومة الوراثية وانتظمت بر الشام في سلك التنظيمات الخير، مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية، عمان، مخطوط رقم 717، نسخة مصورة.
- 13 - مُدرس زاده: علي كمال بن السيد محمد أمين، كمال الإنسان في معرفة آل عثمان، مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية المصرية، ميكروفيلم برقم 18898.

المصادر العثمانية: Osmanlıca Kaynaklar

- 1 - جودت باشا: أحمد، تاريخ جودت، مطبعة جريدة، بيروت، 1309هـ.
- 2 - خير الله أفندي: دولت عليّة عثمانية تاريخك، اوننجي جلد، Kütüphane ve Müzeler Müdürlüğü İstanbul.
- 3 - رضا نور: تورك تاريخي، جلد ثالث، عامره مطبعه سي، إستانبول، 1924م، ص 187.
- 4 - رفيق: أحمد، سلطان جم، اورخانيه مطبعة سي، استانبول، 1924م.
- 5 - سعد الدين أفندي: سعد الدين خواجه بن حسن جان، تاج التواريخ، ج2، عامره مطبعه سي، إستانبول، 1280هـ.
- 6 - صولاق زاده: محمد أفندي، صولاق زاده تاريخي، مطبعة محمود بك، إستانبول، 1297هـ.
- 7 - طه زاده داغستاني: مراد عمر فاروق بن محمد، تاريخ عثمانيده سياست ومدنيت اعتباريله حكمت اصليه تحريسنه تشبت «تاريخ أبو الفاروق»، ايكنجي جلد، مطبعة آمدني، 1328هـ.
- 8 - عاشق باشا زاده: أحمد درويش، عاشق باشا زاده تاريخي، عامره مطبعه سي، إستانبول، 1332هـ.
- 9 -: توارينخ آل عثمان، مطبعة عامره، استانبول، 1332هـ، ص-233 234.
- 10 - علي رشاد: قرون جديدة تاريخي، ج1، عامره مطبعة سي، إستانبول، 1332هـ.
- 11 - فون هامر: دولت عثمانية تاريخي، ج4، ترجمة محمد عطار، مطبعة دار الخلافة العليا، استانبول، 1335هـ.

- 12 - قره جلبي زاده: عبدالعزيز أفندي، روضة الأبرار المين بحقائق الأخبار، بولاق مطبعه سي، القاهرة، 1248هـ.
- 13 - مجهول: ياوز سلطان سليم واتحاد اسلام سياستي، مدحت باشا صنايع مكتبي مطبعه سي، استانبول، د.ت.
- 14 - هاهم ر: جوزيف فون، دولت عثمانية تاريخي، جلد ثالث، ترجمة محمد عطا، إستانبول، 1330هـ.

المصادر والراجع الفارسية: Farsça Kaynaklar

- 1 - الأستاذ آبادي: سيد حسن بن مرتضى حسني، أز شيخ صفي تاشاه صفا، انتشارات علمي، تهران، 1358هـ.
- 2 - خودش: تذكره شاه طهاسب « شرح وقائع واحوالات زانديكانيا شاه طهاسب صفوي»، برلين، 1924م.
- 3 - سرور: غلام، تاريخ شاه إسماعيل صفوي، ترجمة: محمد باقر آرام وعباسقلي غفاري فرد، تهران، 1995م.
- 4 - شيباني: مجير الدين شيباني، تشكيل شاهنشاهي صفويه، انتشارات داشكاه، تهران، 1967م.
- 5 - شيباني: نظام الدين مجير، سياست صلح ودوستي شاه إسماعيل صفوي با إمبراطوري عثماني، مجلة بررسيهاي تاريخي، شماره 5 سال سوم.
- 6 - طاهري: أبو القاسم، تاريخ سياسي واجتماعي إيران ازمرک تيمور تامرک شاه عباس، أول تهران، 1349هـ.
- 7 - فلسفي: نصر الله، جنک جالدران، دانشکده ادبيات مجله، تهران، شماره 2، سال اول، دی ماه 1964م.

- 8 -، تاريخ زندکانی شاه عباس عباس أول، ج1، تهران، خانه دانشاه، 1332هـ.
- 9 -، إيران وعلاقتها الخارجية في العصر الصفوي، ترجمة وتقديم: محمد فتحي الرئيس، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1989م.
- 10 - فوران: جان، مقاومت شکننده، تاريخ تحولات اجتماعي دار ايران، ترجمة: أحمد تدين، جاب بنجيم، تهران، 2005م.

المراجع التركية: Türkçe Kaynaklar

- 1 - Akgündüz ve Öztürk; Ahmed ve Said, Bilmeyen Osmanlı, Osmanlı Araştırmaları Vakfı, İstanbul, 2000.
- 2 - Akgündüz; Ahmed, Osmanlı Kanunnâmeleri ve Hukuki Tahlilleri, C.III, Osmanlı Araştırmaları Vakfı Yayınları, İstanbul, 2016.
- 3 - Altındağ; Şinasi, I.Selim, IA, C.10, İstanbul, 1966.
- 4 - Banarlı; Nihad Sami, Resimli Türk Edebiyatı Tarihi, Milili Eğitim Basımevi, İstanbul, 1971.
- 5 - Baysun; M.Cavit, "Cem" IA, (MEB), C.III, İstanbul, 1979.
- 6 -; Mehmet, Cem Sultan Hayatı ve Şiirleri, Ahmet Halit Kitabevi, İstanbul, 1946.
- 7 - Celalzâde; Mustafa, Selimnâme, Hazırlayan; Ahmet Uğur ve Mustafa Çuhadar, Kültür Bakanlığı Yayınları, İstanbul, 1990.
- 8 - Cenabi; Mustafa Efendi, El-'Aylemü'z-Zâhir Fî Ahvâli'l-Evâil Ve'l-Evâhir, Nuru Osmaniye, İstanbul,(t.y.) .

- 9 - Danişmend; İsmail Hamı, İzahlı Osmanlı Tarihi kronolojisi, Türkiye Yayınevi, İstanbul, 1955.
- 10 - Faruk Sümer; Yavuz Sultan Selim Halifeliği Devri Aldı mı? , Belleten, Vol. 56, no, 217, 1992.
- 11 - Feridun Bey; Mecmua-yı münşeat üs-Selâtin, Darüttıbbatil'âmirre, İstanbul, 1857.
- 12 - Franz Babinger; Osmanlı Tarih Yazıları ve Eserleri, Çeviren. Coşkun Üçak, Kültür Bakanlığı, Ankara, 1992.
- 13 - Göyünç; Nejat, XVI.Yüzyılda Mardin Sancağı, TTK Yay, Ankara, 1992.
- 14 - Haluk Öner; Yavuz Sultan Selim ve İttihâd-ı İslam Siyaseti, Türk Kültürü Dergisi,40, İstanbul, 2019.
- 15 - Harb; Muhammed Abdülhamid, I. Selim'in Suriye ve Mısır seferi hakkında İbn İlyas'da mevcut haberlerin Selimnamelerle mukayesesi (XVI. asır Osmanlı-Memlûk kaynakları hakkında bir tetkik), Doktora tezi, İstanbul Üniversitesi, Edebiyet Fakültesi, Tarihi Bölümü, 1980.
- 16 - Haydar Çelebi Ruznâmesi, Kervan Kitapçılık, İstanbul,1973.
- 17 - İnalçık; Halil, Bursa and the Commcere of the Levant, Jesh 3, 1690.
- 18 - , Osmanlı Tarihine Toplu Bir Bakış, Ankara Yeni Türkiye Yayınları,1999.

- 19 -, Osmanlı İmparatorluğu, II.cilt, Kronik Kitap, İstanbul, 2018.
- 20 - İsmail; Altınöz, Dulkadir Beylerbeyiliğinin Teşekkülü Ve Gelişmesi, İstanbul Üniversitesi, Sosyal Bilimler Enstitüsü, Yeniçağ Tarihi Bilim Dalı,1995.
- 21 - Karaçelebi-Zâde; Abdülazîz Eefendi, Ravzatü'l-Ebrar, Hüsrev Paşa Kitaplığı, Nr.397 Süleymaniye Ktb, İstanbul, 1238.
- 22 - Kays; Rümıysa, Yavuz Sultan Selim'in Gavri ile Eylediđi Cenk 1516-1517, Gazi Kitabevi, Ankara, 2021.
- 23 - Yavuz Sultan Selim'in Gavri ile Eylediđi Cenk 1516-1517, Gazi Kitabevi, Ankara,2021.
- 24 - Kazıcı; Ziya, Osmanlı Devletinde Din ve Hukuk, Marmara Üniversitesi İlahiyet Fakültesi, İstem, Yıl 1, Sayı 1, 2003.
- 25 - LA Kahwaji; Anas, Osmanlı Devleti ve İslam Halifeliđinin Şartları, Universal Journal Of Theology (UJTE), Volune; V, Issue,1, 2020.
- 26 - Mahmud Mısırı: Ahlakî Kriterler ve Rabbanî Âlim Hassasiyeti Açısından İlmî Emanet, FSM İlmî Araştırmalar İnsan ve Toplum Bilimleri Dergisi, Sayı/Number 4 Yıl/Year 2014 Güz/Autumn.
- 27 - Muslu; Cihan Yüksel, Osmanlılar ve Memluklar (İslam Dünyasında İmparatorluk Diplomasisi ve Rekabet, Çeviren: Zeynep Rona, Kitap Yayınevi, İstanbul 2016.

- 28 - Mustafa Cezar ve Midhat Sertoğlu; Mufassal Osmanlı Tarihi, İstanbul, 1958.
- 29 - Müneccimbaşı; Ahmed Dede Lütfullah Efendi Oğlu, Camiü'd-Düvel, II.cilt İnsan Yayınları, İstanbul, 1995.
- 30 - Namık Kemal; Osmanlı Tarihi, III. Cilt, Bilge Kültür Sanat, İstanbul, 2005.
- 31 - Rumlu; Hasan, Ahsenü't-Tevarih, çeviren; Mürsel Öztürk, Türk tarih kurumu, Ankara, 2020.
- 32 - Sakaoglu: Necdet, Sakaoglu: Necdet, Bu Mülkün Sultanları, Alfa Basım Yayım San, İstanbul, 2015.
- 33 - Seyfi; Seyfi; Ali Rıza, Büyük Osmanlı Denizcileri- Kemal Reis ve Baba Oruç, Çamlıca Basım Yayın, İstanbul, 2012.
- 34 - Söylemez; Faruk, Yavuz Sultan Selim'in Taht Mücadelesi, Kahramanmaraş Sütçü İmam Üniversitesi, Sosyal Bilimler Enstitüsü Dergesi, Sayı; 33 ,2012, S. 81-82.
- 35 - Şener; Aktürk, Osmanlı Devletinde Dini Çeşitlilik, Farklı Olan Neydi? Doğu Batı Dergisi,Doğubank Yayınları, 2010.
- 36 - Tansel; Tansel; Selahattin, Sultan II. Bayezit'in Siyasi Hayatı, TTK Yay, Ankara, 1966.
- 37 - Tekindağ; Şehaheddin, II. Bayezid Devrinde Çukurova'da Nüfuz Mücadelesi ve İlk Osmanlı Memluklu Savaşları "1485 – 1491", TTK Belleten, Ankara, 1967.

- 38 - Tursun Bey, Târîh-i Ebü'l-Feth, İstanbul Fetih Cemiyeti, 1977.
- 39 - Uğur; Ahmet, Uğur; Ahmet, Yavuz Sultan selim, Erziyes Üniversitesi Yayınları, Kayseri, 1989.
- 40 - Uzunçarşılı; İsmail Hakkı, Osmanlı Tarihi, Ankara, 1949.
- 41 - Uzunçraşılı ve Arkadaşları; Topkapı Sarayı Müzesi Osmanlı Saray Arşivi Kataloğu, Fermanlar, Ankara: TTK, 1985.
- 42 - Üçok; Bahriye, , Hamitoğulları Beyliği, Ankara Üniversitesi, İlahiyat Fakültesi Dergisi, Cilt; IV, Sayı I-Ii, 1955.
- 43 - Yinanç; Refet, Dulkadir Beyliği, TTK Yay, 1989.
- 44 - Zekeriya Kurşun; Osmanlı Devleti İdaresinde Hicaz, TDV İslâm Ansiklopedisi, 30, vols, İstanbul, 1988, vol.17.

المراجع الإنجليزية: English References

- 1 - Alsaedi: Bushra Naser Hashim, Political Diplomacy and Its Impact in Establishing Ottoman Powers in North Iraq (Idreas Albadlisi as a sample), Route Educational and Science Journal, Volume 5.13, December 2018.
- 2 - Brummett, Palmira; Ottoman sea power and Levantine diplomacy in the age of discovery, Suny, 1994.
- 3 - Chai, Har- EL; Struggle for domination in description of Asia Minor, Oxford, 1832.
- 4 - Chai, Har -El; Struggle for domination in the Middle East, CE.J. Brill, l'Eiden, New York, 1995.

- 5 - Eliot; Charles, Turkey in Europe, London, 1965.
- 6 - Gibbons: Herbert Adams, the Doundations of Ottoman Empire, London, 1968.
- 7 - Shai, Har-El: Struggle for Domination In the Middle East, Ce J. Beill, I Eiden, Newyork, 1995.
- 8 - Stanley Lane- Poole;A History of Egypt in the Middle Ages.
- 9 - Stripling; George.W.F. The Ottoman Tuks, and the Arabs, “1511-1574”, Urgana- Illinois, 1978.
- 10 - V. Parry; History of Ottoman Empire to 1730, Cambridge, D.n.
- 11 - Winler, Micheal; Egyptin Society under Ottoman Rule 1517-1798, London and New York, n.d.

* * *

السيرة الذاتية

أبو بكر علي مصطفى جلال الدين: أستاذ جامعي وباحث في مجال التاريخ والحضارة الإسلامية.

تاريخ الميلاد: 16, 10, 1993

سوداني الجنسية

عنوان البريد: binalialmajzobi@gmail.com

المؤهلات العلمية:

- 1 - حاصل على درجة بكالوريوس الشرف في الآداب والتربية / المرتبة الأولى / جامعة وادي النيل / كلية التربية / 2013م.
- 2 - حاصل على درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي بتقدير ممتاز / جامعة النيلين / كلية الآداب / 2017م.
- 3 - حاصل على درجة الدكتوراة في فلسفة التاريخ الإسلامي « العمارة والفنون الإسلامية» / جامعة النيلين / كلية الآداب / 2021م.
- 4 - حاصل على درجة الدكتوراة في التاريخ الأخلاقي والاجتماعي «في العصرين المملوكي والعثماني» / جامعة صباح الدين زعيم / إستانبول / 2024م.

الخبرات العملية:

- 1 - مساعد تدريس بقسم التاريخ كلية التربية / جامعة شندي 2016م - 2017م.
 - 2 - محاضر بقسم التاريخ كلية التربية / جامعة شندي 2017م وحتى الآن.
- عضو الجمعية التاريخية السودانية / 2019م.

- 3 - عضو الاتحاد العالمي للجامعات العربية والأجنبية / 2023م.
- 4 - عضو لجنة تحرير مجلة قراءات فكرية العالمية الدولية المحكمة، التي تصدر عن الاتحاد العالمي للجامعات العربية والأجنبية بالتعاون مع جامعة إييليا العالمية بالعراق / 2023م.

بعض الكتب والأبحاث العلمية المنشورة

- مظاهر العمارة المدنية وضوابطها إبان العصر الأموي.
- كتاب في طور الطباعة - دار الشروق.
- السودان تحت لواء الدولة العثمانية إبان عهد محمد علي باشا 1821-1849م.
- ورقة بحثية باللغة التركية
- ظهور التيار الشيعي الصفوي بمنطقة الأناضول وما حولها وأثره على الأمة والدول السنية الكبرى (1501 - 1517م).
- حياة المهاجرين والأنصار في المدينة المنورة بعد الهجرة النبوية الشريفة.
- مركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر / مجلة القلزم للدراسات التاريخية والحضارية، العدد التاسع.
- تجديد وبناء المدن في شمال افريقيا خلال العصر الأموي (41-132هـ / 661-750م).
- طراز الأزياء والملابس في المجتمع العباسي إبان القرنين الثاني والثالث الهجريين.
- بالاشتراك مع د. سلوى التجاني فضل جبر الله
- International Jordanian Journal ARYAM; Volume 3, ISSUE.
- تجديد وبناء المدن في الشام خلال العهد الأموي (41-132هـ / 661-750م).
- بالاشتراك مع د. عبد المنعم يوسف عبدالحفيظ / مجلة التأصيل.

- جامعة دنقلا، العدد الرابع.
- مقومات المجتمع المدني في الإسلام من خلال صحيفة المدينة (1 - 11هـ).
- مركز المجدد للبحوث والدراسات - إستانبول - 2021م.

* * *

فهرس المحتويات

7	مقدمة
9	الفصل الأول: مفهوم الأخلاق وحقوق الإنسان في الإسلام
9	1, 1 الأخلاق في الإسلام
9	1, 1, 1 تعريف الأخلاق
10	1, 1, 2 مفهوم الأخلاق في الإسلام
13	1, 2 مصادر الأخلاق في الإسلام
13	1, 2, 1 مصادر الأخلاق من القرآن الكريم
15	1, 2, 2 مصادر الأخلاق من السنة النبوية الشريفة
18	1, 2, 3 مصادر الأخلاق من أقوال علماء وأدباء المسلمين
22	1, 3 الأخلاق ومفهوم حقوق الإنسان في الإسلام إبان السلم والحرب
22	1, 3, 1 مفهوم حقوق الإنسان في المجتمع الإسلامي:
25	1, 3, 2 أساسيات حقوق الإنسان في المجتمع الإسلامي
41	1, 3, 3 أساسيات حقوق الإنسان في الإسلام إبان الحرب
48	الفصل الثاني: الأوضاع الأخلاقية والاجتماعية في أواخر عهد المماليك الجراكسة
48	2, 1 الطبقة وأثرها في التكوين الأخلاقي لطبقات المجتمع إبان العصر المملوكي
51	2, 2 الطبقات المكونة للمجتمع إبان العصر المملوكي أقسامها وسماتها الأخلاقية
52	2, 2, 1 طبقة المماليك
75	2, 2, 2 الطبقة الوسطى (المعممون أرباب الأقالام وكبار التجار)

- 84..... 2, 2, 3 الطبقة الدنيا (الشعب أو العامة)
- الفصل الثالث: الأزمات الأخلاقية والاجتماعية وأثرها في إضعاف وزوال
- 93..... دولة المماليك الجراكسة
- 3, 1 الجوائح والكوارث الطبيعية والأزمات المعيشية وأثرها في أخلاق المجتمع
- 93..... والطبقة الحاكمة أو آخر عهد الجراكسة
- 3, 1, 1 مظاهر الفساد الأخلاقي والاجتماعي إبان الجوائح والأزمات وموقف
- 98..... الدولة من ذلك
- 3, 1, 2 مظاهر الفساد الأخلاقي في المعاملات التجارية وظهور
- 103..... الغلاء والمجاعات
- 112..... 3, 2 ظواهر الفساد الأخلاقي والمجون والخلاعة والبدع في المجتمع المملوكي
- 112..... 3, 2, 1 ظاهرة بيوت البغاء والمغاني
- 117..... 3, 2, 2 ظاهرة اللواط
- 122..... 3, 2, 3 ظاهرة اللصومية
- 124..... 3, 2, 4 ظاهرة السخرة
- 127..... 3, 2, 5 ظاهرة البذل والبرطلة
- 133..... 3, 2, 6 ظاهرة انتشار البدع والخرافات والادعاءات وضعف الوازع الديني
- 143..... 3, 2, 7 ظاهرة تداول وتعاطي الخمر والحشيش
- 3, 2 الفساد الأخلاقي ودوره في إثارة الفتن والاضطرابات الداخلية أو آخر
- 151..... عهد المماليك الجراكسة
- 151..... 3, 3, 1 فساد العُربان وحركات عصيانهم وتمردهم على الدولة

- 2, 3, 3 فساد طائفة المماليك الجلبان وحركات تمردهم وأثرها في المجتمع وإضعاف وتفكك الدولة داخلياً.....153
- الفصل الرابع: الأوضاع الاجتماعية والأخلاقية في الأناضول وأثرها في العلاقات العثمانية المملوكية أو آخر عهد الجراكسة.....159
- 1, 4 التركيبة الاجتماعية في الأناضول وطبيعة تكوينها الأخلاقي والسياسي وأثرها في بوادر العلاقات العثمانية المملوكية.....159
- 1, 1, 4 العثمانيون طبيعة تكوينهم الاجتماعي والأخلاقي وأثرها في سياستهم لتوحيد مجتمع الأناضول.....162
- 2, 4 العوامل الأخلاقية والاجتماعية وأثرها في العلاقات المملوكية العثمانية.....167
- 1, 2, 4 نشأة العلاقات المملوكية العثمانية وبوادر الخلافات والنزاعات الحدودية....167
- 2, 2, 4 اللجوء والمصالح السياسية وأثرها في المجتمع واضطرابات العلاقات المملوكية العثمانية.....177
- 3, 2, 4 تعسر العلاقات الدبلوماسية والحرب الأولى بين المماليك والعثمانيين وآثارها الاجتماعية والأخلاقية 1484-1501م.....185
- 3, 4 ظهور التيار الشيعي الصفوي في الأناضول وآثاره الأخلاقية الاجتماعية في العلاقات العثمانية المملوكية 1501-1517م.....196
- الفصل الخامس: دور الأخلاق في الصراع العثماني المملوكي ونتائجه وآثاره في مجتمع الأمة الإسلامية 1516-1517م.....218
- 1, 5 أزمة الأمة ودواعي الوحدة وضم البلاد العربية تحت لواء الدولة العثمانية.....218
- 1, 1, 5 السلطان ياووز سليم وفكرة الوحدة الإسلامية «اتحاد اسلام وسياستي»...218

- 2, 1, 5 انتكاسة الأمة وأزماتها الأخلاقية والاجتماعية والاستغاثات
العربية بالعثمانيين وأثرها في زوال دولة المماليك 221
- 2, 5 العوامل الأخلاقية والاجتماعية وأثرها في الصراع المسلح بين
المماليك والعثمانيين 230
- 1, 2, 5 العوامل الأخلاقية والاجتماعية إبان واقعة مرج دابق وأثرها في
مجرى الأحداث 922 هـ / 1516 م 230
- 2, 2, 5 العوامل الأخلاقية والاجتماعية قبيل وبعد واقعة الريدانية
وأثرها في مجرى الأحداث 923 هـ / 1517 م 237
- 3, 5 العثمانيون وإنجازاتهم بعد ضم الديار العربية وآثارها الأخلاقية
والاجتماعية في الأمة الإسلامية 246
- 4, 5 قضية تحول الخلافة إلى العثمانيين وأثرها في مجتمع الأمة الإسلامية 256
- الخاتمة 265
- ثبت المصادر والمراجع 269
- السيرة الذاتية 311

دار الشريعة للثقافة والعلوم